

Bibliotheca Alexandrina
0137911


الدكتور شوقي ضيف
اقرأ
الفكاهة فى مصر

اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٥١١] - مايو - ١٩٨٥

رئيس التحرير صلاح منتصر

الدكتور شوقي ضيف

الفكاهة في مصر



دار المعارف

ر المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

من أهم ما يميز المصريين فى عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة فى أحاديثهم، فهم مشغوفون بالنكتة على كل شخص وكل شىء. وفى أحرج المواقف وأدقها لا تلبث بارقة الفكاهة أن تلمع وتتألق وترتسم على الأفواه والشفاه.

وليست هذه الروح جديدة على المصريين، فهى قديمة فيهم، ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها فى التاريخ، فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون. ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم، ويحنو عليهم واديهم فيلقى فى حجورهم بحبه وثماره، ويملكون معظم العالم القديم ويلقى بين أيديهم بثرواته وكنوزه.

وقد مضت مصر فى عصورها القديمة والوسطى وفى العصر الحديث أثناء الاحتلال الإنجليزى البغيض تعانى هذين الضربين المتناقضين فى الحياة : ضربى الشدة والرخاء ، الشدة وما يطوى فيها من عسف بعض الحاكمين وظلم المحتلين ، والرخاء وما يطوى فيه من طيبات الرزق . وطبيعى أن يجر هذا التناقض وما يحمل من تضاد شديد إلى الفكاهة والسخرية .

وهيأت لمصر أوقات الفراغ الطويلة بين فصلى الزرع والحصاد أن تأخذ الفرصة دائمًا كى تنفس عن نفسها وتغسل فى معين الفكاهة ما قد يقع عليها من عسف وظلم . وكان توسطها بين الشعوب فى رقعة العالم وخصب أرضها وكثرة خيراتها سببًا فى أن ينزل بها أجناس مختلفون ، وأن ترى فيهم بديارها غرابة فى عاداتهم وأزيائهم وحين يتكلمون بلهجاتهم ، فكان ذلك دافعًا آخر من دوافع الفكاهة .

وتحتاج الفكاهة إلى فضل من ذكاء ودقة فى الحس ورهافة فى الذوق والشعور ، وكل ذلك لا ينقص المصرى كما لا ينقصه حضور البديهة وسرعة الجواب . وهو لا يبارى فى اللعب بالألفاظ واستخراج ما فيها من معان ماكرة عن طريق التورية . واجلس فى أى مجتمع للمصريين أو فى مقهى من المقاهى وخاصة المقاهى البلدية حيث يجتمع العمال ومن لا عمل له ، فستجد الفكاهة تدور على كل لسان ، وستراهم حين يعجبهم أحد المتحدثين الفكهين يقولون إنه « ابن نكتة » دلالة على مدى إعجابهم به .

وهم يروون النكت ويتتبعونها كما يتتبعون أخبار «آخر ساعة» ومنهم من يقتصر بها على صحبه فى مجالسه الخاصة، ومنهم من يحترفها فى الحفلات العامة، وطائفة غير قليلة تحترفها فى الصحف والمجلات، حتى يقبل عليها القراء. وتسقط إلى صحافتنا بعض فكاهات غربية، ولكن من الحق أن نقول إننا فى هذا الباب نصدر- قبل كل شيء- عن ينابيع لا تنضب فى مزاجنا وجوهر طباعنا.

وكنا إلى عهد قريب لا نعنى بعرض هذا الباب الفكه فى أدبنا، لأنه كتب فى أكثره بلغتنا العامية، وكأننا انصرفنا عنه ترفعًا منا، أو استصغارًا لشأنه، مع أنه أكثر دلالة علينا وعلى نفسيتنا من كثير من الأدب الفصيح الجاد. ومن الواجب أن نقرن صفحة حياتنا الجادة بصفحة حياتنا الفكهة، حتى نطلع على حقيقة حياتنا اطلاعًا تامًّا أو كاملًا. وأنك لتجد مصر وشعبها ممثلين فى هذا الأدب الضاحك بأكثر وأقوى مما تجدهما فى الأدب الفصيح الخالى غالبًا من الضحك والهزل، لسبب بسيط، وهو أنه ينبع من صميم الشعب وينطق عن روحه ومزاجه بدون أى تصنع أو تكلف. والصحف التالية تعرض هذا الباب من أدبنا الشعبى عرضًا تاريخيًّا موجزًا. والله الهادى إلى سواء السبيل.

شوقى ضيف

الفُكَاهَة

أنواع الفكاهة

كلمة الفكاهة من الكلمات التى حار الباحثون فى وضع تعريف دقيق لها . والسبب فى ذلك كثرة الأنواع التى تتضمنها واختلافها فيما بينها ، إذ تشمل السخرية واللذع والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة و« القفش » والتورية والهزل والتصوير الساخر « الكاريكاتورى » .

والسخرية أرقى أنواع الفكاهة ، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر ، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات . ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهى حينئذ تكون تهكمًا أوتقريعًا خالصًا . وقد تستخدم فى رقة استخدامًا لاذعًا إذ يلمس صاحبها شخصًالمسا رفيقًا كأن يرى مثلًا

مؤلفًا لكتاب من كتب مدارس الروضة ملأه بالرسوم والشخوص، فيقول له: إنه كتاب كلاسيكى، يقصد أن ثياب الشخوص ليست عصرية. وعلى ذلك فاللذع والتهكم والتقريع من ألوان السخرية.

وعلى عكس ما نجد فى اللذع من رقة يكون الهجاء، إذ يعبث صاحبه بمن يهجوه عبثًا ليس فيه رقة ولا خفة، بل فيه الفظاظة والخشونة، فصاحبه لا يهمه شعور الضحية المسكينة التى يعتدى عليها، إنما يهمه أن يخنقها خنقًا وأن يبلغ من ذلك الغاية. ومن أطرف صور الهجاء «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» محافظ القاهرة لعهد صلاح الدين، فقد وضعه ابن مماتى فى هجائه وبيان مظالمه وصوَّر ذلك فى صور مضحكة.

والنادرة هى الخبر القصير أو القصة القصيرة التى تضحك، وفى العادة تكون مكتوبة، وكتب الأدب العربى والمصرى جميعًا تمتلىء بنوادر كثيرة، فيها أخبار عن المعلمين والقضاة ورجال الشرطة والبخلاء وغيرهم.

أما الدعابة فأخف ألوان الفكاهة، وهى فكاهة الأشخاص الوقورين، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسام الخفيف لا إلى الضحك العالى. والمزاح خطوة بعد الدعابة نحو الضحك أو نحو الابتسامة العريضة، وهو لا يحمل خبثًا ولا سما، وإنما يحمل المرح والشعور بالابتهاج.

والنكتة فكاهة المجالس، ولابد لها من اثنين على الأقل، إذ

ينتهز أحدهما كلمة لصاحبه فيمدها ، أو قل يمد فكرتها إلى حيث تعبر عن نقيض ما يريد ، فيحس كأنه صاحبه أو محدثه ينصب له أشراكًا ليقع فيها. وهو يعتمد فى ذلك على ما يسمى فى عاميتنا باسم «القفش» كما يعتمد على التورية فى الألفاظ. ويستمد صاحب النكتة دائمًا من سرعة البديهة وخفة الروح ، فيقصد إلى مغالطة صاحبه فى ألفاظه أو مدها كما نقول وكأنه يسرقه أو يسرق منه كلماته. ويضحك الحاضرون لهذه السرقة العلنية المكشوفة التى تقوم على المناورات اللفظية.

وإذا بالغ الشخص فى مغالطاته ، ولم يعتمد على ثان يجرى عليه هذه المغالطات ، بل استغرق هو نفسه فيها ، حتى خرج إلى لا منطقية خالصة كان ذلك هو الهزل بعينه ، إذ نرى شخصًا يتكلم ، وكأنما ألغى عقله إلغاء ، فيسوق بدهيات فى شكل معلومات خطيرة مثلاً ، أو يخلط فى كلامه تخليط النائمين أو الغافلين. ومن خير الأمثلة لذلك «كتاب نزهة النفوس ومضحك العبوس» لابن سودون الذى عاش فى عصر المماليك حيث نرى السلالم المنطقية فى كلامه تنقلب رأسًا على عقب.

وهناك ضرب من الفكاهة لا يعتمد على كلمات ولا على حروف ، وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء ، وقد شاع فى القرنين الأخيرين بأوربا ، ونقلناه عنها ، وكان لنا منه حظ فى

عصورنا القديمة، ونقصد التصوير الساخر «الكاريكاتورى» الذى يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أو فى وجهه، ويكبِّرها كأنما يريد أن ينمّى الضعف أو العيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز فرصة، مثل تقويس حاجب، أو انحناء أنف، أو تجعد جبهة، أو انتفاخ خد، أو طول ذقن، أو ضيق عين، ويكبِّر ذلك مشوِّها ومستغلاً للطبيعة والخلقة. وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، لما أظهره الرسام فيها من تنافر فى أوضاع الجسد أو الوجه.

الضحك وأسبابه

هذه الألوان والأنواع المختلفة من الفكاهة إنما ترجع طرافتها إلى أنها تسبب لنا الابتسام أو الضحك، فتغمرنا موجة من السرور، ونحس بنشوة بهيجة. وتساءل الفلاسفة كثيرًا عن علة الضحك، ولماذا كان مظهرًا للسرور والفرح، وكثرت إجاباتهم، فمن قائل إنه صنيع فسيولوجى مادى يتصل بانتقال الشعور انتقالاً مفاجئًا من الأعصاب إلى العضلات، ومن قائل إنه صنيع نفسى ينشأ من إفراغ التعب الذى يصيبنا فى الحياة، إذ يخرجنا المضحك من حياتنا الجادة المجهدة، فنشعر بالراحة ونضحك. ويزعم آخرون أنه انفجار يحدث من انتظار أو من جهد يتحول فجأة لا إلى شىء، بل إلى فراغ مطلق، وكأن النتيجة غير المنتظرة هى التى تدفعنا دفعًا إلى أن

نضحك ونغرق فى الضحك بمقدار بعدها عنا ومفارقتها للمقدمات التى تسبقها.

ولبرجسون الفيلسوف الفرنسي المشهور كتاب فى الضحك بناه على نظرية طريفة هى أننا نضحك على الأشخاص ومنهم، لما أصابهم من تحول أخرجهم عن طبيعتهم العادية المألوفة لنا، إذ نراهم قد تصلَّبوا، وخرجوا عن عقولهم، وأصبحوا كأنهم آلات، فهم لا يتصرفون تصرف الإنسان الحر المختار، وإنما يتصرفون تصرف الآلات الصلبة التى لا تملك حرية ولا اختيارًا. وهو يبدأ كتابه بأننا لا نضحك إلا على أشخاص، فنحن لا نضحك من حيوانات ولا من أشياء فى الطبيعة. وليس ذلك فحسب بل لابد أن نكون هادئين تمام الهدوء حتى نصبح صالحين للضحك، أما إذا كنا فى حالة انفعال فإننا لا نسر حينئذ ولا نضحك، إنما نسر ونضحك حين نكون فى حالة عدم اكتراث أوعدم مبالاة، وأيضًا لابد أن نتصل بآخرين لنضحك، فإذا كنا منفردين أوفى عزلة لم نتذوق الضحك، إنما نتذوقه ونغرب فيه حين نكون فى مجتمع أومع عدة أشخاص.

وأخذ يستعرض فنون الفكاهة ويطبق عليها نظريته الأساسية تطبيقًا دقيقًا لا نقرأه حتى نؤمن بصدق هذه النظرية الطريفة وأننا إنما نضحك من الناس وعليهم حين نراهم أمامنا، وقد فارقوا سلوكنا فى الحياة الذى يدل على اختيارنا وإرادتنا وتصرفوا تصرف الآلات، فلم يعد لهم منطقنا، إنما أصبح لهم منطق الآلة، أو قل

أصبحوا كأنهم لعب تحرَّك بأسلاك سواء فى أوضاع الجسم وحركاته أو فى أوضاع الكلمات ومدلولاتها، وارتباطها فيما بينها. والمجتمع يضحك من هذه اللعب لخروجها على منطقه، فضحكه قصاص عادل لها، لأنها شذت عليه، وتصرفت فى القول أو فى الوضع تصرفًا لا يألفه، فهو يؤدِّبها بضحكه منها. فالضحك عقاب وقصاص وتأديب، ينتقم به المجتمع ممن يتطاولون على منطقه ومعقوله.

وأياما كان السبب فى الضحك، فالناس يضحكون دون أن يعرفوا لماذا يضحكون، وهو ضحك يريح أعصابهم ويشرح صدورهم، ويقوِّم أخلاقهم، ويشعرهم بشىء من الصلة فيما بينهم، ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعهم، ويربى فيهم ملكة النقد، ويوقظ فيهم التنبه إلى أخطائهم وأغلاطهم.

وهم يضحكون من كل ما يحسون فيه مخالفة للمألوف، يضحكون من الممثل الهزلى وإشاراته وحركاته، ويضحكون من الصور الساخرة «الكاريكاتورية» ويضحكون من المغفل والجاهل والبخيل والجبان، ويضحكون ممن يقلدون أصوات الحيوانات وممن يحاكون القردة والنسانيس، ويضحكون من المفارقات ومن الهزل الذى يؤدى إلى فوضى الكلام وكأن العقل قد نُوِّم، ويضحكون من الهجاء والسباب والشتم، ويضحكون من النوادر والنكت والمزاح. ثم هم يضحكون ضحك ازدراء أو ضحك إعجاب أو ضحك سخرية أو ضحك هزل أو ضحك انتصار أو ضحك عطف. فصور الضحك

أو قل صور الفكاهة ومنابعها كثيرة.

والأمم تختلف فى إنتاجها وقدرتها على تذوق ضروبها المختلفة. والمصريون من أكثر الأمم ميلاً إلى الفكاهة، ومن هنا كان أدبهم غنيًا بألوانها، وخاصة ما اتصل بالنكت وخفة الروح.

فى مصر القديمة

تأصل الفكاهة فى مصر

من المعروف أن ما عثر عليه الباحثون من أدبنا الفرعونى القديم لا يعدو رسومًا وأجزاء مبتورة منه، وحتى ما وجد كاملًا من قصص وغير قصص إنما وجد فى قبورهم، وكانوا يذهبون به فى الغالب نحو تمجيد الآلهة.

وليس من شك فى أن هذا يحول بيننا وبين الاطلاع الدقيق على فكاهات القوم، ومع ذلك فأغانيهم ورسومهم وصورهم تدل على أنهم عاشوا فى عصورهم معيشة بهيجة. وإذا كنا قد فقدنا نكتهم ونوادرهم فإن الرسوم التى خلفوها تفيض بروح الفكاهة. وفى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» الذى نشرته مكتبة النهضة المصرية مترجمًا عن الألمانية عشرات الرسوم والصور

المتلاحقة التى تنبىء عن هذا الطابع المتغلغل فى نفسية المصريين.

فمن ذلك صورة هزلية لسيدة تتزين، وقد أمسكت المرآة بيدها اليسرى، وفى نفس اليد «الحق» الخاص بصبغ الشفاه الأحمر، وفى اليد الأخرى ريشة تطلى بها شفتيها، وكل ذلك فى وضع مضحك. وفى صفحة أخرى صورة فكهة لشخص أصلع، أرسل ذقنه ومد كفيه مدافعًا عن نفسه، كأنه يمنع من يريد أن يحلق ذقنه أو يصلحها.

ونرى صورة مضحكة لذئب يرعى ماعزًا والمصور يشير بذلك إلى ما يطابق المثل المعروف بين عوامنا إذ يقولون: «حاميها حراميها» حين يشترك خفير البيت فى سرقته مثلاً. ومن هذا اللون صورة لمعركة بين القطط والإوز. ومن رسومهم الفكهة رسم نرى فيه جيشًا من الجرذان يحاصر قلعة للقطط وتقدمت فرقة فدائية، فمدت على القلعة سلمًا واعتلاه فدائى كبير!. وهناك صورة تمثل مباراة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال، والغزال يأمر الأسد بأن «يكش الملك» والأسد مكشر عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه.

ومن الصور التى لا نكاد نراها حتى نبتسم صورة أمير وأميرة بونت، وهما وافدان على فرعون لتقديم فروض الطاعة، وفيها نرى الأميرة قد تضخم نصفها الأسفل وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلها مثيرًا للسخرية والضحك.

وما تزال خاصة الضحك على الغرباء منتشرة بين المصريين إلى اليوم، فهم يضحكون ويتندرون على لهجة الرومى والتركى

وغيرهما. ولابد أنهم ضحكوا كثيرًا فى زمنهم القديم من أقزام الزنوج، وكانوا يعهدون إليهم بخدمتهم، ويتخذونهم للهو واللعب، وقد وجد المنقبون فى بعض المقابر طائفة من الأقزام وبجانبهم أحدب. وأكبر الظن أنهم جميعًا كانوا مستخدمين للتهريج عند صاحب المقبرة، أو أنه كان يتخذهم ندماء للترفيه عنه والتسلية أو بعبارة أخرى أدوات فكاهة وهزل.

التلاعب بالألفاظ

وكل هذه الصور والرسوم تعبير قوى ناطق عن روح المرح والفكاهة التى تأصلت فى نفوس الشعب المصرى من أقدم الأزمان. وليس بين أيدينا ما يفسر مدى استخدام المصريين القدماء للنكتة ولكن يظهر أنهم كانوا يتوسعون فى استخدامها على نحو ما توسع فيها أبناؤهم فى العصور الإسلامية المختلفة وفى عصرنا الحديث. ففى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» أنه كان للمصريين ولع خاص بالتلاعب بالألفاظ، وبين تراثهم ومن مخلفاتهم نشيد فى مركبة لفرعون أُلِّف على أساس التلاعب بالألفاظ، إذ يحصى مؤلفه أجزاء المركبة ويسميها، وفى كل مرة يذكر فيها اسم الجزء الخاص من أجزائها يعود فيذكره مرة ثانية بمعنى آخر يصف به قوة فرعون. فالكلمة ذات معنيين ويستغلها صاحب النشيد دائمًا فى صنع نشيده متلاعبًا بهما.

وهذا التلاعب منبع النكتة التى تجرى فى الحديث، إذ تصبح الكلمة معدة بذاتها ليبرز فيها ذهول اللغة الذى يشبه ذهول أصحاب الغفلة، ففيها شحنتان مختلفتان، والمتحدث اللبق يستغل الشحنتين، فيورى بواحدة منها عن الأخرى، وبذلك يظهر ما فيها من قوة هزلية تضحكنا.

ومعنى ذلك أن الشعب المصرى وضع يده من أقدم الأزمنة على هذه المفاتيح اللغوية وما يطوى فيها من تلاعب، ولا نشك فى أنه استغلها للتفكه والضحك، لأنها بطبيعتها ترشد إلى هذا الاستغلال وأيضا فانه كان معدا من حيث مزاجه المرح لاستنفاد كل وسيلة فى هذا الجانب.

ولعل من الطريف أن نذكر هنا ما رواه بعض من اكتشفوا مقبرة حورمحب، إذ ذكر أنهم وجدوا غرفة منحوتة فى الصخر، وقد دفن فيها كلب حور محب وقرده الأثيران عنده، وكانت دهشتهم كبيرة حين رأوهما، فقد وجدوهما متقابلين وأنفاهما متماسّان فى وضع مضحك، ومضت آلاف السنين قبل أن تقع عين أحد من الناس على هذه الفكاهة.

السخرية من الغزاة

وبهذه الشاكلة كانت مصر الفرعونية تضحك، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها ذهبت تنفس عن

عذابها وآلامها وكآبتها بفكاهات مرة مليئة بسموم اللذع والتهكم والسخرية.

وطبيعي أن يسخروا ويتهكموا بالفرس لأنهم كانوا غزاة ظالمين، أما البطالسة فعلى الرغم من أنهم توددوا إليهم وبذلوا كل ما استطاعوا ليكسبوا عطفهم، وينالوا حبهم، فإننا نراهم، وخاصة أهل الإسكندرية، لا يتركون فرصة تمر بهم دون أن يصيبوهم بسهام تهكماتهم. وقد نبزوا كلا منهم بلقب ميزوه به، فلقبوا بطليموس الأول بلقب الزمار، أما بطليموس الثانى فقد أصابوه بغير سهم من فكاهاتهم، وانتهزوا فرصة زواجه من أخته، وسلطوا عليه أقذع الكلمات.

ونرى ثيوكريتوس الشاعر اليونانى الذى عاش فى الإسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد يشير إلى هذه النزعة فى المصريين، وما يطوى فيها من الفكاهة، بل من السخرية المؤلمة بقوله: «إنهم شعب ماكر، لاذع القول، روحه مرحة».

ونمضى إلى عصر الرومان فنجد الرومان يقسون عليهم فى حكمهم، وسرعان ما يسلطون عليهم سهام سخريتهم، وقد كادوا لايتركون قيصراً زار مصر من قياصرتهم دون أن يقدموا له هذه الفاكهة أو الفكاهة المسمومة، وكانوا أحياناً لا ينتظرون حتى يفد عليهم القيصر الذى يريدون قذفه بهذه الحجارة المدمية، فيصوبونها إليه من بعيد.

وكم من قيصر سلطوا عليه صوائب سهامهم ، فمن ذلك أنهم نبزوا القيصر فسبسيان بلقب تاجر السردين ، وقالوا إنه لا يساوى ستة مليمات ، ولقبوا قيصراً آخر بلقب النسناس المدلل الصغير .

وكانت هذه السخرية الخبيثة تكلفهم أحياناً ثمناً غالياً ، فقد كان القياصرة يغتاظون غيظاً شديداً ،فيقسون عليهم فى حكمهم . ومع ذلك لم ينتهوا عن هجائهم ، بل ظلوا يقاومونهم ويسخرون بهم ، وكأن مزاجهم الفكه الساخر كان يضطرهم ويلزمهم دائما بهذا الدفاع الساخر .

فى العُصُور الإسلاميّة الأولى

شعراء فكهون

يُرْفَعُ كابوس الرومان عن صدر مصر ، وتضئ فيها تباشير فجر جديد، هو فجر الإسلام، وتصبح ولاية عربية ، وتظل معها أدوات فكاهتها وسخريتها . ولا تكاد تثبت شخصيتها وتستقل عن الخلافة لعهد ابن طولون حتى نجد لها شاعراً فكها مشهورا كان ينبز بالجمل الأكبر، وكان لعبة للأمراء يمدحهم وينادمهم متظرفا متملحا، يَرْوى لهم النوادر والنكت التى تطرفهم، وهذه أحدى نوادره، قال: «كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى، تعاهدوا فيما بينهم، لكسلهم، أنه إذا سقط فى أفواههم شيء أكلوه، وإلا فلا، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم، فقال له الذى يليه: ضعها فى فمي، فأجابه: لو استطعت أن أضعها فى فمك لوضعتها فى فمي».

وبمثل هذه النادرة كان الجمل الأكبر يخف على ابن طولون وغيره، وخلفه على هذه الوظيفة من المنادمة والمفاكهة شاعر آخر لعصر الأخشيد فلقبوه بالجمل الأصغر، وكان مثل صاحبه خفيف الروح له قدرة بارعة على التسلية والترفيه. وكان بجانبه شاعر آخر يسمى سعيدًا، وكان نديمًا للأخشيد وكان يؤثره لما فيه من الحلاوة والهزل، وكان يلقب بقاضى البقر هزءًا ودعابة له.

سيبويه المصرى

لعل مصر لم تعرف فى عصورها الإسلامية الأولى فكها ساخرا على نحو ما عرفت فى شخص يسمى سيبويه المصرى رافق الدولة الإخشيدية، وكان يظهر التباله والحمق والجنون، ويضع كل ذلك مسرحا ينفذ منه إلى نقد هذه الدولة الأجنبية ونقد موظفيها المختلفين، نقدا فيه مرارة وخبث، وفيه تنفيس عما قد يقع على الناس من ظلم فى هذه العهود الإقطاعية الجائرة.

ولم يكن أحد فى عصره إلا ويخشى معرة لسانه، وكان يقف فى الأسواق يصيح بسببه وهجائه والناس يجتمعون ويضحكون. ولم يكن يسب ويهجو بلفظ قبيح، إنما كان ينهر ويزجر، مستخدما آية قرآنية أو حديثا أو سجعا يولده لوقته.

ويسوق ذلك بشىء من التخليط، فيُضْحك، إذ يصبح مظهرا للشعوذة وتشويش الفكر، ويقول السذج مجنون، ويقول العقلاء

بل جرىء لا يموِّه ولا يمخرق، يواجه الحق ويذيعه دون تدليس أو تزييف.

وطبيعى أنه لم يكن يقصد إلى الإضحاك، فهو مؤمن بما يقول فى الإخشيد وغيره، وهو جاد كل الجد. ومن هنا يكون الضحك، لأنه يخالف مألوف الناس، إذ يرونه يعمد إلى سب أميرهم ورؤسائهم فيتجمعون حوله يشاهدونه، وكأنهم أمام مسرح هزلى. فمن ذلك أنه كان يطوف على حماره يوم جمعة، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الإخشيد أثناء مروره إلى الصلاة فتوسط الجموع وصاح: «ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وتغلى لهم قلوب واجفة؟» فقال له رجل: «هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة»، فقال: «هذا الأصلع البَطين، المسمَّن البدين، قطع الله منه الوَتين، ولا سلك به ذات اليمين! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قَبِل الله له صلاة، ولا قبل له زكاة، وعَمر بجثته الفلاة».

ولا ريب فى أن هذا الهجوم على الإخشيد كان يحدث تنفيسا عن الحرج فى نفوس سامعيه، فيضحكون ويغرقون فى الضحك. وكان يتخذ ذلك دائما منحدرا له إلى هجائه اللاذع. ومن الطريف أنه كان يورد هجاءه على الناس وهو واقف معهم يعظهم، إذ كان فقيها صالحا، فمن ذلك أنه بغتهم مرة أثناء وعظه، فقال: «حصلت الدنيا

على أقطع وأقرع وأرقع » ، يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمى صاحب بغداد ، وبالأقرع سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب ، وبالأرقع كافورا ، وكانت قد صارت إليه شئون مصر . وكان يسميه فى مواعظه الخصيَّ لا يبالى .

وهذا كله هجاء سياسي لاذع كان يعتمد فيه سيبويه المصرى على مجاميع من الأخطاء فى الكلام ينفث فيها سمومه ، ويسمع الناس من حوله هذا الهجاء ، فيقولون مجنون يهذى ، وهم يفحصون الأرض بأقدامهم ضحكا وسخرية بمن يعرض لهم . وارتفع نجمه لهذا الهجاء ، وجالس أونوجور بن الأخشيد ونادمه كما جالس الماذرائى الوزير ونادمه . ولم يترك فى عصره موظفا كبيرا ولا قاضيا إلا تعرض له ، وكانوا جميعا يرهبونه ، ويرسلون إليه بالهبات والهدايا حتى يفدوا أنفسهم منه ، ويفلتوا من لسانه . ومما روى الرواة من شعره قوله :

ما ليلةُ المشتاق بـا عدت النَّوى عنه أنيسه
أو ليلة الملدوغ حا ذر ميتةَ النفسِ النفيسه
بأمدَّ من ليل الظريـ ـف إذا تجوَّع للهريسه

وفى هذه الأبيات ما يدل على ظرفه ، فهو كان ظريفا من ناحية ، ولذلك نادمه أونوجور وغيره ، وكان من ناحية أخرى هجاء مصميا ، يرمى بالكلام ، وكأنه يرمى بالسهام .

فى العَصرِ الفَاطِمىّ

الفكاهة السياسية

لا نصل إلى العصر الفاطمى حتى تتسع روح الفكاهة فى شعر الشعراء، إذ أخذوا يرصدون بها كثيرا من الحوادث السياسية. وقد كثر القول بين الناس عن الفاطميين ونسبهم وهل ينسبون حقا إلى فاطمة الزهراء أو لا ينسبون، ونجد شاعرا ساخرا يتسرب من خلال هذا الشك إلى تأليف مقطوعة، بلغت به جرأته أن رمى بها على منبر المسجد الجامع يوم الجمعة. فلما صعد العزيز ثانى خلفائهم تناولها، فإذا فيها:

إنا سمعنا نسبا منكرا   يُتْلَى على المنبر فى الجامعِ
إن كنت فيها تدَّعى صادقا   فاذكرْ أبا بعد الأب الرابعِ
أو فدَعِ الأنساب مستورةً   وادخلْ بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشمٍ   يقصُر عنها طمَعُ الطامع

وهذا تهكم شديد، إذ يطلب إلى العزيز وأهله أن يدخلوا فى دوائر النسب الواسع إلى آدم ويتركوا دائرة النسب الضيق إلى بنى هاشم. وكان المصريون يتندرون بمثل هذا الشعر. وتقدم شاعر ثان فألقى على المنبر فى يوم آخر من أيام الجمعة رقعة كتب فيها:

بالظلم والجَوْر قد رضينا وليس بالكفر والحماقهْ
ان كنت أُعْطيت علم غيبٍ فقل لنا كاتب البِطاقهْ

ولعله كان يسخر بذلك من الخليفة الحاكم وترهاته وما كان يدعيه من علم الغيب بل من الألوهية، إذ كانت له شيعة تقول هو ربهم الأعلى!. ولم تقتصر هذه السخرية السياسية على نسب الفاطميين وسلوكهم، بل اتصلت أيضا بإدارتهم وما كان من توظيفهم لليهود فى المناصب الكبرى، فقد احتج المصريون على ذلك بصور لاذعة، فمن ذلك قول بعضهم:

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ومنهم المستشارُ والملك

ومازال المصريون يعنِّفون الفاطميين بمثل هذه القطعة حتى أبعدوا اليهود عن أعمال الدولة ودواوينها وكشفوا غُمَّتهم عن صدرها.

الفكاهة الاجتماعية

وهذه الفكاهة السياسية كان يرافقها فكاهة اجتماعية واسعة، وقد كثرت حينئذ مجالس الأدب وكثرت المطارحات والنوادر، وكثر من يحاولون أن يضيفوا إلى طنبور الضحك نغمة بل نغمات، وكان من آثار ذلك أن اتسع النبز بالألقاب، فنجد شاعرا ينبز بالجهجهان وثانيا يلقب بشَلَعْلع، وثالثا بالكاسات، ورابعا بالوضيع، وخامسا بالنسناس، وسادسا بابن مكنسة، وكان ماجنا، يظهر الفقر والتصعلك، وله يصف قبح منزله وضيقه وقذارته وأن الشمس لا تدخله:

لىَ بيتٌ كأنه بيت شعرٍ　　لابن حجاج من قصيدٍ سخيفِ
أينٍ للعنكبوت بيتٌ ضعيفٌ　　مثله، وهو مثلُ عقلى الضعيف
بقعةٌ صدَّ مطلعُ الشمس عنها　　فأنا مذ سكنتها فى الكسوف

وفى كلمة الكسوف تورية واضحة إذ أراد بها الخجل لا كسوف الشمس المعروف. وأراد مرة أن يصور كبر سنه وما أصابه من رجفة الشيخوخة، فألف هذا البيت وهو من قطعة فكهة طويلة:

قـد كَبِرْ بِـرْ بِـبِرْ بِـبِرْ　　تُ وعـقـلى إلى وَرا

وواضح أنه ارتعش أثناء نطقه لكلمة كبرت، فألف من رعشته الشطر الأول دالا على ما أصابه من ضعف وشيخوخة.

وربما كان ابن قادوس الدمياطى كاتب الإنشاء فى أواخر العصر الفاطمى أهم شاعر فكه عرفته مصر الفاطمية ، فقد روت له كتب الأدب طرائف كثيرة من فكاهاته ، وهى فكاهات فيها لذع وتهكم ، فمن ذلك تهكمه بشاعر أسود وكان صديقا له ، ومما قال فيه :

إن قلتَ من نارٍ خُلقـ ـتَ وفُقْتَ كل الناس فهما
قلنـا صدقتَ فـما الـذى أطفاك حتى صرت فَحْـما

وقال فيه أيضا :

ذو عارضٍ كالغراب لونًا وشاربٍ مثل ريشِ بَبْغَا

وكان ابن قادوس ماهرا فى استخدام مثل هذه التهكمات ، وما يتصل بها من سخرية . وكان يتحول أحيانا هاجيا هجاء مرا فلا يستحى ولا يخجل . ومن نظيف هجائه :

وليس كلاما ما يقول وإنما يجيب الصَّدَا من رأسه من فراغهِ

وهذا إقذاع فى الهجاء ، كان لا يقوله حتى يدور على كل لسان فى عصره ، لما يحسن فيه من تسديد السهم إلى ضحيته ، وله فى وصف بعض المنافقين فى زمنه :

حــولــه اليــوم أنــاسٌ كـلهم يُــزْهَـى بِـرَائِــهْ
وهْــو مثـل المــاء فيهم لــونــه لــون إنــائــه

وكأنه أراد أن يسلط على هذا المنافق نورا يفضحه، فلا يعود إلى نفاقه أبدًا.

دعابات وتوريات

فى كل جانب من جوانب الشعر لهذا العصر نجد صورا من هذه الفكاهات الساخرة، كما نجد صورا من الفكاهات الخفيفة التى لا يراد بها إلى أكثر من الدعابة والمزاح، كقول شاعر يسمى الجليس بن الحباب يشكو طبيبا تعهده وهو محموم ولم يشفه دواؤه، فقال متندرا عليه:

طبيبٌ طِبُّـه كغرابِ بَـيْنٍ يفرِّق بين عـافيتى وبينى
أتى الحمَّى وقد شاخت وباختْ فردَّ لها الشبابَ بنسختين
ودبَّـرهـا بتـدبـيرٍ لـطيف حكاه عن سِنانٍ أو حُنَيْن
وكانت نوبةً فى كل يومٍ فصيَّـرها بحـذقٍ نـوبتـين

وهو يشير بالنسختين إلى وصفته أو دوائه وأنه كان ورقتين يتعاطى ما فيهما. وعرض لادعائه وما يزعمه من أنه تلقن تدبير دوائه عن شيخين من شيوخ الطب فى العصر العباسى هما سنان بن ثابت وحنين بن إسحق. وكانت الحمى تزوره مرة كل يوم

فأصبحت تزوره بدوائه مرتين . وكل ذلك يمزح به الشاعر فى خفة وبدون ألم أو إيذاء .

وأكثر الشعراء فى هذا العصر من لعبة التورية ، على نحو ما مر بنا عند ابن مكنسة ، ويقول شاعر آخر من الشعراء لهذا العهد فى زمار :

وزامرٍ يكذب فيه عائبُـهْ تكثر من صنعته عجـائبُهْ
يحجب صَبْرَ المرء عنه حاجبُه فيشكر الشاربَ منه شاربُه
كأنما ناياتهُ ذوائبُهْ

وواضح أنه ورَّى فى حاجب وشارب وذوائب . وأشرنا من قبل إلى أن المصريين القدماء عرفوا هذه اللعبة من لعب الفكاهة . ولعل ذلك يفسر لنا كيف أن مصر هى التى سبقت بلاد العالم العربى إلى إذاعتها فى الأدب شعره ونثره ، وظل لها فيها طابع الخفة والرشاقة ، فقد مرنت على إتقانها من قديم الأزمنة . وكأنما لقن الآباء أبناءهم فى لغة الضاد هذا الحس الدقيق الذى يعرف كيف يستغل المعنيين المختلفين لكلمة واحدة ، ويبرز ذلك فى شكل يصيب السامع بشىء من الذهول ، فيضحك ، لترقبه شيئا حدث عكسه .

فى العصر الأيوبى

الروح الفكاهية

ظلت للمصريين فى هذا العصر روحهم الفكاهية على الرغم مما كان فيه من حروب صليبية، فهى النبع الذى لا يجف فى أنفسهم، مهما شغلوا بحروب وأحداث. وقد ذهبوا يوغلون فى لعبة التورية الخفيفة، ومن أشهر من عنوا بها القاضى الفاضل وزير صلاح الدين، وكاتبه ابن سناء الملك، غير أن أكثر ما صنعاه يغلب عليه الجانب التعليمى، ولذلك كانت تورياتهما لا تثير فينا الضحك إلا نادرا. ولا شك فى أن البهاء زهيرا الذى جاء من بعدهما كان أحلى منهما روحا وأخف دما، وقد كان يكثر فى شعره من التظرف والمزاح والدعابة، ولعل ذلك أحد الأسباب فى كثرة الأساليب الدارجة عنده على نحو ما نرى فى قوله:

أرِحنى منك حتى لا ... أرى منظرك الوَعْرَا
فقد صرت أرى بُعْدَ ... ك عنى الراحةَ الكبرى
فما تنفع فى الدنيا ... ولا تنفع فى الأخرى

فكلمة «بعدك راحة» و «لا تنفع» من الكلمات التى تدور على ألسنة المصريين. ومن مقطوعاته الفكهة هذا المزاح مع صديق له على بغلته:

لك يا صديقى بغلةٌ ... ليست تساوى خَرْدلَهْ
تمشى فتحسبها العيو ... نُ على الطريق مشكَّله
وتخال مدبرةً إذا ... ما أقبلتْ مستعجلَهْ
مقدارُ خطوتها الطويـ ... ـلة - حين تسرع - أنمله
تهتز وهْىَ مكانها ... فكأنما هى زلزله

فالمصريون لم ينسوا طبعهم أثناء الحروب الصليبية، بل لقد خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهورة هى:

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة، بالمعنى الدقيق للفكاهة، فى تاريخ مصر الإسلامية. ألفه الأسعد بن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين. كان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى

القاهرة فى عهد الفاطميين فقرَّبوهم وفوَّضوا إليهم كثيرا من شئونهم وأعمالهم. فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قِبَل نور الدين صاحب الشام، وأصبح إليهما أمر مصر، وجدنا هذه الأسرة تدخل فى الإسلام، ورعاها صلاح الدين، فجعل رئيسها الخطير بن مماتى قيِّما على ديوان الجيش، فلما توفى خلفه ابنه الأسعد فى عمله، ثم أُسندت إليه الشئون المالية، فأحسن تدبيرها وتصريفها.

واشتهر الأسعد بن مماتى فى عصره بسرعة البديهة واللذع فى النادرة، وقد تعلق بشخصية عاصرته، هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه. وكان فيه على ما يظهر شىء من الشدة والقسوة. وكان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها فى حروبه الصليبية، وهو الذى قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين. وقد وضع عليه ابن مماتى الحكايات المضحكة التى تصور حمقه فى أحكامه وغفلته وبلاهته، ونسَّق هذه الحكايات فى كتاب سماه «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» ونراه يستهله بقوله: «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكما

ا أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

ويزعم بعض المستشرقين، وهو الأستاذ كازانوفا الذى عنى بنشر الكتاب وبحثه إلى أن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض السخرية فقط من ظلم قراقوش بل ألفه أيضا سخطا على دولته الأيوبية وهو زعم مخطئ إذ كان ابن مماتى من رجال الدولة وموظفيها الكبار، مما يؤكد أنه لم يرد إعلان السخط على الدولة الأيوبية، وكل ما يمكن أن يقال أنه ربما أراد أن يسخر ممن تستخدمهم تلك الدولة من الأجانب أحيانا في حكم مصر، وكان قراقوش تركيا. وفى رأينا أنه ظلمه ظلما بينا بوضعه عليه هذه النوادر الساخرة من حكمه بدليل ثقة صلاح الدين الأيوبى فى نيابته عنه بمصر واعتماده عليه فى تدبير شئونها، ولولا وثوقه بكفايته ما فوّضها إليه. وفيما يلى بعض تلك النوادر المفتراة على قراقوش.

من نوادر الكتاب

أول ما نلقاة فى الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها، فعجب أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء، فرد شكواها عليها، مدعيا أنها ليست السيدة، بل هى الجارية، والجارية هى السيدة، وهمّ بحبسها

لولا أن تدخلت الجارية فعمت عن سيدتها.

وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب: فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا «أجرودا» كان ما يزال يعبث بذحينيهما، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما المتهم، فلم يجد له لحية. حينئذ قلب الوضع فى القضية، إذ ظن أنهما هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته، فصاح فى غلمانه: «ودوهما (خذوهما) إلى السجن، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل». وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن ونصور!

ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوما بأحد غلمانه، وقد قتل نفسا محرمة بغير حق، فقال: «اشنقوه» فقيل له: أنه حدَّادك الذى يَنْعَلُ لك الفرس، فإن شنقته انقطعت منه، ولم تعد تجد من ينعل لك فرسك، فنظر أمام بابه، فرأى رجلا قفَّاصا، فقال: اشنقوا القفاص وسيِّبوا (اتركوا) الحداد. وبذلك أنقذ الموقف فى ظنه!.

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هوالمنطق الذى ألفناه، فإن قراقوش يتصرف فى القضايا بحمق غريب، وهو حمق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا. حمق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ما يذهل ويحير، وفيه ظلم صارخ بل ظلم مضحك. وهل يريد ابن مماتى غير ذلك؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش فى صور مضحكة تضحكنا من حكوماته فى الناس

وما تتضمن من غباء ونزق وما تخفى فى باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتى تجسيما. وإننا نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص فقط، وإنما أيضا للتباين بين المقدمات والنتائج، فسيدة تدخل عنده تشكو له خادمتها، فإذا هما تخرجان فى حالة شاذة، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة، والخادمة أصبحت سيدة. وكذلك الشأن فى الرجل «الأجرود» فقد دخل بدون لحية، وخرج ولا بد له من لحية، ألا أنها نتفت، أو قل: دخل جانيا وخرج مجنيا عليه. وفى النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ من جنايته، والبرىء يؤخذ بفعلته. وكأننا لسنا بازاء دار من دور الحكم والقضاء، وإنما نحن بإزاء ملعب هزلى، نرى عليه رجلا يأخذ سمت الحاكمين، ويصطنع شاراتهم، ولكنه لا يكاد يبدأ النظر فى القضايا والحديث مع الخصوم: المدعين والمتهمين، حتى يشوّش عليه الأمر، فإذا هو يحكم دائما حكومة مهوسة، وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع فى قضاياه قلبا يزرى بالعقول، لأنه يلغيها إلغاء، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم، ويردنا إلى فكر مضطرب معوج لا نظام له، فكله اضطراب وفوضى.

ونستمر فى قراءة كتاب الفاشوش، فإذا ابن مماتى يقص أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيىء له حساب القمح والشعير والفول والحمص، وصدع القاضى بأمره، إلا أنه وضع الحساب كله فى صحيفة واحدة، فاختلط الأمر على قراقوش، وظن أن القاضى

خلط هذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها فى صحيفة واحدة ، وأمر بحبسه . وتنبه القاضى للمسألة ، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف فى صحيفة على حدة . حينئذ سُرَّ قراقوش ، وعفا عنه قائلا : « لقد تعبت يافقيه ! نقَّيت هذا من هذا وذا من ذا ، زفّوه فى المدينة » . أرأيت إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش ، إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بصحيفة أنه نَحَّى الأصناف بعضها عن بعض ، بعد أن خلطها بعضها ببعض .

وينقلنا ابن مماتى من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر أياما ، فنظر قراقوش ، فرأى جمال السقايين وهى تسير فى شوارع القاهرة عشرين عشرين ، فقال يا غلمان ! نادوا فى المدينة : « قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملى (يحمل ماء) أحد من البحر إلا جملا واحدا » ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل ، فقال : ياهؤلاء كيف رأيتم رأيى عليكم ؟ ما هو إلا رأى مبارك . وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل ، فتمنع الفيضان ! وأيضا فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة ، ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة ، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له ، ولكنه قراقوش مُثْلة عصره والعصور التالية فى الغفلة والغباء .

وعلى هذه الشاكلة شهَّر ابن مماتى بقراقوش وحكوماته فى

الناس ، وهو لم يبلغ ذلك ، ولم يصنعه ، بالشعر ، وكان شاعرا ممتازا ، وإنما بلغه وصنعه بهذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التي كانت تدور بين قراقوش ومن حكم بينهم من الناس ، حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة . وهى فعلا قد شاعت ، فإن المصريين فى مدنهم وريفهم كلما نزل بهم حاكم ظالم قالو « دا ولا حكم قراقوش » . والمعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التى حملها ابن مماتى على قراقوش أصل من حكوماته أو أحكامه .

ووفق ابن مماتى توفيقا منقطع النظير حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الساخر ، وهو عرض ربما أراد به – كما أسلفنا – أن يشوه من تصطنعهم الدولة الأيوبية من الاجانب فى أعمالها وشئونها ، ونراه يستمر فيروى تلك النادرة ، وهى أن شيخا وصبيا احتكما إلى قراقوش فى دار ، كل منهما يدعى أنها له ، فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبى : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه أو إلى صوابه ، فتراءى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الكبير . حينئذ قال للصبى : ياصبى ادفع له داره ، وإذا صرت فى عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !

وعلى هذا النسق ما يزال ابن مماتى يصور قراقوش فى هذه

الصور الهزلية التى كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمرا فيه لهو وتسلية. والغريب أن ابن مماتى حين تصدى لقراقوش فى هذه النوادر لم يترك منه جانبا إلا شوهه ومسخه حتى معرفته الدينية، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش: «يامقرىء! لقد قرأت قراءة طيبة». فقد ظنه يتلو قرآنا، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر. وليس ذلك كل مايريده ابن مماتى به، فإنه يريد شيئا وراء ذلك. يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحا مما يقال فيه ذما.

وواضح من كل ما سبق أن ابن مماتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية هزلية. وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى، إذ نسبت إليها كثيرا من القصص المضحكة، بل إننا نجد كتبا جديدة تروى نوادر قراقوش، فقد ألف السيوطى فى أواخر عصر المماليك كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتى، ولكنه يختلف عنه فى كثير من نوادره، مما يدل على أنه من صنعه، أو على الاقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتى، وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية رمزية، لكل حاكم أجنبى لمصر، فكان المصريون طوال الحكم التركى فى عصر المماليك وبعده يقصون نوادره، ويضيفون إليها نوادر جديدة.

من النوادر في رواية السيوطى

ومن النوادر التى ذكرها السيوطى أن عملة (نقودا) سُرقت فى زمنه، فقال لأصحاب العملة: «الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له نعم، فقال: اذهبوا ائتونى به، ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه، فقال: مدوه (يريد أن يضربوه) فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل، فقال: افعلوا ما آمركم به، فمدوه وضربوه. ونزل قراقوش، ووضع أذنه بجانبه، وجعل يوشوشه، فلما فرغ قال: اجمعوا لى باقى أهل الحارة. فلما حضروا قال لهم: الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة، وكان سارق العملة واقفا بجملة الناس، فتوهم، ورفع يده إلى رأسه، فرآه قراقوش، فأمر به، وقرره بالضرب، وأحضر العملة ودفعها إلى أصحابها». وما من ريب فى أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا فى عصره.

ويحكى السيوطى أيضا أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما، فزاد عليه الدين، وما مات والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده حَيًّا، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه، وكفنوه ووضعوه فى النعش، وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته بذاكرين يصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه (فى المسجد) اتفق أن قراقوش كان مارا، فنزل وصلى عليه، فلما سمع الميت بذلك قال: الحمد لله جاءنى

الفرج ، فجلس فى التابوت ، وقال : ياMولانا السلطان ! خلِّص حقى لى من ولدى ، فإنه يريد دفني بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب عليَّ يامولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء يشهدون بذلك ، فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا : نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت ، وقال : أنا جُننت ! أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم . فحملوه ودفنوه حَـيًّا ، فى ذمة قراقوش » .

ولاشك فى أن هذا نموذج هزلى ويحكى السيوطى أيضا من نوادره أنه طار له بازى ، فقال « اقفلوا باب النصر (زويلة) فإن البازى لا يجد له موضعا يطير منه » .

وكأن الغفلة تشخصت أو قل تجسمت فأصبحت هذا الشكل الإنسانى لهذا الحاكم المسمى قراقوش . وهو شكل إنسان فى الظاهر ، أما فى الباطن فهو شيء معوج ، وكأنه لعبة تحرك بأسلاك الغباء والغفلة واللامنطق ، فليس له منطق معقول ولا مفهوم .

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية مثالية لكل حاكم أجنبى فى مصر ، ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت النوادر التى تُعْزَى إليه . وهناك كتاب ألف عنه فى عصر متأخر ، وهو

نهب مذهب الكتابين السابقين ، ويسمى « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » .

والحق أن ابن مماتى نجح نجاحا كبيرا فى تصوير شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها فى هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره . وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز» التركية التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش وإن كان هناك من يذهب إلى أنها مكونة من لفظتين تركيتين هما قره » أى أسود و « جوز» أى عين ، فيكون معناها « العين السوداء » يقولون لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة على الناس كانوا من الغجر الجوالين . وقد دخلت الكلمة إلى مصر ثانية باسم «أراجوز» . ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على مدى توفيق ابن مماتى فى التشنيع على قراقوش والتندر عليه .

فى العصر المملوكى

السخرية من الحكام الترك

لعل هذه الروح المصرية الفكهة لم تتسع فى عصر كما اتسعت فى عصر المماليك ، إذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية ، وخَلد المضريون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب ، وتفجرت ينابيع الفكاهة فى أنفسهم .

وإن من يتصفح آثار الشعراء لهذا العصر لا يلبث أن يغرق فى الضحك لكثرة مادأبوا عليه من مزاح ومداعبات ، ففى كل مكان وفى كل ناد لاهمَّ للشعراء إلا أن يتحفوا معاصريهم بنكتهم ونوادرهم ، وهى نكت ونوادر لم يقفوا بها عند رفقائهم وأصدقائهم من المواطنين، بل تعدوهم إلى ساستهم وحكامهم الأجانب من الترك المماليك . فمن ذلك : لما قُتل السلطان حسن وكان فيه ميل

للهو وحب للنساء قال بعض الشعراء متهكما:

لما أتى «للعاديـات»و«زلزلت» حفظ«النساء» وماقرا«للواقعه»

وواضح أنه استعان بهذه السور من القرآن الكريم ليعبر بها عن لهو هذا السلطان وما يريد من سخرية به وبسيرته ، وفى كلمة « الواقعة » تورية واضحة بمقتله .

وكان الشعراء ماهرين فى استخدام مثل هذه التورية بحكامهم ينفسون بها عن حرجهم وضيقهم بهم ، وقد يهجونهم هجاء صريحا لايورّون فيه كقول بعضهم فى وزير يسمى البباوى :

قـالوا الببـاوى قـد وزَرْ فــقــلت كــلا ، لا وزَرْ
الـدهـرُ كــالـدولاب لا يــدور إلا بــالــبــقــر

وفى كتب التاريخ أنشودة عامية كان يتغنى بها العامة لعصر السلطان بيبرس الجاشنكير ، وكانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون نائبا تتريا له نبزوه بلقب « دقين » تندرا عليه لأنه كان أجرد وانتهزت العامة فرصة غياب النيل عن موعده ، وغنت فى المتنزهات :

ســلطــانــنــا ركـــين ونـــائـــبـــو دقـــين
يجينا الماء من اين
هــاتــوا لنـــا الأعـــرج يجـــى المـــا يدّحــرج

ويريدون بكلمة « ركين » أنه مركون ، أما الأعرج فهو الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان به بعض عرج ، وكانت العامة تؤثره على بيبرس ، وتريده على العرش .

وأينما وليت وجهك فى صحف هذا العصر وجدت الشعراء يضحكون معاصريهم على حكامهم وأمرائهم ضحك سخرية وهزء تارة ، وضحك مزاح ودعابة تارة . فمن ذلك مارواه المؤرخون من أن الطبرس والى باب القلعة ، وكانوا ينبزونه بالمجنون ، أقام عمارة فوق قنطرة ، وعقدها قبوا ، فسموها المجنونة ، وقال شاعرهم :

ولقد عجبت من الطُّبرس وصَحْبه
وعقولهم بعقوده مفتونه
عقدوه عقدا لايصحّ لأنهم
عقدوا لمجنونٍ على مجنونه

وكان بين أمراء المماليك أمير يسمى طشتمر ، وكانت العامة تنبزه باسم « حمص أخضر » فاستغل الشعراء هذا النبز أو هذا اللقب ، وتندروا عليه كثيرا ، فمن ذلك مداعبة بعضهم له وقد رجع من سفر :

لما رجعت إلينا من بعد ذا البعد والبين
خلناك تحنو علينا ياحمص اخضر (بقلبين)

ومعروف أن الحمص الأخضر ذو قلبين مجموعين . ويقول فيه شاعر آخر متمما للنكتة فى اسمه أو فى لقبه :

وبـالـدنـا حـزت مـالا   مـلأت مـنـه الخـزانـه
وكـم عـلـيـك قـلـوب   ياحمص اخضر (مـلانه)

وفى كلمة ملانه تورية واضحة لأن العامة فى مصر يسمون بها « الحمص الاخضر » .

التوسع فى التورية والفكاهة

توسع الشعراء فى هذه التورية اللفظية أثناء هذا العصر ، واشتهر بها السراج الوراق والحمامى ، وان فى اسميهما مايدل على طابع العصر ، إذ نرى بعض أصحاب الحرف الذين يميلون للنكتة يدخلون فى آفاق الشعر ، فيمزجونه بروحهم الخفيفة .

ومن أجمل توريات الوراق قوله فى شخص دعاه إلى طعام فيه الخضار المعروف باسم رجله :

وأحمـقٍ أضـافـنـا بـبَـقْـلـه
قد مدَّ فى وجه الضيوف (رِجْله)

ودائما نجد هذه التورية تلمع فى صحف الشعراء جميعا ، فهى بدع العصر ، وكل شاعر يطلبها . ومن أمثلتها قول بعضهم وقد بلغ

النيل ستة عشر ذراعا ، فعم وادى الجيزة حتى صافح الهرم :

قالوا علا نيلُ مصرٍ فى زيادته
حتى لقد بلغ الأهرامَ حين طما

فقلت هذا عجيبٌ فى بلادكمُ
أن ابن ستة عَشْر يبلغ (الهرما)

وكل شيء كانت تقع عليه أعينهم كان معرضا لهذه التوريات . فمن ذلك قول بعضهم فى لعبة الشطرنج المعروفة .

إن صاح فى الأقران لى بَيْدقُ
تموت منه الشاة فى جلدها

والبيدق : اسم العسكرى فى الشطرنج. وتعرضوا لأسمائهم ولألقابهم كثيرا ، يستخدمونها فيما يريدون من تورية ، فمن ذلك قول شاعر فى عالم يسمى ابن جمعة :

عجبا كيف فاق أهل المعانى
فى فنون العلوم وهوْ (ابنُ جمعه)

ومن ذلك قول آخر فيمن يسمى عيسى موريا فى اسمه ، لأن العيس تطلق على الإبل وهو يلاحظ ذلك :

عيسى ومن مدحوه ماشِمْت فيهم رئيسا
وما رأيت أناسا لكنْ حميرا و (عيسا)

ومن أطرف ما جاء فى ذلك قول ابن الصائغ فى الشيخ علاء الدين بن دقيق العيد مستغلا لاسمه ، ضاحكا على ذقنه :

لعلاء الدين ذقنٌ تملأ الكفَّ وتفضُلْ
فاعمل المنخل منها (لدقيق العيد) وانْخُل

ويدل ذلك من بعض الوجوه على أن هذه الروح الفكهة الخفيفة كانت منتشرة فى الناس جميعا حتى فى الشيوخ . ومن هذا اللون من التوريات البديعة أن بدر الدين الدميرى كان يلقب بكتكوت ، فقال فيه بعض أصدقائه :

إن الدميرىَّ صديقى فلا أسمع فيه قول واشٍ ولاحْ
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من (ملاح الملاح)

والتورية واضحة فى كلمة ملاح الملاح ، ويظهر أن هذا النداء على الكتاكيت كان معروفا فى مصر منذ ذلك الحين ! . وهناك شخص كان يسمى على باى بن برقوق نبزه بعض أصدقائه باسم زلابية ، وأشيع ذلك ، فقال بعض الشعراء .

قد شبَّهوه بمن يُدْعَى زلابيةً
وصحَّ تشبيههم والأبُ برقوقُ
لكنهم فاتهم فى الوزِّ نسبته
فإن إسم أبيه نصفُه (قوق)

وهو يستغل استغلالا واضحا كلمة برقوق لينسبه فى الإوزّ .

ومن التوريات التى رويت أيضا عن هذا العصر تورية للشاعر الفكه إبراهيم المعمار صنعها متهكما على شخص طلب إليه أن يصوم «الأيام الستة البيض» بعد شهر رمضان ، فقال متماجنا :

شهرُ الصيام تولى فرانه يومُ عيدى
فقيل شَيِّعْ بِسِتٍّ فقلت أيضا وسيدى

وأكثروا من التوريات فى ألوان الطعام ، وخاصة القطايف ، ونسجوا فيها كثيرا من المداعبات والممازحات . ولبعضهم فى غلام كان يطوف صباحا بأقداح الفول :

يطوف بأقداح (العوافى) على الورَى
ويُصْبح بالخير الكثير (يفوِّلُ)

والتعبير بأقداح العوافى ظريف وكذلك التعبير بكلمة يفول ، وهو يريدها من الفول لا من الفأل وإن تضمنته . ولابن نباتة الشاعر المشهور يشكر صديقا على هدية ثمينة من الديكة :

وصلتْنا ديوكَ بِرِّك تزهو
بوجوهٍ جميلةٍ مستجاده
كلُّ عُرْفٍ يروق حسنا وإنى
أرتجى أن تكون (عُرْفا) وعاده

وأهدى إليه صديق آخر تمرا رديئا ، فكتب إليه بهذين البيتين مؤديا له حقه ، ذاكرا فضله :

ارسلت تمرا بل نَوى فقبلتُه
يبد السواد فما عليك عتابُ
وإذا تباعدت الجسومُ فودُّنا
باقٍ ونحن على (النَّوَى) أحباب

وعلى هذه الشاكلة كانت التورية على كل لسان ، واستخدمها الشعراء فى كل شيء نظموا فيه وفى كل موضوع حتى فى الرثاء ، إذْ نجد ابن نباتة يرثي السلطان الأفضل صاحب حماة إحدى بلدان الشام ، فيقول :

وما مات إذ ماتتْ بحزنٍ نساؤهُ
وماتتْ بأَحزان البلاد (حَمَاتُه)

فورًى فى كلمة حماة ، ولم ينقذ الرثاء الكلمة منه . وفى هذا دليل واضح على أن الشعراء اندفعوا فى هذا العصر اندفاعا شديدا نحو التورية ، وكأنما أعجبهم فيها ماتتضمنه من خفاء ، ومن لعب وعبث أيضا إذ تصبح الألفاظ والكلمات كالأشراك ، لاتصيد طيرا ، وإنما تصيد أناسا ، وهم يمرون فى طريقهم وحياتهم العامة تحت أعين الناس ، إذْ ماتلبث شباك الشعراء المنصوبة دائما أن تعلق بهم ، فإذا هم ضحكة الجماهير

الشاعر الجزار

من أهم الشعراء الذين اشتهروا حينئذ بهذه اللعبة اللفظية

شاعر كان يحترف الجزارة ، ومن أجل ذلك عرف باسم الجزار وكانت روحه خفيفة ، واستغلها لافى التوريةفحسب ، بل أيضا في فكاهة من طراز آخر ، إذ نراه يستخرج الضحك منا على منزله وملابسه ومطاعمه وكل مايتصل به ، فمن ذلك قوله يصف داره :

وَدارٍ خرابٍ بها قد نزلتُ ولكنْ نزلتُ إلى السابعه
فلا فرق مابين أنى أكون بها أو أكون على القارعه
تساورها هفواتُ النسيم فتصغى بلا أُذنٍ سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجدَ حيطانُها الراكعه
إذا ماقرأتُ (إذا زُلْزِلَتْ) خشيت بأن تقرأ (الواقعه

وكان يكثر من إضحاك الناس على حياته ومعيشته ، فلم يكن يبالى أن يصف داره هذا الوصف المضحك . ومن دعاباته مع أبيه وكان قد تزوج فى شيخوخته من امرأة مسنّة :

تزوَّج الشيخُ أبى شيخـةً ليس لها عقلٌ ولا ذِهْنُ
لو برزتْ صورتها فى الدُّجَى ما جَسرَتْ تبصرها الجِنُّ
كأنها فى فَرْشهـا رِمَّـةٌ وشَعرها من حولها قُطْنُ
وقـائلٍ قـال فـما سِنهـا فقلت مـا فى فمها سِنُ

وتدل هذه الصورة الساخرة التى أخرج فيها زوج أبيه أنه كان يميل إلى التهريج ، ومع ذلك فقد كان لاذعا فى كثير من تهكماته وسخرياته كقوله فى بخيل :

لايستطيع يرى رغيـ ـفًا عنده فى البيت يُكْسَرْ
فلو انه صلَّى - وحا شاه - لقال الخُبْزُ أكبر

الأزجال الفكهة

وشاعت فى هذا العصر الأزجال، وأصبحت معرضا من معارض الفكاهة وما تتضمنه من هزل. وكانت أقرب إلى نفوس العامة، فهى بلغتهم الدارجة، لغة حياتهم اليومية. ومن أطرف الأزجال التى وصلتنا عن عصر المماليك زجل رثى فيه بعض الزجالين الفيل «مرزوق» الذى أهداه تيمور لنك إلى سلطان مصر، وفيه يقول على لسان زوجته:

وقالت الفيله امراتو مَنْ لى مُعينْ
سهم الفراق قد صاب قلبى يا مسلمين
ونا غريبه هنديَّه قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى لا مَغْيَره
واليوم كان آخر عمرو فى القنطرهْ
وعيَّطت حتى أبكت جيرانها
من كتر ما ناحت ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بِوّدانها
حتى الزرافة جاءتها متحسره
تبكى على الفيل اللى مات فى القنطرهْ

وما من ريب فى أن هذا الزجال كانت لديه روح فكهة خفيفة كما كانت لديه لفتات ذهن بديعة ، وقد ظهرت هذه اللفتات فى تصويره لزوج الفيل الهندية، وما كان من لطمها « بودانها » أو آذانها كما ظهرت فى استغلاله لما عرف من صمت الزرافة وما يبدو عليها من تأمل وحزن ، كأنما أفلت منها شىء ، ولذلك جاء بها هنا لتساعد الفيلة فى بكائها .

واكبر زجال هزلى فى هذا العصر هو ابن سودون صاحب « نزهة النفوس ومضحك العبوس » ولكن قبل أن نتحدث عنه وعن كتابه لابد أن نقف عند المسرح الهزلى المعروف بخيال الظل ، ونذكر كلمة عنه وعن مسرحية طريفة أخرجها عليه ابن دانيال ، وهى أبدع ما أنتج هذا المسرح من فكاهة فى العصور الوسطى .

خيال الظل - طيف الخيال

خيال الظل هو المسرح الشعبى القديم الذى تحول فيما بعد إلى « الأراجوز» وقد عرفته مصر والشعوب الإسلامية منذ القرن السادس للهجرة ، إذ تسرب إليها من الصين على ما يظن . ونحن لا نصل إلى عصر المماليك فى القرن السابع للهجرة حتى نجد شاعرا يعرف بابن دانيال يخصص حياته أو يكاد للعمل على الارتفاع بهذا المسرح . وقد ألف له ثلاث مسرحيات هى مسرحية طيف الخيال ، ومسرحية عجيب وغريب ، ثم مسرحية متيم . وكلها

القها فى عهد الظاهر بيبرس ، وتصور الأولى تصويرا هزليا الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر أثناء عصرها ، أما الثانية فتصور سوقا مصرية يدخلها واحد بعد واحد ، ويتحدث كل منهم بدوره ، فنضحك لأن ابن دانيال يمثل على لسان كل منهم لهجة الجالية التى ينتسب إليها والتى نزلت مصر حديثا ، أو يمثل على لسانه حرفته التى يحترفها ، وكأنما جمدت ألسنتهم جميعا عند صور معينة من الكلام . وأما الثالثة فخاصة بالحب وحيل المحبين ، وفيها صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش .

ومسرحية طيف الخيال هى أبدع المسرحيات الثلاث ، بل هى أبدع مسرحية فى تاريخ خيال الظل المصرى ، ونرى ابن دانيال يستهلها بقوله :

« كتبتَ إلى أيها الأستاذ البديع ، والماجن الخليع ، لازال سترك رفيعا ، وحجابك منيعا ، تذكر أن خيال الظل قد مجَّته الأسماع ، ونبت عنه لتكراره الطباع ، وسألتنى أن أصنف لك من هذا النمط . فصدنى الحياء فيما رمته منى ، أن ترويه عنى ، ولكنى رأيت تمنعى عن هذا المرام ، يوهمك أنى قاصر عن هذا الاهتمام ، واهن الفكرة ، عاجز الفطرة ، عن غزارة الينبوع ، وإجابة الخاطر المطبوع ، فجلت فى ميدان خلاعتى ، وأجبت سؤالك لساعتى ، وصنفت لك من بابات المجون ، والأدب العالى لا الدون ، ما إذا رسمت شخوصه ، وبوبت منصوصه ، وخلوت بالجمع ، وجلوت الستارة بالشمع ، رأيته بديع

المثال، يفوق بالحقيقة ذاك الخيال، فإذا دُعيت إلى مجلس السرور فأخرجْ طيف الخيال، واستبد بالنشيد، وغنِّ فى الدست (ضرب من النغم) هذا القصيد :

خيالنا هذا لأهل الرُّتَبْ والفضل والبذل وأهل الأدبْ
حوى فنون الهزل والجد فى أحسن سِمْطٍ وأتى بالعجب
فانظره يامن فهمه ثاقبٌ ففيه للعرفان أدنى سبب
إذ قام فيه ناطقٌ واحد عن كل شخص ناظر واحتجب
مذاهب الفضل به جمَّة فنقِّطوه سادتى بالذهب
ترجَمْته طيفَ الخيال الذى حكى هلالا طالعا بالحدَبْ

فإذا فرغ الريِّس من هذا الإنشاد، شرع فيها بنى وشاد، ثم ينادى: ياطيف الخيال! يا كامل الاعتدال! فيخرج شخص أحدب، وينقضّ كالبازى الأشهب، فيسلم سلام القادم، ويقف مطرقا كالواجم، فيرد الريس عليه السلام، ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام :

قسما بحسن قوامك الفتَّانِ يا أوحد الأمراء فى الحُدْبانِ
يامُشْبه الغصن الرطيب إذا انثنى من حَدْبتيه يميسُ بالرمان
يا مخجلا شكل الهلال بقدِّه حاشاك أن تُعْزَى إلى نقصان
ماعاب قامتَك الحسودُ جهالةً الا أجبتَ مقاله ببيان
هلا يزين المتنَ إلا رِدْفُه حُسْنا فكيف بمن له رِدْفان

ولنعم أسْنمة الجِمال وحملها ذات الجَمال لملتقى الأظعان
والعودأَحْدب وهْوأهلى مطربٍ ولقد سمعتَ بنغمة العيدان
ويرد طيف الخيال. لا فضّ الله فاك، ولا أقال من سيف الحِسْبة قفاك، ثم يرقص على عادة الخيال، ويغنى بيوت الأزجال:

سلامٌ على السادة الحاضرين سلام المشوق الكئيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام
من السادة الأتقياء الكرام
فهم خيرُ من خوطبوا بالسلام وأكرم من صوفحوا باليمين
ومن قبل رقصى بهذا الخيال
ومن قبل أن أبتدى بالمقال
أعظِّم ربَّ العلا ذا الجلال إلهٌ تعالى على العالمين
ومن بعد هذا أصلى على
النبىِّ الذى جاءنا بالهدى
نبىّ كريم هدانا إلى صِراطِ هدى فى البَرايا مبين
وندعو لسلطاننا بالبقا
وبالنصر والفتح والإرتقا
فلولاه مازال عنا الشَّقا فذاك المطاع القوىُّ الأمين
وأسأل رب العباد الغفور
يديم لنا هؤلاء الحضور
ويبقيهمُ أبدا فى سرور فقولوا معى يارفاقىَ آمين

ويقول: «السلام عليكم أيها السادة، ودمتم فى نعمة وسعادة. اعلموا أن لكل شخص متالا، وقد قيل فى الأمثال إنه يوجد فى الأسقاط[1] مالا يوجد فى الأسفاط. على أن لكل أسلوب طريقة، وتحت كل خيال حقيقة، وفى الهزل راحات من كلال الجد، والنحس نظير السعد، وقد يُمَلّ المليح، ويُحَبّ القبيح. وفى القهوة[2] سلوة الأحزان، لولا خفة الميزان، ومطاوعة الشيطان، وعصيان السلطان، وحدُّه الحدود. وإننى من حين توبتى من هذه الخصال، وتوديعى لأخى وصال، ورجوعى من الموصل الحدباء[3] إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية، سقى الله عهدها، وأعذب فى الجنان وِرْدها، وجدت تلك الرسوم دارسة ومواطن أنسها غير آنسة، عافية الآثار، ساقطة الجدِّ بالعِثار، وقد هزم أمر السلطان، جيش الشيطان، فانكفت ألسنة البواطى، وتابت البغايا والخواطى، وتأذى الخُلَّاع غاية الأذية، وصُلب نبّاذ[4] فى عنقه نباذية، وقال من قال:

لقد كان حَدُّ السكر من قبل صَلْبِهِ
خفيفَ الأذى إذ كان فى شَرْعنا جَلْدا

فلما بَدا المصلوبُ قلت لصاحبى
ألا تُبْ فإن الحدَّ قد جاوز الحدَّا

(١) الأسقاط: الساقطون من الرجال، والأسفاط: الحقائب والأوعية.

(٢) القهوة يريد بها الخمر.

(٣) جعلها حدباء لأن طيف الخيال منها وهو أحدب.

(٤) النباذ: بائع النبيذ.

«وشاعت الأخبار، وقوى الإنكار، وانكسر الخمَّار، وانطحن المزَّار[1]. فدعانى بعض الأخلاء إلى محله، وأنزلنى بين قومه وأهله، واعتذر إلىَّ لتقصيره فى إكرامى، ولاختصاره فى الضيافة إذ لم يأت برامى، وقال: قد غلب على ظنى أن أبا مرة[2] قد مات، وعُدَّ من جملة الرفات (الحطام)، فقم بنا نبكيه، ونصف الحالة هذه ونرثيه، فابتديت وقلنا بيتا ببيت:

مات - ياقومُ - شيخُنا إبليسُ
وخلا منه رَبْعه المأنوسُ
وهْو لو لم يكن كما قلت مَيْتا
لم يغيِّر لحكمه ناموس
أين عيناه تنظر الخمر إذ عُطِّـ
ـل منها الراووق والقدريس[3]
والبواطى[4] بها تكسَّرْن والخمَّـ
ـارُ من بعد كَسْرها محبوس
وذوو القَصْف ذاهلون وقد كا
دت على سَيْلها تسيل النفوس

(١) المزار بائع المزر: نبيذ الذرة.
(٢) أبو مرة كناية عن إبليس.
(٣) الراووق: المصفاة، والقدريس: إناء للخمر على ما يظهر.
(٤) البواطى: آنية الخمر الزجاجية.

كم خليعٍ يقول ذا اليومُ يومٌ
مثل ما قيل قَمْطَريرٌ عَبوسُ
وفتى قائلٍ لقد هان عندى
بعد هذا فى شربها التَّجْريس
أين عيناه تنظر المِزْر قد أو
حش منه الماجورُ والقادوس
والقَنانى مكسَّراتٌ كما قد
كُسرت فى دجى الليالى الكئوسُ
وترى زنكلون[1] يَزْعق: زيتو
ن وناتو يصيح : يا جاموس
أين سُكُرْكتى[2] وطاجنةُ الفا
ر وأين المِزْراق والدبُّوس
نهبوهن والطراطيرَ والطا
رَ وضاعت خريطتى[4] والفلوس
أين عيناه والحشائش تُحْرَقْـ
ـن بنارٍ تُراع منها المجوس

---

(١) التجريس : التنديد والتشهير.
(٢) هذه أسماء الخمارين.
(٣) السكركة : نبيذ الذرة المسكر.
(٤) الخريطة : حافظة النقود.

وقضيبٌ ونرجسٌ وسعادٌ
باكياتٌ ونزهةٌ وعروس
ذى تنادى حَريفها[1] لا وداعٌ
لا عناقٌ لا ضمٌّ لا تبويس»

ثم يقول: «والله قد سطا علينا الزمان وصال، وفرق بينى وبين أخى وصال، وما قصدت هذه الديار إلا فى طلبه، ولا تغربتُ عن أوطانى إلا بسببه» فيقول طيف الخيال: «يا أمير وصال! يا كامل الخصال» فيخرج جندى بشربوش، وشنبه منفوش، ويتبادل مع أخيه التحية والكلام نثرا وشعرا ويزجانه بمجون وفحش. وعلى هذا النحو تدور المسرحية أو قل بعبارة أدق الملهاة بين الأحدب القصير وبين أخيه الأمير وصال، وقد استخدم فيها ابن دانيال السجع، ولم يلتزم العربية، فنطق بكثير من عامية مصر، ولم يتمسك بصرف ولا نحو. وهذا طبيعى لأنه بصدد ملهاة شعبية.

ولعل من الطريف أن هذه الصورة التى يستهل بها ابن دانيال الملهاة صورة حقيقية من حيث التاريخ الخالص، فهو أصله من الموصل، ونزل مصر لعهد الظاهر بيبرس، فوجده قد أبطل تعاطى «الحشيش» والمسكرات، وأمر بإحراقها وتخريب بيوتها، وأراق ما فيها من نبيذ وخمر. واستغل ذلك ابن دانيال فى أول مسرحيته، فأذاعه فى هذه الصورة الهازلة، يريد أن يسلى الناس ويمتعهم.

---

(١) الحريف: الزبون.

ونمضي فى الملهاة فإذا الأمير وصال يطلب كاتبه التاج بابوج، ويحدثه فى توقيعات وودائع وفى حسابات الأراضي والأملاك، ويقرأ عليه منشورا طويلا أمره بكتابته، كما يقرأ تقليدا بولاية وينشد قصيدة طويلة بين يدى مولاه. ويتماجن الكاتب، ويهزأ بطيف الخيال وقصره وحدبته، فيلقبه انتقاما منه بصُرَّ بَعَرْ فى مقابل شاعر قديم كان يسمى صُرَّدُرّ.

وأخيرا يقول الأمير وصال لأخيه طيف الخيال: «قد عزمت على ترك مسالك الخلاعة، والتوبة المخلصة لله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة، فقد دنا الرحيل، وما بقى إلا القليل، فاطلب لى أم رشيد الخاطبة، وأن كانت كالتى تخرج بالليل حاطبة، لأنها تعرف كل مليحة بمصر والقاهرة» فينادى طيف الخيال: «يا أم رشيد! يا ست العبيد»، فتخرج العجوز، وتقول: «مُسِّيتم بالسعادة، ولا زلتم فى نعمة وسيادة، وفى خير والخير عادة! يا أولادى لا بليتم بالكبر، وثقل الجسم والسمع والبصر. من هذا الذى طلبنى فى الليل الدامس، والدروب مغلقة والطرف ناعس، وأزعجنى من رقدتى والنجوم راكدة، وكل صبية مع عشيقها راقدة». فيقول لها طيف الخيال: «طلبك الأمير وصال». ويدور بينها وبين الأمير وصال حوار يكشف لها فيه عن مرامه، فتهديه إلى فتاة ذكرتها بالخير وتصف له حسنها وجمالها. ويشكرها ويحضر ولى أمرها والشاهد، ويقول الشيخ الذى يعقد القران:

«الحمد لله ستار العيوب ! وعالم الغيوب ! والمؤلف بين القلوب ، وأشهد أن لا إله الله غافر الذنوب ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الصادق المصطفى المحبوب ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة الوجوب ، هادى الأمة ، وكاشف الغمة » . ويترك الشيخ هذا الجدَّ فيتحدث هازلا عن الأولاد ، والزوجة الصالحة قائلا : « والزوجة المباركة هى الحافظة للعيال ، الجامعة للمال ، والمعدة لحسن المآل » ، ثم يقول : « وهذا الأمير وصال ، مشكور الخصال قد عزم على الاتصال ، بالست المصونة ، والدرة المكنونة على ما أصدقها به فى هذا الزواج وهو مائة معجَّلة ، وأربعة وأربعون مؤجلة » ويقول له قل قبلت ، فيجيبه : قبلت ولبئس ما عملت . وعندها تطلق أم رشيد البخور ، وترش الماورد على الحضور . فيقول الأمير وصال : لابد من تدبير الحال ، وتجهيز المال . على أنى الليلة أفلس من طنبور ، وينشد :

أمسيتُ أفقرَ من يروح ويَغْتدى
مافى يدى من فاقتى إلا يدى
فى منزلٍ لم يَحْوِ غيرى قاعدا
فإذا رقدتُ رقدت غير ممدَّد
لم يبق فيه سوى رسوم حَصيرةٍ
ومخدَّةٍ كانت لأم المهتدى[1]

---

(١) يريد أنها بالية عتيقة فهى من العصر العباسى كانت لأم الخليفة المهتدى .

مُلْقىً على طرَّاحةٍ في حَشْوها
قملٌ شبيه السِّمْسم المتبدِّد
والبقُّ أمثالُ الصراصر خِلْقَةً
من مُتْهِمٍ في حَشْوها أو مُنْجِدِ
يجعلن جسمي وارمًا فتخاله
من قَرْصهن به ندوبُ المجلد
وترى براغيثًا بجسمي عُلِّقت
مثل المحاجم في المساء وفي الغد
وترى البعوض يطير وهْو بريشةٍ
فإذا تمكن فوق عرقٍ يَفْصِد
والفارَ يركض كالخيول تسابقتْ
من كلِّ جرداء الأديمِ وأجرد
يأكلنَ أخشاب السقوف شبيهةً
فارات نجّارٍ جُذِذْن بمبرد
وترى الخنافسَ كالزنوج تصفَّفت
من كل سوداء الأديم وأسود
دُهْمٌ إذا طُردتْ أرتْك لجاجة
في عَدْوها والويلُ إن لم تطرد
ولربما اقترنتْ بصُفْر عقاربٍ
قتالةٍ مثلَ الحمام الركَّد

وتقيم لى عند المساء زُبانَها[1]
فأراه وهْو كإصبع المتشهِّد
وكأنما الزُّنْبورُ أُلبس خلعةً
موشيَّة أعلامُها بالعَسْجدِ
مترنِّم بين الذباب مغرِّدٌ
لا كان من مترنِّم ومغرِّد
وإذا رأى الخفاشُ ضوءَ ذبالةٍ
عندى أضرَّ[2] بضوئها المتوقِّد
حشراتُ بيتٍ لو تلقَّتْ عسكرا
ولَّى على الأعقاب غير مردَّد[3]
هذا ولى ثوبٌ تراه مرقَّعا
من كل لونٍ مثل ريش الهُدْهُدِ
لولا الشقاوة ما وُلدت فليتنى
إذ كان حظِّى هكذا لم أولد
ولكيف أرضى بالحياة وهمَّتى
تسمو وحظِّى فى الحضيض الأوهد

---

(١) زبانها : قرنها .
(٢) أضر : كف بصره .
(٣) مردد : متردد حائر .

ويجيب على ذلك طيف الخيال بقوله : « يا أمير وصال ! عهدتك ذا مال وجمال ، وخيل وبغال » فيرد الأمير وصال : « مال المال ، وحال الحال ، وذهب الذهب ، وسُلب السلب ، وفُضّت الفضة ، وقعدت النهضة ، وفرّغت الكاس ، بطون الأكياس » . ثم يقول : إننى ما أقدمت على زواجى ، إلا بعد ضرورتى واحتياجى ، وينشد قصيدة طويلة فى مجونياته القديمة . وأثناء ذلك تدخل أم رشيد وتأمره أن يستعد للزفاف على عروسه ، وأن يكترى أو يستأجر عشرين شمعة ، ويحضر المغنية والماشطة ، وتقول إنها أحضرت له أم شهاب الدمشقية . يقول ابن دانيال :

« ويدخل الأمير وصال ويخرج فى زفة ، وقدامه المغانى والشموع منصفّة ، ومن خلفه البوقات والطبول ، وهو راكب على فرس من أحسن الخيول ، ثم ينرجل بأدب وناموس ، ويبرز للجلا والمواشط بالعروس ، وتُجْلى عليه بالخلعة والشربوش ، وتخطر مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش ، فإذا كُشف عن وجهها الخِمار ، شهقت شهيق الحمار . وإذا هى من أكبر الدواهى بأنف كالجبل ، ومشافر كمشافر الجمل ، ولون كلون الجُعَل[1] ، وأجفان مكحولة بالعمش ، وخدود مضرجة بالنمش ، والعين غين ، والزين شَيْن » .

وحينما رآها الأمير وصال خرّ صريعا من الاختلال . ثم يثب وثبة

---

(١) الجعل : ضرب من الخنافس .

الأسد إذا غضب وصال، ويضرب المواشط والعروس، ويتفرقون وهم خائفون. ويخرج طيف الخيال، فيقول له الأمير وصال: أرأيت ما صنعته بي أم رشيد، فأحضرْها وزوجها الشيخ عفلق. ويحضر زوجها، ويشكو من كبر سنه، وينشده بعض أشعار له يبكي فيها شبابه وقوته واحتماله وما كان من مجونه القديم. وينتصر له الشاعر صُرَّبَعْرْ، وينشد على لسانه هذه الشكوى من زوجته:

أنـا أشكـو من زوجـةٍ صَيَّـرتْني
غـائـبـا بـين سـائـر الحُضَّـارِ
غيَّبـتْني عـنى بمـا أطـعـمتْـنى
فـأنـا الـدهـرَ مفكـرٌ فى انتـظار
غـبت حـتى لـو أنهم صـفـعـونى
قلت كفُّـوا بالله عن صَفْـع جـارى
دارَ رأسى عن بـاب دارى فبـالـلـ
ـه اخبـرونى يـا سـادتى أين دارى
غـفـر الله لى بمـا رُحْـت لـلبحـ
ـر من البـرد أصْـطلى بـالـنـار
وتجـردتُ لـلسـبـاحـة فى الآ
ل[1] لـظنٍّ بـه الـزلالَ الجـارى

(١) الآل: السراب.

ولكم قد رأيت فى الزِّير شَيْخا
وهو جاثٍ فى الماء كالعيَّارِ
شيخ سوءٍ كالثلج ذقنا ولكن
وجهه فى سواده كالنقار
لم يَغظنى منه سوى أنه عبَّـ
ـس مثلى وافترَّ مثل افترارى
فاعترانى رعبٌ وناديت ما كنـ
ـت أظن اللصوص فى الأزيار
أين قوسى وأين درعى؟ الحقينى
أم عمرو بصارمى البتَّارِ
أن أمت كنت فى الغُزاة شهيدا
أو أعش كنت أشطرَ الشطَّار
ثم أثخنتُ ذلك الزِّير ضربا
بحسامى حتى هوى لانكسار
وجرى الماء فاختشيت وإلا
كنت أَقْفُو الآثار فى التَّيار
ولكم قد عصبتُ رجلى لرؤيا
أوطأتنى حُلْمًا على مسمار
ولكم رمت قلَعَ ضرسٍ ضَروبٍ
بعد ما ضرَّ غايةَ الإضرار

ـإذا بى قلعت بعد عنائى
واجتهادى القوىّ من أوزارِى
رحىً حُزْتها لطحنٍ فمازلـ
ـت ضلالا أدور حول المدار
أنادى وقد سئمت من الرَّكْـ
ـض إلى أين منتهى مِضْمارى

ويستمر صُرَّبَعَرْ فى هذه الشكوى، أو قل فى هذا الهزل، الذى صور فيه نشوة خمرة يغيب فيها صاحبها عن حسه وشعوره تصويرا يعا. وهو يختتم هذه الشكوى بقوله:

أنا لو رمتُ للعلاج طبيبا
ما تعدَّيت دِكَّة البَيْطارِ
بعد ما كنت من ذكائىَ أدرى
أن بابى من صنعة النجار
أَحْزِرُ البيضَ قبل أن يكسروه
أن فيه البياض فوق الصَّفار
وبعينى نظرتُ كوز نحاسٍ
كان عندى أقوى من الفخَّار
وكثيرٌ منى على كُبْر سِنّى
حفظُ هذى الأمور مثل الصِّغار

وينادى طيف الخيال زوج أم رشيد، ويقول له: «قد ظهرت عليك دلائل الكبر، ورأيت بالمشيب ما فيه للعين معتبر» فيقول: «أجل، وقد قرب الأجل»، ويظهر ضعفه وهرمه ومرضه، فيطلبون له طبيبا يسمى المعين بن سديد، فيقول كلا أنه الذى قضى على زوجتى أم رشيد، فيقول له الأمير وصال: «بالله هل ماتت؟» فيقول الزوج: «وفاتت»، وينشد شعرا ناح به عليها، وفيه يقول:

ساعدونى بالنَّوْح والتعديدِ
بعد فقد العجوز أمِّ رشيدِ
أىّ ستٍّ يا لهف نفسى عليها
هلكتْ آخر الليالى السُّود
فاندبيها يا أمَّ طوغانَ وابكى
فقدها إن فقدها يومُ عيدى
أمَّ طوغان واندبيها وغنِّى:
يا ليالى الوصال بالله عودى

ويقول طيف الخيال: أستغفر الله العظيم من هذه الخصال، وأعوذ بعفو الغفار، من تحمل الأوزار، والعمل بعمل أهل النار، فالإنابة أجمل، ونحن نقول مالا نفعل. ويقول الأمير وصال: يا أخى طيف الخيال، ما بقى إلا الارتحال، وقد عزمت على الحجاز، وخرجت بالحقيقة إلى المجاز، وقصدت غسل هذه الآثام

بماء زمزم والمقام، ونويت زيارة سيد الأنام، صلى الله عليه وعلى آله الكرام. اجعلنى نصب عينك، وهذا فراق بينى وبينك. ويُسْدل الستار.

وهذه الملهاة تعد طرفة نفيسة من حيث البناء التمثيلى الذى أعطينا القارىء فكرة مختصرة عنه، فالحوادث والشخوص واضحة، وهناك تفاصيل كثيرة تتداخل فيها لم نحصها إحصاء، لأن ذلك يخرج بنا من جهة عن هذا العرض السريع، ولأنها من جهة ثانية تتعمق فى العبث والمجون. وهذا نفسه ما أراده ابن دانيال.

ولم يترك شارة من هيئات الشخوص ولا ثيابهم ولا سمة من دوافعهم وعواطفهم دون أن يكشفها كشفا تاما. وليس هناك أى اصطدام بين شخص وأقواله، بل كل شىء يجرى فى منطق التمثيلية، وقد صورت البيئة التى عاش فيها الشخوص تصويرا بارعا، حتى أحداثها السياسية، فابن دانيال يدخل بعينه فى كل ما حوله، ويبعثه ناطقا سواء من حيث علاقات الرجال والنساء فى عصره أو من حيث علاقات الحكام بالمحكومين.

ونشعر منذ أول المسرحية بأننا مسوقون إلى نهايتها فى تسلسل منطقى، قلما يظهر فيه نشاز. وكل هذا يخدم غايات الكاتب المسرحية، وهى غايات كلها فكاهية، أراد بها إلى تسلية أهل القاهرة. وقد اتسع فى استغلال مجاميع من الأخطاء المضحكة، واختار موضوعا موفقا لعرضها هو موضوع الخاطبة فى تلك

العصور، والدور الذى كانت تقوم به وما كان يحدث فيه من أغلاط فى فهم حقيقة الزوج وأيضا فى فهم حقيقة الزوجة المحجَّبة.

وإن اللوحة التى عرض فيها شكوى صُرَّبَعْر من الزوجة لتظهر لوحة كاملة للاستغراق فى نشوة المسكرات، وهو ما يزال بها حتى يغمسها فى ألوان من فقدان الشعور والإحساس الخارجى، فيبدو الزوج فى هذه اللامعقولية المضحكة، أو قل فى هذا الذهول الذى لم يعد يرى فيه الأشياء على حقيقتها، فهى تنعكس دائما فى عينه على صور خيالية شتى، وكأننا إزاء شخص يحلم، فهو ليس فى وعيه، بل لكأننا إزاء شخص نُوِّم عقله، فأصبح يهذى هذا الهذيان المضحك.

وبذلك كان ابن دانيال الكحال بباب الفتوح طرفة عصره، وكان خفيف الظل، سريع النكتة، فنادم السلطان خليل بن قلاوون، ونادم الوزراء والأمراء، فكان قرة أعينهم وفرحة أنفسهم، لهذا البوق الفكه الذى ظل ينفخ فيه حتى آخر حياته.

نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان أُلِّف فى العصر المملوكى أيضا، ألفه ابن سودون، وكان يعيش فى القرن التاسع للهجرة، وكان إماما ببعض المساجد، إلا أنه اتخذ الهزل منهجا له فى حياته، فطار اسمه، وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب جميعه مذهب الضحك والفكاهة.

وعُنى بجمع هذا الشعر فى الديوان، وأضاف إليه طائفة من لحكايات الفكهة. وأغلب الديوان من اللفظ العامى الشعبى، ومن يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغته ولغتنا المصرية الدارجة الحديثة. وربما كان فى ذلك بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور الا بقدر محدود، فكثير من أمثال هذا الديوان وألفاظه لا تزال جارية تحت آذاننا فى عصرنا الحاضر. والشيء الذى يلفت حقا فى هذا الديوان أنه أُلِّفَ كله فى ضروب من الهزل والفكاهة، ولسنا نعرف شخصا قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر، جميعه هزل وفكاهة ودعابة، أو على الأقل لسنا نعرف فى مصر شاعرا قبله احتكره الهزل هذا الاحتكار.

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة فى تاريخ أدبنا المصرى الشعبى، لأنه يفصح إفصاحا واضحا عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الفكه الذى تشتهر به مصر فى عصورها المختلفة. ومن يقرأ ديوانه يلاحظ أنه كان يعتمد فى فكاهاته على المفارقة المنطقية، فهى المفتاح الذى ينصبّ منه نغم الهزل عنده، وكان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة، هى أن يقف بين يديك موقفا جادا يريد أن يروى لك بعض العجائب ولكنه لا يبدأ فى ذكرها، حتى تحس تباينا ونبوا وشذوذا عن المنطق المألوف. وبذلك تسترسل فى الضحك، لا لسبب، إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك. فقد كنت على استعداد لكى تستمع إلى أشياء غريبة، فاذا بك تستمع إلى بدهيات

مسرفة فى البداهة . ومن هنا يأتى الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى ، وكأنها تهوى من أمكنة عالية ، هى أمكنة المنطق والعقل الواعى ، فنضطرب معها ، ولا نلبث أن نضحك فى غير نظام ، بل فى فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه . واقرأ هذا الشعر :

عجبٌ عجبٌ هذا عجبُ ... بقَرا تمشى ولها ذنبُ
ولها فى بُزَيِّزها لبنٌ ... يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب مافى مصر يُرَى الـ ... ـكَرْمُ يرى فيه العِنب
والنَّخْل يرى فيه بلحٌ ... أيضا ويرى فيه رُطَبُ
« أوسيم » بها البرسيم كذا ... فى الجيزة قد زُرع القصب
والمركب مَعْ ما قد وسَقت ... فى البحر بحبلٍ تنسحب
والناقةُ لا منقارَ لها ... والوزَّة ليس لها قَتَبُ
لابد لهذا من سببٍ ... حَزِّرْ ، فَزِّرْ ، ماذا السبب

وواضح أنه يستهل القطعة بقوله « عجب ، عجب » ونتنبه ظانين أننا سنستمع إلى عجائب وإذا هو يورد علينا بدهيات فى صورة من التباله ، تجعلنا نحس عدوانا على منطقنا ، وخاصة حينما نصل إلى تعجبه من أن الناقة لا منقار لها والإوزة ليس لها قتب ، وكأنه يظن أن الناقة من الطير والإوزة من فصيلة الإبل . أرأيت إلى هذا التعاكس ، ومع ذلك فابن سودون يدهش لما يرى من هذه الغرائب ، ويتساءل متحيرا عن سبب ذلك ، ويقرن تساؤله بكلمة « حزر فزر »

لتى تلوكها العامة عندنا فى الفوازير. وكل هذه ضروب من العدوان الصريح على منطقنا، وهذا هو سر ما تحمل من فكاهة، إذ تسقط العبارات والأفكار فى غير موضعها، وكأنها تسقط من شواهق على نحو ما نجد فى قوله:

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سَما
تيقَّن أن الأرضَ من فوقها السَّما
وأن السما من تحتها الأرضُ لم تزل
وبينهما أشياءُ إن ظهرتْ تُرَى
وكم عجبٍ عندى بمصر وغيرها
فمصر بها نيلٌ على الطِّين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بلَّه
وليستْ تبلُّ الشمسُ من نام فى الضُّحى
بها الفجرُ قبل الشمس يظهر دائما
بها الظهرُ قبل العصر قيل بلا مِرا
وفى الشام أقوامٌ إذا ما رأيتهم
ترى ظهرَ كلٍّ منهُم وهْو من وَرا
بها البدرُ حالَ الغيم يخفى ضياؤه
بها الشمسُ حال الصَّحْو يبدو لها ضِيا
وتسخن فيها النارُ فى الصيف دائما
ويبرد فيها الماء فى زمن الشِّتا

وفى الصِّين صينىٌّ إذا ما طرَقْتَه
يطنُّ كصينىٍّ طرقت سَوَا سوا
بها يضحك الإنسانُ أوقات فَرْحِه
ويبكى زمانَ الحزن فيها إذا ابتلى
ومن قد رأى فى الهند شيئا بعينه
فذاك له فى الهند بالعين قد رأى
وفيها رجالٌ هم خلافُ نسائهم
لأنهُمْ تبدو بأوجههم لِحَىَ
ومن قد مشى وَسْط النهار بطُرْقها
تراه بها وسط النهار وقد مشى
وعشاقُ إقليم الصَّعيد به رأوا
ثمارا كأثمار العراق لها نَوَى
به باسقاتُ النَّخْل وهْى حواملٌ
بأثمارها قالوا: يحرِّكها الهوى
وما علَّمتْنى ذاك أمِّى ولا أبى
ولا امرأةٌ قد زوَّجانى ولا حَما

وأنت ترى ابن سودون فى هذا الهزل كله يعتمد على فن المفارقة، فهو يبدأ حديثه بأن الانسان إذا سما عقله استطاع أن يصل إلى هذه المعارف الدقيقة، من مثل أن الأرض من فوقها السماء وأن السماء من تحتها الأرض وأن بين السماء والأرض أشياء

يشاهدها. وينتقل ابن سودون من هذه المقدمة إلى بيان الغرائب التى شاهدها فى البلدان المختلفة، وهو يبدأ بمصر فيروى لك أن الفجر فيها يظهر قبل الشمس وأن الظهر يتقدم العصر، ويؤكد لك ذلك كأنه شىء مشكوك فيه، فيقول لك بل هو حقيقة بلا مراء. ويتحول بسامعه إلى عجائب الشام، فيذكر أن بها أناسا ظهر كل منهم وراءه، كأن الناس فى العالم على قسمين: قسم فى الشام إذا رأيته عجبت منه، وهو لذلك يعرفنا به وبوجه العجب فيه، أما القسم الآخر الذى يقابل هذا القسم، فقد سكت عنه لأنك تعرفه حق المعرفة، فهو شائع ومفهوم، وهو إنما يقص لك المجهول الذى لا تعرفه. هذه قصة الناس هناك، أما بدرهم فان ضياءه يستتر حال الغيم وانتشار السحاب، وأما شمسهم فان ضياءها ينتشر حال الصحو. وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء. كأن ذلك كله من عجائب الشام. ويترك الشام إلى الصين فإذا هو يحدثنا أن بها «صينيا» يطن مثل ماذا؟ مثل صينى طرقت سواء سواء. هل جاء ابن سودون بشىء؟. ويستمر فى هزله، فيقول ان الناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم.

وينتقل إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئا بعينه فقد رآه بينه، وهو لم يصنع هنا شيئا أكثر من أنه أعاد علينا فى الشطر الثانى من بيته ما قاله بعينه فى الشطر الأول. وأخذ يعرفنا أن رجال هناك يختلفون عن النساء اختلافا بينا، لما لهم من لحى

يرسلونها وكأن اللحى خاصة من خواص رجال الهند وحدهم دون سواهم من العالمين. ويقول أن من يمشى هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى!

ويعود بنا إلى مصر، فيتكلم عن إقليم الصعيد وما شاهده فيه من عجائب الزمان، ويقول إن به ثمارا كأثمار أهل العراق لها نوى. أرأيت إلى هذا التنظير أو قل هذا القياس الدقيق. ولكنها معلومات ابن سودون، معلومات قد تعب فى تحصيلها، وقد تعلمها باجتهاده ورحلاته فى أقطار الأرض، وما تعلمها من أبيه ولا أمه ولا من زوجه وحماته، وانما تعلمها من مشاهداته ورحلاته وفطنته وذكائه.

وعلى هذا النحو يعتمد ابن سودون دائما فى فكاهته على الهزل والهذر وسرد البدهيات على شاكلة أدعياء المعرفة سردا يُلْغَى فيه المنطق المستقيم إلغاء، وينتكس كل ما نؤمن به من ميزة التفكير السليم انتكاسا، وهو انتكاس لا نلم به حتى يفضى بنا إلى الضحك والإمعان فيه.

وحقا أن ابن سودون كان « جحا » مصر فى عصره، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل، وما يطوى فيه من مفارقات ومتناقضات يدفعك بها دفعا إلى الضحك، وكأنك تستمع إلى مهرج

ن مهرجى التمثيل الهزلى ، لايزال يطرفك بغبائه ، وبما يأتى من مخالفات صريحة لمنطق الواقع . وكان ما يزال يحتال بهذه المخالفات على كل موقف مهما بلغ من جد ، ومن خير ما يصور ذلك قوله فى رثاء أمه :

لموت أمى أرى الأحزان تَحنْينى
فطالما لحستْنى لحسَ تّحْنينِ
وطالما دلَّعتْنى حالَ تربيتى
خوفا على خاطرى كى لا تبكِّينى
أقول « مَمْ مَمْ » تجى بالأكل تطعمنى
أقول « أمبو » تجى بالماء تسقينى
إن صحت فى ليلةٍ « وَأْ وأ » لأسهرها
تقول « هُو هو » بهز كى تُنَنِّينى
كم كحَّلتنْى ولى فى جبهتى جعلتْ
« صوصو بنيلى » وكم كانت تحنِّينى
وربما شَكْشكتْنى حين أغضبها
وبعد ذا كَشْكشتْنى كى تُرَضِّينى
ومن فقيهىَ إن أهرُبْ ورام أبى
مسكى وبعثى له كانت تخبِّينى
وزغرطتْ فى طهورى فرحةً وغدتْ
تنثِّر الملح من فوقى وتَرْقينى

وفى زواجى تصدَّتْ للجِلاء عسى
على المنصَّة تلقانى بتزيين

وربت أولادا ايضا مثل تربيتى
وبعد ذلك ماتت آه وانينى

وخلَّفتْنى يتيما ابن أربعةٍ
وأربعين سنينًا فى حِسابينى

يعظِّم اللهُ فيها الأجرَ لى وكذا
لى فىَّ من بعدها جودوا بآمين

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق فى الضحك لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذا الظرف اعتداء صارخا ، وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصا يقف بإزاء أمه - وقد لبت نداء ربها - ليرثيها ، ومن الواجب أن تكون كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه ، فإذا هو يترك ذلك وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لايتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالدعابة والهزل ، وكأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى هزله ، فتضحك وقد تسترسل فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعا وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة .

وهذه المخالفة فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى هذه المقطوعة ، وارجع إلى مطلعها فإنك تراه فى الشطر الأول منها يكاد ينهد من حزنه انهدادا ، فقد قوسه الحادث وحناه ، ولكنك لا تقرأ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة ، فإذا هو يذكر كيف كانت أمه فى رضاعته « تلحسه لحس تحنين » كما يذكر كيف كانت تدلعه خوفا على خاطره . ونستمر ، فإذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكراً أنه كان حين يقول « مم مم » تأتى له بالأكل وحين كان يقول « أمبو » تأتى له بالماء .أرأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ انه لايملى عليه إلا هذه الفكاهة ومايطوى فيها من ضحك فى موطن الرثاء وما يطوى فيه من حزن .

ولايكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن « هو ، هو » ، ونحو ذلك حتى يناموا . ثم يسترسل فى الحديث عن حنو أمه عليه ، وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنّيه » ثم كيف كانت « تشكشكه » بإبرة ونحوها وكيف كانت « تكشكشه » وتُدَلِّلُه بهزٍّ وغير هز .

ويقص علينا كيف كانت تخبئه حين يهرب من فقيه الكتاب وأنها زغرطت يوم ختانه ، وزينته يوم زواجه . وأخيرا يعلن أنها خلفته يتيما ابن أربع وأربعين سنة كما يقول . وكل هذه مفارقات تنتهى بنا إلى الضحك ولكن فى أى موقف ؟ فى الرثاء أو بعبارة أخرى فى أكثر

المواقف دعوة إلى الحزن وأشدها استثارة للبكاء . وهو بذاك يجرح شعورنا لما اصطلحنا عليه فى مثل هذا الموقف لكنه جرح ينتهى بنا إلى أن نضحك ، بل إلى أن نسرف فى الضحك ، لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وهو يغلو فى ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته وجمال فكاهته التى تعتمد دائما على المباينات بين ماتنتظره من مقدماته وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ماجاء من ذلك وصفه لحفل زواجه ، إذ يقول :

حلَّ السرور بهذا العقد مبتدرا
ونجمُ طالعه بالسَّعْد قد ظهرا
و « الفلُّ » كلَّل وَجْه الأرض فانعطفتْ
أغصانه بالتهانى تَنْثر الزهرا
والطيرُ من فَرْحها فى دَوْحها صدحتْ
بكل عودٍ عليه لا ترى وتَرا
تقول فى صَدْحها : دام الهنا أبدا
على العرائس كى يقضوا به الوطَرا
وكنت عند زفافى قد وصلتُ إلى
حدِّ الأشُدِّ ، وعقلى فى الورَى اشتهرا
فكنت أعرف من عقلى وكثرته
أنى إذا نمت مَعْ ظهرى يكون وَرا

هذا وعقلُ عروسى كان أصغرَ من
عقلى ولكن حوتْ فى عمرها كِبَرا
فى السنِّ قد طَعنتْ ، ماضَرَّ لو طُعِنَتْ
بالسنِّ من رمحٍ أو سيفٍ إذا بَتَرا
فى وجهها نمشٌ فى أذْنها طَرشٌ
فى عينها عمشٌ للجفن قد سترا
فى بطنها بَعَجٌ فى رِجلها عرجٌ
فى كفِّها فَلَجٌ ، ما ضرَّ لو كُسرا
فى ظهرها حدَبٌ فى قلبها كدر
فى عمرها نُوَبٌ كم قد رأت عِبرا
يا حُسْن قامتها العوجا إذا خطرتْ
يوما وقد سَبْسبتْ فى جِيدها شعرا
تظل تهتف بى : حَسْنا حظيتَ بها
أوَّاه لو حاسها موتٌ لها قبَرا

وأنت تراه يعمد فى هذه القطعة إلى المفارقة حتى يستخرج مايريد من هزل وفكاهة . فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين فى فرحها . وما نستمر حتى نراه يعمد إلى التباله ، بل إنه ليعلنه اعلانا ، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به إلا أنه إذا نام كان ظهره إلى ورائه . ومع ذلك فعقله أكمل من عقل زوجته .

وذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجه فى صورة مشوهة لاتنسجم مع مطلع شعره . وهذا هو معنى مانقوله من أنه يعمد إلى ضروب من المباينات المنطقية فى هزله ، فبينما هو فى مستهل القطعة يملأ الجو بشرا وابتساما لهذا الزواج السعيد إذا هو يملأه بعد ذلك كآبة وغيا واكفهرارا ، لما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التى جمعت فنون القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة فى هذه الفنون ، حتى يستتم مايريد من إضحاك . ونراه يقف ليعجب بقامتها على ما فيها من عوج ويذكر عيوبها من نمش وطرش وعمش وبعج وعرج وفلج (تباعد ما بين الأصابع) وحدب . والمفارقة واضحة فى القطعة ، وابن سودون يدمج فى هذه المفارقة وما يطوى فيها من تباين ضروبا من التباله واظهار الغفلة على نحو ما نجد فى قوله :

البحر بحرٌ والنخيل نخيلُ
والفيل فيلٌ والزَّرافُ طويلُ
والأرض أرضٌ والسماءُ خلافها
والطيرُ فيما بينهن يجولُ

وإذا تعاصفت الرياحُ بروضةٍ
فالأرض تثبتُ والغصون تميل

والماء يمشى فوق رملٍ قاعدٍ
ويُرَى له مهما مشى سَيْلول

وهو لا يأتى بشىء غريب ومع ذلك فإن شيئا من الابتسام يلم بنا ، لأن ابن سودون جمع لنا فى هذه القطعة أقرب الأشياء من حِسِّنا ، وذهب يرويه فى هذا الضرب من البله والسذاجة ، وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل مايتصل به ، حتى لغة الأطفال كما مر بنا ، وعلى شاكلة مانجد فى قوله :

ولما أن كبرتُ بحمدِ ربى
وصار لمنتهى عقلى ابتداءُ
بقيت أقول : ننوّ تُتْ و ثاته
ودحوّ كُخّ وأمبو مَمَّ آء

فقد حشد فى البيت الثانى طائفة من لغة الأطفال ، وله فى هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى فى ديوانه ضروبا من أصوات الحيوان ، إذ نراه يقلد صوت الديكة والحملان والثيران ، ومن هزلياته قوله فى كتكوت :

شِريتْ لى كُتَيْكيتْ فُميمو بزِيق
عريِّين يصيح من البرد : زِيق
لو حُلَيق فيه زماره وحُنيك فيه نقّاره
يزمّر ، ينقّر ضويحك رشيق
أقول لو كتكت يكتكت ، يجى

يــرفــرف يــزقــزق لحـــسّـــو زعـــيـــق
لـو جناح لاح من جنبـو كلما أنشرح لولح بو
غـليــظ الـبُــطـيــنــه ولُـــو ســاق رقـيـق

وهى قطعة خفيفة توضح مقدرة ابن سودون على جمع الصفات والخصال لكل مايصفه ويعالجه . وقد تعلق بجانب ذلك بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحدثا يشوبه الجشع ، بل تشوبه « الفجعة » . وله بعد ذلك مواليات أو قطع من فن المواليا الذى كان شائعا فى العصور الوسطى ، ومن أمثلتها قوله :

الثـور والبقـرا ذى العــام ومـا قبله
فى مصر والشام وِفْ غَزَّه مع الرَّمْله
هديك تحبــل وتولــد عجل أو عجله
وذاك فى الســاقيـا يــأكـل بفـــرقله

حكايات وطرف

وقد ساق ابن سودون فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية ، وهى لاتقل غرابة ولا إضحاكا عما رويناه من شعره ، بل لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر الفكه الخفيف .

ولهذه الحكايات والطرف فى الديوان بابان، أما أولهما فباب الحكايات الملافيق، وأما الثانى فباب التحف العجيبة والطرف

الغريبة . واليابان جميعا كتبا باللغة الشعبية الدارجة ، وهو يستمد فيها من التباله وإظهار الغفلة والمفارقة المنطقية على نحو ما رأينا فى شعره . فما نلبث حين نقرأها أن نضحك ، إذ كان يحسن كيف يتغابى ، وهو غباء ينتهى بنا إلى إهمال عقولنا فنضحك لا سخرية ولا استخفافا ، ولا كما يقول بعض الفلاسفة لأنه خالف منطقنا ، وتحول إلى ما يشبه آلة جامدة ، بل لعلنا نضحك لأننا نريد أن نكافئه ، إذ استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا . ومن منا يذهب إلى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ، إننا نذهب لنسر ونتمتع حقبة من الزمن بالانتقال من عالمنا إلى عالمه الذى تنعدم فيه قيمنا المنطقية ، وتحل فيه قيم أخرى تقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من أعلى الشواهق وقد انتكست وتشوشت واضطربت على نحو ما نرى فى هذه النادرة .

قال الزلابيانى : « كنت – وأنا صغير – بليدا لا أصيب فى مقال ، ولا أفهم مايقال ، فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بامرأة كانت أبعد منى ذهنا إلا إنها أكبر منى سنا . وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست منى طعاما حارا . فتناولت الصحفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ المكبة (غطاء الصحفة) فنسيت الصحفة . فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة . وصرْت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس . فقلت : لا أشترى

لها فى هذه الليلة شيئا ، وأدعها تموت جوعا . ثم رجعت إليها ، وإذا هى تئنّ ، وإذا ولدها يستغيث جوعا . فتفكرت كيف أربِّيه ، وتحيرت فى ذلك . ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتى ويقذفه فى فم ابنه ، وتكون حياته بذلك ، فقلت : لا والله لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدى يذوق كأس الحِمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته فى فمى ، ونفخته فى فمه فرادى وأزواجا ، أفواجا أفواجا ، حتى امتلأ جوفه وصار فمه لايسع شيئا ، وصار الجوز واللوز يتناثران من أشداقه . فسررت بذلك وقلت : لعله قد استراح . ثم نظرت إليه ، وإذا به هو قد مات ، فحسدته على ذلك ، وقلت : يابنى ! إنه قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ، لأنها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع ، وتركتها ميتين . ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط . ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا فى طلبه إلى يومنا هذا » .

أرأيت كيف يستخرج منا ابن سودون الضحك بفكاهته ، وما يتقن وصفه من بلاهة الزلابيانى وغفلته . وانظر إليه كيف جعله ينسى المكبة ويأخذ الصحفة ، ثم مازال بعد ذلك كلما أخذ واحدة منهما نسى الأخرى فى تباله يدفعنا إلى الضحك . ونحن نضحك لا لأننا نحتقر ابن سودون أو نزرى عليه ، ولا لأننا نحس برغبة فى الانتقام منه كما يقول بعض الفلاسفة ، بل لعلنا نضحك لأننا نحس إزاءه بعطف ، بل بشىء من المودة ، فإننا نتمنى أن لو كان

معناالآن لنرى كيف يستغل مسرحنا فى هزله وفكاهاته . وانظر إلى مايخلعه على الزلابيانى من غفلة ، إذ جعله يطعم طفله الجوز واللوز ، حتى قضى عليه كما قضى على أمه . ويذهب لإحضار كفنين لهما ، وسرعان ماينسى البيت ، وتخونه ذاكرته ، فيفقد كل دليل يدل عليه .

والحق أننانضحك لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون ولا لأننا نريد أن نكافئة ، ولكن لأن مثل هذأ الكلام يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بسرور ، فنضحك .وليس كل فقدان للاتزان يفضى إلى ضحك ، فإننا نألم أيضا حين تصادفنا حادثة محزنة ، لنفس السبب ، إذ نفقد اتزاننا.وإذن ففقدان الاتزان يؤدى إما إلى ضحك وإما إلى بكاء ومصدر هذا التنناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسى نألم ونحزن،وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانبساط النفسى نسر ونفرح وقد نضحك . ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ، لامسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن ينزل عقابا أو ثوابا بالأشخاص الفكهين .

ونحن لانريد أن نفسد فكاهة ابن سودون بالاسترسال فى مثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى هزلياته ، ولنترك الفلاسفة وعلماء النفس يفلسفون الضحك كما يريدون ، والذى لاريب فيه أن ابن سودون كان جعبة فكاهة فأينما قلبت طرفك فى ديوانه اندفعت

تضحك ، وقد تضحك ضحكا عاليا . واقرأ هذا الخطاب الذى كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة وهو يمضى على هذه الصورة ، يقول :

« أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتابا من الصعيد ، يقول فى عنوانه : « يصل إن شاء الله تعالى إلى دربنا المحروس الذى ضبِّطو سَنْط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة الوالد » ، وفى داخله :

«السلام عليكم عدد مافى نخيل البلد من أوراق، وعدد أمواج البحر ان تكدر أوراق ، سلام كتير لايسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاثة أطواق . من كل بد وسبب ، والذى أعرفكم به إن كنتو « لسع » بالحياة أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على ، جوز وِزّ فقس الصيف ، من ديك الوزة ، وأيضا خروف أبلق وخروف بلا بلاق . ويا سبحان الله تبقوا تتكلموا جزاف . أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل ، وقلتوا لنا على طوله ، وما قلتوا على عرضه ! وأرسلتم تطلبوا « كِشْك » وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وان طبخته مايوصل لكم حتى يبرد . وطلبتوا قُللا ، والفلاحين مازرعوا إلا قرع طويل ، فيكون ذلك فى خاطركم . من حقه ، بلغنى أن امراتى حبله ، فلا تخلوها تولد ، حتى أجى ، وإن ولدت قبل ذلك لايكون إلا صبى ، وجرت لى حكايه ، وذلك أنى

غسلت قميصى ونشرته فى السطوح ، فقام بالأمر المقدور ضربه الهوا ، فوقع من فوق لتحت ، وارتجفت بسلامتى رجفة ، وعرفت أن ما هى بشارة خير ، وأنها تدل على موت أمى وأبويه ، والحمد لله كانوا فدايه . وإنى صليت وصمت لله تعالى اللى ما كنت فى قميصى ، ولو كنت فيه كنت انكسرت ، فقلت : لا حوالينا ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى اللى تبقى ناحية المشد ، (ملتزم القرية المالى) وقت أخرج من دارنا . والذى نعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يومْ البستان أنا والخولى ، فرأيت فيه نخل ، شى طويل ، وشى قصير ، وشى مايشبه شى ، فقلت له : دى ايه ؟ قال : بلح ، قلت : ودى ؟ قال : نبق ، قلت ودى : قال جميز ، قلت : ودى ؟ قال مشمش ، قلت ودى ؟ قال : توت ، ورأيت يابويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصحفة ، فقلت له ودى إيه ؟ فقال لى : موز ، فعجبنى قوى ، وقلت له : الموز يطلع فى البستان ؟ فقال لى : أيوه فقلت له : والجُبْن المقلى يطلع فين ؟ قال : يطلع فى طاجن الجبان ، وأنت تعرف أن بيتنا على دكان الجبان ، وأنا كل يوم آجى وأطل من الطاقة ، وعمرى ما رأيت فى الدكان نخيل جبن مقلى . وكابرت الخولى وراهنتو من دجاجتى الرقادة لنعجتو الحبلة . فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى . والذى أعرفكم به كمان أنى لما طلعت البلد ، ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة ، واشتريت لى حمارة سودة ، حتى لاتتوسخ

وبس كلام ، فإني لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين . بعد السلام على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كتير كتير ، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه ، وبالأمارة مطرت المطرة ، وأهل البلد كلهم يعرفوا إن شاء الله » .

وواضح أن ابن سودون كتب هذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره ، وهى لا تختلف عن لغتنا الحاضرة وقد جاء فيه بلازمة لأهل الصعيد اذ أبدل الهاء فى كلمة « لسه » عينا فقال « لسع » ونجد فيه أيضا بعض لوازم أهل الشام ككلمة « من هون » وكأنما كان المصريون فى عصر ابن سودون يضحكون من بعض اللوازم فى لهجة إخواننا أهل الشام .

وقد بنى الخطاب على التباله والغفلة منذ العنوان ، ونحن لانمضى فى قراءته حتى نراه يستشكل ، أو بعبارة أدق نرى فنين يستشكل على أبيه اذ أرسل يطلب منه حبل غسيل ولم يذكر له عرضه ، وكذلك أرسل فى طلب « الكشك » ولم يذكر هل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ ، وسأله بعض قلل والفلاحون لايزرعون القلل وإنما يزرعون القرع .

وهى كلها استشكالات تفسر عقل فنين ومايسمه من غفلة ، ويمضى على هذا المنوال ، فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه ، ويتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه ،

ويقول إن عينه رمدت ويريد أن يقول أنها اليمنى أو اليسرى ، فلا يسعفه بلهه ، فيقول إنها العين التى تكون ناحية المِشدّ حين خروجه من بيته ، ثم يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجارا من أنواع شتى ، وذهُل حين رأى شجرة الموز ، وسأل الخولى أين يطلع الجبن المقلى ؟ كأنه تصور الجبن المقلى فاكهة مثل الموز وتندر عليه الخولى فقال له : « يطلع فى دكان الجبان ».وذهب فنين يطلّ على الدكان ليرى شجرة الجبن ، فلم يجد شيئا فذهب يراهنه « من دجاجته لنعجته » . ويستمر ابن سودون ، فإذا صاحبه يذهب إلى السوق ، فيجد الصابون مرتفعا سعره ، فتسوّل له بلاهته أن يبيع فرسه البيضاء ويشترى مكانها أتانًا سوداء حتى لاتتسخ . ثم يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش .

وعلى نحو ما كان يداعب ابن سودون أبناء الصعيد على لسان فنين نراه يداعب بعض أصحابه من شيوخ عصره ممن كانوا يطيلون فى المناقشات اللفظية وما يتصل بها من بيان لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع . ونذكر مثالا لذلك حديثه عن الفرق بين المركب والفرس يقول .

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فروق من كم وش (وجه) الفرق الأول : أن المركب أثقل من الفرس ، بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ، ولو حملوا المركب على فرس ما تقدر

تحملها . الفرق الثانى : أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لايصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضا فان المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وايش ماخطر له بخلاف الفرس ، وأيضا فان المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر وظهر الفرس ما هى كده ، وأيضا فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث : أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هى كده . الفرق الرابع : أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون ، والمراكب ما هى كده . ولا يَرِد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوائم ولايندار ، لأن الكلام فيما يركب والسرير وان كان يركب إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس : أن بطن المركب مغرقة فى الميه وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الأفراق » .

واستمع إليه ، وقد استفتاه بعضهم فى الدجاجة هل هى من البيضة أو العكس ، فأفتاه على هذا النحو :

« لانَقْلَ عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولا ، ثم باضت ، وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوته المشهورة ، وهى : أحدتك حدوته ، بالزيت ملتوته ، كان

ما كان ، فى قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا نانا ، والنانا فى التنور ، والتنور يريد له حطب ، والحطب فى الجبل ، والجبل يريد لو فاس ، والفاس عند الحداد ، والحداد يريد له بيضة ، والبيضة فى الدجاجة ، والدجاجة تريد لها لقط ، واللقط فى الحظيرة ، والحظيرة تريد لها مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايجى من الساعة لشق الصباح . فقال : « والبيضة فى الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة فى البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة ، بل الوزة كذلك أيضا » .

وواضح أنه يستخدم مصطلحات بعض الشيوخ لعصره فى إجاباتهم من مثل : « لانقل عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر ، ولايختص ، وقال ولم يقل » وذكر الاصطلاح المعروف فى لغتنا الدارجة : « أحدتك حدوته بالزيت ملتوته » ، وقال : « كان ما كان فى قديم الزمان » أما الحكاية نفسها فلها أمثلة قصيرة تدور فى قصصنا العامى .

وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون فى عصره ، كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين من الصعيد وغير الصعيد . والحق أنه كان فكها مبدعا ، وكان يعتمد فى فكاهاته دائما على المفارقات المنطقية وما يطوى فيها من غفلة وبله . ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية ، بل كان يعمد إلى واقع حياته ومجتمعه فيتخذ مايريد من هزله ، إذ

كان يعرف كيف ينقل أقرب الأشياء والموضوعات منه إلى أدوار هزلية مضحكة ، وهى أدوار يضطرب إزاءها توازننا ، ونشعر كأننا قد خرجنا من عالمنا إلى عالم آخر ، هو عالم ابن سودون ، وهو عالم تعرض فيه الأفكار عرضا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلى عصرنا الهزليين فى أدوارهم الفكهة المضحكة .

فى العصر العثمانى

هزل في عصر الظلام

بالرغم من أن مصر أصبحت فى هذا العصر ولاية عثمانية ، وأن الظلام خيمً عليها فى كل شىء ، فساءت أحوالها الاقتصادية والعلمية والأدبية ، بالرغم من ذلك تظل لها طوابعها الفكاهية وقد تلمع فيها السخرية السياسية من حين إلى حين ، فالجبرتى يروى أن أهل القاهرة غضبوا على وال عثمانى ، فتجمعوا تحت قصره ينادون عليه معلنين غضبهم على بعض تصرفاته :

باشا ياباشا يا عين القمله   من قال لك تعمل دى العمله
باشا ياباشا يا عين الصِّيره   من قال لك تدبر دى التدبيره

وتجرى الفكاهة فى حياتهم رغم ما يجللها من بؤس وشقاء ، بل

إنهم يحوِّلون البؤس والحرمان والجوع إلى فكاهة وهزل فى الأطعمة وألوانها ولبعضهم :

قالوا تحب المدمِّس قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه قلت والكشكار

وهناك شخص يسمى عامر الأنبوطى ، كان فكها ، ويروى عنه : أنه كان كلما سمع لشخص قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل بضروب الأطعمة المختلفة ، وكان علماء الأزهر يكرمونه ، خوفا من لسانه ، وأن يقلب أشعارهم صنوفا من الطعام . وبلغ من إتقانه لهذا الصنيع أنه نظم ألفية (ألف بيت) على غرار ألفية ابن مالك المشهورة فى النحو ، ومن قوله فيها :

طعامنا الضَّانى لذيذٌ للنَّهِمْ   لحما وسَمْنا ثم خُبْزا فالتَقِمْ

ومنها :

والأصلُ فى الأخباز أن تقمَّرا   وجوَّزوا التقديد إذ لا ضررا
وامنعه حين يستوى الخرفان

وهو فى هذا ومثله يستخدم نفس ألفاظ ابن مالك ، ويحولها من النحو إلى الطعام ، ولا ريب فى أن ذلك كان يضحك الناس ، وخاصة من أكبّوا على حفظ ألفية ابن مالك ، إذ تفجأهم هذه الألعاب الهزلية بما يحفظون من صيغ ابن مالك وعباراته . ومن كلامه

على وزن لامية مشهورة فى الأدب العربى، تسمى لامية العجم، وكان العجم يفتخرون بها فى مقابل لامية أخرى تسمى لامية العرب، يقول معارضا لها:

طـال التلهُّف للمـطعـوم واشتعلتْ
حُشـاشتى بحمام البيت حـين قُلِى
أريـد أكـلا نفيســا أستعـين بــه
على العبادات والمطلوبِ من عملى
والدهرُ يفجـع قلبى من مطاعمـه
بالعدس والكِشْك والبِيصار والبصَلِ
ناديت هيا ولا تُبْـطى بِغَرفِـك لى
فـإنـه خُلق الإنسـان من عجَـلِ

وهذا كله هزل ودعابة، ودليل على أن المصريين لم ينسوا حتى فى عصور الظلام ما طُبعوا عليه من التندر والفكاهة.

هـزّ القحوف:

هو كتاب طريف أُلفّ فى هذا العصر لغرض تصوير أهل ريف مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ألفه شخص يسمى يوسف الشربينى، وكان عالما واعظا، ونظر من حوله، فرأى السواد الذى كان يغطى أودية مصر فى ذلك العصر، ورأى معه

تعاسة أهل الريف ، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبي شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم .والشادوف آلة معروفة يُسْقَى بها الزرع ، وقد يسمى أهل الريف المصرى شخصا باسم أبي شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه . ومن ثم سمى يوسف الشربينى قصيدته باسم قصيدة أبي شادوف ، وهى قصيدة من بحر الطويل ، ولكن لا تظن أنها ألفت باللغة العربية ، فهى عامية خالصة ، وقد وصف فيها حياة رجل الريف فى عصره بجميع صورها وألوانها من أكله إلى عمله فى حقله ، إلى صلته بالحكومة فى عهده ، وهو يسوق ذلك فى فنون طريفة من السخرية والهزل .

ولم يكتف يوسف الشربينى فى وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة ، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه فى شرح القصائد الجدية ، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب «هز القحوف» . وهو يتقدم هذا الشرح بقوله :

«ان مما مرَّ عليَّ من نظم شعر الأرياف ، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف ، قصيد أبي شادوف ، فوجدته قصيدا ياله من قصيد ، كأنه عُمل من حديد ، أو رُصَّ من قحوف الجريد ، فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته ، ولا يمكننى إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحا يحل ألفاظه السخيمة ، ويبين معانيه الذميمة ، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف ، وذكر فقهائهم الجهال وفقرائهم الأجلاف ! وياله من

شرح لو وُضع على الجبل لتدكدك، ولو نُقش على عمود الصوارى لتحرك . وقد سميت هذا الشرح «هز القحوف بشرح قصيد أبى شادوف» وأطلب من القريحة الفاسدة، والفكرة الكاسدة، الإعانة على كلام أعرفة من بنات الأفكار يحاكى كلام ابن سودون، فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة، لأن النفوس الآن متشوقة إلى شيء يسليها عن الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم».

وليست هذه الهموم والغموم التى يشير إليها الشربينى إلا ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رءوس المصريين من أسواط العذاب. ودائما نجد مصر حين يجثم على أنفاسها كابوس دولة أجنبية تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما يصنع الآن يوسف الشربينى. وهو لا يتخذ من شخصية بعض العثمانيين أو المماليك ما يريد من هزل وسخرية، فقد كان الحكم العثمانى قاسيا، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير. ومن أجل ذلك ارتد الشربينى إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل فى أسلوب لاذع من السخرية والتهكم، وصور أثناء ذلك ظلم الكشاف (المدير) والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه «العونة» وكيف كان الملتزمون يسخرون أهل الريف فى زراعة أراضيهم بدون

أجر. والكتاب لذلك يعد وثيقة مهمة فى تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه.

وقسم الشربينى شرحه : «هز القحوف» إلى جزأين كبيرين: جزء خصه بتصوير حياة أهل الريف وبيان ما هم فيه من جهل وفقر، وجزء خصه بشرح قصيدة أبى شادوف. ونراه يقول فى مفتتح الجزء الأول إن أهل الريف «ليس لهم انضباط، وأحوالهم شياط وعياط، وِورْدُهم عند الأسحار، التفكر فى الغنم والأبقار، وتسبيحهم فى الظلام، هات النبوت والحزام، وحط العلف، وهات الكلف». وتعرض بعد ذلك لغرابة أسمائهم وكُناهم، ثم وصف حفلة عرس من أعراسهم، وروى فيها عن بعض شعرائهم:

ياعروسه يا ام غالى	انْجلى ولا تبالى
انجلى يا وجه بومه	زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه	وجه ضَبْعه فى الرمال

ثم يصور الشربينى ما كان عليه أهل ريف عصره من بؤس وفقر، فمن ذلك أن شخصا منهم رأى فى القاهرة سمك (البساريا) فظنه الكنافة التى يتحدث الناس عنها. ويستطرد الشربينى إلى ذكر فكاهاتهم ونوادرهم فيروى أن رجلا منهم اشتكى شخصا إلى القاضى، وكان سبب الشكوى أنه نزل حقله بدون أذنه، وأخذ منه برسيما لدابته، فأحضر القاضى المتهم وسأله، فاعترف، إلا أنه

اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا، فسأل القاضى المدعى كيف تضربه؟ فرد عليه قائلا: «أتابيك ياقاضى تور، وأنت إذا نزلت غيطى يا هل ترى أضربك، داأنا أكسر قرنك ولا أخليك تطلع سالم».

ويضع الشربينى على أهل الريف نوادر يدل بها دلالة بينة على الجهل الذى كان سائدا حينذاك. ومما وضعه أن رجلا منهم سأل آخر: «إيش هجاؤك بربق؟ فأجابه: ب، ر، ب، ق، واو، فقال له: إيش عرفك أن فيها واوا؟ فقال له: دلتنى عليها النقطة التى فوق الواو، فقال له: إن عشت تبقى فصيحا لأخوالك!»

ويتسع الشربينى بوضع النوادر على فقهاء الريف مما يصور جهلهم الشديد، فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله تعالى: «يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى» ما معنى أقلعى؟ فقال الفقيه: «أى سيرى مثل المراكب المقلعة!». ومن ذلك أن فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى القاهرة، وطلب منه أن يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى! وهو مذهب معروف فى الفقه الإسلامى لا فى نحو اللغة وقواعدها.

ويعرض الشربينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا لا يلم به القارئ حتى يمعن فى الضحك، واقرأ له من خطبة:

«اعلموا ياأهل بلدنا أن عندكم قمح كثير، وتبن وشعير، وأنتم فى خير من رب العالمين، فأنتم تفيقوا لزرع الوسية (أرض الملتزم)

وإلا صبَّحكم الكاشف بداهية وبلية، وغدا تسرحوا للعونة والسخرة، وفيقوا «انتبهوا» للغنم والبقر، وافحتو أبياركم، وفيقوا لدوركم وجداركم، وأكرموا الخطار بالعدس والبيصار، تنجوا من عذاب النار. على ايش ياحبايب تهجرونا بلا سبب، الله الله! قولوا لا اله إلا الله، من وحَّد الله ما خيَّبه الله، آمين والحمد لله رب العالمين»

والخطبة كما ترى عامية، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن طعامهم «العدس والبيصار» كما أن فيها ما يدل على بطش الكاشف وما عُرف به العصر العثمانى من العونة أو السخرة ونحن لا نصل إلى قوله: «على ايش ياحبايب» حتى نفزع إلى الضحك على هذا الخلط فى خطبة الجمعة التى أريد بها إلى الوعظ الدينى، فإذا هى تخرج إلى هذا الهذر والهزل.

وأساس الفكاهات فى الكتاب المفارقة فى المنطق، فالحقائق تنقلب صورها أمامنا وتنعكس، وكان ابن سودون على مامر بنا فى غير هذا الموضع يقيم فكاهته على هذا الأساس، ويظهر أن الشربينى كان يتأثر به فى صنع فكاهاته، وقد ذكره وأشاد به غير مرة فى كتابه. ونقل عنه الخطاب السابق الذى كتبه أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة، وأضاف إليه خطابا أرسله بعض فقهاء الريف إلى صديق له فى بولاق، وهو يجرى على هذا النمط:

«السلام من الفقى أبو على اللى اسمه محمد على حضرة

صاحبنا اللى يطالع زى مايطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، وياما له علينا شهامة ، اللى يبيع الكتب المنظومة من الكلام زىّ قصة الجارية تودد والورد فى الأكمام ، حاوى الكتابة فى السطور ، ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وأنا فى شوق واشتياق لا يحمله جمل ولا ناقة ولاحمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة رأسك ما عوقنى إلا سرموجتى مقطعة . وأنا أقول لك شوف لى كتاب كنت شفته من زمان وسمعت به . آه عليه ! وياما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرايب . وأنا امبارح كنت رايح أشيع لك كلام افتكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ! الله ، الله لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو على واسمه محمد . وكتب عنوانه : « توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار ، ويوصلها لبولاق ، وواحد يوصلها لسوق الكتب اللى يقولوا فيه : حراج حراج »

وفى هذا الخطاب غفلة واضحة ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة .

وما يزال الشربينى يعرض علينا نوادر عن أهل الريف مازجا لها

ببعض النوادر القديمة التى قصها الرواة عن جحا وأبى نواس وغيرهما .

ويخرج الشربينى من هذا الجزء الذى اعتبره كالمقدمة لكتابه إلى الجزء الثانى الذى عُنى فيه بشرح قصيدته التى أشرنا إليها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التى قيلت فى هذا النسب على نحو مايصنع شراح القصائد الجدية . ثم يتحدث عن قريته واختلاف الرواة فى اسمها ، ويستدل لكل اسم بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة . ثم يتركها إلى الكلام عن أسرته وخاصة أباه البائس الذى كان يملك حمارا أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير .

ومازال يتكلم عن أبى شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل مايريد من التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، ويقف عند كل بيت من أبياتها ، فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد فى هذا الشرح على معجم لغوى يسميه « القاموس الأزرق والناموس الأبلق » .

والقصيدة ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف والطريف حقا شرحه لها وماساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف فى عصره وعاداتهم ومآكلهم ومشاربهم ومجتمعاتهم ومجالسهم وكيف كان العثمانيون يظلمونهم ، وينهبون طيبات أرضهم ، وكيف ساموهم

سوء العذاب . وكأن مصر بقرة حلوب فهم يعتصرونها ، ولا يبقون لأبنائها قطرة تروى ظمأ أو تشفى غليلا وطبيعى أن تفسد حياة المصريين وأن تتحول إلى هذه الصورة البائسة من الجهل والفقر . والشربينى يعرض علينا ذلك بفكاهاته ونوادره .

وفى هذا الجزء الثانى من كتابه خطبتان صاغهما على نسق خطبتى الجمعة الطويلة والقصيرة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات التى كان يحرم منها الشعب المصرى فى عصره ، ولا يعرف أكثرها إلا سماعا ، وهو يستهل القصيرة على هذا النمط :

« الحمد لله مزيل الحـزَنْ ..واعلموا أن اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن ، واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن المهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم ، وللأربعة الأعيان : التين والزيتون والخوخ والرمان .. والستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة : الماوردية ، والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة فى السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، والخرفان المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية ، متعنا الله وأياكم بهم أجمعين . اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ، مَنْ أصله من

القصب الملوانى . اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من أول النهار وفى وسطه وآخره ، اللهم وأهلك الثلاثة الفجار : العدس والبسلّة والبيصار . واقتدوا بسنة خير الآنام ، ولاتتضاربوا ولاتتخابطوا ، وكونوا عباد الله أخوانا » .

وعلى هذا النحو من الهزل تناول الشيخ الشربينى هذا الموضوع الجاد الصارم ، موضوع خطبة الجمعة ، وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى وتقريع ودعاء بهذه الطريقةالهزلية وما تحمل من لذع ساخر بما تصور من بؤس المصريين فى العصر العثمانى بؤسا لا يدانيه بؤس . وتعمَّد أن يجلب بعض الصيغ التى تعود الخطباء فى صلاة الجمعة أن يذكروها ولكن بعد أن حولها على طريقته الفكهة ، وما من ريب فى أن هذا كله فكاهة لما يحمل من مفارقة للمنطق والمألوف . والحق أن الشربينى كان من أعاجيب زمانه فى الهزل والسخرية والهذر والتندير .

فى العصر الحديث

المضحكخانه

رافقت المصريين هذه الروح الفكهة فى عصرهم الحديث ، وأكبر من اشتهروا بها فى النصف الثانى من القرن الماضى الشيخ « حسن الآلاتى » المتوفى سنة ١٨٨٩ وقد بدأ حياته بالدراسة فى الأزهر ، ثم تحول إلى الغناء ، فارتقى به ووضع كثيرا من أغانيه ، ومن أجل ذلك لقب بالآلاتى ، وكان خفيف الظل كثير الدعابة . وتروى عنه نوادر وفكاهات كثيرة ، من ذلك أن أحد الوزراء أهداه « مركوبا » فى يوم عيد ، فلما وصلت إليه الهدية أرسل يشكره قائلا : « إن كل شخص يحشر يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويقال إنه عاد إلى بيته يوما فسأل زوجته : « ماذا أعددت من الطعام » ، فقالت : « ليس عندنا طبيخ ، ولكن أعددنا لك خبزا

وشَماما » ، فجلس يأكل من الخبز والشمام ، وبينما هو فى طعامه إذ سمع رجلين يتشاجران فى الطريق ، وأحدهما يسب الآخر قائلا : « يارجل ياطبيخ » فأخذ الرغيف فى يده ، وخرج إليهما مسرعا ، وهو يقول : « أين الرجل الطبيخ ؟ » فضحك الناس وانفضت المشاجرة . وفقد بصره فى أواخر حياته ، وتصادف أن سمع رجلا يتغنى بين قوم بأغنية من أغانيه ، وهو يقول فى أثناء غنائه : « أنا اليوم أغنى كالشيخ حسن الآلاتى تماما » فقال له على الفور : « لا ، بس ناقص العمى ، يابنى » .

وله كتاب سماه ترويح النفوس يقع فى جزأين ، وقد بناه من الأزجال الفكاهية والمواقف الهزلية ، وهو يحدثنا فى مقدمته أنه اتخذ وجماعة من رفقائه الفكهين مقهى فى حى الخليفة سموه « المضحكخانه » كانوا يجتمعون فيه على التقليس والتنذير والفكاهة ، وقد نصب نفسه رئيسا على الجماعة . ثم يأخذ فى سرد هزلياته من أزجال وغير أزجال . وهو فى أكثره يقلب المواقف الجادة من مثل الدعاوى والعرضحالات إلى مواقف هازلة ، وكثيرا ما كان يتعرض للتهنئة بزفاف فيصوغه هذه الصياغة أو ما يماثلها :

« تهنئة للسيد العتيد الأعمى البليد . قد سرَّنا ما سمعناه من النائحة ، من عقد خرابيش المصونة ، الدرة المكنونة ، وإنه لما خفقت بالمضحكخانة أعلام السرور ، وعمَّ جميع المحبين الكدر والحبور ، بزواج البنت ، الست نسيم الصبا هانم ، سلالة الأخيار

البهايم لحضرة الشاب النشال ، الذى صار من الآن لقديم الزمان كثير المال فقير الحال » .

ويمضى فى مثل هذا الهزل الذى يصيبنا بغير قليل من الذهول لكثرة مايرتفع بنا ويهبط فى هذا المنحدر من منحدرات الضحك وهو منحدر يقوم على المفارقات إذ يذكر فى المديح مثلا الكلمة وضدها على نحو مايلاحظ القارىء فى أوصاف العروس السابقة وفى نحو قوله فى افتتاح خطاب : « إلى السيد المهاب والضبع الوثاب الصادق الكذاب عالم القصر (فى الصلاة) ومصلى الظهر وتارك العصر ، من تهابه الخرفان ولا تحتقره الشجعان » . وقد أكثر من الأزجال فى كتابه . وربما كان ألطفها ماأنشده بمناسبة زواج ابنته يصف ماأقامه لها من مهرجان حافل ، وهو يستهله على هذا النمط :

أحمد الله تمت افراحى الجليله
والحسود مكمود وأحزانه طويله
كنت يوم فى المندرة نايم ممطط
بعد موت أمى وأنا زعلان مزقطط
مادريت إلا ونسوان جَتْ بطبلة
اللى لابسه حبَرَه واللى لابسه سبله
قلت للزوجه الحقينى يا فلانه
قالت : اسكت دول نساء أصحاب أمانه

فيهم الحرة الكريمة أهل السيادة
ست دلآلة حمير تسمى سعاده

ثم يقول :

فى سنة خمسه وألف وتلتميه
فى ربيع الثانى كان عقد البُنيّه
والولد قاصر وأمه له وِليّه
أما أبوه نفسه مايطفيش الفتيله
قالت الزوجة الصداق جاب طقم صينى
قلت مقصودك بخزيك تقمصينى
لما أنام عريان تعالى قرفصينى
إن لقيت شيء خديه وانتى الوكيله
راحت السّكْره وجاتنى ألف فكره
صرت أحسب فى الجهاز كرّه بكره
نالت اخوانى الكرام أهل المبره
كل ماتطلب يجيك ولك الجميله
صار جهاز البنت يدخل بالمحارم
شيء كتير عم الأجانب والمحارم
ـن أكارم دأبهم فعل المكارم
لكن « الشمسى » بدأنا بالفضيله

والهمام من يأتى بابه كل وافد
أعنى عثمان بك رفيع المجد خالد
ابن قطب العصر راشد كل قاصد
اجعله فى دفع المهالك لك وسيله
وانتهى لى كل خير من بذل فكرى
واشتهر بين الخلايق فضل صبرى
جات مهمات الفرح والعرس تجرى
مثل ماتجرى ورا الناقه الفصيله
قلت للطباخ تعال اكتب لى قايمه
لاجل تبقى شهرتى فى مصر قايمه
جا جِلف ماياخد إلا الأجره صايمه
كان جدع صادق أمين إيده طويله
قال لى اكتب مركبين ملح انجليزى
وأربعين فدان فسيخ مدموغ باريزى
ألف قنطار توم وربع فريك عزيزى
غير حصانين فجل وأردبين بِليله
ألف قنطار زيت قزازه للقطايف
لتربية فول مدمس للخشايف
مش قنطار للبلوظة والنواشف
عدس فدانين وقطعة جنزبيله

طن بقـدونس بـسـله ألـف رزمــه
يـلحـوا الـسـلطة يخلّوهـا جمـيـله
بعد عشرين عصر من شوال افندى
ليلة السبت ابتـدت بالفـرح عنـدى
من عشـاهـا والأمم تقـطـر وتنـدى
مثـل كثبـان رمــل من وادى مهيله
فجر يوم السبت لاح وفضلت أهاتى
دور أقـول يانـاس ودور يـامسلكـاتى
حـين سمعنى استغيـث روى لهــاتى
دق لـيـله مــالهـا لـيله مـثـيـله

ويستمر فى هذا الهزل الذى كان يملأ به « المضحكخانه العلية » والذى كان دائما يتحول إلى تهريج واثارة للضحك وكأن الآلاتى أراجوز والناس من حوله يتفرجون من أمثال حسن (بك) الشمسى وأحمد (باشا) راشد وعبد الله (باشا) فكرى ، وهم يضحكون وهو لا يكف عن تهريجه وهزله .

ألقاب وأدباء

من طريف ما كان فى عصر إسماعيل وابنه توفيق أن إبراهيم طاهر وعبد الحميد نافع أخذا يستعرضان الأدباء والشعراء فى عصرهما ويعطيان لكل أديب ولكل شاعر لقبا على سبيل التندر.

فمن ذلك أن محمود صفوت الساعاتى كان نحيفا قصيرا كثير الحركة والتلفت حتى إنه يشبه الديك فى كثرة وثباته ولفتاته ، فسمياه ديك الجن وهو اسم شاعر قديم . وكان السيد على أبو النصر نديم إسماعيل وشاعره طويلا طولا مفرطا ، فسمياه ابن العماد ، وهو من المؤلفين الماضين . واشتهر على الليثى بالظرف والفكاهة ، فسمياه أبا دلامة ، وهو اسم نديم عباسى ، وكان محمود سامى رشيقا فى القد والقامة ، فسمياه ابن رشيق ، وكان فى عين السيد صالح مجدى بعض حوص (ضيق) فسمياه الأحوص ، وكان الشيخ حسين المرصفى ضريرا ذكيا فسمياه أبا العلاء ، وكان صِهره الشيخ زين المرصفى لا يتكلم إلا قليلا ، فسمياه ابن السكِّيت .

وعلى هذا النحو كانا ينتخبان لاسم أحد المعاصرين من الشعراء أو الكتاب اسم شاعر أو عالم قديم يدلان باشتقاقه على ما يريدان من تصويره .وتبعهما فى ذلك محمد أكمل ، فسمى طائفة ممن عاصروه أسماء جديدة مثل ابن المقفع وابن هرمة ، وهو اسم شاعر عباسى ، وكل ذلك لغرض الضحك والتندير .

ولم يكن بين المصريين حينئذ أديب أو شاعر إلا وهو يشارك فى هذا الفن من الدعابة والفكاهة ومما يروى من ذلك أن رياض (باشا) كان يشغل وظيفة « المهردار » فى عهد إسماعيل ، وأمر أن يوضع لكل حجرة فى قصر عابدين عنوان يدل عليها ، وكان بين

الغرف غرفة خاصة بالشيخ على الليثى نديم إسماعيل وشاعره ، فأمر أن يكتب عليها « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » مداعبا بذلك الشيخ الليثى ، فلما وقع نظره عليها لم يلبث أن أنشد :

كان عندنا ساقيه عجب   تسقى (رياض) الجلنار
دوّرنا فيها التور عِصِى   دوٌرنا فيها (المهر دار)

والتورية واضحة. ومما يروى عن عبد الله (باشا) فكرى أديب القرن الماضى المشهور أنه رأى شيخا يسمى « السمنى » جالسا فى موضع ظاهر للشمس فقال يا شيخ سمنى أما تخاف أن تسيح من الشمس ، فأجابه توا أنا أقدح فكرى .

وكان محمد عثمان جلال مترجم موليير فى القرن الماضى خفيف الروح ميالا للفكاهة والدعابة ومن النكت المستملحة التى تروى عنه أن محمد سكر الكتبى دعاه مع جماعة من الأدباء لتناول الغداء عنده ، وتأخر الغداء ، فدخل محمد سكر يستعجل الطابخين ، وغاب ، وسمع المدعوون « الهاون » يدق دقا شديدًا ، فتساءلوا ترى ماذا يصنعون ؟ فأجاب محمد عثمان جلال على الفور : دول بيكسروا راس سكر . وتأخرت ترقيته فى عهد رياض (باشا) ناظر النظار، فكتب إليه :

الخير على الناس عم وفاض   وكل إنسان استكفى

وبس نـا يا عم ريـاض وقعت من خـرق القفـه

ومما كان يتهكم به المصريون ويتندرون به فى مجالسهم أثناء هذه الفترة التركية من حياتهم مصورين عجرفة الترك عليهم بينما يأكلون من عرق جبينهم وخيرات بلادهم هذه السخرية التى كانت تدور على كل لسان قالوا : « إن محمد أغا التركى كان يتسول ويقرع الأبواب فى عنف » فيقال له : « من ؟ » فيقول : « هات حسنة لسيدك محمد أغا »

وعلى نحو ما كانوا يتهكمون بالترك كانوا يتهكمون بالأجانب الذين يبتزون أموال المصريين عن طريق الربا الفاحش، ويتندرون عليهم ، فمن ذلك أن أحدهم لقى بعض الفلاحين فى يوم شديد البرد، واسترعى نظر أحدهم أنه لا يلبس قفازا فى يديه، فلما قال ذلك لبعض رفاقه أجابه توا أنه ليس فى حاجة إلى قفاز مادامت يداه فى داخل جيوبنا. وأخذت تكثر الصحافة الهزلية، وتكثر فيها الفكاهات السياسية والاجتماعية.

الصحف الهزلية

لم نكد نوجد لأنفسنا صحافة يومية فى عصر إسماعيل حتى ظهرت صحف هزلية، تستمد من هذا الجانب الفكه الخالد فينا ،

زكاه فيها أننا أخذنا نطلع على الصحافة الغربية ونقتبس مما فيها ن سخرية ونقد لاذع فى السياسة وفى المجتمع . وبذلك أخذت كاهتنا تتحول من الهزل والقفش والتورية اللفظية إلى كل خلل فى بياتنا السياسية أو حياتنا العامة ، فتستخرج منه السخرية واللفظة لمضحكة .

وبذلك خرجت فكاهتنا من طور إلى طور، فاستبدلت بالأشخاص واللغو مصالح الأمة، وبسلوك الفرد سلوك الجماعة . وأشهر من بدأ هذا التطور صنوع وعبد الله نديم، ويعرف الأول بصحيفته الهزلية « أبو نظارة » بينما يعرف الثانى، وهو من زعماء لثورة العرابية، بصحيفتيه : « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » ونقف وقفة قصيرة عند كل صحيفة من هذه الصحف، ثم نتحدث عن صحف أخرى تلتها .

أبو نظـــارة

أنشأ يعقوب صنوع هذه الصحيفة سنة ١٨٧٦ وكانت تجرى على ألسنة المصريين باسم « أبو نضارة » وقد استعان فيها باللغة الدارجة والصور الكاريكاتورية ، وصب شواظا من نار على الخديوى إسماعيل وسياسته الخرقاء وجشعه وبذخه، فأغلق صحيفته سنة ١٨٧٨ ونفاه من البلاد فذهب إلى فرنسا . ومن هناك كان يرسل بصحيفته إلى مصر فى أسماء مستعارة حتى تصل إلى

قرائه، فمرة يسميها « أبو صفارة » ومرة يسميها « الحاوى الكاوى » ونحو ذلك .

وصنوع فى هذه الصحيفة يصور فى وضوح الروح الوطنية التى بثها جمال الدين الأفغانى وتلاميذه من أمثال الشيخ محمد عبده. وكان لصنوع فيها هدفان: مهاجمة الامتيازات الأجنبية ومهاجمة الخديوى إسماعيل وسياسته الحمقاء وظلمه الصارخ للمصريين، وهو يصور ذلك فى مقالات وقصص ورسوم كاريكاتورية ساخرة. وتارة يسمى إسماعيل شيخ البلد أو شيخ الحارة، وتارة يسميه « فرعون » إلى غير ذلك من أسماء .

ونعرض لبعض رسومه التى تصور فساد الحكم حينئذ، فمن ذلك صورة تضم فلاحا هزيلا، وبجانبه إسماعيل سمينا بطينا وأمامه رئيس وزرائه، وفى يده اليمنى سلة عليها مأكولات فاخرة وفى يده اليسرى سلة أخرى بها قوارير خمر مختلفة. وكتب تحت الفلاح «يا مسلمين اشفجوا الفلاح بيموت من الجوع» وكتب تحت إسماعيل على لسانه: «أنا سمنت من اللحم وشرب الخمرة وأنا خايف من الجماعة (يريد الفلاحين) يغلبونا» وكتب تحت الوزير «كلهم (يقصد الفلاحين) فى جيبى ده، وأنت خليك وراى ياسيدى ولا تسأل، والأكل الطازة العظيم والشرب الفاخر والتحويش فى الزيادة دايما». وفى صورة أخرى نرى إسماعيل واقفا ووزيره

ممسكا بفأس والفلاحين غرقى فى مياه النيل. وواضح أن الصورة رمز للسخرة الملعونة. وفى صورة ثالثة نرى إسماعيل يتقدم حاشيته وفى يده مسدس مصوب إلى جمع من الفلاحين تجمهر على باب قصره، وهم يقولون: «يحق لك يافرعون تشرب مُدام (خمر)، وتعمل ولايم وتصطاد حمام، ولا تعطى للفلاح الجعان اللى على باب سرايتك يطلب الإحسان، إنما ربنا أحباله طوال، برضها مصر فيها رجال».

ومن الصور الساخرة صورة يبيع فيها إسماعيل الأهرام، وواضح أنها ترمز إلى تفريط إسماعيل فى حقوق بلاده، وأنه لم يبق فيها على شىء لم يبعه للأجانب، وأنه بصدد أن يبيع الأهرام. حتى الأهرام وأحجارها يريد أن يخرجها من بلاده.

وبجانب هذه الصور تكتب الصحيفة المقالات والمحاورات التمثيلية التى تنتقد سياسة إسماعيل أو فرعون مصر كما تلقبه، وهى تسوق فى أحاديثها عنه تأنيبا وتعنيفا شديدا له. ولا نرتاب فى أن هذه الصحيفة الهزلية تعطى صورة صادقة لإسماعيل وحكمه، وهى أصدق من كثير مما كتب عنه فى كتب التاريخ!

ونجد يعقوب صنوع فى أعدادها التى صدرت بمصر يصور ما كان عليه الفلاحون من بؤس، وكيف كان يشتط إسماعيل وأعوانه فى جمع الضرائب، وهو يسوق ذلك فى شكل محاورات تمثيلية

بين هؤلاء الفلاحين وأعوان إسماعيل من الترك الذين كانوا يحكمون الشعب حكما جائرا ظالما . ويزعم أنها محاورات تاريخية حصلت فى أيام العز سنة ١٢٠٤ للهجرة حتى يحتاط لنفسه ، ويعنونها بعناوين ساخرة من مثل القرداتى ، أو حكم قراقوش . وجعل شخوص محاورة : السنجق ظالم أو غلو ، وطرطور أغا القواص، وأبو نفوسة شيخ البلد ، ويدور الحوار على العوايد والضرائب والأموال والسخرة . ويجرى على لسان أبى نفوسة احتجاجا على السنجق وما يطلبه من الضرائب الباهظة ، إذ يقول له : « هو انتو خليتوا فى البئر بكرة أو سلبة ، والتور ، وحياة السنجق ، بعناه بربع الثمن . بجا أجيب من الهوا المحابيب (الفلوس) للعوايد، والدواهى الحارة دى كلها اللى خربتنا وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن » . وعلى هذا النحو لا يزال يعقوب صنوع يصف المظالم التى كانت ترهق كاهل الشعب وتجثم على صدره بأثقالها لعهد إسماعيل .

وأغلقت صحيفته – كما أسلفنا – فى سنة ١٨٧٨ ونفى من مصر ، فتوجه إلى باريس ، وهناك أخذ يصدر صحيفته ويرسلها– كما مرّ بنا – إلى مصر بأسماء مستعارة ، حتى يمكن دخولها إلى البلاد . وقد كفى مئونة الحيطة والحذر من إسماعيل وبطشه وبطش أعوانه ، فتحول يكويه ويشويه بسياطه فى صراحة مرة وسخرية لاذعة على نحو ما نجد فى هذه المحاورة التى أجراها

فى أول عدد نشره هناك، وهى تدور بين شيخ الحارة (الخديوى اسماعيل) وأبى نظارة وأبى القلب «الفلاح المصرى» وفيها يقول:

شيخ الحارة – التوبة من دى النوبة، اشفق يابو نظارة، على عمك شيخ الحارة. جريدتك ضربها قاسى، أخاف منها على راسى. دى حطت فى قلبى الرعبة، بأقوالها المخيفة الصعبة. إذا رفعت عنى الجريدة، أرجع لطرايقى الحميدة.

أبو نظارة – أنت عمرك ما تتوب، ولو رجموك بالطوب. دا أنت أمرك عند الجميع معلوم، بقى كيف أشفق عليك يامشوم، والله ما أرحمك، يامطعم الناس للسمك، ياخبيث يامسموم الريق، ياقاتل الصديق.

أبو القلب – ما تشفجش يابو نظارة، الشفجة فى الفاجر ده خسارة، ده قتلنا من الظلم والجور، ونازل علينا زى ما ينزل السواق على التور. داهيه تلمه، وتعتقنا من ظلمه.

ومعروف أن أحوال مصر كانت تتطور فى تلك الايام من سيىء إلى أسوأ فقد قضى إسماعيل بتبذيره على ماليتها الغنية وأنقض ظهرها بديونه التى بلغت بهوسه وجنونه أكثر من مائة مليون جنيه، وتدخلت فرنسا وإنجلترا فى شئونه، وأكرهتاه على أن يعهد رئيس وزرائه الأرمنى نوبار (باشا) إلى ولسن الانجليزى بوزارة المالية وإلى دى بلينير الفرنسى بوزارة الأشغال. ورضخ إسماعيل، وأخذ

يرهق المصريين من أمرهم عسرا بالضرائب الفادحة . ونرى يعقوب صنوع يصور بؤس الفلاحين إزاء هذه الضرائب وما وقع عليهم وعلى البلاد فى هذا العهد المظلم فى محاورة تخيلها قد وقعت فى مجلس الأعيان المصرى (الذى كان قد أنشىء حين ذاك) وهى تجرى على هذه الصورة :

رئيس المجلس - سعادة ناظر (وزير) المالية أرسل لنا إفادة رسمية ، باللغة الإنجليزية ، لأجل الضرائب الميرية ، لسداد الديون المصرية ، وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين أفرنجية ، ودفع المتأخر من الماهية (كانت الحكومة قد توقفت عن دفع رواتب الموظفين وضاعفت الضريبة السنوية المفروضة على الفلاحين) . والذى يتأخر عن السداد بالطريقة الحِبِّية ، يعامل بالقوة الجبرية ، وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية ، وأفندينا (إسماعيل) قرّ على هذه القضية ، فكل منكم يبدى رأيه بالحرية ، ولا تخافوا من شىء بالكلية .

الشيخ عبد العال (عمدة إحدى القرى) - إن كانت المادة نفاق ، فاحنا نقر بالوفاق ، وإن كانت حُرِّية ، نبدى أفكارنا القلبية .

الرئيس - شوف ياشيخ عبد العال ، أنا لا أعرف النضال ولا المحال ، وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية ، وسلامة طوية .

الشيخ عبد العال - المادة مش حاوجة مداولة ، ولا كثرة محاورة إحنا قبلنا كل النوائب اللى مرت علينا مع جميع المصائب ، وبعنا

ما ورانا وقدامنا، ولا بقاش حاجة أمامنا، ده إحنا ضاع عشمنا فى سى فلسن (وزير المالية الإنجليزى فى وزارة نوبار) والجماعة الأورباوية، وربنا يغنينا بفرجه العميم، ويولِّى علينا رجل كريم حليم، ويعتقنا من جور شيخ الحارة (إسماعيل) اللعين اللى سخمط وش الحمارة طين، وأنا، وحياة راسك مافيش فى دارى ولا كيلة غلة، ولا جاموسة ولا عجلة، ولا قرص جلة. فيكفانا ظلم وخسائر، والله أعلم بما فى الضمائر، وما تنطوى عليه السرائر.

الرئيس - وأنت قولك أيه يا شيخ محمد؟

الشيخ محمد (أحد العمد) - إحنا لا نعرف مدير مالية، ولا ناظر خارجية، دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الأعوج وهم لابسين بتوع طوال اسمها برانيط، ويدردعوا (يشربوا) نبيذ كثير، ويتغدوا بلحم الخنزير، أما إحنا ناس هوارة، نعرف طيب فى تربية الفرس والحمارة، واعرفْ سعادتك أننا مانقبلش زيادة ضرائب ولا كثرة مصائب، وعاوزين نخفف المربوط، ولا نسأل عن فلسن ولا مربوط، وأن انفلق شيخ الحارة، ما ندفع ولا باره. وإلا إن كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان، فإحنا وخْلانين، وعن ذاتكم مستغنيين. وإن كنتم عاوزين النياشين بتوعكم خذوها، والفلاحين أهى قدامكم كلوها، لأن بلدنا، وحياة راسك، بعدما كانت حايزه كمال اللطافة، أصبحت من كثرة الظلم كوم شقافة.

والله يجازى ابن الحرام.

وفى فصل من فصول صنوع الطريفة يصور لنا إسماعيل ساهرا حتى الفجر، يناجى نفسه،وقد أوشكت السفينة على الغرق وهو مُفْضٍ إلى وساوسه وأوهامه، يسب نفسه ويلعنها ويلعن الأيام التى ساقته إلى ولاية مصر، ونسوق أطرافا من هذه المناجاة:

«راحت عليك يابو السباع، الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة، ده كان يوم نحس، وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين، المكتوب على الجبين لازم تراه العيون، نعمل إيه فى طمع الدنيا؟ أدينى صبحت أشقى مخلوقات الله والخوف قاتلنى: مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى، وبرضه مرعوب وكل ما اسمع حد جاى علىَّ، انفزع وقلبى يطب، وأقول فى نفسى: آهم ضباط الجهادية وتلامذة المدارس وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى ويقبضوا روحى ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتها بغاية التعب والمشقة. بلا هلس، ده أنا سيدهم فى المكر ولا أخاف من ملك الشياطين. أما الجماعة مستحلفين لى بحتة علقة صَنْعة. ما يطلعش من إيدهم حاجة، البصاصين كثير ومأمور الضبطية جدع. أما أبو نظارة اللعين راح جدد له جرنال ثانى، وقال إنه فى حب الوطن. آهو زى الكلب اللى ينبح، خليه يعوى. آه يا إسماعيل أنت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده، إنما قلبك بيرجف وضميرك فى قلق، أهو الليل بيفوت بطوله، وعينك

ما بتدوق النوم. آديني سامع تشخير الأغاوات، يابختهم دول مبسوطين ولا هم عارفين الدنيا بتعمل بهم إيه، والناس اللى ما تفهمش الصورة إيه تقول عليهم دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا، آه يامغفلين والله ما أحد محروم غيرى أنا لكونى ما بستلذ لا بأكل ولا بشرب من خوفى أن خداميني يسمّونى. ولما أخرج من البيت، كلما أعدى على شارع وأجد فيه زحمة يبان لى يوم القيامة جاء، وأنظر يمين وشمال، ومن لحظة إلى لحظة يتراءى لى أن العالم رايحة تهجم على عربيتى وتهلكنى. آه من عيشتى، ما أمرها، والعمل إيه؟ الشيطان يدبرنى...»

وواضح ما فى هذا الفصل من تهكم على إسماعيل وما يوحى إليه شيطانه، فهو قلق يائس قد قطع الرجاء، ومع ذلك لا يزال يمنيه خنّاسه الأمانى، وقد أحس فى عمق غضبَ الشعب عليه وأنه يكاد يطير به طيرة بطيئا سقوطها، ويملأه الرعب والقلق والخوف، حتى من طعامه وشرابه، ولا يغدو أو يروح فى القاهرة إلا ويرى الموت نصب عينيه، فالمصريون متربصون له ولابد أن ينقضّوا عليه ويفتكوا به فتكا ذريعا. وكل ذلك يعرضه يعقوب صنوع فى أسلوبه الساخر. ونراه فى فصل آخر يدير محاورة بين إسماعيل (شيخ الحارة) وابنه توفيق ومعهما بعض الوزراء يحملون أوراقا وحقائب من ناحية وبين عدد من الموظفين مثل عمر شهامة ومجدع وحدق ومعهم مشايخ الأزهر من ناحية ثانية. وهو فى هذه المحاورة يتخيل

المصريين قد ثاروا بإسماعيل ونفوه عن البلاد، وهى تمضى على هذه الشاكلة:

ضجة تسمع من بعيد، هى ضجة الثائرين وبينهم مشايخ الأزهر يحضون على الثورة، ويقول توفيق: حتى المشايخ ضدنا.

شيخ الحارة (إسماعيل): نعطى لهم جراية (خبزا) يسكتوا!

وتصل طلائع الثورة ويسلّ «مجدع» سيفه، وقد رأى إسماعيل يهم بالهرب، فيقول له: طالع تجرى على فين؟ ويتناول «حدق» الأوراق والحقائب التى كانت فى يد أعوان إسماعيل، ويعطيها للضباط والتلاميذ.

عمر شهامة لإسماعيل: آه يا خاسر، ياما عملت فينا؟

حدق: لما توليت يا فرعون، القطر ماكانش مديون، واليوم عليه مائة مليون، والمبالغ دى كلها راحت فين؟

مشايخ الأزهر: بنى بها سرايات، وصرفها فى الفسق والفساد.

عمر شهامة: وبدل ما يساعد الفلاح، ويصلح أحوال الزراعة اللى هى سعادة أهالى القطر، فرعون بسلامته نهبنا وباع أطياننا ومواشينا، وموتنا من الجوع.

مشايخ الأزهر: فرعون كافر وآخرته الجحيم، وربنا كريم حليم.

أبو الخير (إلى الضباط): نسلمكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره، اذهبوا بهم إلى الإسكندرية وأنت يا مجدع (باشا) سلمهم

إلى قبطان المركب العثمانية، وهو يجرى اللازم.

وينفذ ذلك الضباط، ويضربون كل من يجرؤ على المعارضة. ويزعق شيخ الحارة: الحارة حارتى وأناشيخها، وأنتم مالكم ومالى.

مشايخ الأزهر: جرجروه، ما تسمعوش كلامه. ويغنى الجميع:

انت فين يابو نظاره تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحاره وعلى أولاده المنحوسين
النهارده يوم عظيم افرحوا يا أهل النيل

هذه صور ساخرة من المحاورات والمقالات التى كان يكتبها يعقوب صنوع فى مجلته «أبو نظارة» وهى تدل دلالة واضحة على براعته براعة منقطعة النظير، فى التهكم واللذع السياسى وما يحمل من سهام مصمية. وكان كثيرا ما يضيف إلى هذه المقالات والمحاورات أشعارا عامية يصور فيها أطرافا من المهزلة السياسية التى كانت تمثّل حينئذ أمام الشعب كله وفوق أرضه. وقد ينطق إسماعيل بهذه الأشعار، يصف سوء حاله ووبال أمره من مثل قوله:

إيه دى العباره المتعوسه صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فىَّ مغروسه دى وقعتى وقعة خرفان
شرّم برم حالى غلبان

ما اعرفش إيه من دا الطالع مقصـــودهم أبقى خـالـع
واطلع كده منفّض قالـع يامحلى لمـا أصبح عـريان
شرم برم حالى غلبان

وجابوا لى عمى الشيخ نوبار وعـملوه رئـيس الكـبـار
يحمرّ لى عينه زى النار وأنا قاعد قصاده جُرْبان
شرم برم حالى غلبان

ومازال صنّوع يرمى إسماعيل بصوائب سهامه الشعرية والنثرية، حتى انكشفت غمة حكمه عن صدر مصر، وخُلع سنة ١٨٧٩م . وحمل من بعده على ابنه توفيق وهوسه وحمقه . ولما نشبت ثورة عرابى وتطورت الظروف واحتل الإنجليز مصر ظل يصوِّب إليهم وإلى توفيق حرابا مسمومة من أعداد صحيفته، يضمنها سخريته اللاذعة وتهكمه المرير . وكان يتخذ هذه الحراب غالبا مز الشعر العامى على نحو ما نرى فى قوله:

مســتر تــوفيق ابن إسمــاعيـل
مــالــه رفـيـق فى وادى النيـل
النـاس سـابـوه لكـونـه خـان
مـصـر واخـوه حتى الـسـلطان
بـاع لـلأجنبى كـل الأصحـاب
أهـبـل وغـبـى غشـاش كـذاب

في مصر رجال يخلصوهم
من الأندال اللى باعوهم

وواضح مما قدمنا عن يعقوب صنوع أنه كان يتقن النقد سياسى الساخر إتقانا رائعا، وقد استطاع أن يخرجه فى صور عدة من الرسم الكاريكاتورى ومن المقالات والمحاورات تمثيلية والشعر. وهو يعد فى ذلك كله نادرة من نوادر زمانه.

لتنكيت والتبكيت

هى أول صحيفة أخرجها عبد الله نديم، وكان ذلك سنة ١٨٨١ م وكانت وجهته فيها خلقية اجتماعية. وهو فيها يكتب تارة باللغة الفصيحة وتارة بالعامية. وهذا نموذج من تنكيته وتبكيته وضع له هذا العنوان: عربى تفرنج. قال:

«وُلد لأحد الفلاحين ولد، فسماه زعيط، وتركه يلعب فى التراب، وينام فى الوحل، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة، يسرحه مع البهائم إلى الغيط، يسوق الساقية ويحوِّل الماء، وكان يعطيه كل يوم أربعة جندولات (أرغفة) وأربعة أمخاخ بصل. وفى العيد كان يقدم له «اليخنى» ليمتعه بأكل اللحم والبصل. وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار فقال لأبيه: لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلَّم وصار إنسانا» فأخذه وسلمه

لى المدرسة . فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوربا لتعلم فن عينته له ، فبعد أربع سنين ركب الوابور ، وجاء عائدا إلى بلاده . فمن فرح أبيه حضر إلى الإسكندرية . ووقف برصيف الجمرك ينتظره ، فلما خرج من الفلوكة ، قرب أبوه ليحتضنه ويقبله ، شأن الوالد المحب لولده ، فدفعه فى صدره ، وجرى بينهما هذا الحوار :

زعيط : سبحان الله ! عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا .

معيط (أبوه) : إمَّال يا بنى نسلم على بعض إزاى .

زعيط : قل بون أريفى (Bonne arrivée) وحط إيدك فى إيدى مرة واحدة ، وخلاص !

معيط : هو يا بنى أنا باقول منيش ريفى .

زعيط : موش ريفى يا شيخ أنتم يا أبناء العرب زى البهايم .

معيط : الله يسترك يا زعيط ! والله جا خيرك . يا ابنى فوت روح فوت . فلما وصل به إلى الكفر (القرية) قامت أمه وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ببصل ، فلما رآه قال لها : ليه كترت من الـ .

معيكه (أمه) : من ال إيه يا زعيط ؟

زعيط : من البتاع اللى اسمه إيه .

معيكه : اسمه يا بنى الفلفل .

زعيط : نو ، نو ، ال ده ، ال بتاع اللى ينزرع .
معيكه : الغلة يا ابنى .
زعيط : نو ، نو ، ده اللى يبقى لو راس فى الأرض .
معيكه : والله يا ابنى ما فيه ريحة التوم .
زعيط : البتاع اللى يدمع العينين ، اسمه «أونيون» .
معيكه : والله يا ابنى ما فيه أونيون ، دا لحم ببصل .
زعيط : سى ، سا ، بصل بصل .
معيكه : ويا زعيط يا ابنى تسيت البصل ، وانت كان أكلك كله منه .

وهذه صورة بارعة لعبد الله نديم فى السخرية ممن يتعلمون يسافرون إلى أوربا ويعودون فيبرأون من بلادهم وأسرهم وأوطانهم ، لأنهم أصبحوا عبيدا للغرب وكل ما هو غربى ، فلا يجلون ولا يحترمون إلا ما شاهدوه لدى القوم ، بينما يهزأون بكل ما هو شرقى ووطنى ناسين حقوق بلادهم وأهليهم .

ومن أمثلة نقده الاجتماعى ما كتبه تحت عنوان : **محتاج جاهل فى يد محتال طامع** ، وهو يجرى على هذا النمط :

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد أحد التجار الأجانب ، وطلب منه المبلغ ، فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور أحد النبهاء :

الزارع : عاوز مائة جنيه بالفرط (بالربح) يا سيدى .

التاجر : فرط المائة عشرين كل سنة .

الزارع : اعمل اللى تعمله .

التاجر : شيل عشرين من مائة يبقى كام .

الزارع : لهو أنا كاتب ، شوف يفضل كام .

التاجر : يبقى سبعين .

الزارع : يادوب كده .

التاجر : دى الوقت صار لى مائة جنيه ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة .

الزارع : اكتب وخد الختم أهو .

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب من السمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير ، وجاء يحاسبه ، فكانت الحكاية هكذا :

الزارع : طلع لى ورقة بالحساب ياسيدى .

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه ، وقمح بعشرة جنيه وسمسم بثمانية جنيه وفول بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه ، يبقى الجميع كام ؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المرة ما اعرفش الحساب .

التاجر : يبقى أربعين جنيه ، شيلهم من مائة وعشرين يبقى الباقى كام ؟

الزارع : مين يعرف ؟ شيء كتير .

التاجر : الباقى تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مائة وخمسة عشر طالب انت كام ؟ تلاتين ، يبقى مائة وستين ضم عليهم أربعين فرط (ربح) تبقى الكمبيالة تنكتب بمائتين وعشرة ونصف .

الزارع : هو ايه ؟! مش الأصل سبع عشرات وعشرتين ، وجالهم تلاتين وتلاتين ، شيل منهم تمن البتوعات اللى جبتهم يبقى لك دى الوقت مائتين وعشرة بس ، والنص جبته منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتى ، ليس من الأرباح .

الزارع : أيوه دى الوقت صحت الحسبة . السنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه يبقى لك أد إيه بعد كده ؟ يا جنيهين يا تلاتة ، خد لك بهم جاموسة ، وتبقى على رأى المثل : شيل ده على ده يستريح ده من ده .

وهذه الحكاية كسابقتها فيها مبالغة مسرفة ، ولكننا نحصل منها على صورة مقاربة كاريكاتورية أو مضحكة ، إذ كان النديم يعرف كيف يكبر العيب الخلقى أو الاجتماعى تكبيرا لا نلم به حتى يغلبنا الضحك لما عرض فيه العيب من استطالة وتشويه .

الأستاذ

أخرج عبد الله نديم هذه الصحيفة سنة ١٨٩٢ وقسمها بين

الفصحى والعامية ، يكتب فيها المقالات السياسية ، كما يكتب حوارا عاميا بين شخصين من الشعب أو أكثر يعرض فيه لجانب خلقى أو اجتماعى بالنقد يكسوه هذه الحلة الفكاهية التى مرن عليها فى التنكيت والتبكيت .

وفى كل جانب من الصحيفة نجده يعيب الانسياق الشديد نحو أوربا كما يعيب السقوط فى مهاوى الرذيلة . وعنى عناية خاصة بالدعوة ضد الخمر ، وما تجره على صاحبها من ضياع دينه وماله. ومن طريف ما كتبه فيها « صورة عرضحال خامورجية بندر طنطا » وفيه يقول على لسانهم :

« إننا كنا أكثر الناس فى الليل جنودًا ، ومعاملة ونقودا ، كانت تأتينا السكارى من عمد ، ومشايخ بلد ، وأرباب الرواتب ، وأصحاب النكت والغرائب ، فيدخلون علينا من كل حَدب ، بغاية الخضوع والأدب ، فيجلسون حيث نأمرهم ، ولا يتكدرون منا ولو ننهرهم ، ويأكلون ويشربون ، ولا يبالون : يربحون أو يخسرون . حتى إذا دبت الخمر فى رءوسهم ، ولعبت بنفوسهم ، قاموا يهتزون وهم السفهاء ، ويرقصون ولا رقص عواهر النساء ، فتارة نضع فى عنق الواحد منهم حبلا ، ونسقيه من كؤوس السخرية ذلا ، ونأمره ولا مائة مرة بالقيام والقعود ، وهو يضحك ويلعب كأنه ، ولا تشبيه ، من بعض القرود ، وتارة نصفعه على قفاه باليد أو بالنعال ، وهو يقدم لنا واجب الشكر الصحيح على تلك الفعال .

ثم نفتح لهذا الخبيث، باب الحديث، فيحدثنا حتى عن أهل بيته، وحيه وميته، ويقر لنا بكل ذنوبه، وجميع عيوبه. وبعد الحديث والخلاعة، نسلب منه النقود والساعة، وربما نعطيه كمبيالات فيختمها أو يمضيها، وهو لا يدرى ما فيها. ثم نرميه خارج الباب، كأنه من بعض الكلاب، فيتمدد كالميت فى الرحبة، وربما كسرته عربة، وتارة يبيت فى الضبطية، ويغرم النقدية. ومع ذلك لا يهوله ما جرى فى الليلة الماضية، بل يبادر إلينا فى الليلة الآتية، وربما جر إلينا أصحابه، وخواصه وأحبابه، ونحن لا نعدّ ذلك منه جميلا، بل نسقيه معهم كأسا ووبيلا. وكم لعبت الخمر بعقول، وأتت إلينا بفحول، نسقيهم السموم المقطعة للكبود، ونأخذ منهم معظم النقود. هذا ونحن نبعث المراسيل لاستحضار البراميل، حتى صار عند أقل عنتيل، زهاء ألف برميل».

وما يزال النديم يلقى نصائحه الخلقية والاجتماعية بمثل هذه الصور الفكهة، وكان بارعا فى تلمس العيوب والأخطاء وحَشْد جوانب التشويه فيها على قرائه وكأنما كان فى يده بوق فكاهى ينفخ فيه.

وكان اتخاذه للعامية سبيلا إلى أن ينشر فى مجلته كثيرا من الأزجال، تارة ينظمها بنفسه وتارة ينظمها بعض قرائه أو بعض الأدباء، ممن يعجبهم نقده وما يمسح عليه بالضحك الخفيف،

فيتابعونه فى طريقته، ويكتبون له أزجالا تحتوى على شئ من التهكم بمن يشذون على المجتمع فى عادة أو خلق، وينشر لهم أزجالهم كهذا الزجل الذى نشره لطالب أزهرى، يسخر فيه ممن يتعلمون اللغات الأجنبية ويتشدقون بها فى أحاديثهم، وهو يطّرد فى هذا السياق :

الشمس طلعت صح النوم والساعة بالعربى عشره
والله عجب ياجِيل اليوم يااللى على سنجة عشره
حقا الزمن ده زمن عايب يصبح السيد مملوك
والندل دائمًا فيه غالب والحر ضاع جنب الصعلوك
« بونوسوار » صارت بالكوم أما السلام أجره على الله
وعمتك « جدنايت » اليوم سمى وحَفّض باسم الله
الوقت ده وقت « البردون » وادى « البرول » لحقه فى كعبه
وخدلى بالك كلمة « جون » وابن الحرام حسبه ربه
صعبان علىّ جِيل اليوم خسر وأحواله تحسر
ولعدش ينفع كتر اللوم لكن نقول كله مقدر
تلقى الولد تم السبعه وع « الفرير » قبل الكتاب
وبعد ما يتم التسعه مقدرش اقولّك قلبه داب
سنة ف سنة يكبر دى الواد مع الشهادة السنويه
ومره عن مره يزداد ويمتحن فى البكالوريه
ويروح بها مطرح مايريد ودحنا عارفين آخرتها

ويدور ويفهم أنه السيد ما يفتكرش عاقبتها
تبص فى السكه تشوفه مسبسب القصة وعاوج
زى القمر وقت كسوفه أكمن جيبه صبح رايج
إن كان مرادك تنده له لابد ما تقوله « منشير »
وتشد حيلك وتقف له وتعظمه وتديه « سفنير »
ويسير مع اخوانه « ألمود » وادى الغرور تالف عقله
ويقول لنفسه أنا « فرجود » ومين هناك حد يسأله
متشوفشى منه غير أوهام الا الشيطان فيه متعشم
ويعيش كده كل الأيام ويظن أنه متعلم

* * *

ياواد بقى فُضّك من دول والتفت شوف إيه بكره
والقلب صار منك معلول وانت مفيش عندك فكره
سايس أمورك بزياده يكفاك مساخر « لكسمبرج »
و« الألدورادو » صار عاده هو انت طار من عقلك برج
دوّر على نفسك تلقاك مفيش كده أبدا غفله
الصبح عندك زى مساك وكل شيء منك نفله
وفوق يا شيخ من دى السكره وانظر لحال مسقط راسك
وشد عن ساعد الفكره بكل قلبك وحَواسك
تركت لغتك بالمره وقلت حالها مش ماشى
ورحت تجرى بلاد بره وقلت بلدى ممنهاشى

هى بلادك دى شويّه   اللى الدول تتمناها
فيها العلوم مستوفيّه   وبس فتش تلقاها
طاوع وتوب عن دى الدوره   وانظر لمصلحة الأوطان
واترك لنا لعب الكوره   حب الوطن ده من الإيمان

وبذلك كانت مجلة الأستاذ معرضا لروح النديم الفكهة وروح قرائه. ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا عيبا خلقيا ولا فسادا اجتماعيا إلا قطّروه تقطيرا هزليا فى أزجالهم ومقالاتهم وكل ما يكتبون.

الأرغول

اختصت هذه المجلة بالأزجال، وكان يخرجها شيخ الزجالين فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، ونقصد الشيخ محمد النجار، وهو من علماء الأزهر، وكان خفيف الروح خفة شديدة لا تقل عن خفة روح بيرم التونسى فى عصرنا. ويعد خير من أنجبته مصر حتى عصره فى هذا الفن، وكان له مجلس حافل فى مقهى « جراسمو » بجوار « متاتيا » يحضره كبار الزجالين فى أيامه من أمثال إمام العبد وخليل نظير وعزت صقر. وعلى يديه تخرج غير زجال.

ويغلب على أزجاله النقد الخلقى والاجتماعى، وهو صورة

مكبرة من عبد الله نديم ولكن فى شكل أزجال خالصة . ومن نقده الخلقى قوله فى شكوى الزمان :

أشكى لمين غدر الأيام ؟ وأروح لمين صاحب نخوه
وإن قلت يوم خطوه لقدام أرجع ورا ألفين خطوه

دور

أبص ألقى دا راكب حمار وعامل لى عمده
ودا محزق فى روحه قوى وهو حتة جلده
واللى يشوفو كان مردى مشى بقواسه وعده
واللى الفشل كاده اعوام صبح غنى وصاحب عزوه

وكانت عينه يقظة فقلما يفلت منه جانب من جوانب عصره يستحق السخرية أو التقريع أو الهزل والفكاهة إلا استغله فى زجله ، من ذلك ما كان من أول خروج النساء للطرق ، وسفورهن ، وكان ذلك يعد شذوذا فى عصره ، فسجله فى هذا الزجل :

دوّر يا جوز الدوّاره تلقاها سارحه فى الحاره

دور

جوزك ياخاله فى حاله اتبدّل قمحه بنخاله
مش عايز تبقى دلاله صنعه خلت عقله اتلخبط

دور

عايز تستنى فى بيته راضية له بفوله وبزيته

يـــا مصيبتى دانـا ربيتـــه   على شانه بخرج واشحطط

دور

يا حرمه مش عاوز منك   تتمسى ليله عن خُنّــك
ميت مره يروح يسأل عنك   لا ف سلقط بنتى ولا ملقط

دور

يوم تخرج من بيتها الحرمه   تـركبها بخـروجها حـرمه
والراجل إن كان له حرمه   يمنعهـا والبيت له أضبط

دور

الراجل إن كان فيه حنكه   مـا يخليش لمراتـه خرجـه
لكن نسوان « آلافرانكه »   دول بشْقة ومين فيهم يشبط

دور

إن سمعت فى مرّه بمولد   تندب لى وتعمل لى مولد
لـو كـانت حبله وبتـولـد   تخرج فى يومها وتتخطّط

دور

تخـــرج ومحنيـه ايـديهـا   وتبـين سيقـان رجليهـا
وتحب الــراجـل بعنيهـا   وان شافته تفرح وتقطقط

دور

أد انت على الحال دا راسى   خليتها ليه تخرج يا« سى »
أنا بدى تفضل فوق راسى   تحكم فى بيتهـا وتشـرط

وله زجل سماه زجل « المودة » تهكم فيه على من يتهافتون على لبدعة مقلدين للأوربيين ناسين لدينهم وأخلاقهم وعاداتهم، وفيه يقول :

يا موضه يا جِيل الوِز يا جِنِّيه من غير بِز
يا موضه جِيلك معروض فات السنّه والمفروض
يبقى صغار لسه ومقروض ويروح يسكر آل ويعزّ

دور

يا موضه يا جِيل الوِزْ يا جِنِّيه من غير بِز
الجامع يوم الجمعه فاضى والخماره جامعه
والغبيه فى سهره وسمعه تدبح فى الرقبه وتحز

دور

يا موضه يا جيل الوز يا جِنِّيه من غير بز
تقليدك للغير ياخَيّه جاب رجلك بعدين فى الخَيَّه
وغرقت فى شِبْرين ميَّه ووقعت فى دين بيحزّ

وعلى هذا النحو كان الشيخ النجار يُعْنَى فى أرغوله وأزجاله بنقد اجتماعى لاذع. وكان له مجلس حافل - كما أسلفنا - فى مقهى « جراسمو » بجوار حديقة الأزبكية، وقد تخرج على يده أكثر الزجالين الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن العشرين.

مجلات هزلية كثيرة

ونستقبل منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن مجلات هزلية كثيرة مثل « حمارة منيتى » وهى مجلة سياسية فكاهية أخرجها محمد توفيق سنة ١٩٠٠ وكان ضابطا فى الجيش ومن رفقة الشيخ النجار ، فلما أحيل إلى المعاش أخرج هذه المجلة .

ونرى دائما على الصفحة الأولى تحت عنوانها هذين البيتين :

يامَحْلَى الجِدّ لما يكون فى قالب هزار يبقى الكلام موزون ورايق
يغور الجِد لو كنت انت غايب ياعم الشيخ هزار وأنت اللى فايق

ومنذ العدد الأول نجد محمد توفيق يعرض لعباس الثانى والشخصيات السياسية الكبرى بغمز لا يوارى فيه . وحدث أن سافر عباس إلى إنجلترا ليتقرب من المحتلين فلمزه لمزا كثيرا . من ذلك مقالة بعنوان : « رقوة بهايم وقلب هايم بس العزايم مالهاش وجود » . وتحت هذا العنوان كتب :

« يابركة عاشورا ، فوق وش الفطورا ، بالجوز وبالطورا ، ياعم يابو قورة ، سلِّكْ لنا الماسورة ، للأمة تنسطل ، من قبل ما تنهطل ، ع الأخ العزيز ، اللى بيحسبنا معيز ، ويفوتنا فى مهاميز ، ويروح بلاد الإنجليز ، واحنا واكلين بهريز ، والواحد مش

اخد ، م الدنيا دى حاجة ، غير لطم الخواجة ، أسيادنا النظار الوزراء) قايدين فيها راكية نار ، دايمًا ليل ونهار ، ياسند عواجز ، ياجوهر ياحمص ، خايف بطنى تمغص » .

ويكفى أن نقرأ لمحمد توفيق هذه العناوين لنعرف ماذا كانت تحوى مجلته : « الرحلة البلدية فى موتة مصر بلا دية » « سلموا للقط مفتاح الكرار » « ياما دَقَّت على الرأس طبول » « ياسعادة الحيوان وياشقاوة الإنسان فى حكومة هذا الزمان » « تبديد صاحب الرمة فى أموال الأمة » « كل واحد يأخذ دوره وجحا أولى بلحم ثوره » ويتحدث تحت العنوان الأخير عن أفراد الأسرة الخديوية وأنهم يتقاضون أكثر من ثلاثمائة ألف جنيه فى السنة ينفقونها فى ملاهى باريس ومجتمعات لوندرة وجبال سويسرا وأولى أن تنفق هذه الأموال فى تخفيف الضرائب عن كاهل المصريين ومساعدة فقرائهم وإصلاح البلاد . وفى وصف هذه الحمارة البارعة فى النقد السياسى يقول بعض قرائها المعجبين بها :

حماره ليست لمن يركب   تَضْرب بالنعل ولا تُضْرب
ترى بلادا باعها أهلها   وتسكب الدمع الذى يسكب

مجلة خيال الظل

وأخرج أحمد حافظ عوض بجانب هذه الحمارة سنة ١٩٠٧ مجلة

خيال الظل ، وعُنى فيها بالتصوير الكاريكاتورى ، ولكنه يدنو درجات دون تصوير صنّوع فى « أبو نظارة » فليس فيه روحه ولا لذعه . وتقوم المجلة فى أكثرها على مهاجمة الحزب الوطنى ، وتشيع فيها النكتة والروح المرحة والعبارات والصور التى تخز وخز الأبر . من ذلك « حديث الاغتصاب بين حمار وحصان » . يقول الحمار : لو كانوا الحمارة يعتصبوا زَىّ العربجية كنا على الأقل نستريح كام يوم » ويرد الحصان : ياحسرة ! دول ما بيكملوش يوم .

ومن الصور اللاذعة صورة تمثل زفة تودع اللورد كرومر حين تركه للديار المصرية ونرى فى الزفة مصطفى فهمى رئيس الوزراء ، وتحت الصورة يقول مصطفى فهمى للورد كرومر : « فايتنا لمين ياسندى ! » وصورة أخرى يودع فيها مصطفى فهمى اللورد كرومر على القطار ويعزيه اللورد قائلا : « معلهش يابو درويش شد حيلك !

وواضح أن هذه الصحيفة مثل سابقتها كانت تغلب عليها العامية .

مجلة السيف

وخرجت بعدها بقليل مجلة السيف لحسين على وأحمد عباس ، وتغلب عليها روح الصحيفة المعاصرة المسماة بالبعكوكة ، وتدور

فكاهاتها على القفش من مثل قالوا لصاحب جريدة مصر : صحيح ما فيش فى رأسك ولا شعرة » قال : « لأ عندى شعرة » . ولما هجم العثمانيون على الإيطاليين فى حرب طرابلس كثرت الفكاهات فى هذا الصدد ، فمن ذلك : « عندما هجم الجيش العثمانى قال الطلاينة : « أشهد أن لا اله الا اللّه وأن محمداً رسول اللّه » ، ولما اشتدت الحرب وكثرت انتصارات إيطاليا وفتكها بإخواننا الطرابلسيين كتب هذا التعليق « تشكو مصلحة التلغرافات من تلغرافات روما لأنها بتخرّ دم » .

وكان فى السيف باب عنوانه « الدلع » كله قفش ، وباب آخر عنوانه « قولوا له » مثل :

قولوا لسنجر : « ماكينات ولاّ غزل البنات » .

قولوا للأسطول الطليانى : « تعاود تجى البر » .

قولوا للترمواى : « مالك حايس ودايس »

وكمان قولوا له : « اطلع ياقاتل »

وكمان قولوا له : « اللى تعرف ديته اقتله » .

وكمان قولوا له : « ناس تنباس وناس تنداس » .

قولوا للأسطول الطليانى : « جك غرقة » .

وبجانب هذا الباب نجد بابا ثالثا بعنوان يصح ، ويتضمن الباب كثيرا من النقد الاجتماعى مثل :

يصح أنه يبقى صعيدى ولون الطحينة ويلبس برنيطة .

يصح أن الأفندى من دول يفتح قزايز بيرة فى قهاوى الرقص ولمبة بيته من غير قزازة .

يصح يبقى شامى عكاوى ويقول عندى رنديفو .

وقد عادت هذه المجلة بعد اختفائها باسم السيف والمسامير ، واستمرت فى هذا النقد السياسى والاجتماعى .

مجلة الفكاهة

كان رواج المجلات الفكهة دافعا لأصحاب دار الهلال على إخراج مجلة الفكاهة سنة ١٩٢٦ ، وظلت تصدر نحو ثمانى سنوات حتى تحولت إلى مجلة الاثنين التى تجمع بين الجد والفكاهة ، ولقيت مجلة الفكاهة أيام صدورها رواجا منقطع النظير ، وكان يرأس تحريرها حسين شفيق المصرى محرر دائرة المعارف الوفدية فى الكشكول ، وكان مطبوعا على النادرة ولا يكاد يتحدث جادا . وقد ابتكر صورا مختلفة للفكاهة فى مجلته ، فمن ذلك أنه كان يعارض القصائد الجدية المشهورة فى القديم بقصائد هزلية حديثة من وزنها وقافيتها على نحو ما صنع فى معارضته لقصيدة أبى العتاهية المشهورة فى مديح هارون الرشيد والتى يستهلها بقوله :

ألا مـــا لـسيِّـدتى مـــا هـــا
أدَلًّا فـــأحمـــل إدْلالهـــا

وهو يمضى فى معارضته لها على هذا النحو الفكه :

أظـن « الـوِليَّـة » زعـلانـةً
ومـا كنت أقـصـد إزعـالهـا
أنى رمضان فقالت هـاتوا لى
زكـيبـةَ نُـقْـلٍ فجِـبْنـا لهـا
ومن قمَـر الدين جِبْت ثـلاث
لـفـائـفَ تُـتْـعـب شيًّـالهـا
وجبتُ صفيحـة سمـن وجبت
حـوائـج مـا غَيْرُهـا طـالهـا
فقل لى على إيـهِ بنت الذين
بتشـكى إلى أهلهـا حـالهـا

تقـول لهم جوزى هـذا فقـير
كـأنى أضـعـت لهـا مـالهـا
ولا والنبى لا أخـاف أبـاهـا
ولا عـمهـا ، لا ، ولا خـالهـا
ولو كانوا ناسا من اللى فى بالى
لمـا سـمـعـوا قط أقـوالهـا

دى جـارتهـا زعَّلت زوجهـا
فجـاب العصـايـة وادَّى لهـا

وقد عميتْ بعد ما سابها
وشافت من الدنيا أهوالها
فإن عملتْ مثلها زوجتي
فإخْصٌ عليها وعُقْبى لها
أتدرون ماذا أثار الخِناق
فزلزلت الأرض زلزالها
تريد الذهاب معى للتياترو
وتطلب منىَ إدخالها
وكيف أروح معاها التياترو
وإزاى أقْبَل إرسالها

ومن الشخصيات الفكهة التي ابتكرها شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود، وكان يكتب على لسانه محاضر تحقيق على نحو ما نعرف فى أقسام البوليس، ولكنه كان يخرجها فى هذه الصورة المرحة :

« وفى تاريخه أدناه وأعلاه أنا الشاويش شعلان عبد الموجود شاويش. آه يا نارى لو أكون بكشاويش. برضه أنا أحسن من بكشاويش وملاحظ كمان ، وأنا جاعد فى الجسم حضر جدامى عسكرى بوليس طويل عريض، لو يجع على حيط يهزه. وبعد ماأخد لى التعظيم اللازم سعلته (سألته) خبرك آه؟ جال: «يا أفندم أنا أخش الحرب وأرمى روحى فى النار وفى البحر ولا أخافش

من مخلوج ولو كان الجن ، لكن أخاف من ربنا جوى ولا أجدرش على غضب ربنا . وحضرة بكشاويش النظام باعتنى فى النجطة اللى جُدَّام ديوان المالية ، والنجطة دى يا افندم واجف فيها راجل مسخوط على حجر عالى . والمسخوط ده لو ما ربنا غضبان عليه ما كانش سخطه . وأنا ماجادرش أجف حياله وغضب ربنا نازل عليه يا افندم واللعنة لما بتنزل بتعم والعوذ بالله . فأنا المذكور أدناه يا افندم أعرض لمسامع حضرة سعادة الحكومة أنها تشيلنى وتودينى نجطة غير دى ، شالله فى آخر الدنيا ، بس مايكونش فيها مسخوط ، وأنا يا افندم مصلى الخمس ، وأخاف من غضب الله » .

ومن الأبواب التى عقدها حسين شفيق فى المجلة باب محكمتنا العرفية ، وكان ينشر فيها محاكمات مضحكة على نحو ما نرى فى هذه المحاكمة لمدير شركةالترام :

رئيس المحكمة : اسمك ايه ؟

المدير : مدير الترماى

الرئيس : وصنعتك

المدير : بعيد عنك مدير الترماى .

الرئيس : عمرك كم سنة .

المدير : عشرة آلاف قتيل

الرئيس : أنت متهم بإهمال نشأ عنه حوادث دهس كثيرة

المدير : كله بالقضا والقدر

الرئيس : وايه القضا والقدر دول

المدير : يعنى العجلتين اللى فى أول القطار .

الرئيس : فيه شهود كتير بيقولوا إنهم شافوا الترماى بيدهس الناس

المدير : كدابين لو كانوا شافوه كان داسهم.

الرئيس : رجال الإسعاف بيقولوا إن السواقين بيمشوا بسرعة .

المدير : كدابين دول متغاظين عشان بنشغلهم طول النهار.

الرئيس : بتقول أنكم ما بتدهسوش حد ، أمال يتشغلوهم فى ايه »

المدير : بنشيِّلهم اللى بينداسوا من تلقاء أنفسهم.

الرئيس : تلقاء أنفسهم يعنى إيه ؟

المدير : يعنى الفرامل الخسرانة .

وباب آخر كان يعلق فيه على الحوادث التى تذكرها بعض الصحف اليومية هذا التعليق المضحك :

« ذكرت جريدة الأهرام أن (وردية) من عسكرى وخفيرين قابلتْ صيادا فى أثناء مرورها للمحافظة على الأمن ، فاغتصبت منه ما معه من السمك ثم قُبض على الدورية » ويعلق حسين شفيق على الخبر قائلا :

« عندما قبضوا على الدورية التى سرقت السمك ورأى المأمور العسكرى قال له :

- ارم بياضك !

يقول المحقق فى محضره إن الجندى الذى كان فى الدورية نصفه عسكرى ونصفه سمكة .

وقال أحدهم لوكيل النيابة : إذا كان البوليس يسرق فمن يحرسنا ؟

فقال له :

- اسم النبى حارسك

لما وصل العسكرى الذى سرق السمك إلى غرفة التحقيق وكيل النيابة شواه .

سألت النيابة العسكرى الذى سرق السمك عن اسمه فقال :

- بحرى بحرى .

عندما دعى العسكرى الذى سرق السمك إلى غرفة التحقيق دخل وعلى رقبته « شال » .

وكان فى الفكاهة باب عنوانه : « ما قولكم ؟ » وكان يُرَدُّ فيه على أسئلة القراء بتوقيع المفتى . فمن ذلك أن شخصا ذكر أنه أهدى فتاة خاتم الخطبة وبعد أن قبلته أعادته إليه ، وامتنعت عن مقابلته. فقال له فى إجابته : احمد ربنا .

وفقد بصره فى أواخر حياته ، فكان يرافقه أحد الشبان من

تلاميذه، ولقيه بعض أصحابه، فلما سأله عن الشاب أجاب:

- ده واحد ساحبنا!

ويمكن أن توجه كلمة ساحبنا على أنها صاحبنا. وكانت حياته كلها على هذه الشاكلة من التنذير والفكاهة وما يرافقها من ضحك وهزل ودعابة. وإلى جانب هذه الأبواب الفكاهية فى مجلة الفكاهة كان بها بابان يكتبهما أيضا حسين شفيق المصرى أحدهما باب (نظرات معتوه) وهو نقد اجتماعى، وثانيهما باب (الشعر المنثور). وهو نقد أدبى فى قالب تهكمى بأسلوب بعض الأدباء المعاصرين الذين ابتدعوا ما سموه الشعر المنثور

المجالس والمقاهى

كانت المجالس والمقاهى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تعد منتديات أدبية ، ولم يكن يخلو مجلس فى القاهرة أو مقهى من مضحك : أديب أو شاعر أو من أبناء الشعب الذين تجرى الفكاهة فى روحهم . وهناك كثيرون اشتهروا بها مثل حسين الترزى وحسن الملا والشيخ حسين زينهم ، وهى لا تزال تملأ ندواتنا ومجالسنا حتى دار الإذاعة نجدها تخصص لها بعض أركانها . ولابد أن نقف عند ثلاثة كان لهم فيها جولات ومواقف ونوادر يتناقلها المصريون ، وهم محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم .

محمد البابلى

كان البابلى سريع الخاطر بارع النكتة خفيف الروح ، وتروى

عنه فكاهات كثيرة، فمن ذلك أنه برم يوما بشخص فى أحد المجالس، فلما جاء شاب هو ابن هذا الذى برم به، أظهر البابلى الضجر منه، فسأله من معه لماذا تضجر من هذا الشاب؟ فقال: هو ابن اللى آم (اللئام). والتورية واضحة. وركبته الديون ورهن أرضه فى البنك العقارى، وتصادف أنْ غنى أمامه صالح عبد الحى أغنيته المشهورة: أهل السماح الملاح فين أراضيهم؟ فقال: فى البنك العقارى. والتورية فى أراضيهم على نحو ما فهمها البابلى واضحة. وركب مرة مع عبد العزيز البشرى قاربا فى النيل، فظهرت أمارات الخوف على البشرى حتى قال له: الحقنى يابابلى المركب ستغرق فالتفت إليه فى هدوء وقال له: ياأخى ما تغرق (لتغرق) هى بتاعتنا؟!. ويروى أنه كان مسافرا مع صديق، واعترضهما سلم فصعداه، وبينما هما نازلان رأى البابلى فتاة جميلة، فوقف، وناداه صديقه: اسرع يامحمد حتى لا يفوتنا القطار فقال: كيف أستطيع النزول وروحى طالعة. ورآه بعض أصدقائه فى رمضان نهارا وهو جالس على مقهى يدخن النارجيلة فقال له: لا يصح ولا يليق أن تُفْطر فى رمضان واسمك كاسم النبى: محمد. فقال على الفور: أنا يا أخى من حزب فاطر السموات والأرض. وهى مغالطة واضحة. ولما قامت الأحزاب بعد ثورة سنة ١٩١٩ وانقسم الناس إلى وفديين برياسة سعد زغلول ودستوريين برياسة عدلى سأله بعض أصدقائه قائلا: يامحمد انت سعدست ولّا (أو) عدلست؟ فقال: بل أنا

فلست . وأحيل موظف إلى المعاش فكان يكثر من التردد عليه ، وضجر منه ، فلم يكد يلم به يوما حتى قال له : قل لى ياأخى هم أحالوك على المعاش أم حالوك على ؟ !

الشيخ عبد العزيز البشرى

كان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف لا يقل عن البابلى خفة روح ورشاقة نكتة ، وتروى عنه فكاهات ونوادر كثيرة . من ذلك أن رجلا من العوام استوقفه ليقرأ له خطابا فوجده طويلا ، فقال له إننى لا أعرف القراءة ، فتعجب العامى ، وقال له : كيف ذلك وأنت تلبس هذه العمامة الكبيرة ؟ فأمسك بعمامته ووضعها على رأس الرجل وقال له : اقرأ . ومن نوادره التى كان يقصها مبتسما على أصحابه أنه ركب يوما عربة (حنطورا) فسمع شخصا يقول : « ورا يا اسطى ، ورا يا اسطى » وضرب العربجى بسوطه المتسلق على العربة من خلف . والتفت الشيخ البشرى وراءه ، فوجد المتسلق هو حافظ إبراهيم ، أما الذى كان ينادى على العربجى ليضربه ، فهو إمام العبد !

واشتهر الشيخ البشرى بما كتبه فى مجلة السياسة الأسبوعية تحت عنوان : « فى المرآة » . وكان يختار تحت هذا العنوان شخصية كبيرة من شخصيات من عاصروه مثل سعد زغلول وعدلى يكن وزيور وعبد الخالق ثروت ويرسمها (سنتيز) رسما كاريكاتوريا ،

يتلوه الرسم القولى للبشرى.

وهنا نجد أثر الفكاهة الغربية فإن البشرى لم يكتف فى تصويره للأشخاص بتعقب هناتهم وسقطاتهم، بل ذهب يمثل نفسياتهم ومداخل طباعهم، يقول: «ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور الكاريكاتورى، فهو إنما يعمد إلى الموضع الناتىء فى خلال المرء، فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات». وقد جمع ما كتبه تحت هذا العنوان ونشره فى كتاب معروف. واستمع إليه مثلا يقول فى الدكتور محجوب ثابت، وكان سياسيا مشوشا، يكثر من الخطب السياسية والأحاديث عن السودان وعن نفسه ورحلاته فى أوربا وعلمه وأدبه، يقول فيه:

«لا شك أن الدكتور محجوب ثابت يُعَدّ، بحق، فى ميراثنا القومى ولو - لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من (دكتور محجوب ثابت) بأية طريقة من الطرق. نعم هو فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء. ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل ووفاء النيل وركبة الرؤية وشم النسيم! ولما فكر المرحوم محمود (بك) رشاد فى جعل العلم المصرى محلى بصور بعض الآثار القديمة، فرعونية وإسلامية، لم ير المصور بدا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورة الدكتور محجوب ثابت. والدكتور فى المصريين كإنجلترا فى الأمم،

كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضى على وجه الأيام!
فإذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يحتازه عن مصر خزان مكوار تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين. وإذا كانت الثورة (١٩١٩) تصدَّر الدكتور لجنة الوفد المركزية! وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظورتها (المرموق فيها) الدكتور، وكلما ساروا بضحية حريةٍ كان الدكتور أول المشيعين. فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان الدكتور فارسه المعلم. وإذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور إلا أن يتفرَّد بها من دون الناس جميعا، فانتفض نقيبا لعمال العنابر ولفافى السجاير وسواقى الأوتوموبيلات وشيالى المحطات ونُدل (خدم) الفنادق والقهوات وجميع طائفة المعمار وأصحاب الحوانيت من كل بدَّال وبقال وجزار وعمال المطابع وكناسى الشوارع وصناع الخيم ومسَّاحي (الجزم). ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير وجماعات الجُعْلان والصراصير فى أن تتخذ لها نقابات لمثَلَ الدكتور ثابت فيها خطيبا، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا.

«وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد، وغاد ورائح، وسانح وبارح، ودارج على متن الغبراء، وطائر فى جو السماء. فإذا كانت هنالك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط!
بلا أحسب رجلا فى مصر ولا فى إنجلترا مشغولا بالسودان شغل

الدكتور ثابت، فحديث السودان يجرى منه مجرى النفس. وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدا، فإنه كان يرى أن كل العقدة فيها إنما هى فى إقناع المصريين وحدهم بقبوله، فهو كلما رأى رجلا أو امرأة أو صبيا أو وليدا أقبل عليه يقنعه فى قوة وحماسة بقبول السودان، ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأى أن المصريين غير مقتنعين بضرورة السودان، فشخص إلى سوريا ليقنع أهلها بضرورة السودان للمصريين! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هنالك فى مسائه وصباحه، وغدوه ورواحه، وموضوع مفاكهاته وأسماره، فى مقامه وتسياره.

«حقا هذا الرجل أمة وحده وإنه لعبقرى لا يتدلى إلى منطق الناس وأسباب تصورهم فإن له قياسه وتقديره، وله منطقه وتفكيره، وله أسلوبه وتدبيره. وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدره واقعا، أمكن ذلك الأمر أو استحال، ومثله من تخيل ثم خال. ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينتظم عضوا فى الوفد المصرى، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى (باشا) فكر فى تعيينه مستشارا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى إليه أن سعد (باشا) سيلحقه بالوفد المصرى؛ فكان جوابه على الفور: «مافيش مانع ياسيدى». وهكذا طمع الدكتور فى أن يكون عضوا فى الوفدين المتقاتلين معا، سنة ١٩٢١. وأذن الله، ودخل

الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة أو رابعة بعدما عصفت القوة بجلّة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له لأمر ما ان « يشلحه » فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها ، والدكتور مصمم على أنه ما برح عضوا فى الوفد يلتمس لعضويته المعاذير بأنه ربما دُعى للتوقيع فغاب ، أو أُرسل إليه فلم يبلغ الكتاب !. والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح بعيد مدى العظام لولا أن فى جسمه رَهَلا (استرخاء) ، أميل إلى الطول ، فإذا مشى خلته أحدب وما به حدبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين ، عريض الجبهة إلا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يرسل سبَلته وعُثْنونه وشعر عارضيه فى هيئة لطيفة مقبولة ، وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى إلى إنسانها ، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الأذى ، عذب الروح ، حلو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى فى قوله غريب اللغة ، ويلتمس الشاهد من مأثور شعر العرب ، وقد يجئ به أحيانا مكسورا غير متزن . أما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت مرة بداره فرأيت فتاتين صغيرتين تتلاعبان ، فقالت إحداهما للأخرى : هذا بيت الدكتور ؟ فسألتها ومن الدكتور ؟ فقالت لها ألا تعرفين الدكتور الذى يقول : يابنت هاتى القبرة (الإبرة) ؟ !

« ومن أخص صفات الدكتور محجوب ثابت أنه لا يكاد يشعر

بمرور الزمن ، وإذا كان من آية يوشع أن الشمس رجعت له مرة فإن من آية الدكتور عند نفسه أن الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان ، فأنت إذا دعوته ليتناول الغداء معك أقبل عليك فى الساعة الخامسة بعد الظهر حتما فى غير ورع ولا اعتذار ، ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الإفطار فى رمضان ، ولبثنا ننتظره برهة ، فلما أيسنا منه أفطرنا ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمرا للفطور .

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه إذا آذنهم بالسفر إلى بور سعيد فى قطار الساعة السابعة صباحا شخصوا إلى المحطة لتوديعه فى قطار الساعة الحادية عشرة ، وإذا آذنهم بالسفر إلى الإسكندرية فى القطار المفتخر كانوا بوداعه الساعة السابعة مساء. وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ، أما إذا سقط الدرهم فى جيبه فلا إلى رُجْعى ، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ، فإذا سقط فيها الفار فهيهات ، ليس له منها فرار . وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة وأفاكيه منشورة . وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات ، وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكدس عليه من ألوان التبعات . وإنى لأقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار

الآثار ، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار » .

وواضح أن الشيخ البشرى يستعين فى رسمه للدكتور محجوب ثابت بالمبالغة من جهة واستخدام المفارقات من جهة ثانية مع العناية ببيان النفسية والطبع والمزاج . وبلغ من ذلك كله الغاية فى رسم شخصياته المختلفة مع العناية التامة بلغته . وكان يكتب فى مجلات أخرى غير السياسة الأسبوعية مثل المصور والثقافة ، وكان يذيع على الناس أحاديث فى الإذاعة ، وكلها تطبعها هذه الروح الفكهة . وفى كتابه « قطوف » تحفُ من ذلك كثيرة .

ومن يرجع الى هذا الكتاب « قطوف » وهو مطبوع فى جزئين ، يبصر الى أى حد كان البشرى كاتبا فكها . فقد كان يعرف كيف يستخرج الفكاهة من كل إنسان ومن كل جانب من جوانب حياتنا المصرية التى شاهدها تحت بصره .

وقد عمد كثيرا إلى الموازنة بين ما كنا عليه فى أواخر القرن الماضى وما صرنا إليه فى هذا القرن ، من عادات قديمة أو مستحدثة ، ولا تقرأ ذلك عنده حتى تبتسم وقد تضحك ، إذ كان يعرف بأسلوبه فى المزاح كيف يعرض الحق الصريح ، فإذا هو مشحون بالسخرية والفكاهة . ومن طرائفه فى ذلك فصل كتبه بعنوان « كيف كان الشباب يزوَّجون » .

وكان يعرف كيف يعرض حاضرنا عرضا فكها أيضًا ، وخاصة ما اتصل منه باستخدامنا لبعض آلات المدنية الحديثة ووسائلها، حتى لتتحول إلى ما يشبه فرجة أو تسلية أو عذابا وبلاء . واقرأ ما يقوله من فصل عن التليفون :

« التليفون ، عصمك الله من كل مكروه ، كما تعرف أداة سريعة للتخاطب سواء فى قضاء الحوائج أو فى دفع الكوارث أو فى الاستنجاد فى الأحداث أو نحو ذلك . على أن الكثيرين منا نحن المصريين والسيدات على وجه خاص لا يفرضون له ذلك البتة ، بل إن بعضهم وبعضهن ينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية كالعود والقانون ، والبيان كما دعاه المجمع اللغوى ، والكمان مثلا . فإذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير صديق جعل يتحدث ويتحدث مايكلّ ولا يملّ ولا يتعب ولا ينصب ، ولا تقفه شهقة ، ولا يختلج له فك ، ولا ينقطع له نَفَسٌ ، بل لعله فى لذته واستمتاعه أمرح من مستمع إلى عود حاذق أو قانون ضارب محسن . ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام ، وما بلغت الدار قط إلا عدلت من فورها إلى التليفون ، فتكلمت ، ثم تكلمت ، حتى إذا أذن الله للكلام بختام رفعت السماعة ثانيا وافتتحت مع آخرين حديثا آخر ، وهكذا حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة قامت فجلست إلى صاحبات الدار ، وما أن تفرغ من شرب القهوة بعد

السلام وبث الأشواق وما إلى ذلك حتى تهرع إلى التليفون أيضًا ، فتعيد ما بدأت وتستأنف من الأحاديث ما قطعت ، وهكذا . قال صاحبى : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم وأنا جالس فى غرفة قريبة من آلة التليفون بحيث أسمع برغمى الحديث فى يسر ، فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النمر » التى تطلبها ، فإذا هى ست عشرة قد استهلكت جملة الأحاديث فيها ما يقرب من الساعتين،وإنى أستطيع مطمئنا على دينى وضميرى أن أحلف لك بكل ما يحلف به البار والفاجر على أنه ما سقطت إلى أذنى من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة أو تبعثها حاجة أو تنفع فى أى شىء أو تضر فى أى شىء أو يترتب عليها فى يوم من الأيام أى شىء .

« وحدثنى صديق من الظرفاء قال : كنت جالسا فى مقهى (كذا) وكان ذلك فى شهر يولية . وكان اليوم شديد الحر ، وبدا لى أن أتحدث فى التليفون إلى صديق فى شأن عاجل ، فإذا مقصورة التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهدا ويهز رأسه هزا عنيفا ، كأنما يوقع به على نَبرْ الكلام أو يمسك « الواحدة » على حد تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلا لعله ينتهى ، فلم ينته . فعدت إلى مجلسى حتى مضت نصف ساعة أيضا ، ثم نهضت ، فنقرت له على الزجاج ، أتعجله ، فالتفت إلىَّ ، وإن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله وأشار إلى بالتمهل ، فأمهلته ، حتى سمعته يحيى

صاحبه تحية الختام، ثم أفزعنى أنه استأنف الحديث فقال لصاحبه: « إلاَّ قل لى ». ويمتد الحديث شوطا آخر، فإذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلا، فتنفست الصعداء كما يقولون، عاد فقال: « لكن ماقلتليش على كذا ». وهكذا، حتى كدت أخرج من جلدى. ولم يغظنى أكثر من أن أسمعه يقول فى وداعه لمحادثه: « بكره إن شاء الله نتقابل فى محل كذا » فاقتحمت عليه المقصورة وقلت له: « يا أخى لقد سرقك الكلام فقد صرنا بعد بكره »

« ولا تظن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الإطالة التليفونية قد تجر أحيانا إلى أخطار، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار، فلقد يطلبك قريب أو صديق أو أى إنسان بينك وبينه عمل، ليحدثك فى أمر عاجل، فلا يصل إليك، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة، وتضيع المنفعة، وتقع المضرة. ولقد يدق جرس التليفون فى الصباح الباكر وأهل الدار نيام فى السادسة إذا كان الوقت شتاء، وفى الخامسة إذا كان صيفا، فيهبون مذعورين، وقد وجفت قلوبهم وزاغت أبصارهم وتلاحقت أنفاسهم، لأن التليفون فى مثل هذه الساعة لا يمكن أن يفضى بخير، بل قلَّ أن يفضى فيها إلا بالشر الكبير، والعياذ بالله. ويتقدم أشجع أهل الدار ويتناول السماعة بيد مرتعشة ويقف سائرهم وقفة منتظرى الحكم فى الجنايات الخطيرة. ثم إذا هم يسمعون: « لا، النمرة غلط ». فينصرف كل منهم إلى سريره

أو إلى بعض شأنه، ما يتكلمون، فقد عقد الذعر ألسنتهم فما يقوى أحد منهم على الكلام .وكل ذلك لأن البارد السمج الذى يطلب التليفون فى هذا الوقت لا يجشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء. ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :

- إنت سى عطوة
- لا
- إمّال إنت مين
- أنا مش سى عطوة وبس
- طيب ما تقول إنت مين
- يا أخى ! أنا لست سى عطوة الذى تطلبه وكفى
- ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجرا أو مصنعا)
- لا ياسيدى ! هذا منزل
- منزل مين
- منزل لا شأن لك به ياسيدى
- أما شيء بارد، أما ابن ... صحيح! ويسرع إلى قطع الحديث . والحمد لله .

« ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان، فإذا سألته اسمه أبى أن يجيبك أو تبدأ أنت أولا بالجواب عما سأل. وتراجعه فى هذا، فيلح ويأبى، والعــرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو

أولا ، ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه . ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فإذا سأله الخادم عن اسمه كان جوابه :

« بس قل له واحد عايزك » ولا يأذن باسمه أبدا .

ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك وقد تكون مشغولا جدا ، فإذا استوثق من شخصك بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن منها أو مثلها . ثم يكررها على ألوان وصور شتى . ولا يسعك إلا أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم لا يلبث أن يفاجئك بهذا . السؤال :

- طيب أنا مين .

- ياسيدى ! قل لى حضرتك مين .

- بقى مش عارف أنا مين .

- بماذا تأمر ياسيدى .

- لازم تقول لى أولا أنا مين .

- لعل خللا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل معروف وقل لى مين أنت ؟

- طيب افتكر كده .

« ولا يزال يلون لك هذا العذاب أو تخبره من هو ، أو بعبارة أخرى . لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصيته ، وتعرفه نفسه . وكيفما كان الحال فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك . وهكذا يكون التظرف وكذلك يكون الظرفاء . وبعد فإذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئا فإنى أسأله

أن يعلمنا كيف نلتزم فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام ، وما ذلك على الله بعزيز »

والشيخ عبد العزيز البشرى فى هذه الصورة القلمية لآلة التليفون ومضايقاتها مصور ماهر ، يعرف كيف يصوب فكاهته وسخريته إلى نقط الضعف فى عاداتنا ، فإذا هى تبرز بروزها فى الصور الكاريكاتورية . والطريف أنه يسوق إليك ذلك فى أسلوب يختلط فيه الجد بالمزاح واللذع . ومن هنا تأتى المفارقة التى تثير فيك السخرية . ولم يكن ينقصه شىء كى يحسن هذا الأسلوب الفكه ، فقد كان فطنا حاضر البديهة سريع الجواب ، وكانت فيه دقة حس شديدة ، فلا يلم بشىء إلا استقصاه من أطرافه ، واستخرج منه فكاهاته .

ولا يكتفى البشرى فى كتاباته بما يروى من نوادره ، فقد يروى نوادر عن غيره تفكهة لقارئه كهذه النادرة التى رواها عن صديقه حافظ إبراهيم :

« قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكبارى) كان الناس يتخذون الفلك (المعدية) فى طلبهم الشاطئ من الشاطئ . وجاء رجل من القاهرة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ، وكان الليل قد تقدم . فوجد ملاحين يغطان فى نوم ثقيل من تعب الليل وكدّ النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما ، ونهض أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثانى الدفة . وأنشأ صاحب

المجاذيف يضرب بمجذافيه سطح الماء. على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثا حتى أحس شدة جفاف الحلق من أثر العطش، فتناول الكوز، ولم يكن يعرف أن زميله كان قد أذاب فيه ملحا ليعالج به أذنه، واغترف به من النهر غرفة، وشرب من الماء، فإذا هو ملح أجاج، فصاح من فوره بزميله صاحب الدفة، وكأنه لا يزال نائم يحلم :

- يا ريس عويس!

- هو !

- إيدك .. دخلنا المـالـح »

والحق أن البشرى كان يحسن صناعة الفكاهة قولا وكتابة غاية الإحسان، من كل شكل ومن كل لون لذعا ومزاحا ودعابة

حافظ إبراهيم

ربما كان حافظ أهم من عاصروا الشيخ البشرى سرعة خاطر وحضور بديهة، يُرْوى عنه أنه كان يلبس بدلة لا يغيرها فقال أحد أصدقائه لماذا لا تغير هذه البدلة، فأجاب على الفور لأن فيه صفتين عـزيزتين : القدم والـوحدانية، يريـد أنه لا يملك سواها. ودُعى على مائدة بعض الأثرياء مع صاحبه البشرى وكا الطعام سمكا، فلاحظ أن البشرى يأكل وليس أمامه شوك متبق يأكله، وكانت الفاكهة عنبا بناتيًّا، فتعجب حافظ، وسأله : أتبز

الشوك أو أن أمامك سمكا بناتيا لا شوك فيه ؟ . ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة فى الجانب الأيمن ، وحدث أن جانبه الأيسر آلمه بعد زيارته ، فتمارض وظن أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له بعض أصدقائه إن المصران لا يكون فى الجانب الأيمن ، فقال له : ربما يكون أعور شمال يا أخى !

وكان صديقا لإمام العبد الشاعر السودانى ، وكانت فى إمام دعابة ، فمن ذلك أنه تأخر فى إحدى سهراته ، وكان بيته بعيدا فنادى على عربجى ليوصله ، وركب ، وحينما قرب من المنزل أخرج رأسه وقال (للعربجى) قف ، سيدى نزل . وكان يتيه على حافظ مع كثرة ما يستولى عليه من نقوده ، وكان يقول لأصدقائه : لولاى ما عرف حافظا أحد ، فأنا الذى خلقته ، وبلغ ذلك حافظا ، فأسرَّها فى نفسه حتى دنا منه يوما وسأله بعض النقود ، فقال له : أنا يامولاى كما خلقتنى . وتصادف أن غاب إمام عن مجالسه ، فذهب يزوره ، ثم رجع يقول لأصدقائه إن بيت إمام ضيق جدا ، وقد سمعت أن خفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى : يا إمام رجليك طالعة من الشباك ، يا أخى مش ضرورى تنام متمدد . وذهبا مرة للاصطياف معا فى الإسكندرية ونزل إمام العبد البحر فلما خرج منه قال له حافظ : أهو أنت الآن سودانى ومملح . ولبس إمام يوما رباطا للرقبة أسود فلما رآه حافظ

قال له : زرّر القميص . وكان إمام يكتب ذات يوم فوقعت نقطة حبر أسود على الورقة التي يكتب فيها وهو غير ملتفت ، فقال له حافظ : نشِّفْ عرقك . وكانا يسيران فى بعض الأيام واتفق أن مرًّا أمام منزل أنيق ورأى حافظ بابه يفتح ، وخرجت منه سيدة جميلة ، فوقف ينظر إليها وفجأة قبَّل إمام العبد ، فسأله ما هذا يا حافظ ؟ فقال له : أقبِّل الأرض بين يديها ، وأشار إلى السيدة .

ولم تكن فى حافظ هذه النكتة البارعة فحسب ، بل كان معها حلو المعشر فكه الحديث ، يعرف كيف يروى النوادر والأخبار ، فكان كبار المصريين يتلقفونه فى مجالسهم ، وممن كان يعجب به وبحديثه إعجابا شديدا سعد زغلول زعيم الأمه ، وكان يدعوه لزيارته فى مصطافه بمسجد وصيف كما كان يدعو أعجوبة العصر محجوب ثابت فكانا يتراشقان بالنوادر .

ومن طريف ما يروى أن « الدكتور محجوب » كان مع حافظ ابراهيم وبعض صحبه فى ضيافة سعد زغلول فى مسجد وصيف ، وذات يوم أصبح الدكتور محجوب يروى لهم حلما رآه فى النوم ، فسأله سعد عن الحلم ، فقال رأيتنى راكبا جملا كبيرا ، ومن خلفه عدد كبير من الحمير ثم جاءنى رجل ومعه رسالة من كبير ، فسلمنى إياها . فنظر سعد إلى حافظ وقال له : « فسِّرْ لنا هذا الحلم ياحافظ » فقال : أما الجمل الذى يركبه الدكتور محجوب فهو كرسى النيابة ، وأما الرسالة ، فهى تكليف من أولى الأمر لمحجوب

يتولى وزارة الصحة ، وكان الدكتور محجوب يمنى نفسه بهذه الوزارة . ثم قال حافظ : « أما الحمير فهم هؤلاء الذين انتخبوه فى مجلس النواب » !

وقد نظم حافظ فى وصف محجوب ثابت قصيدة فكهة طويلة ، وهى مثبتة فى ديوانه وفيها يقول مشيرا إلى هذا الحلم وماعُرف به فى كلامه من تمسكه بالقاف ، يلوكها لوكا ، وكثرة حديثه عن السودان وغير السودان :

يُرْغى ويُزْبد بالقافات تحسبها ... قصفَ المدافع فى أفْق البساتينِ
من كل قافٍ كأن الله صوَّرها ... من مارج النارِ تصويرَ الشياطين
قد خصَّه الله بالقافات يَعْلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحِجا حينا ويحضُره ... حينا فيخلط مختلًّا بموزون
لا يأمن السامعُ المسكين وَثْبته ... من (كردفان) إلى أعلى فلسطين
بينا تراه ينادى الناس فى (حَلبٍ) ... إذا به يتحدَّى القوم فى الصِّين
ولم يكن ذاك عن طيشٍ ولا خَبلٍ ... لكنها عبقرياتُ الأساطين
يبيت ينسج أحلاما مذهبة ... تغنى تفاسيرُها عن ابن سِيرين
طورا وزيرا مشاعا فى وزارته ... يصرِّف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عُطْبولٍ خَدَلَّجة ... حسناء تملك آلاف الفدادين
يُعْفَىَ من المهر إكراما للحيته ... وما أظلَّتْه من دنيا ومن دين

وكان محجوب ثابت يمنى نفسه الى جانب وزارة الصحة بزواج فتاة جميلة أو عطبول خدلجة كما قال حافظ ويطلب أن تكون ثرية

تملك آلاف الفدادين

وفى ديوان حافظ فكاهات ومداعبات مع البابلى وغيره من أصدقائه . ويروى أنه رأى رجلا بطينا عظيم الكرش فقال له مداعبا : ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل ، فأجابه نعم ، فقال حافظ : ظاهر لقد حملت عنها حملها ، وتلك غاية ما بعدها غاية فى المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل أو بين الجنسين . ومر يوما على رجل يبيع مراوح ، فسأله عن ثمنها فقدم له مروحة ، وقال له : هذه بقرش واحد ، ثم قدم له أخرى مثلها وقال له : وتلك بقرشين ، ونظر حافظ فى المروحتين وقلّبهما ، ولم يجد فرقاً بينهما ، فقال له : أهذه تأتى بهواء بحرى والأخرى تأتى بهواء قبلى ؟!.

ودعا جماعة من أصحابه إلى طعام ، وجاءوا معهم بصديق لهم لم يكن يعرفه ، ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل ، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت حقا من المدعوين ، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو ، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى !. ودُعى مع جماعة على طعام ، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظا ، فقال للمضيف : ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة ، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى . وكتب الدكتور هيكل مقالا عنه وعن شوقى بعنوان شوقى وحافظ ، وبلغه أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، وكان

ري نفسه فوقه في الشعر ، فقال لماذا يغضب ؟ أما سمع الناس يقولون : « زفتي وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتي وغضبت ميت غمر ؟ وهم أيضا يقولون : « سميط وجبنة » « خيار وفاقوس » و « عسل وبصل » . وكان لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله ضاحكا : « أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى »

شوقي ومحجوب ثابت

لم يكن شوقي مشهورا بالدعابة أو النكتة على نحو ما كان حافظ إبراهيم معاصره ، ومع ذلك ففي ديوانه بعض دعابات لعل أطرفها ما ساقه مداعبا به محجوب ثابت . وكان شخصية فذة كما مر بنا في وصف البشري وحافظ له ، ومعروف أنه كان من خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وعُرف بحصان كان يركبه في غدوه ورواحه ، وأطلق بعض أصدقائه على هذا الحصان اسم « مكسويني » وهو اسم بطل أيرلندي انتحر جوعا ، يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه . واستبدل محجوب ثابت بالحصان سيارة فقال شوقي مداعبا لمحجوب :

لكم في الخطّ سياره ... حديثُ الجار والجاره
إذا حرّكتَها مالتْ ... على الجنبين مُنْهاره
وقد تَحْرُنُ أحيانا ... وتمشي وحدها تاره

ولا تُشْبِعها عينٌ من (البنزين) فوّاره
ولا تَرْوَى من الزيت وإن عامتْ به الفاره
ترى الشارع فى ذُعْرٍ إذا لاحتْ من الحاره
وصِبْيانا يضجّونَ كما يلقون طياره
وفى مَقْدمها بوقٌ وفى المُؤْخر زماره
وقد تمشي متى شاءت وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوّا ق أن يجعلها داره

* * *

أدنيا الخيل يا (مَكْسى) كدنيا الناس غدّاره
فصبرا يافتى الخيل فنفس الحر صبّاره
أحقٌّ أن (محجوبا) سلا عنك بفَخّاره
ولم يعرف لك الفضل ولا قدَّر آثاره
ولا والله ما كلَّفـ ـت (محجوبا) ولا (باره)
فلا البرسيم تَذْريه ولا تعرف نُوّاره

وهي قصيدة طويلة كلها على هذا النحو من الدعابة ، ومن طريف ما داعبه به وصفه لبراغيث عيادته على هذا النحو :

براغيث (محجوبَ) لم أنسها ولم أنس ما طَعِمَتْ من دمى
تشقّ خراطيمُها جَوْربى وتنفذ فى اللحم والأعظم
ترحِّب بالضيف فوق الطريقِ فباب العيادة والسلَّم

قد انتثرتْ جوقةً جـوقة كما رُشَّت الأرض بالسمسم
وتبصرها حول (بيبا) الرئيسِ وفى شاربيه وحـول الفم
وبـين حفـائـرِ أسـنـانـه مع السُّوس فى طلب المطعم

ولشوقى دعابة كتبها على لسان الدكتور محجوب ، يعلن فيها غضبه على سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول وكان يكثر من هجائه والتندير عليه وعلى حصانه وحتى بعد موته . وكان شوقى يحاول أحيانا الصلح بينهما إذا التقيا فى مجلسه ، فيأبى محجوب قائلا : « يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة » . فنظم شوقى هذه الدعابة على لسان محجوب ، وفيها يقول :

يمينـا بالـطَّلاق وبـالعِتـاقِ وبـالدنيـا المعلقمة المـذاقِ
وكلِّ فَقارةٍ مِن ظهر (مكسى) بصحراء الإمام وعظم ساق
وتربتهِ وكـلِّ الخير فيهـا ونسبتـه الشريفـة للبُـراق
وبالخطب الطوال وما حَوتْه وإن لم يبق فى الأذهان باق
وكَسْرى الشعرَ إن أنشدت شعرا ونطقى القافَ واسعـة النطاق
أيشتمنى سليمان بنُ فوزى و(بيبى) فى يدى ومعى (طباقى)
وتحت يدى من العمال جمعٌ يشمرٌ ذيله عند التـلاقى
ولسنا فى البيان إذا جرينا لأبعد غايةٍ فَرَسَىْ سباق
تُقاقى ذقنه من غير بَيْضٍ ولى ذقنٌ تبيض ولا تقاقى
وتحلاق اللِّحَى ما كان رأيى ولا قصُّ الشوارب من خَلاقى

ألا طزٌّ على العَيْهور طز | وأن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال منى | ويوسعنى عناقا فى الزُّقاق
وليس من الغريب سوادُ حظى | وبالسودان قد طال التصاقى
ألم ير أننى أعرضت عنه | وصار لغير طلعته اشتياقى
وسبحان المفرِّق : حظ قومٍ | قناطيرٌ وأقوامٍ أواقى
وعيشٌ كالزواج على غرام | وعيشٌ مثل كارثة الطلاق

القاهرة وأبناء البلد

هذه الروح الفكهة نجد آثارها على لسان جميع المصريين فى مجتمعاتهم ونواديهم ومقاهيهم ، ولمن يشتهر بها بينهم مقام ملحوظ ، وقد وصف قاسم أمين أحدهم ، فقال :

« رجل خفيف ولطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه ، ولم يره أحد قط غير مبتسم ، إذا قال لك نهارك سعيد ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك ، وإذا سمع أن زيدا مات ضحك ، زينة المجالس وأنيس النوادى ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ، ومنوطا بنشر التفريح حوله . يستخدم كل شيء لتسلية نفسه وأصحابه ، فيجد فى أهم الحوادث موضوعا للتنكيت وفى أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال فلابد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس » .

وهذه الروح أكثر ما تشيع فى أهل القاهرة ، فهى أكثر مدن مصر ميلا للضحك والتندير ، وكثيرا ما يطلقون على من يشتهر بذلك فيهم « ابن بلد » يعنون بذلك رقته وحسن ذوقه ومعرفته لمناحى الكلام وما يطوى فى ذلك من ظرف ولباقة .

ولأبناء البلد هؤلاء طرق مختلفة فى التنكيت ، ومن أشهرها القافية ، إذ يدعى اثنان للمبارزة الفكهة فى موضوع بعينه ، ويبدأ أولهما فيذكر شيئا ، ويقول الثانى : إشمعنا « إيش معنى ؟ » أى لماذا فيجيبه الآخر إجابة مسكتة ضاحكة .

وهناك ضرب آخر من النكت يقوم على « القفش » إذ يعلقون على أى موضوع بالنكتة . وتستغل هذا المعين صحافتنا الحاضرة ، كالنكت عن ثرى الحرب والجيل الحديث والتسعيرة والحماة والزوج والزوجة وبنت الذوات ورفيعة هانم . وليست هناك حادثة تمر دون أن تستخرج منها النكتة ، وكأن الصحافة المصرية تستمد فى ذلك كله من نبع لا ينضب ، وهى تضيف إليه صورها الكاريكاتورية على نحو ما نقرأ فى الأخبار والأهرام والمصور .

فى الأزجـال

وقد شاعت الأزجال فى عصرنا الحديث ، وكان طبيعيا أن تعمها روح الفكاهة لأنها تكتب بلغة الشعب وتعبر عن حياته تعبيرا ليس فيه تكلف ، ومر بنا بعض أزجال للشيخ محمد النجار وفيها نقد

فكه ، فيه شيء من المرارة ، لبعض جوانب حياتنا . وخلفه كثير من الزجالين ساروا فى نفس الدرب الذى سلكه ، ومن أشهرهم الشيخ عبد الله هلبها والشيخ أحمد القوصى وعزت صقر والشيخ يونس القاضى وحسين الحلبى وحسين مظلوم ومحمود رمزى نظيم ، وبديع خيرى وله تمثيليات فكهة مثَّلها نجيب الريحانى ، ونسوق قطعة من زجل طريف له ، ينتقد فيه طمع الآباء إذ يزوجون فتياتهم من الطاعنين فى السن ، لثرائهم، حتى لو كانوا من الريف ، يقول :

هناك فى شارع مراسينه   نصبوا الزينه
ليلة جواز ستّ أمينه
بالشيخ منوفى أبو خلاف

وأمينه كانت تلميذه   لمده وجيزه
حبوبة رؤيتها لذيذه
دمها ما تقولش خشاف

والشيخ منوفى بلغ تمانين   من عمره الطين
لكن بقا حواليه فدادين
وبيت فى عطفة أم لحاف

والقرش فى الدنيا صياد   غياظ كيَّاد
يصبَّح الخدام أسياد
ويشقلب الحال خلف خلاف

أبــو أمينــه لقى لقيًّــه   لُقْطه غنيًّــه
صــرف النــظر بــالكليـه
عن صدغ يشبه صدغ الثور

وعينين مدغششه طلمسها   كتــر عماصــها
وأسنان صناعى مــرصَّصها
حكيم غشيم فى حنك مهجور

فاكر أبوها كمـان سنتين   سى عريس البين
يتـوفى ويسيب القـرشــين
يـورثهم الصهر الـطرطور

ماخطرشى الاهبل على باله   قـول أمثــاله
يـا واخـد القـرد لمـالـه
المال مزعزع مش مضمون
تلقــاه مــادام تستنــالــه   الفنـا جــاله
والقرد فاضل على حــاله
ما ينوبك إلا السحنه الدون

واهو الجواز عنـدنا بلوه   بيــعه وشـروه
هم البنات دول أبو فروة
والاّ بضـايـع بــالنــولــون

بيرم التونسى

ولا نبالغ إذا قلنا أن بيرم التونسى كان أبرع الزجالين المعاصرين وأكثرهم حبا وقربا من القراء وكان لا يبارى فى الوقوع على المآخذ والعيوب الاجتماعية مع التصوير الفكه والروح العذبة والإتيان بالكلمة الساخرة والأخرى المضحكة. ومن أزجاله المشهورة زجله فى العيون وأصنافها :

من العيون ياسلام سلِّمْ شوف واتعلِّمْ
تحت البراقع تتكلم والدنيا نهار

* *

عيون تقول لك قصدك إيه بتبحلق ليه
ما لكش شغل تعسّ عليه ياراجل ياحمار

* *

وعيون تقول لك أنا عارفاك والنبى ما انساك
من يوم ما شوفتك م الشباك ياجدع ياصغار

* *

وعيون تقول لك روح يارذيل يابو دم تقيل
يا باى ! كبه فى المخاليل ياما هم كتار

* *

وعيون تقو لك أنا حبيت ياللابنا عَ البيت
وعيون تقول ان شالله ما جيت أنا رايحه الزار

* *

وعيون تقول لك بالمحسوس أنا عايزه فلوس
وان شالله حتى تحوس وتدوس أنا عاملاه كار

* *

وعيون تقول لك امشى ياواد أنا أم أوْلاد
وعيون تقول لك عندى معاد ويَّا السمسار

* *

وعيون بسرِّ الحب تبوح كدا بالمفتوح
وتعرف القلب المجروح ما عليهش ستار

* *

وعيون تسبل فوق الخد دى جد ف جد
وعمرها ما تكلم حد عيون أحرار

* *

وعيون تحقق فيها بشوق تهرب على فوق
بتقول لك أبعد عنى بذوق نظرات نار

* *

وعيون ما تعرف زعلانـه أو فـــرحـــانه ،
صبـاح مسا أهى دبـلانه صــاحبة أفكار

* *

وعيون لها ضحكة ف وشك بس تغشـــك
وتبص من تحت اليَشْمك تلقى المـنقـار

* *

وعيون كدا يبقم ساهتين صـــفر وباهتـين
بالشكل ده عيون الخاينين تضـرب بصفار

* *

وعيـــون تبص وتـتـنسـفلق واقفـه شلقلق
وعيـــون تبـــربق وتبحلق عايزين مسـمار

وكانت صحيفة الجمهورية قد خصصت لبيرم يوما فى الأسبوع يدبج فيه صفحة من صحفها بفكاهاته التى يكتبها تارة فى أزجال ، وتارة فى مقامات ومقالات فكهة . وأخرى فى الفوازير البارعة . وكان كثيرا ما يقلب بعض قصائد قديمة أو حديثة إلى قصائد مرحة ، وهو بارع براعة منقطعة النظير فى الوخز والغمز والتقريع .

وكان فى مصر إلى عهد قريب جماعة من « الأدباتية » ينشدون بعض الأزجال فى الموالد يجمعون بها بعض الدراهم من السامعين، وكانوا يعتمدون فى الأكثر على محفوظاتهم، وقد ينشئون بعض الأزجال من إنشائهم. وأحيانا يحملون « دربكّة » صغيرة يضربون عليها كما يضربون على صاجات، وقد يلبسون طرابيش، وتراهم يحركون أزرارها حركة دائرة ليضحكوا الناس، ومن أزجالهم المشهورة:

أنــا الأديب الأدبـاتى ألم العيش تحت بطاطى

ولعبد الله نديم حادثة مشهورة مع طائفة منهم فى مولد السيد أحمد البدوى بطنطا، إذ نشبت بينه وبين الأدباتية هناك معركة زجلية حامية كان النصر فيها حليفه، وهى مروية بترجمته فى كتاب أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور.

فى الكتابات الأدبية

هذه الطوابع الفكاهية طُبعت بها كثير من الكتابات عند بعض أدبائنا البارزين، وليس معنى ذلك أننا نجدها فى أدبنا الفصيح بمقدار ما نجدها فى أدبنا الشعبى، ولكنها موجودة به على كل حال، وقد

اشتهر بها الشيخ عبد العزيز البشرى - فى كتاباته الأدبية على نحو ما مر بنا - ونراها بارزة فى ملهاة الست هدى لشوقى، وهى تبرز أيضًا عند توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف وفى بعض أقاصيصه، وتتجلى كذلك فى كتابات محمود تيمور وقصصه، كما تتجلى عند المازنى بصورة بديعة فى كثير مما كتب من قصص وكتب ومقالات، ولذلك يحسن أن نخصه بكلمة.

إبراهيم عبد القادر المازنى

كان - رحمه الله - فى طليعة أدبائنا المثقفين بالثقافة الغربية، وكان يُعجب أكثر ما يعجب بكتاب الغرب الساخرين من أمثال مارك توين الأمريكى وتورجنيف وهاتزيباشف الروسيين، وكأنما التقت الروح الفكهة المصرية عنده بالروح الفكهة الغربية وما تطوى من سخرية وتهكم على طبائع البشر ومفارقات الحياة.

وبذلك اكتملت له فى أدبنا الحديث شخصية أدبية ساخرة بكل ما فى الحياة من أشخاص وأشياء وآمال وآلام. ونحن نجد هذه الشخصية ماثلة فى مقالاته الأولى التى نشرها بعنوان «قبض الريح» وهى قطع من الأدب الرائع، ومن طريف ماجاء فيها هذا النقد الساخر للنساء وقصهن لشعورهن تشبها بالرجال، وتشبه الرجال بهن فى هندمة الملابس وأناقة الأزياء، يقول:

«الناس فى هذه الأيام آنق أزياء وأنظف ثيابا، وأبهج بِزَّة منهم

فى أى عهد مضى ، ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاما كنت أرى (أفنديا) يلبس طربوشا مبطنا بالخوص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الإستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بَنيقتها على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، ولم يكن الشيوخ يعنون على الأعم بإحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو يتحرون أن يكون لون الحزام مجاوبا لصبغة القفطان أو بأن تكون لفة (الشال) على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر . أما النساء فكان زيهن إذا برزن إلى الشوارع يصدّ العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها امرأة تبعثرها الريح . فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات والسهرات . وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا . حسن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . لا أدرى ممن سمعت أو أين قرأت أن الله سبحانه وتعالى وكَل إلى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده - جل وعلا - على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك . ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب - إن صح الخبر - قد جدَّت على صوته نبرة تهكم لاذع علينا نحن بنى آدم الفانين . ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهم وأن الرجال يحلقن - معذرة

فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم - يحلقون شواربهم ولحاهم ، ويتخذون من الثياب ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم ، أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر . نسيت الحرب العظمى وما أفقدت الرجال من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الأجيال ، وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال ، وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن . ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب إلى الشرق كالعادة.

وينشر المازنى بعد ذلك مجموعة من مقالاته الأدبية البديعة باسم « صندوق الدنيا » وهى مقالات ساخرة فى أكثرها. تنتشر فيها فكاهته أو دعابته المستملحة ، وقد جاء فى تقديمها :

« كنت أجلس إلى الصندوق فى أيام طفولتى وأنظر إلى ما فيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها ، عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الدنيا الكبار فأحطّ (الدكّة) وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة ، يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر». ونكتفى من هذا الصندوق الفكه بحلاق القرية، يقول:

« وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة قبل أن تتغلغل المدنية إلى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها ، فقد عرض علىَّ مضيفى أن أستعمل موساه ، فأبيت ، وقلت : مادام

للقرية حلاق فعلىَّ به . فحذرنى مضيفى وأنذرنى ووعظنى ، ولكنى ركبت رأسى وأصررت أن يجىء الحلاق فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته فى أول الأمر مخلاة شعير ، وسلم وقعد وشرع يحيينى ويحادثنى ، حتى شككت فى أمره ، واعتقدت أن الحلاق شخص آخر وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى طلائعه . ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق محسوبى يعنى نفسه . فلعنته فى سرى ، وسألته متى ينوى أن يحلق لى لحيتى أم لابد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم ، وأولانى صدغا كث الشعر ، وقال : هيا ، فظننته أصم وصحت به : أريد أن أحلق ، فسره صياحى جدا ، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل ؟ فقال : فيل ؟ لماذا . فأشرت إلى المقص فضحك وقال : هذا مقص حمير ولا مؤاخذة ، فقلت : ولماذا تجيئنى بمقص الحمير ، أحمارا ترانى ؟ . ويظهر أن معاشرة الحمير بلدت إحساسه ، فإنه لم يعتذر لى ولا عبأ بسؤالى شيئا ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و « مكنة » من هذا القبيل أيضا . فعجبت له لماذا يجئ إلىَّ بكل أدوات الحمير ؟ وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت فى حياتى ، ثم أقبل علىَّ ، وقال : تفضل . قلت : ماذا تعنى ؟ قال : اجلس على الأرض ، قلت : ولماذا بالله ؟ قال : ألا تريد أن تحلق ؟

قلت ألايمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسى ؟ قال : وأنا ؟ قلت فى سرى : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير . وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، فقلت إن وجهى ليس حديدا يا هذا ، قال : لا تخف إن شاء الله . ولكنى خفت بإذن الله ، ولا سيما حين شرع يقول : باسم الله ، الله أكبر ، كأنما كنت خروفا ، ويبصق فى كفه ويشحذ الموسى على بطن راحته . ثم جذب رأسى فذُعرت ونفرت ووليت هاربا إلى أقصى الغرفة . فقال ماذا ؟ قلت أتريد أن تحلق لى بمبرد ومن غير صابون ؟ قال : ماذا يخيفك ؟ قلت يخيفنى ؟! لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد شعرها ، قال: يا « افندى » لا تخف . وأسلمت أمرى لله وعدت فقعدت أمامه ، فنهض على ركبتيه ، وتناول رأسي بين كفيه ، وأمال صدغى إليه ، ثم وضع ركبتيه على فخذى ، ولف ذراعه حول عنقى ، فصار فمى مدفونا فى صدره فصحت أو على الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحدا يسمعنى فينجدنى ، غير أن طيات ثوبه كانت فى فمى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى . ولا أطيل على القارئ ، فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى ، فسلخ قطعة من جلدى ، فردنى الألم إلى الحياة وآتانى القوة الكافية للصراخ ، على الرغم من الكمامة . ووثبت أريد الباب ، ولكنه كان على كبر سنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظا لأمثال هذه

المحاورات ، فردنى بقوة ساعده ، فتشهدت وتذكرت قول المتنبى :

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

ثم جاء هذا السفاح بطست يغرق فيه كبش ، ووضعه تحت ذقني ، وصب مادة على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ، ليغسل الدم الذكي الذى أراقه ، وأخرج من مخلاته منشفة هى بممسحة الأرض أشبه، فاعتذرت، وأخرجت منديلي ، وسبقته به إلى وجهى . وهى معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار » .

وفى صفحة أخرى من صندوق الدنيا نراه يسير على ظهر حمار فوق قنطرة على ماء ، يقول : « فلما توسطها الجحش بدا له أن يقف وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ، ثم خطا إلى حافة الجسر ، ولم يكن له حاجز ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير النظر ، وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعته البهية فى صقاله ، ولكنهم قالوا لى إنه كان يريد أن يشرب ، فنزلت عنه ، وقلت له يا عزيزى إن من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك فإن ثيابى يفسدها الماء ، وهى غالية إذا كانت حياتى رخيصة . ولكن بعد أن فكر قليلا غيرَّ رأيه ، إما لأن الصورة التى طالعته فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكاشفنى بها » .

وتسرى هذه الروح الفكهة فى قصص المازنى على نحو ما تسرى فى مقالاته ، فمن ذلك وصفه لخادمته فى كتابه أو مجموعته القصصية « عود على بدء » وهى تجرى على هذه الشاكلة :

« لا أطلب منها شيئا إلا وتجيئنى بخلافه ، أقول هاتى الكبريت ، وليس فى لفظ الكبريت ولا فى حروفه ما يمكن أن يلتبس بالجبن الرومى ، وهى ليست بالصماء ، فإن سمعها كسمع القطة ، وأنا خفيض الصوت ، ولكنى أتوخى معها أن أزعق وأصيح حتى يبحّ صوتى ويوجعنى حلقى ، وأمرض يوما أو يومين . ومع ذلك لا تكاد تسمعنى أطلب الكبريت حتى تقول حاضر ، وتعمد إلى ملاءة سوداء تلفها على نفسها - فانها حَيِيَّة - وتخرج ، فتشترى لى جبنا ، قد يكون روميا غير مزيف أو مقلدا ، ولكنه لم يخطر لى على بال ولا كانت لى رغبة فيه . وأراها مقبلة علىَّ ، تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومى وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة ، فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أن الجبن الرومى لايؤكل وحده فلابد من خبز معه ، ومادام سيدها يأكل وقد اشتهت نفسه الجبن الرومى فهل تتركه يوسخ يده؟ معاذالله ، وهذا هو تفسير الشوكة والسكين . وأنظر إلى هذا الذى على يديها فأتميز من الغيظ ، وأكاد أطق وأنفلق ، ولكنى ألمُّ نفسى بجهد ، وأهز رأسى وأروح أتعجب لقدرة ربى على خلق كل هذه الأصناف من الناس . هذه امرأة لها كل مالى تقريبا من الأعضاء ، وليس ينقصها

شيء ، وهى تتكلم العامية التى نتكلمها ولا أعرف لها لغة غيرها ، ومع ذلك لكل لفظ فى هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندنا فالكبريت معناه الجبن الرومى ، والكتاب معناه طاحونة البن ، والكلب معناه الخيط والإبرة ، والكمّون معناه السجاير . حتى لقد خطر لى أن الألفاظ التى تبدأ بالكاف هى التى انفردت عندها بهذا الحال المقلوب .

وأنا أحصى هذه الألفاظ إيثارا للراحة وأثبت معانيها إلى جانبى ، ليتسنى لى أن أخاطبها بلغتها ، فأقول لها مثلا : خذى اشترى لى كمونا ويكون مرادى السجاير أو هاتى كلبا وخيَطى هذا الزرار . وإذا مررت بالصانع الذى يصلح طواحين البن قلت : «خذى الكتاب فأصلحيه عنده او اشترى لنا كرنبا أي بترولا» .

وبهذه الفكاهة وما تحمل أحيانا من تهكم وسخرية كان يكتب حتى عن نفسه وزوجه وأهله ، ومن حديثه الفكه عن نفسه فى مجموعته القصصية «فى الطريق» قوله :

«لست أخشى اللصوص، فما معى ولا فى بيتى ماأخشى عليه الضياع، وأتقى أن أُمْنىَ فيه بالخسارة، ولو أن لصا كريما فيه مروءة دخل بيتى - أو حيث أقيم فما هو بيتى - وحمل ما فيه من متاع لحمَّلته شكرى ولبعثت بنسخة منه إلى الصحف فإن من اللؤم أن قابل الأحسان بأقل من الشكر . وإن فى قولى متاعا لتجوُّزا فى التعبير وإغراقا فى حسن الظن بالقراء ، فما أرى لى متاعا فى شىء

مما حولى . وسبب آخر يجرِّئنى على لقاء اللصوص ويجعلنى لا أتهيبهم ، وذلك أنى كما تعلم - أو كما لا تعلم - ضامر ضاو ظاهر الضآلة بادى الضعف . وأوجزُ تعريفٍ بنفسى يحضرنى الآن هو إنى امرؤ فارغ الثياب ». وفى موضع آخر يتحدث إلى زوجته على هذا النحو :

« إن من الواضح أن تربيتك ناقصة جدا! هذا أنا بجلال قدرى أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين » فقالت زوجتى أخيرا وألقت مابيدها ، وكان شيئا تطرزه أو لا أدرى ماذا تعنى به : « إنى لست اليوم كفؤا لك ولهزلك فاسكت من فضلك » . قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار ، ألا تستحين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟ » قالت « أرجوك ، أرجوك يا مسلم ، ثم إن الطباخة خرجت . فانتفضت واقفا ، وصحت : «نهارك أسود » .

وبهذا الأسلوب الفكه الساخر كان المازنى يكتب بعض مقالاته، وقصصه مستغلا للطبائع ومصورا للمآزق والمواقف ومتخذا من افتراق العقليات والأمزجة مادة خصبة لما يريد من ألوان الفكاهة وصورها التى تعبر تعبيرا دقيقا عن ظرفه وخفة روحه مستخدما لذلك أقرب لفظ وأسهل أسلوب .

* * *

ولعل فى كل ما سبق ما يدل دلالة واضحة على أن الفكاهة تتعمق روح المصريين من أعمق عصورهم إلى عصرنا الحديث ، فهى الزبد يعلو دائما على سطح حياتنا ، بل لكأنها الجوهر النفيس فى مزاجنا وطباعنا ، وهى لذلك دائمة البريق واللمعان فى مجالسنا ومحافلنا وعلى شفاهنا وأفواهنا .

فهرس

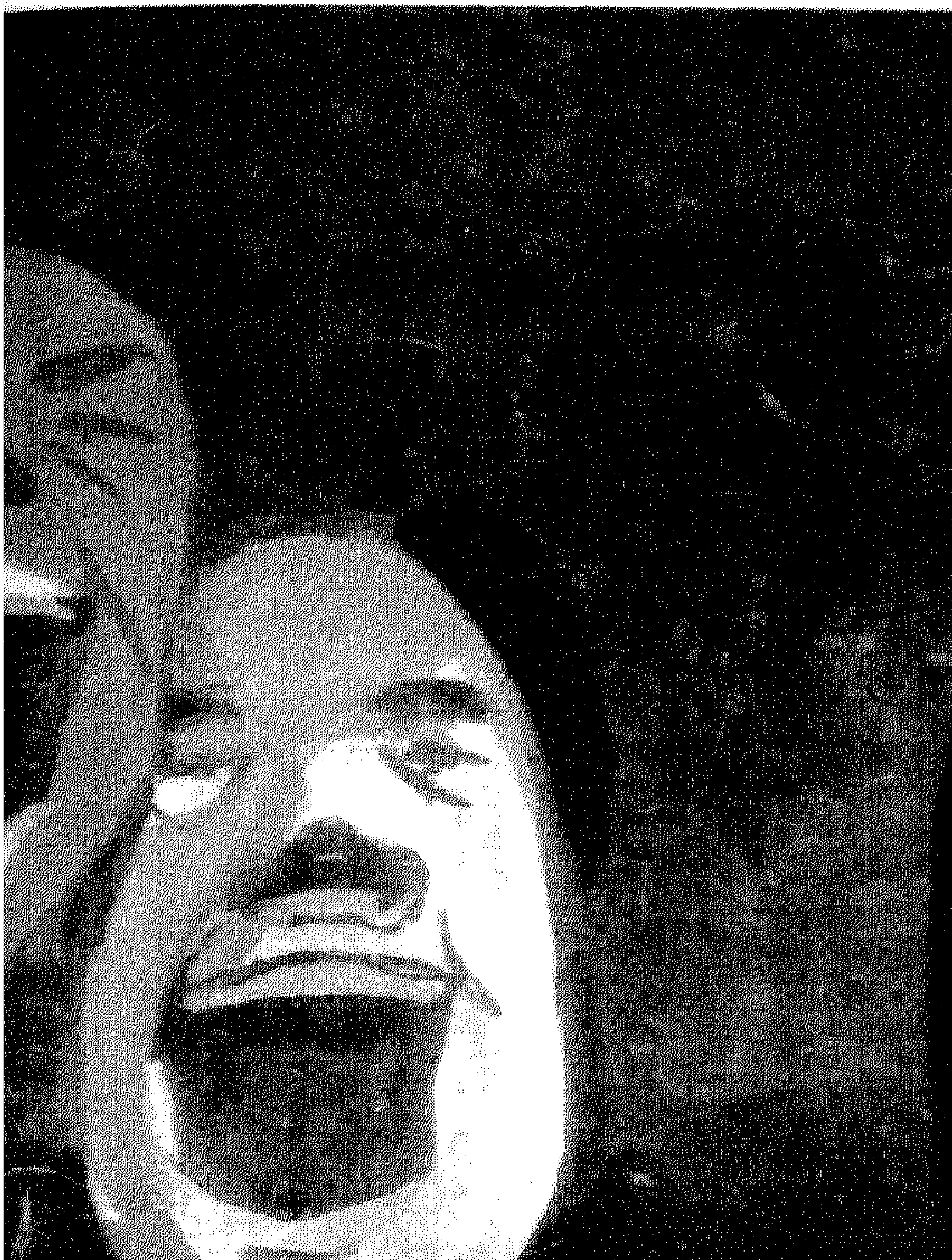
صفحة

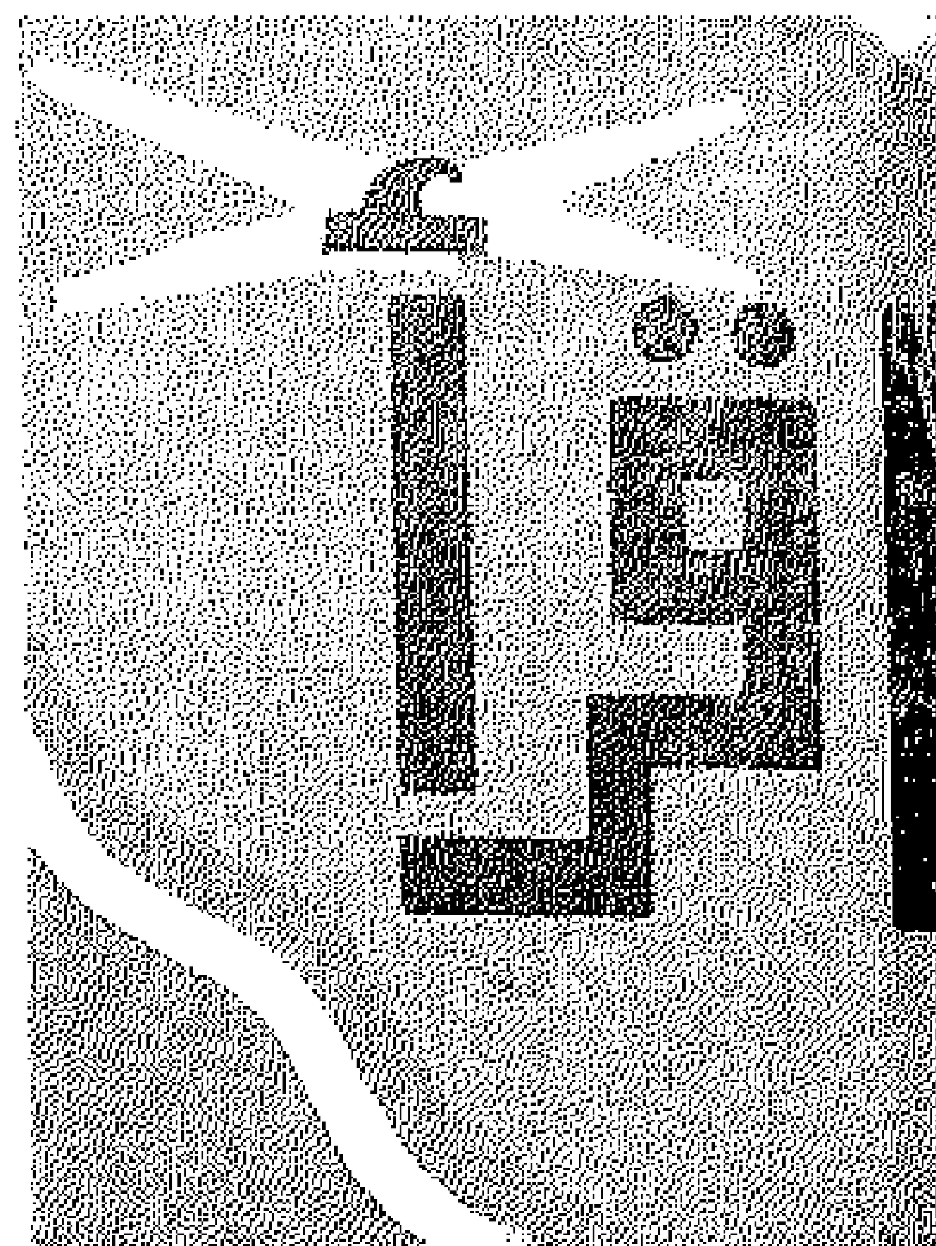
رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٣٤٢٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٢٦-٨	ISBN

١ / ٨٣ / ٢٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٥٠





د. عبد الرحمن محمد النجار

رحلة دينية إلى إفريقيا

اقرأ

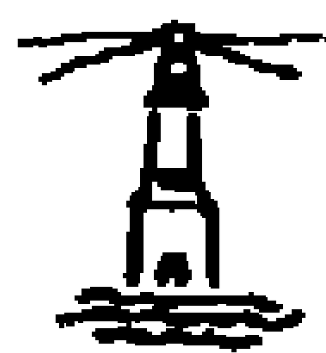
تصدر أول كل شهر

[٥١٢] - يونية - ١٩٨٥

رئيس التحرير صلاح منتصر

د. عبد الرحمن محمد النجار

رحلة دينية إلى إفريقيا



دار المعارف

تصميم الغلاف: منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله سبحانه وتعالى، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آل محمد وأصحابه وأحبابه وأتباعه، ومن دعا بدعوته وتمسك بسنّته إلى يوم الدين..

أما بعد: فقد قدِّر لى أن أعيش فى أفريقية جنوبى خط الاستواء فترةً طويلة من الزمان، وعشت فيها أجمل سنوات العمر. وهى سنوات الشباب، حيث تنقلت فى جميع مناطق أفريقية بصفة عامة، وفى شرقها بصفة خاصة، حيث عملت رئيسًا لبعثة الأزهر بالصومال فى الخمسينات مدّة ست سنوات، وكنت أصغر رؤساء البعثات سنًا، حتى إن المسئولين فى الأزهر قالوا لى: إننا نصنع منك تجربة. هل يستطيع شباب الأزهر أن يقود الدعوة الإسلامية فى خارج البلاد. أو لا يستطيع أن يعمل إلّا وهو تابع لمن هو أكبر منه سنًا، ومن هو

أكثر منه تجربة؟ والحمد لله على نعمة التوفيق، لقد كان يدفعنى حماس الشباب إلى أن أقوم فى كل أسبوع برحلة إلى خارج العاصمة مقدشيو - ولم أترك شبرًا واحدًا فى الصومال إلّا وطرقته، والتقيت برجال القبائل فى مواقع قبائلهم - وتعلمت اللغة الصومالية وهى لغة لم تكن تكتب - بل لغة تفاهم فقط - وكانت تكتب بالحروف العربية؛ لأن الحروف العربية لها قداسة مستمدة من قداسة القرآن الكريم، ولذلك يقال للغة العربية لغة القرآن الكريم، وعايشت الصوماليين قبل استقلالهم وبعد الاستقلال الذى تمّ فى عام ١٩٦٠م. وزرت المناطق الصومالية الخمسة: الصومال الجنوبى، والصومال الشمالى، والصومال المتنازع عليه من كينيا، والصومال المتنازع عليه من الحبشة، والصومال الفرنسى الذى كان عاصمته جيبوتى، وقد استقلّ حديثًا، ومن الصومال، عملت فى دار السلام عاصمة جمهورية تنزانيا مديرًا للمركز الثقافى الإسلامى مدّة ٤ سنوات، ومن هناك عشت زمنًا فى أوغنده. وعشت فى نيروبى عاصمة كينيا، وزرت جزر القمر. وعشت زمنًا فى جزيرة مورشيوس - وزرت الحبشة وإرتريا. وهكذا لم أترك شبرًا واحدًا من منطقة شرق إفريقية إلّا وقد زرته والتقيت بأبناء المنطقة فى القرى والنجوع والغابات وفى أحضان الجبال - وعند منابع النيل، ورأيت أن أفريقية ليست هى القارة السوداء - كما يطلق عليها الجغرافيون - إنما هى قارة خضراء - أرضها خصبة، وأمطارها غزيرة، والأرض سواء أكانت مستوية أم

فيها هضاب ووهاد كلّها تكسوها الخضرة، وتخرج جميع الثمرات التى أنعم الله بها على الإنسان، وشاهدت أثر الإسلام القوىّ فى عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم، وشاهدت مدى تدينهم وإخلاصهم فى هذا التديّن، واحترامهم للغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، وشاهدت نشاط الاستعمار الذى يدفع التبشير إلى هزٍّ عقيدة المسلمين، كما شاهدت دعاة المذاهب الهدّامة وهم ينشطون فى المناطق التى لم تصل إليها دعوة دينية، وعدم نجاح هذه الأنشطة لأن عقيدة التوحيد فطريّة فى الإنسان، والله تعالى يقول: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.. ورأيت اللغة السواحلية وهى اللغة الوطنية لمنطقة شرق أفريقية ووجدت أن ٦٠٪ من كلماتها كلمات عربية، ولهذا سرعان ما تعلمتها وكنت أخطب بها فى المساجد، وأتحادث مع الناس مستخدمًا إيّاها فى لغة التخاطب.. وشاهدت أثر التجار العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية.. وهم حينما وفدوا جاءوا ومعهم مع تجارتهم دينهم بتعاليمه السمحة - ولغتهم التى هى لغة القرآن الكريم، وكان أوّل نشاط لهم فى بلاد المهجر بناء مسجد يجتمعون فيه للصلاة فى الأوقات الخمسة وفى يوم الجمعة. وكان سلوكهم المأخوذ من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوى الأسباب فى نشر الإسلام - كما كان للطرق الصوفية فضل كبير فى تجميع صفوف المسلمين وفى تصفية

قلوبهم، وترقيق وجدانهم. حتى إن كثيرًا من الأفارقة يحفظون قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم باللغة العربية، وفى قمّة ما يعتزّون به بعد القرآن الكريم وأحاديث رسول الله قصيدة البردة للإمام البوصيرى، إنهم يحفظونها بعربيتها الفصحى ويتجمّعون فى المناسبات الدينية وينشدونها مجتمعين..

ولا عجب فى ذلك فإن كثيرًا من المؤرخين يرون أن الإسلام عرف طريقه إلى أفريقية، قبل أن ينطلق من مكة إلى خارجها، وقبل أن يصل إلى يثرب وهى المسماة بالمدينة المنورة، وذلك حينما أذن الله لجماعة من المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة مرّتين - وأقام بعضهم فى الحبشة فترة طويلة، وأنجب أطفاله فيها وتنقّل بين جنباتها، وقرأ القرآن على مسمع من أبنائها - فعرفوا الإسلام ومبادئه وأحبّوه وتعلّقوا به، ولابّد من أنّ بعضهم قد تآلف مع هؤلاء المسلمين واعتنق دينهم، وكان ذلك فى السنوات الأولى لظهور الإسلام ولم يكن قد خرج من مكة بعد...

هذه المعايشة الطويلة للمنطقة دفعتنى إلى تسجيلها لإلقاء مزيد من الأضواء على تلك القارّة التى لم تحظ بنصيب وافر من اهتمامات الكتّاب العرب والمسلمين - لكن أكثر من كتبوا عنها هم من الكتّاب الأوربيين ولغرض هذه الدراسة الميدانية، ليهتدى بها من

يحرص على نشر دعوة الإسلام فيها - وكيف يواجه تحدّيات الأعداء..

وذلك من منطلق قوله تعالى: ﴿ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمِل صالحًا وقال إنّنى من المسلمين﴾.

صدق الله العظيم

القاهرة فى أغسطس ١٩٨٣م.

د. عبد الرحمن محمد النجار

البَــابُ الأولــ

عوامل انتشار الإسلام فى هذه المنطقة

أوّلاً: العوامل الذاتية لانتشار الإسلام

أفريقية القارة المسلمة:

تعتبر أفريقية القارة المسلمة بين قارات العالم، فالغالبية العظمى من سكانها الأصليين يدينون بالإسلام، وتذكر الإحصائيات أنهم حوالى ٧٠٪ من سكانها، أما غير المسلمين بها فمنهم من لا يزال يتبع المعتقدات القديمة الساذجة، ومنهم من لا يدين باعتقاد، ومنهم من جذبته المسيحية إليها، ومنهم البيض الغاصبون الذين أقامهم الاستعمار، وسلّمهم النفوذ والسلطان فى بعض المناطق.

ولم يقف حاجز ما بأفريقية أمام زحف الإسلام، فقد انتشر بالشمال وفى وقت مبكّر، ثم تخطّى الصحراء وزحف خلفها، وعبر من الجزيرة العربية للساحل الشرقى منذ عصره الأوّل، وتخطّى هذا الساحل إلى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنزانيا، واقتحم نطاق

لغابات فى قلب أفريقية، ونفذ إلى هضبة البحيرات، وتدفق إلى الهضبة الحبشية، وانتشر على طول الساحل الغربى، ودخل جنوب أفريقية مع المهاجرين المسلمين من سكان شبه القارة الهندية وماليزيا، ولا يزال يُنشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة[1].

وقد تغيرت خريطة أفريقية تغيرًا كبيرًا بسبب الإسلام خلال القرون الماضية، ولا تزال تتغير بسبب النشاط الحالى الذى اتّخذ شكلًا جديدًا، فإن العرب المسلمين هضموا الجديد من التغيرات السياسية العالمية، وأصبحوا يحصلون على مزيد من النجاح، كما حصلوا على هذا النجاح فى ظلّ الطرق الصوفية والتجارة من قبل.

انتشار الإسلام فى أفريقية بالدعوة:

وانتشار الإسلام فى أفريقية تم بواسطة الدعوة، بدليل أن انتشاره استغرق وقتا طويلًا يزيد على عشرة قرون، وتزخر المراجع التاريخية بتعزيز هذه الحقيقة، وقد قامت على مرّ التاريخ دول إسلامية أفريقية بجوار دول وثنية أو مسيحية ولم يكن الدين قط داعيا لعدوان المسلمين على غير المسلمين، بل إن المؤرخين يرون أن الحروب التى هبّت بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر بأفريقية كانت أكثر وأشد مما حدث بين المسلمين وغير المسلمين، وعندما تهبّ

---

(١) هوبير ديشان - الديانات فى أفريقية السوداء ص١٥٢ - ١٥٣.

حركة إسلامية لتسقط نظامًا وثنيًا أو مسيحيًا فإن ذلك يكون بعد انتشار الإسلام وقوّة أتباعه لدرجة تمكّنهم من القيام بهذه الحركة الانقلابية، أما كيف أصبح هؤلاء مسلمين فإن من المؤكد أن ذلك حدث بطريق الدعوة، فلما رأى هؤلاء المسلمون أنفسهم قوّة أحسّوا بالتزامهم بالتغيير ليقيموا لأنفسهم النظام السياسى الذى يناسب معتقداتهم - وعن انتشار الإسلام بالدعوة فى أفريقية يتحدّث الكاتب المسيحى «هوبير ديشان» الذى كان حاكمًا للمستعمرات الفرنسية بأفريقية سنوات طويلة، وشاهد بنفسه تقدّم الإسلام وانتشاره، يقول هذا الكاتب:

«إن انتشار دعوة الإسلام بأفريقية لم تقم على القسر، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلّا إيمانهم العميق بدينهم وكثيرًا ما انتشر الإسلام بالتسرّب المسلمى بالبطىء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأوّل تبعتها بقيّة القبيلة، وقد يسّر انتشار الإسلام أمرًا آخر، هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين، وقد حبّب الإسلام إلى الأفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلّف، مثل الثوب الفضفاض والسبحة والكتابة

العربية والوقار الديني وشعائر الصلاة، مما يضفى على المسلم مكانةً مرموقةً وجاذبية ساحرة، فالذى يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوّة والحيوية[1].

وإذا كان هوبير ديشان قد أوضح أن نشر الإسلام بأفريقية كان بالسلم فإن كاتبًا غربيًا آخر يعطينا معلومات مهمّة تفيد أن نشر المسيحية بهذه القارة تمّ فى أكثر الأحوال بواسطة القهر والعنف والإلزام، إنه الكاتب «توماس أرنولد» الذى يقول: «فى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعًا، يضمّ رجال الكنيسة الحبشية وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة وأُلزم المسلمون بالتعميد خلال ثلاث سنوات، والوثنيون خلال خمس سنوات، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة، فأذاع بعد أيام قليلة مرسومًا أنذر فيه كلَّ الموظفين المسلمين بأن المهلة المحتومة لهم هى فقط ثلاثة أشهر». ويعلّق مستر «ماسايا» الذى ينقل عنه «أرنولد» أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجبارى، ولكنه كان تنصيرًا عديم الأثر، ويروى أنه شاهد بعضًا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلًا مباركًا من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه.[2]

---

(١) الديانات فى أفريقية السوداء ص١٢٨ - ١٢٩.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص١٤١ - ١٤٢.

عوامل يسرت انتشار الإسلام:

يُسْر الإسلام وسماحته، وتمشّيه مع فطرة الإنسان، فأُولى الركائز التى مكّنت للإسلام هى قيمته الذاتية وصلاحيته للبقاء لكل زمان ومكان ويبدو ذلك فيما يأتى:

(ا) العقيدة:

وأوّل لقاء مع عقيدة الإسلام والإنسان هو اللقاء مع فطرته الأولى التى فُطِر عليها، وبهذا تكون الاستجابة هى الاستجابة لنداء الفطرة والاتّساق معها، لا معاندتها ولا التمرّد عليها.

وكان الإنسان الأفريقى الذى رانت الوثنية على فطرته منطقيًّا مع نفسه حين أزاح هذه الحجب عن فطرته والتقى بها مع الإسلام.. وأساس هذه العقيدة هو الإيمان بوجود الله، وما يجب له من صفات الوحدانية وغيرها من صفات الكمال، والإيمان بالرسل وما جاءوا به، أما الإيمان بوجود الله مع انكار الوحى والأديان، فيكاد يكون هو أساس الشعور الدينى السائد عند كثير من عبدة الأوثان فى أفريقية بل وفى غيرها..

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرضَ ليقولُنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليم[1]﴾.

(١) الآية ٩ من سورة الزخرف.

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤْفكون﴾[1]

وكانت مهمّة الإسلام أن ينمي عقيدة الإيمان، ويزيل عنها عنصر الشرك ويحوّلها إلى عقيدة التوحيد وهذا هو ما فعله فى الأفريقيين، وكانت عملية التحويل هذه تتم فى يُسْر عليه وعليهم لأنها استجابة منهم لفطرتهم، ويبقى بعدها ما ترسب عندهم من آثار هذه الوثنيات ممّا تجلَّى فى عباداتهم وسلوكهم ومجتمعاتهم وفلسفاتهم.

وكل هذا كان قابلاً لأن يتغيرّ ويحلَّ محلّه آثار إسلامية تصبغهم بصبغة الإسلام من غير أن تتوقّف حياتهم، بل هو يدفعها إلى ما هو أحسن وأرقى، ومن هنا كانت الاستجابة إلى الإسلام استجابة سريعة إلى الدين الذى يمدُّهم بالحقائق الصحيحة المتعلقة بالله تعالى وبالكون والإنسان، ووصلت إلى قلوبهم فنمّت إدراكهم، وأزاحت عن عقولهم الغشاوة وحررتهم من الأوهام والخرافات التى كان الإسلام يجدُّ فى مقاومتها والقضاء عليها، وسادت عبادة الله الواحد القهار.

(ب) الشريعة:

احتلت الشريعة الإسلامية محلَّ نزوات شيخ القبيلة أو الملك

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الزخرف، والخطاب فى هذه الآية والآية السابقة وإن كان للرسول لإخباره بحال العرب إلا أن مدلوله عام يشمل مشركى العرب وغيرهم.

المستبدّ، وهذا تغيير جذرى يعد فى حدٍّ ذاته تقدمًا هائلًا على طريق الحضارة، كما أخذت سبيلها فى مطاردة السلوك الوثنى بعاداته وتقاليده ونظمه فحرّمت القبائح والرذائل من مثل أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قربانًا، ووأد الأطفال أحياءً، وفى ظلّها يختفى العرى ويبدأ الإنسان ستر عورته ويتميز عن الحيوان بل يتأنق فى حليته.

وأصبح المسجد مركز إشعاع للطهر الحسِّى والمعنوى، فالشريعة تأمر بالطهارة، وأصبح الذين لم يغتسلوا قط يغتسلون ويتوضّئون، والأذان يردّد عليهم شعار دينهم كلَّ يوم أكثر من مرّة والصلاة خمس مرات، والقِبلة توحِّد اتجاههم، والإمام ينظِّم صفوفهم، والجمعة توحِّد شملهم والخطبة توجّههم وهكذا بقيّة العبادات.

ونظافة المسجد تعلِّمهم نظافة البيت والمجتمع، وهذا المسجد كان البديل الإسلامى الحضارى عن دار عبادة الأوثان أو (اليويو)[1] ذات المنظر البشع.

وأمّا نظامهم القبلى فكان يميل بطبعه إلى إفساح المجال لأساس أوسع نطاقًا وأدقّ نظامًا، وقد عملت الدعوة الإسلامية بنظمها على دمج القبائل، وإذابة الفوارق وإشاعة الإخاء والمساواة وتنشيط المعرفة، فصيّرت القبائل أممًا، ومن الأمم دولًا، ومن الدول

---

(١) توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٣٩٨ نقلًا عن سميث وغيره.

إمبراطوريات نضَّرت وجه أفريقية بحضارة الإيمان لا بجهامة الوثن، وارتبطت بالعالم الإسلامى من حولها ارتباط إخاء وحضارة.. وهذه الإمبراطوريات بنظمها خضدت من شوكة الوثنيات وحاولت جذبها فقلّ عددها، ووضعت للحروب معها تقاليد إسلامية قائمة على أسس رحيمة وإنسانية، وقيّدتها فلم تكن لتثأر بدون سبب، فساد الأمن على الروح والمال، وقلَّ السلب المطلق للإنسان واسترقاقه والمال واغتصابه.

وفى ظلّ هذا الأمن والسلام نمت الحضارة، فازدهر العلم، ونمت التجارة والصناعة، وقامت المدن، وأمنت السبل، واتسعت العلاقات وكثرت الرحلات، وقامت أساليب الحكم والإدارة المنظمة فى تذليل صعاب الحياة، وكان عصبها الإسلام دينًا، والمسلمين روّادًا وأداة.. هذا هو البناء الحضارى للدعوة الإسلامية التى أضاءت غرب أفريقية عقيدة وشريعة، ثم يأتى دور الركيزة الثانية وهى:

أسلوب الدعوة ومنهجها
فى تغيير الفرد والمجتمع هناك

وقد اتّسمت الدعوة الإسلامية فى قيامها وانتشارها بطابع السلم والدعوة بالحسنى بلا عنف ولا سيف إلّا ما كان من تصدّيها لإزاحة العقبات عن طريقها، فحين كانت تضطر لحمل السيف، فإنما كان ذلك فى وجه الفاتحين، وكان يسبق السيف فى معظم الحالات جهود سلمية فى غير شغف إلى العنف والدماء، بل لتحقيق هدف الدعوة ورسالتها، وكان يصاحب الفتح ويتلوه نشاط الدعاة فى تعليم وتحويل الفرد والمجتمع إلى الإسلام فى رفق وأناة، فبالنسبة للفرد ما أن يتحوّل الفرد إلى الإسلام حتى تتحوّل حياته كلها حسّية ومعنوية، سلوكه وتفكيره وعواطفه وآماله إلى أحسن وأرقى، فيحسّ أوّل ما يحسّ بالانتماء الهادف لا بالضياع ولا بالاستعباد وإنما بالانتماء إلى كيان دينى وإنسانى واجتماعى وحضارى يخوّله حق الحياة وحمايتها وتنميتها فى نطاق مكانىّ يمتدّ من المحيط الأطلسى إلى الصين ويستطيع أن يتحرك فيه تحت راية الإسلام، وأينما حلّ وجد

إخوة العقيدة ودار الإسلام يأوى إليهما، فهو بذلك عضو فى كيان حيٍّ ذى نفوذ، وأيًّا كانت طبقته فى هذا المجتمع الإسلامى فهو يحسّ بكيان فيه وهو يتعامل مع باقى أعضاء هذا الجسد الإسلامى معاملة الإخاء، فلا يحقره لونه، ومعاملة المساواة فلا ينتقصه تعصّب، ولم يفقد وطنه فليس هو بغريب، فقد حفظ له الإسلام استقرار الموطن ولم يصدّه أو يشعره باغتراب.

وفى نطاق زمانى: يشمل اليوم والغد والدنيا والآخرة، فهو يعمل للدارين معًا.

وهو فى أسرته العضو الراقى بإسلامه، يحيط كل أفرادها بعواطف فى إطار دينه، وهو القدوة لهم فى كل شىء، يلينها على أسس طاهرة، يجنّبها أىّ اتجاه ينزل بها عن مستوى الإنسانية.

وبالنسبة للمجتمع: هو فى مجتمعه الإنسان الذى يعمر الأرض لأنه خليفة الله فيها، إنه يحبّ الخير ويسعى إليه ويحسّ بمجتمعه، ويتميزسلوكه وفكره وهديه وسمعته ووقاره واعتزازه ونشاطه واعتماده على النفس واحترام الذات، ومن هذه اللبنة السليمة - الفرد السوى - أقام الإسلام المجتمع الأفريقى المسلم على أسس دينية حضارية، وأخذ يخطو قدمًا بالقبيلة الزنجية عقليًّا وماديا ثم يؤلّف بينها وبين غيرها برباط العقيدة والمحبة ويبنى منها أمّة ذات رسالة تقيم دولة الإسلام على أنقاض الوثنيّات، وتبنى دنياها على

حضارة دينها، فالإيمان أساسها، والعلم شعارها، والصناعة قائمة، والتجارة رائجة بنظام محكم دقيق.

والمدن تنمو بالإسلام، والعلم فى أرض الزنوج كالقلاع تحطم الجهل، وتخرج المجتمع من الغابة إلى الحياة، فيجد فى ثقافة الإسلام ونظمه ما يلائم حاجته المشروعة وما يكفيه مطالبه ومطامحه، وقد وجد الأمن والسلام فى بلاده من بعد غارات أنهكته وحروب أهلكته، واسترقاق قضى على إنسانيته.

المساواة فى الإسلام بين الأجناس والألوان
من عوامل انتشار الاسلام

لقد كرّم الله الإنسان بأن خلقه وسوّاه، وأسجد لأبينا الأول ملائكته، بعد أن علّمه الأسماء كلّها، كرّمه بالخلق، وكرّمه بالعلم، وكرّمه بالاستخلاف فى الأرض، وكرّمه بالمساواة بين الناس، نجدها فى قوله تعالى: ﴿يأيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.(١)

كرامة تتساقط دونها حواجز اللون والعنصرية والطبقية، ويرتفع معها صوت النبوّة فى حجّة الوداع وهو ينادى: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربىٍّ فضل على عجمى إلّا بالتقوى» ثم يشهد الله على قوله «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد» فترد الجموع

(١) الحجرات آية ١٣.

المؤمنة فى موقف الحج الأكبر: (نعم) فيقول: «فليبلغ الشاهد الغائب».

ويتجلّى المشهد بصورة عملية حينما ترى جموع المسلمين تتوافد على المسجد النبوى الشريف أيام الحج على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، كلهم أمام الله سواء، وفى بيته سواء، وفى الحياة سواء، لا يسألهم أحد عن أجناسهم وألوانهم ومواطنهم، وإنما جمعهم الإيمان الواحد بالإله الواحد، وبخاتم المرسلين، وضمّتهم أخوة إنسانية واحدة.

وإذا ارتفعت عيناك إلى زخارف الصحن الجديد، فى الجزء الخلفى من المسجد، فإنك ترى أسماء الصحابة وقد زيّنت عقود الصحن، ترى أسماء بلال بن أبى رباح، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين، الأوّل يعود بأصله إلى الحبشة، إلى أفريقية، والثانى إلى اليمن، وعاش شطرًا من حياته فى أرض الروم حتى عرف باسم صهيب الرومى، والثالث من فارس، لقد مجد المسلمون أسماءهم، فزيّنوا بها المسجد النبوى على اختلاف أجناسهم وألوانهم... بلال كان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحضر والسفر، صحبه فى المشاهد كلها وما تخلف عنه فى غزوة، بلال كان رقيقًا حبشيًا وعذّبه كفار قريش عندما أسلم، فكانوا يلقونه على الصخور فى وقدة الحر، ويشتدّون فى تعذيبه فلا يزيد على أن يقول

معلنًا إيمانه: «أحد أحد» ولم يرض برغم التعذيب العنيد أن يدنّس لسانه بكلمة الكفر، بعد أن طهّره الله تعالى بكلمة الإيمان، ويشتريه أبو بكر ويعتقه، فيقول في هذا عمر بن الخطاب: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يعني بلالاً - ويدخر الله له فضلاً كبيرًا، فيكون مؤذّن الرسول في المسجد النبوي، ويدعوه الرسول إلى الأذان فوق الكعبة عام الفتح، فيكون أوّل من ارتفع فوقها بالتكبير ولم يكن ذلك يسيرًا على قريش وكبريائها، فيقول عتاب بن أسيد وقد أسلم يوم الفتح، وكأنه يعبّر عن وجهة نظر قريش كلها، عندما صعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذّنًا:.. الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم! وقال الحارث بن هشام: «أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّنًا؟».. وفي هذه العصبية اللونية ينزل قول الله تعالى محدّدًا أساس الحياة الإنسانية في آمادها وأقطارها: ﴿يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾.. سورة الحجرات آية رقم ١٣.

ويدعوه عمر بن الخطاب إلى الأذان في بيت المقدس عندما حرّره المسلمون فيكون أوّل صوت يرتفع فيه بالتكبير، فضلٌ ادّخره الله لرجل بدأ حياته في الإسلام رقيقا حبشيًا من أفريقية، فعاش في مجتمع كريم أذهب الله عنه نعرة الجاهلية وتعاظمها بالآباء..

وسلمان الفارسي، الذي دفعه البحث عن الإيمان إلى أن يترك

طنه فى فارس فى رحلة مؤمنة إلى الشام، ثم إلى الجزيرة العربية يؤمن بربه ويجاهد مع رسوله، ويقول عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سلمان منّا أهل البيت» وهو الذى يشير على الرسول بخطّة حفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب، فيكون ذلك من التخطيط العسكرى الذى تقف دونه قريش عاجزة، ولقد كانت غزوة الأحزاب غزوةً قاسية تغلّب فيها الإيمان والعمل العلمى، الذى أطلق طاقات الصحابة دون نظر إلى ألوانهم أو أعراقهم التى جاءوا منها.

وصهيب الرومى: يهاجر من مكة إلى الله بدينه، لا يعنيه إلّا أمر إيمانه، ويتبعه رجال من قريش يريدون القبض عليه وإعادته إلى مكة، فيلتفت إليهم كالأسد الهصور، وبين يديه سهامه وقوسه، وعلى عاتقه سيفه ويقول: «والله لقد علمتم أنى من أرماكم، ووالله لا تصلون إلي حتى أقتل بكل سهم من هذه رجلًا منكم، ثم أقاتلكم بسيفى حتى أقتل، وإن كنتم تريدون المال فأنا أدلّكم على مالى، هو مدفون فى مكان كذا وكذا».

فانصرفوا عنه فأخذوا ماله، فلما قدم قال رسول الله: «ربح البيع أبا يحيى» وأنزل الله: ﴿ومن الناس مَن يَشْرِى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾[1]..

(١) البقرة آية ٢٠٧.

ولما جعل عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين الستّة ليختاروا من بينهم خليفة كان هو الذى يصلى بالناس حتى تعيّن عثمان، وهو الذى ولى الصلاة على عمر، وكان له صاحبًا.

ويجمع النبى عليه الصلاة والسلام هذه الباقة الإنسانية معه فى حديث يقول فيه: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش»[1].

ويأتى الآسيويون إلى المسجد النبوى أجيالاً بعد أجيال فيجدون لهم أبًا كان فيه من الصحابة هو سلمان، ويأتى الروم ومن وراءهم فيجدون لهم أبًا كان فيه هو صهيب، ويأتى الأفريقيون ليجدوا بلالا مؤذن رسول الله.

الأجناس كلها تمثّلت فى الصفّ الأوّل من أصحاب رسول الله، ويقولها الرسول عن سلمان: «سلمان منّا أهل البيت»، ويقولها عمر بن الخطاب من بعده «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أوْلى بمحمد منّا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه» هذا التكريم للإنسان من حيث هو إنسان، وهذه المساواة الكاملة بين الناس جذبت الأفريقيين إلى هذا الدين الوافد عليهم، دين الإسلام، لقد وجدوا دينًا يطبقه أهله تطبيقًا عمليًا

---

(١) السيوطى: الجامع الصغير جـ١ ص١٠٧.

فهم لا يترفعون على أحد، ولا يعطون لأنفسهم مكانة فوق مكانة الأفريقيين ولا ينظرون إلى الملونين نظرةً فيها مهانة أو احتقار فأحبوا هذا الدين الذى كرّمهم وسارعوا إلى اعتناقه، إن الإسلام ليست فيه تفرقة عنصرية، وأتباعه لا يفرّقون بين العناصر، إنما الجميع أمام الله سواء.. ولقد عالج القرآن الكريم قضية التفرقة العنصرية علاجًا جعل المسلمين فى تطبيقهم العملى لتوجيهات القرآن، لا يمارسون ولو من بعد تفرقة عنصرية من غيرهم.. القرآن لم يذكر البياض مادحًا، ولا ذكر السواد ذامًّا، وإنما ذكرهما ظاهرات تدلّ على قدرة الله وخلقه..

إن القرآن يذكر اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية، ويعتبرها جميعًا أدلّةً على وجود الله. ووضعها بهذه الصورة دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة، وفى هذا أعمق الدلالة على أنها مجرد ظاهرات كغيرها من الظاهرات الطبيعية والبشرية، تجمعها كلّها نظرة واحدة من التأمل الذى يعمّق الإيمان فى القلب، ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون، وله الحمد فى السموات والأرض وَعَشِيًّا وحين تُظهرون، يخرج الحيَّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تُخرَجون، ومن آياته أنْ خلقكم من تراب ثم إذا أنتم

بشر تنتشرون، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكّرون، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إنّ فى ذلك لآيات لقوم يسمعون، ومن آياته يُريكم البرق خوفًا وطمعًا، وينزّل من السماء ماءً فيُحيى به الأرض بعد موتها، إنّ فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

وحديث القرآن عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس يماثل حديثه عن اختلاف الألوان فى آفاق البيئة الطبيعية، هو مظهر لقدرة الله، له فى النفوس قداسة واحترام، وواجبنا حياله أن نعمل وفق أوامر الله.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور﴾[2].

يتّضح من هذه الآيات أن الناس جميعًا إخوة فهم أبناء أب واحد، وأن يعملوا فى الحياة دون أن يكون لفروق اللون - بشرية

---

(١) سورة الروم الآيات من ١٧ - ٢٤.

(٢) سورة فاطر ٢٧ - ٢٨.

كانت أو طبيعية - من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنسانى من أجل حياة أفضل..

ومن أروع مظاهر الإسلام التى حبّبت قلوب الأفريقيين فيه، سواء أكانوا مثقفين أم عامّة، أنه وضع الأسس والمبادئ العامة التى تمجد المثل العليا والآداب الرفيعة، وتنظم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية، كما عنى الإسلام بالأسرة وقرر مبادئ حقوق الإنسان، فوضع أساس الحرية والإخاء والمساواة والتسامح الدينى، وخلف للإنسانية الحديثة هذا التراث المجيد من فلسفة وأدب وفن ونظم.

والقرآن الكريم يعترف بالأديان السماوية الأخرى، وبالأنبياء كموسى وعيسى، ويفرض على المسلمين أن يعترفوا بهذا كجزء مكمّل للعقيدة الإسلامية، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرِّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[1]..

وقد حثّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المسلمين على نشر الإسلام وإشاعة المحبّة بين الناس جميعًا، وقرر الله سبحانه وتعالى معنى الإسلام، فسمّى نفسه السلام، قال تعالى: ﴿هو الله

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥

الذى لا إله إلّا هو، الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون﴾[1] وقال تعالى: ﴿وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم، تحيّتهم فيها سلام﴾[2]..

والإسلام يؤلّف ولا ينفّر، ويقرّب ولا يبعد، فقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحسن المعاملة، روى فى بعض الآثار أن «الدين المعاملة» وأوصى الله تعالى بحسن الجوار، قال رسول الله: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»..

وحقوق الجار عظيمة، من شأنها أن تربط بينهما المودّة والحسنى، وقال رسول الله: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن - قالها ثلاثًا - قالوا: من يا رسول الله؟ قال: ذلك الذى لا يأمن جاره بوائقه».

وقد نصّ النبى صلى الله عليه وسلم على الإحسان إلى الجار المشرك، فروى عنه أنه «قسم الجيران إلى ثلاثة: جار مسلم ذو رحم، له حقّ الجوار، وحقّ الرحم، وحق الإسلام، وجار مسلم: له حق الجوار وحق الإسلام، وجار مشرك له حق الجوار...

---

(١) سورة الحشر: ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٣.

ومن هذه الأخلاق التى أوصى فيها النبى بحسْن العشرة وحسن
التى دخل الإسلام إلى القلوب وقرّب النفوس، وإن العدالة
الإسلامية فى الشعوب التى كان للإسلام نفوذ فيها، كانت مرتبطة
النفوس، مؤثّرة فى قلوبهم، فالله تعالى يقول: ﴿ولا يجْرِمنَّكم شنآنُ
قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾(١)..

والنبى أوصى بالذمّيين، وقال: «ومن آذى ذميًّا فأنا خصمه، ومن
كنت خصمه خصمته يوم القيامة».

وقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على إكرام الذمّيين والعدالة
بهم، وحقّقوا القاعدة الفقهية التى تقول: لهم ما لنا وعليهم
علينا، من غير وكس ولا شطط..

وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعدّ المعاملة الطيّبة من
الولاة للذمّيين، دليلاً على عدلهم، فكان إذا لقى الوفود من الأقاليم
الإسلامية فى موسم الحج، كان أوّل أمر يسأل عنه معاملتهم للذمّيين،
فالمعاملة العادلة تجذب القلوب وتقرّبها، فإذا علموا أنها من دين وافد
عليهم يسمى دين الإسلام، سارعوا إلى التعرف عليه ودراسة مبادئه
وأحكامه.

وإن العدالة حتى فى الحرب، والسيوف مشتجرة، كانت سائدة

(١) سورة المائدة: آية رقم ٨.

واضحة، يحكى تاريخ عمر بن عبد العزيز: الحاكم العادل، أن أهل صفد من أعمال سمرقند شكوا إلى الحاكم العادل - عمر هذا - ان قتيبة بن مسلم دخل ديارهم فاتحًا، من غير أن يخيّرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، كما هو الشأن فى الحروب الإسلامية. شكوا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - فأرسل إلى القاضى يأمره بأن يجلس ويحقّق الشكوى، ويجمع بين الشاكين، والقائد العظيم قتيبة بن مسلم، فسمع القاضى إلى الشكاة، وإلى مقالة قتيبة، فتبيّن له صدق الشكوى، فأمر الجند الفاتح أن يخرج من ديار سمرقند، ويعود إلى ثكناته قبل الفتح، ثم يعود القائد إلى تخييرهم بين الإسلام والعهد والقتال.

لا شكّ أنهم يختارون العهد، ولا يختارون القتال، والكثيرون منهم يدخلون فى الإسلام، سواء أرضى أولياء الأمر فيهم، أم لم يرضوا.

إن الإسلام كان دين العدل فى وسط عنجهية الحكم الطاغى، والظلم المبين، وكان فيه إنقاذ الرعية، من الولاة الظالمين، والظلمة الآثمين.

ولا شك: أنهم عرفوا أن الإسلام فى عهوده التى يعقدها مع الحكام - ملوكًا كانوا أو غير ملوك، كان يشترط عليهم العدل فى رعاياهم، فإن لم يعدلوا، فقد نكثوا فى أيمانهم، وردّ اليهم عهدهم، وقام

المسلمون بقتالهم لإبعادهم عن ظلم الرعية.

ذلك: أن الظلم حرام فى الإسلام، جاء بتحريمه القرآن، ووصايا النبى صلى الله عليه وسلم - وكل شرط يحلّ حرامًا، أو يحرّم حلالاً فهو ردٌّ على من اشترطه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلمون عند شروطهم، إلاّ شرطًا أحلّ حرامًا أو حرّم حلالاً» وإن الظلم حرام بحكم الشرع، وبحكم العقل.

ومن العوامل الذاتية لانتشار الإسلام: القدوة الصالحة

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وخلقه الفاضل هو السحر الذى يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب، وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السير وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم والركون إليهم، ومن ثم فإن الداعية الموفق هو الذى يهدى إلى الحق بعمله وإن لم ينطق بكلمة، لأنه مثل حىّ متحرّك للمبادئ التى يعتنقها.

وقد انتشر الإسلام فى صدر الإسلام بهذه القدوة الصالحة، فأعجب غيرهم بالإسلام فى أحوال الفرد، وفى أحوال الدولة، والداعية الأوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى الأخلاق وحسن معاملته للناس، ورفقه بأصحابه فتأثر بهذه الأخلاق غير المسلمين ودخلوا فى هذا الدين الجديد، حينما دعا إلى الزهد فى متاع الحياة الدنيا - طبق ذلك على نفسه، فزهد فى نعيمها، وكانت الغنائم توضع أكوامًا فى المسجد، فلا يقوم من مجلسه إلّا بعد أن يوزعها، ثم يعود إلى بيته، فتقول عائشة فى هذا البيت: لقد كان يمرّ

علينا الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلّة فى شهرين، وما يوقد فى أبيات رسول الله نار للطعام «وحينما كان يدعو إلى الشجاعة والخروج إلى مواجهة الأعداء كان أوّل من يخرج إلى المعركة، ويقول فى ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه: كنّا إذا حمى البأس واحمرّت الحدق، اتقينا برسول الله فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه.. وتميز المجتمع الإسلامى الأوّل بمعاملة المسلمين لغيرهم معاملة طيبة، حببت إليهم القلوب، فالود يقرّب، والعداوة تفرّق، وما كان يجوز سبّ دين المخالف للإسلام، ولا التهجّم على اعتقاده؛ فإن التهجّم يوجد مقاومة، والمقاومة توجد الانحياز، والانحياز يضع حاجزًا بينه وبين من يريد هدايته، والمنهاج فى ذلك قوله تعالى: ﴿قل يأيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولى دين﴾، سورة الكافرون.

وقد أوجد الفتح الإسلامى جوارًا بين المسلمين وغير المسلمين سواء أكان هؤلاء الجيران من العرب، أم من غيرهم، فرأوا من المسلمين حسن المعاملة، والإحسان إلى الجار، تطبيقًا لأوامر القرآن الكريم التى قرنت الإحسان بالجار بالإحسان إلى الأقربين، وقرن الإحسان بعبادة الله وحده، فقال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا، وبذى القربى واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت

أيمانكم، إن الله لا يحبّ من كان مختالاً فخورًا﴾[1]. وإن ذلك بلا ريب يقرب النفوس ويؤلّفها، وإذا تآلفت النفوس سهل وصول الحق إليها، ودخل إلى القلوب من أبوابها، وخصوصًا إذا كان العقل يؤيّد ما يدعون إليه فإن المعاملة الحسنة تُدنى، والجفوة تُبعد، والقول الطيب يهدى، وغيره ينفّر، وقد قال تعالى: ﴿وهُدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾[2] ويأمر الله سبحانه المؤمنين أن يقولوا للناس قولاً حسنا، فقال تعالى: ﴿وقولوا للناس حُسْنًا﴾[3].

ومع أن الإسلام مقنع بذاته، يدعو العقل ويخاطبها - مع هذا - يجب أن نفرض فرضًا آخر وهو أن الإسلام كان قويًّا، وكان المسلمون هم الأقوياء، والحكام منهم، فلابد من أن يقلّدهم المحكومون بهم، وتتحقق نظرية ابن خلدون التى تقرر: أن الضعيف شغوف دائمًا بتقليد القوى، ويظنّ أن كل ما فيه من أحوال وصفات من أسباب قوته وسرّ عزّته وعظمته، وأنه بمقتضى هذه النظرية لذلك الفيلسوف الاجتماعى، يفرض أن ناسًا من المحكومين ابتغوا الإسلام تقليدًا للأقوياء وهم حكّام المسلمين، فكانت على هذا قوّة المسلمين وسلطانهم من أسباب اتّباعهم، ولذا لا نجد أحدًا من هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام عن اقتناع خرجوا منه، بعد أن ذاقوا

---

(١) النساء آية ٣٦.

(٢) الحج آية ٢٤.

(٣) البقرة آية ٨٣.

بنباشته، وأن استمساك المسلمين غير العرب بدينهم الذى ارتضوا -وهو الإسلام- لدليل على أنهم اختاروه لاقتناعهم به، ووازنوا بينه وبين ما كانوا عليه من أوهام، فرأوا فيه كل ما يوافق العقل السليم، ورأوا ما رآه الأعرابى عندما آمن بمحمد رسول الله، وقد سئل: لم آمنت به؟ فقال: ما رأيت محمدًا يقول فى أمر افعل، والعقل يقول: لا تفعل، وما رأيت محمدًا يقول فى أمر لا تفعل والعقل يقول افعل..

وبذلك يتبين أن المسلمين فى الأراضى التى فتحها الإسلام، ما دخلوا فى الإسلام رهبًا، وما دخلوا تقليدًا للأقوياء، ولكن دخلوا رغبًا وتأثرًا بالقدوة الصالحة.

وكان العدل واضحًا فى المجتمع الإسلامى، وكانت الرعية تعيش فى أمن وسلام، قال عمرو بن العاص يومًا لأحد رعيته يا منافق، فقال الرجل له: والله ما نا فقت منذ أسلمت، وشكا إلى عمر فى المدينة، فأعطاه كتابًا قال فيه: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاص لقد ذكر لى فلان أنك نفقّته، وما نافق منذ أسلم، فإذا جاءك كتابى فاجلس مع الملأ، واجعله يضربك أسواطًا، فجاء الرجل إلى الملأ فى المسجد، وقال لهم: من سمع الأمير نفقنى؟ قالوا: كلّنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب، فقال المنافقون حقًا الذين يطوفون حول الحاكم: أو تضرب الأمير؟ فقال الرجل متحديًا: ليس لأمير

ِمنين هنا أمر، فطأطأ عمرو بن العاص رأسه، وأعطاه السوط، ال للرجل: اضرب، فهزّ الرجل السوط بيده وقال: الآن عفوْت.

هذه هى العدالة فى أسمى صورها، والتى طبقها الحاكم على ته؛ ولذا أحب الناس هذا الدين الذى يوفّر لهم الأمن والعدل لسلام...

والعرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية، واستقرّ بهم ام فى شرق أفريقية، هاجروا ومعهم قيم الإسلام وأخلاقه، لقد ى فيهم أهل البلاد البساطة فى العبادة، فالوضوء للصلاة ميسور، صلاة صلة بين العبد وربّه، وتؤدّى بلا تعقيد، ووجدوا البساطة جلّى فى أبهى صورها فى هؤلاء المسلمين، فهم يسكنون فى أحيائهم، صاهرونهم، ويأكلون طعامهم، ويلبسون ثيابهم، كما أنهم وجدوا فى رتهم الأمانة، فالعربى أمين وصادق وسمح حسبما قال رسول الله: حم الله رجلًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا نضى» اندمج العرب بسرعة فى البلاد التى دخلوها، وذلك بعكس نود المسلمين فإنهم لا يختلطون بالشعوب الأفريقية، بل يسكنون ياء خاصة بهم، ولهم مساجدهم وحدهم، ولا يزوّجونهم ولا وجون منهم؛ لهذا لم يكن لهم أثر يذكر فى توجيه غيرهم إلى هذا دين، لكن العرب قد أجادوا فنّ الاندماج بغيرهم، وعاشوا معهم كأنهم أبناء بلد واحد، تعلّموا لغتهم، وتزوجوا منهم، وتعوّدوا على عامهم؛ لذا ألفهم أهل البلاد وتأثروا بهم وبأخلاقهم، وبالواجبات

الدينية التي يؤدّونها، لقد رأوا البساطة فى أدائهم للعبادات. فحين يريد المسلم أن يصلّى يغسل بعض أعضائه - وهى فرائض الوضوء - ثم يقف متجهًا إلى جه معينة، وينوى الصلاة - ويقرأ الفاتحة - ويركع ويسجد فى يسْر وسهولة، وهو فى أثناء صلاته لا يشغل بشىء أبدًا، لا يلتفت إلى أحد، ولا يكلّم أحدًا ولا يعبث بشىء ولا يتحرك من مكانه، وذلك مظهر رائع للنظام، فلفت ذلك انتباه الأفارقة، وأحبّوا مزاولة هذه الطقوس، إنهم يرون المسلم نظيفًا، فى بدنه ونظيفًا فى ملابسه، ونظيفًا فى المكان الذى يجلس فيه وهذا أمر محبّب إلى النفوس ثم رأوا منهم حبّهم للخير، وبذل المعروف للغير، والتعاون مع الناس فى أحزانهم وأفراحهم، ورأوا منهم القناعة، يبدءون طعامهم - أى طعام كان - بسم الله، وينتهون منه بقولهم: الحمد لله، وينطلقون إلى العمل فى جدٍّ ونشاط، نهارهم كله دأب وعمل، وسعى من أجل الرزق، فى أى ميدان من ميادين العمل، زراعة، أو تجارة أو صناعة، طوال النهار يعملون، فإذا ما أقبل المساء سارعوا إلى المساجد فى ثياب نظيفة يؤدّون الصلاة ويقرءون القرآن ويسبّحون الله ويستغفرون، ثم ينصرفون إلى بيوتهم مبكرين، ليناموا مبكرين، ويستيقظوا فى الصباح مبكرين، حيث يؤدّون صلاة الفجر...

هذا المظهر الرائع حبّب الإسلام إلى قلوب الأفريقيين فكان وسيلةً من وسائل انتشار الإسلام بينهم...

ثانيًا: العوامل الخارجية لانتشار الإسلام

وتتمثل فيما يأتى:

القوافل التجارية:

الهنود فى قارة آسيا، يبلغ عددهم أكثر من ٦٠٠ مليون (ستمائة مليون نسمة) وهو عدد ضخم لا تكاد تتسع له البلاد؛ لذا فإن كثيرًا منهم يهاجر إلى دولة أخرى، وغالبًا ما يكونون تجارًا، فيعملون فى التجارة فى بلاد المهجر، وإن من البلاد التى شدّتهم إليها بلاد شرق أفريقية لوقوعها على المحيط الهندى، وأكثر هؤلاء المهاجرين من المسلمين المتمسّكين بالإسلام، وإن كان أكثرهم يتبع مذهب الشيعة، وكانوا فى الماضى يفدون على شكل قوافل ومعهم تجارتهم من البضائع الموجودة فى الهند، فيبيعونها ويأخذون أثمانها، أو يشترون بها منتجات البلاد ويعودون إلى بلادهم يبيعونها فيها، وهكذا تتوافد القوافل التجارية على ساحل شرق أفريقية، وكذلك يفد الإيرانيون، وإن كانوا يحبّون الإقامة، وليس فى طبيعتهم حبّ الأسفار وكثرة الانتقالات...

أما العرب، فإنهم من عشّاق الرحلات التجارية من العصور القديمة ويذكر القرآن الكريم نبأ رحلتين هامّتين لقريش: رحلة فى الشتاء إلى اليمن جنوبا، ورحلة فى الصيف إلى الشام شمالاً، وقال فى شأنها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾...

ونظرًا لأن الساحل الأفريقى مواجه لشبه الجزيرة العربية، ولا يفصل بينها إلاّ البحر الأحمر فإن القوافل التجارية كانت تجد سهولة فى الذهاب إلى تلك المنطقة للتجارة، وهى تحمل مع تجارتها قيم الإسلام ومبادئه، فيعطون للناس ما معهم من مواد تجارية، وفى نفس الوقت يعطونهم تعاليم الإسلام بمفهومه الحضارى من حيث حبه للخير، وحبه للناس جميعًا من أىّ لون أو جنس، والجميع سواسية. لا فرق بين كبير أو صغير، ولا فضل لعربى على عجمى إلاّ بالتقوى والعمل الصالح. فتمكن الإسلام من قلوب الأفريقيين، والقوافل التجارية لا تحطّ رحالها فى مكان واحد، بل هى سريعة التنقل من بلد إلى بلد، ومن الشاطئ إلى داخل البلاد، فرآهم جميع أهل البلاد - وتأثروا بهم وبمعاملاتهم، وبصدقهم فى القول وأمانتهم وقناعتهم، فتأثروا بالإسلام، وسارعوا إلى إعتناقه.

وبهذا كان للقوافل التجارية أثر كبير فى انتشار الإسلام.

وكان من تأثير ازدهار التجارة أن عمّ الرخاء سكان تلك المناطق الساحلية فارتفعت مستويات حياتهم، وليس يخاف أن العرب بذلوا جهودًا طيبة فى تطوير الزراعة، وتوسيع الرقعة الزراعية، وإدخال زراعة الغلات، وفضلاً عن ذلك فقد عرف الأهالى بعض الصناعات كصناعة التعدين والحلى والحياكة وغيرها.

كما كان للقوافل التجارية أثر فى نشر اللغة العربية، وقد اختلطت بلهجات قبائل البانتو وتولّدت اللغة السواحيلية التى اشتملت على عدد كبير من الكلمات العربية، ويتكلم هذه اللغة اليوم حوالى خمسين مليونا.

ولبيان أثر التجار فى خدمة الإسلام ونشره بأفريقية ينبغى أن نسير مع قافلة تجارية للمسلمين تجتاز الحدود إلى بلاد الزنوج خلف الصحراء. فالقافلة تتكوّن من عشرات الرجال معهم البضائع المتنوّعة التى تحملها الجمال والبغال وبعض الرجال لهم خبرة بالتجارة، وبعضهم يقومون بحراسة القافلة، والبعض للخدمة. وهم جميعًا يمتازون بصحّة جيدة، ويرتدون ملابس نظيفة، وكثيرون منهم يرتدون ملابس فخمة تلفت الأنظار، وطبيعة التاجر أنه حسن المعشر، فيه جاذبية يستطيع بها أن يروّج تجارته، وترتسم ابتسامة على شفتيه بسهولة عندما يبيع أو يشترى. وهو يحاول أن يكسب من يعامله، وأن يجعله يحسّ بأنه صديقه الوفى.. وتحطّ القافلة أحمالها فى

مركز من المراكز التجارية، ويزاول التجار البيع والشراء للأهالى، ولكن التجارة فى ظلّ الإسلام أصبحت تتخذ من الشرف والثقة دعامة لها، ولا غرو فالتاجر المسلم لا يستطيع أن ينسى وهو يعامل الآخرين قوله تعالى ﴿ويلٌ للمطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون، ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم﴾[1] وهذا وثق العلاقة بين التاجر المسلم وبين المشترى وخلق لونًا من الجاذبية والتقدير، وفى هذا الجو يتم تبادل السلع وتبادل الأفكار، ثم إن المركز التجارى يتميز بالنظافة وبالإضاءة، ولعب ثراء التجار دورًا كبيرًا إذ ساعد التاجر على بناء منزل جميل، وعلى الظهور بمظهر الكرم والسخاء، وكل هذا يجعل بيت الغنى موئلًا للسادة والرؤساء، وملاذًا للمحتاجين، ومكانًا يتطلع له الأذكياء، ومحبّو الاستطلاع والطموحون... وبعد أيام ترحل القافلة إلى مركز جديد تاركة بعض رجالها وبعض سلعها فى المركز السابق، وفى المركز الجديد تتم عملية اتصال تجارى على هذا النمط، وهكذا دواليك، والتجار المسلمون يصلّون، وتضمّهم صفوف جميلة فى صلاة الجمعة والجماعة، وهم لا يشربون الخمر ولا يأتون المنكر ومستواهم الخلقى غالبًا طيب للغاية وهذه الصفات كثيرًا ما جذبت الأهلين إلى الانضمام إلى دين هذه الجماعة، والتجار المسلمون

(١) سورة المطففين الآيات من ١ إلى ٥.

المقيمون فى المراكز أو المتنقلون من مركز إلى مركز يتزوجون من الأهالى، وهم فى الغالب يختارون زوجاتهم من بيوت رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ، وتصبح دورهم منارات ينتشر منها الإسلام، وكثيرًا ما يدخل رؤساء القبائل فى دين أصهارهم فتتبعهم باقى القبيلة، وقد لعب تعدّد الزوجات دورًا مهمًّا فى خدمة الإسلام فإن تعدّد الزوجات كان معروفًا فى هذه البقاع دون حدٍّ ودون شروط فجعله الإسلام مشروطًا بالعدالة، ولم يسمح بأن يتجاوز عدد الزوجات أربعًا، وكانت الضرورة تقتضى فى مثل هذه الظروف بتعدّد الزوجات، فالتاجر ترك زوجته فى وطنه، ويعسر عليه أن يعيش عدة شهور دون زوجة، ومن هنا يتّخذ له زوجةً فى المكان الذى يتجر فيه، ويصبح بيته مركزًا إسلاميًّا يلعب دورًا كبيرًا فى خدمة الإسلام.

ولأن كثيرًا من هؤلاء التجار المسلمين لا يجيدون الفقه والفكر الإسلامى فقد استقدموا الفقهاء والعلماء لهذه المناطق عندما يكثر عدد المسلمين بها ليتولّى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم، وكان بعضهم يشيِّد المدارس وينشئ المساجد، وكثيرًا ما كانوا يختارون أفذاذ الطلّاب من المواطنين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة فى مصر أو الشمال الأفريقى، ليتلقوا مزيدًا من العلم، وليعودوا قادةً للفكر فى هذه البقاع، ومن هذا نستطيع أن نفهم لماذا كانت المراكز التجارية بأفريقية مسلمة قبل سواها من المدن والأنحاء.

ولم يقتصر الأمر على القوافل التجارية، بل إن هناك هجرات متعددة ومستمرّة، هذه الهجرات رحلت من الجزيرة العربية للاستقرار فى أفريقية تلك القارة الواسعة، ويعيش المهاجرون فيها حيث يعملون فى رعى الماشية وحرفة التجارة، أو يبلّغون الدعوة الجديدة ويعيشون فى كنفها. وبالإضافة إلى العامل الاقتصادى الذى دفع العرب للهجرة من جزيرتهم، وجد بعد الإسلام عامل سياسى دفع إلى الهجرة، كالفرقة الإسلامية، وكسقوط دولة وقيام أخرى، هذه العوامل جعلت بعض الطرق أو بعض القبائل تفرّ من اضطهاد واقعى أو محتمل وتتّخذ طريقها إلى أفريقية.

وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أمكنة متعددة من الجزيرة العربية، وعلى الرغم من أن المهاجرين جميعا خدموا الإسلام ونشروه، فإن بلاد حضرموت جديرة بأن نقف عندها وقفة فيها إجلال وتقدير، لما قام به بنوها فى هذا المجال، فلقد تخطى هؤلاء الناس الصعاب، وركبوا البرّ والبحر فنزلوا هنا وهناك ولم ينسوا قط دعوة هذا الدين فى حلّهم وترحالهم، فحملوا الإسلام إلى الناس وحملهم الإسلام إلى أسمى الدرجات. وإن عدّة ملايين من البشر فى آسيا وأفريقية يرتبط إسلامهم بهجرات حضرية، والهجرات العربية لأفريقية اتّخذت طريقها عبر مصر أو عبر البحر الأحمر، ولم يتوقّف نشاطها عند الساحل، بل تعمّقت فى كثير من الأحوال حتى وصلت قلب القارة، ويلاحظ أن المهاجرين العرب لأفريقية قلّما صحبوا

زوجاتهم في هجراتهم فالمرأة العربية كانت التقاليد تحميها من المغامرات والأخطار، ثم كان العربي قريب الشبه في زيّه وطعامه من أصحاب البلاد الأصليين، ونتج عن هذا أن حدث تزاوج وارتباط واسع المدى بين الطرفين، وهذا الارتباط قصّر المسافة بين الجانبين، ويسّر انتشار الإسلام، وبخاصّة بين جماعات اللادينيين، فتحققت بذلك نظرية علماء مقّارنة الأديان التى تقرر أن الدين الأعلى ينسكب فى قلوب من لا دين لهم، أو من يعتمدون فى تديّنهم على خرافات وأوهام، وذلك كالسيل ينحدر من أعلى إلى أسفل، وقد أحسّ المسلمون من سكان البلاد الأصليين أن العرب جاءوا من أرض النبى وأن لهم أو للكثير منهم صلة نسب برسول الله، ومن هنا أسلموهم القيادة فى كثير من الأحوال، وأصبح طبيعيًّا ما يقوله المؤرّخ «موك» من أنه قل أن ترى أسرةً حاكمة فى غربى أفريقية لا تنتسب إلى أصل عربى.. ولقى العلماء والمفكرون الذين هاجروا إلى أفريقية من الحجاز والعراق وغيرهما كنفًا ليّنًا وبسطة فى العيش فى المناطق التى رحلوا إليها، فأغراهم ذلك ليستقرّوا بها ولينشروا دين الله ويخدموا العلم والتصوف، فاتّخذوا من هذه المناطق مأوًى جديدًا واستوطنوها. وبناء على وثيقة يشير إليها «سير توماس أرنولد» يعتقد أن أوّل من هاجر من العرب إلى أفريقية هم جماعة من شيعة الشهيد زيد بن على زين العابدين بن الإمام الحسين، وقد فرّوا إلى أفريقية عقب هزيمة الثورة التى قام بها زيد، وأعدم من

أجلها سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠م) فى عهد هشام بن عبد الملك الخليـ الأموى.

ويعلّق «توماس أرنولد» على هذه الرواية بقوله: إن هذه الجماعـ عاشت فى مبدأ الأمر فى خوف بين السكان الأصليين الوثنيين، ولكنـ نجحت بالتدريج فى نشر الإسلام، ثم فى بسط نفوذها على طو الساحل بيد أن جماعة أخرى من العرب أقوى وأشدّ جاءت مر الأحساء على الخليج العربى فارّة من الصراع الذى كان يدور هنالـ فى منتصف القرن التاسع بين الخلفاء والقرامطة.. ويقال: إن هذ الجماعة عبرت البحر على ثلاث سفن، ونزلت بالقرب من المكان الذى ينزل به الزيدية، ولكن لما كان الزيدية من الشيعة والوافدون الجدد من أهل السنّة، فإن الزيدية ارتدّوا إلى داخل أفريقية واندمجوا فى السكان الأصليين، تاركين الساحل للوافدين الجدد الذين كانوا أكثر عددًا وأوفر قوّة، ويقال: إن هؤلاء هم الذين أسّسوا مدينة «مقديشيو» عاصمة الصومال الآن، وهناك رأى آخر يرى أن مقديشيو أسّست فى منتصف القرن العاشر، وأن الذين أسّسوها كانوا فُرْسًا بدليل أن التسمية فارسية، ومعنى مقديشيو أى مقعد الشاه.. ويمكن التوفيق بين الرأيين باعتبار أن العرب أسّسوا المدينة فى القرن التاسع باسم آخر، ثم زاد الفرس فى المدينة وأطلقوا عليها مقديشيو أو أنهم أطلقوا هذا الاسم على الجزء الذى نزلوا به من المدينة، أو على المنطقة التى بنوها، ثم غلب الاسم على المدينة كلها..

ومن الوفود العربية التى هاجرت إلى أفريقية وفد هاجر فى القرن الخامس عشر، وقد جاء من حضرموت وهو مكوّن من أربعة وأربعين رجلاً، وقد نزلوا بربرة ثم انتشروا فى بلاد الصومال يدعون إلى الإسلام، وقد شقّ أحد هؤلاء المهاجرين واسمه «الشيخ إبراهيم أبو زرباى» طريقه إلى «هرر» حوالى سنة ١٤٣٠، واستطاع أن يحوّل كثيرين إلى دين الإسلام، ولا يزال قبره موضع تعظيم وتبجيل فى هذه المدينة[١].

وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقية، وإلى الجزر المجاورة للساحل، ويذكر المؤرخون هجرات من اليمن والحجاز وحضرموت انسابت إلى هذه البقاع وإلى ربوع السودان الغربى، واختلطت بالسكان، وانتشر الإسلام فى ذلك الجوّ الجديد، وتتابعت الهجرات العربية، ولم يمض جيل وجيل حتى كانت اللغة العربية هى لغة أكثر السكان، وكان النفوذ فى أيدى السلالات العربية، وقد تعرّض سودان وادى النيل وبخاصة مناطق النوبة والبجة وسنّار لهجرات عربية أكثر كثافة بسبب موقعه بالنسبة لمصر وبالنسبة للبحر الأحمر والتاريخ يحدثنا طويلاً عن هجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين قبل الهجرة إلى المدينة وعن محاولة قريش استعادة هؤلاء المهاجرين، ويذكر التاريخ أن جعفر بن أبى طالب شرح

---

(١) عبد الرحمن زكى: المسلمون فى العالم جـ٢ ص ٥٢.

للنجاشي باسم المسلمين دعوة الإسلام، ورأى المسلمين فى مريم المسيح، وأن النجاشى تأثّر بكلام جعفر حتى يقال: إنه اعتنق الإسلام، والمهم هنا أن جعفر لقى مقامًا طيبًا ببلاد الحبشة وأن حياته هناك طالت فلم يرجع للجزيرة العربية عقب الهجرة، بل بقى بالحبشة حتى العام السابع للهجرة وقد هاجر جماعة من سلالة أخيه عقيل بن أبى طالب إلى الحبشة ونزلوا فى بقعة يقال لها «جبرة أو جبرت» وقد نسب هؤلاء المهاجرون إلى تلك المنطقة فأصبحوا يعرفون بالجبرتية، وإليها ينسب الشيخ المؤرخ الجبرتى، واستطاع أحفاد بنى عقيل أن ينشروا الإسلام فى هذه المنطقة وبمرور الزمن استطاعوا أن يكوّنوا أوّل دولة إسلامية فى الحبشة، وأخذ نفوذهم يمتدّ حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهم تأليف سبع ممالك زاهرة، سميت «الطراز الإسلامى» لأنها على جانب البحر كالطراز له[1].. وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية، وبجوار ممالك الطراز الإسلامى كانت هناك سلطنات مشابهة فى مقديشيو وعلى ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى، وفى الجزر المقابلة للساحل، وقد نعمت الشعوب الأصلية فى هذه المناطق بالحكم الجديد وتعاونت معه فى ظلّ الإسلام.

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٥ ص ٣٢٤.
والمقريزى: الإلمام بأخبار من بالحبشة من علوم الإسلام ص ٩.

وهكذا تدفقّت الهجرات العربية عبر القرون إلى أفريقية وبوجه خاص إلى الشمال وإلى الشرق وكان لها أثر كبير فى نشر الإسلام، بل امتدّ أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة فأصبحت مناطق الشمال وأكثر مناطق الشرق عربية الدم واللسان. وكان ينبغى أن تصبح الحبشة بلادًا عربيّةً مسلمة وقد أوشكت أن تكون كذلك، فلقد قامت بها إمارات وممالك عربية اللسان، مسلمة الدين، ولكن الاستعمار الأوربى ابتداءً من عهد البرتغال حتى العهد الحاضر بذل أقصى الجهد ليجعل منها قلعةً مسيحية وسط القارة.

ولم تقتصر الهجرات على العرب، فهناك نشاط لمسلمين غير عرب فى قارة أفريقية باعتبار أن الإسلام دين الناس جميعًا، وأن المسلم أيًّا كان جنسه يحسّ بأن الإسلام دينه، وعليه مسئولية نشره والدفاع عنه..

ولعل أقدم الهجرات التى قام بها مسلمون غير عرب هى تلك الهجرات الفارسية التى قدمت من شيراز فى القرن العاشر الميلادى وكانت بزعامة حسن بن على، ويروى أن هذا الزعيم كان ابن سلطان شيراز ولكن أمّه كانت حبشيّة فجفاه إخوته لذلك، فقرّر أن ينتقل إلى أرض الحبشة، فركب مجموعة من السفن ومعه أهله وأتباعه، ورست هذه السفن فى أماكن متعدّدة على الشاطئ الشرقى لأفريقية – رست إحداها فى ممباسا، والثانية فى بمبا والثالثة فى مكان

أنشأ فيه هؤلاء المهاجرون مدينة «كلوا» وكان الإسلام قد عُرف فى هذه البقاع قبل ذلك، ولكن هؤلاء المهاجرين زادوا نشره واختلطوا بالسكان، حتى إنهم لم يتمسّكوا باتجاهاتهم الشيعية، واندمجوا فى مذهب الشافعى الذى كان سائدًا قبل حضورهم، وبمرور الوقت أصبح «لكلوا» سيادة على مدن الساحل..

وعندما كان الاستعمار الإنجليزى جاثمًا على الهند شجّع نشاط المذاهب المختلفة التى تنتمى للمسلمين وكان يقصد بذلك التفرقة بين المسلمين ، بل جعل من بعض الانحرافات مذاهب دافع عنها وبالتالى دافعت عنه وطال عمر المستعمر فى ظلّ هذه الخلافات، وقد وجد الإنجليز أن المناطق الإسلامية بأفريقية متّحدة فى فكرها، وهم لا يريدون وحدة قد تتجّه ضدّهم، ومن أجل هذا أدخل المستعمرون إلى أفريقية أفواجًا من المهاجرين الذين يتبعون المذاهب التى ربّاها الاستعمار فى الهند، وعلى هذاحفلت المستعمرات الإنجليزية بجماعات من الإسماعيلية والأحمدية، وراح هؤلاء وأولئك يدعون إلى الإسلام كما يرونه، لكن الملاحظ أن الإسلام قد انتشر دون انحرافات تذكر وذلك لأن طبيعة الأفريقيين أنهم لا يقبلون الخلافات ولا الفرق والمذاهب، ولهذا بقى الإسلام فى نقائه وصفائه.

الطرق الصوفية:

التصوّف أصله من الزهادة والانصراف للعبادة، من غير أن ينقطع عن أسباب الحياة أو طلب الرزق، وقد دخل الإسلام من عدّة مسالك:

أوّلها: وجود الزهادة والزهد فى الحياة ومتعها، مكتفيًا بالحلال منها، وذلك أعلى الزهد، فقد قال الإمام أحمد - رضى الله عنه - مجيبًا من سأله عن الزهد فقال: هو طلب الحلال والاقتصاد عليه، ومن الزاهدين من اتّجهوا إلى الحرمان، وفهموا أن قطع النفوس عن الملاذّ حلال، وحرمانها هو فطم النفس، وهو الزهد ، ولكن هذا الفهم قد نهى النبى والقرآن عنه، فقد قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم﴾[1].

وثانيها: فلسفة هندية، تقوم على رياضة النفس على التحمّل والانقطاع عن الملاذ.

وثالثها: ما كان يظهر من بعض الديانات من الحرمان، وسرى إلى المسلمين من بعض الديانات القديمة، مع أن الإسلام نهى عن الرهبانية، لأنها من ابتداع النصارى كما قال تعالى: ﴿وقفّينا بعيسَى

(١) سورة المائدة الآية ٨٧.

ابن مريم وآتيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتّبعوه رأفة ورحمة ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله، فما رعوْها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثيرٌ منهم فاسقون﴾[1].

وقد مرّت بعض مبادئ الرهبانية إليهم من بقايا الديانات القديمة التى تأثّرت بها نفوسهم.

ولقد قيل: إن الصوفية هى اتّباع لأهل الصفّة الذين كانوا يعيشون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد الصحابة، لا مأوى لهم غيره، ولا ملجأ لهم سواه.

ومهما يكن مصدر الصوفية، وسبب شيوعها بين المسلمين، فإننا نجد فيها تصفية للنفوس، وليست نوعًا من التشبه بالرهبنة، فأهل التصوّف يتزوّجون ولا ينقطعون عن الدنيا انقطاع الراهبين، وفى الحقّ أن الصوفية لها جانبان: جانب الخير وهو الاتجاه إلى الله والاستجابة له، وأن يكون قلب المؤمن عامرًا بالإيمان، ذاكرًا الله تعالى دائمًا، مشرقًا بنوره، يطلب من الدنيا مايقوى به على عبادة الله تعالى وطلب ما عنده فى الآخرة، فلا ينصرفون عن الدنيا ولكن يطلبونها على أن خيرها مطيّة الآخرة وطريقها.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٧.

والجانب الثانى وهو ظاهر فى بعض المتصوّفة، وهو الانقطاع عن الدنيا، وذلك وجه لا يريده الإسلام، ويظهر ذلك فى الانصراف إلى الذكر الذى يكون معه حركات.

ومهما يكن نوع التصوف وغايته، فإنه وجدت جماعات صوفية، يرأس كل جماعة شيخ من شيوخ العلم والتصوّف، والجهاد فى سبيل الله، فتعدّدت الطرق الصوفية، وكل واحدة تتبع شيخًا جديرًا بالاقتداء، وله فى الإسلام والدعوة إليه فضل وذكر، فالشيخ عبد القادر الجيلانى له علم غزير، وإرشاد وتوجيه وحكمة، وإبراهيم الدسوقى له علم مدوّن، وتوجيهات شديدة فى التقوى والزهادة، وأحمد البدوى له مواقف جهاد فى الحروب الصليبية، وله توجيهات قوية، والسيد أحمد الرفاعى من أهل العلم والتوجيه والإرشاد. وأحمد التيجانى له فضل كبير والسيد محمد بن على السنوسى له فضل علمىّ وعملىّ وتوجيهى فى الإسلام، ودعوته إلى الإسلام هو والتيجانى نشرت الإسلام فى غرب أفريقية ووسطها وجنوبها، كما كان للجيلانية أثرها الواضح فى شرقيها، وإذا كان إسلام شرق أفريقية شارك فيه مع الصوفية الحضارية العرب والتجار فإن إسلام وسط أفريقية وغربها، للجيلانية والتيجانية والسنوسية فضل عظيم فى نشر الإسلام..

مصادر التصوف:

نشأ التصوّف روحيًا، وإن كان أخذ عند بعض الناس مسلكًا شكليًا، ولقد نشأ التصوّف من ينبوعين صافيين:

أوّلهما: هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة، وقد ابتدأ ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم، فكان من الصحابة من اعتزم أن يقوم الليل متهجّدًا ولا ينام - ومنهم من يصوم ولا يفطر، ومنهم من انقطع عن النساء، فلما بلغ أمرهم النبى قال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى». ولقد نهى عن الرهبنة بمعنى الانصراف عن الدنيا فقال: «رهبانية أمتى: الجهاد».

وبذلك بين النبى معنى الزهد، وهو طلب الحلال، وألّا يحرّم ما أحلّ الله.

ولكن بعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، ومضى عصر الصحابة والتابعين دخل فى الإسلام من كان فى نفوسهم تأثّر بالمذاهب القديمة، الذين كانوا يحسبون تعذيب الجسم لتقوية الروح نوعًا من العبادة، ولكن هذه الأفكار قد لفظتها المبادئ الإسلامية، وبقى معنى الزهد الذى قرّره الإمام أحمد - فيما أسلفنا من قوله: «الزهد: الاقتصار على الحلال».

وبالجمع بين هدى النبى صلى الله عليه وسلم وما جاء من منازع تجارب الحلال كان التصوف الإسلامى الذى لا يقطع عن الحياة، ويربى الروح والقلب، ويوجّهها إلى الله تعالى، وكان المزج الكامل بين متعة الحلال وفطْم النفس عن الشهوات هذا الينبوع إسلامى خالص.

والينبوع **الثانى**: للتصوّف وهو ليس إسلاميا، وإن تلاقى في بعض نواحيه مع الأخلاق الإسلامية(١) التى ردّ عليها القرآن والسنّة وما كان عليه الصحابة، وذلك الينبوع هو ما سرى إلى المسلمين متأخرًا من فكرتين: الأولى فلسفية، والثانية من الأديان القديمة كالنصارى وغيرهم.

والنظرة الأولى لهذه الفكرة ترينا أنها بعيدة عن الإسلام ونبرئ التصوف الإسلامى منها تبرئة مطلقة.

وإن صوفية الإسلام يلتقى فيها أمران: أحدهما الإشراق، والثانى الشوق إلى الله تعالى ومحبّته، والمحبّة قدر مشترك بين الصوفية المسلمين أجمعين كالإشراق، وقد راض بعضهم نفسه على المحبّة، واتّخذ منها سبيلاً للاتصال بالله تعالى، وذلك نوع ليس فيه حلول، وليس فيه ما يسمَّى بوحدة الوجود.

---

(١) منذ ظهور محيى الدين بن عربى ومدرسته، ويسمى فى اصطلاح المؤرخين للتصوف: بالتصوف البدعى، مقابلة له بالنوع الأوّل وهو التصوّف السنى.

تأثير الصوفية فى غيرهم:

الدعاية الصوفية تقوم على أمرين:

أحدهما: القدوة والاختلاط، والأخلاق الإسلامية والتسامح والرفق فى المعاملة والمثل الطيبة فى المعاملة الحسنة، وذلك أن أئمة الصوفية كانوا على أخلاق إسلامية طيبة، وكانوا على سماحة تدنى البعيد، وتثبت القريب.

وبهذه الأخلاق التى سرت إلى بعض مريديهم وأتباعهم، كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم، فإن المعاملة الحسنة، والاختلاط الذى يكون بعشرة طيبة يجذب النفوس وتسرى بها العقائد الفاضلة، وقد كان هؤلاء الأفراد من المتصوّفة تصوفاً حقيقيا يختلطون بأهل أفريقية الوثنيين والمجوس والوثنيين فى آسيا، فيؤثّرون بمعاملتهم وبسعة صدرهم وعقولهم.

الثانى: من الأمور التى كانت تقوم بها الدعاية الصوفية: مجالس الوعظ التى كان يعقدها الأئمة من الأقطاب، فقد كانت مجالس عامة يحضرها المسلمون ويحضر فيها غير المسلمين فيتبعون الشيخ فى مواعظه، ثم يعلو الأتباع حتى يتبعوه فى عقيدة التوحيد، وكان من هؤلاء من له ثقافة إسلامية واسعة، وعلْم بالإسلام أصوله وفروعه، كعبد القادر الجيلانى الذى عاش فى القرن الخامس والسادس

الهجرى من ٤٧٠ إلى ٥٦١ هجرية، فقد كان عالمًا بالأصول والفروع والحديث روايةً ودراية، وقد جلس للوعظ أربعين سنة، فقد ابتدأ واعظًا من سنة ٥٢١ هجرية ومفتيًا من سنة ٥٣٦ هجرية إلى أن قبضه الله تعالى، وكأن منصب الإفتاء كان فى نظره أعلى من منصب الوعظ لأنه ما تصدّى للإفتاء إلّا بعد الستين.

وقد كانت تعقد مجالس وعظه، وتكون موعظة عامة لا يمنع منها أحد، ولا يمنع من الحضور فيها أحد، فكان يدخل اليهودى والنصرانى والمجوسى والوثنى وقيل: إن مجلسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وما كان المجلس ينفض إلا على إسلام كثيرين، ومنهم من كان يحضر إليه طالبًا الهداية فيسلم على يديه.

وقد جاء فى كتاب (قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر) أنه أتاه فى مرّة ثلاثة عشر رجلًا من النصارى، وأسلموا على يديه فى مجلس وعظه، وقالوا: «نحن من نصارى العرب، وأردنا الإسلام، وتردّدنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتف نسمع كلامه ولا نرى شخصه: أيها الركب ذو الفلاح ائتوا بغداد، وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع فى قلوبكم ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس» لقد كان القطب عبد القادر مربّيًا لنفوس مريديه وداعيًا إلى الحق والهداية، ومن هذا الجانب دخل فى الإسلام على يديه الكثيرون، لطهارته وإخلاصه وحسن دعوته..

الطرق الصوفية التى نشرت الإسلام فى أفريقية:

يرجع الفضل الأكبر فى نشر الإسلام بين قبائل الزنوج فى أفريقية منذ القرن الثامن عشر إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية، وقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعى، وما يتمتّعون فى ظلّه من يسْر وأمن فى أسفارهم للتجارة، كما أنه لم يحمّلهم من الشعائر الدينية إلاّ أداء الفرائض اليسيرة، ثم إنهم وجدوا فى شيخ الطريقة إمامًا مزوّدًا بقوى علوية، وفى حلقات الذكر تجلّيًا وتساميًا روحيا، كما أنه أشبع نزعتهم الطائفية التى تبعث فى نفوسهم فى وقت واحد طمأنينة وحمية، غير أن التعصّب لمذهب أو طريقة ما، كان سببًا فى مشاكل خطيرة تحوّلت حينًا ما إلى حروب طاحنة[1].

ويلاحظ أن الطرق الصوفية تزدهر وتنمو معها حلقات الذكر أو ما يسمى «الحضرة» فى البيئات التى يوجد بها فراغ روحى، حيث لا تستغرق الأعمال أوقات الناس.

فى مثل هذه البيئات يوجد المتصوّفة، ويوجد الدراويش الذين يصفهم الخوارزمى[2] بقوله: «إن الواحد منهم خفيف الظل من كل

---

(١) الديانات فى أفريقية السوداء: روبير ديشان ص١٣٤.

(٢) رسائل الخوارزمى ص٩٠.

حق، منفكّ الرقبة من كل رق، لا يلزمه أداء الزكاة، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات، ولا يستبطئه إخوانه، ولا يطمع فيه جيرانه، ولا تنتظر منه فى الفطر صدقة، ولا فى العيد أضحية، فهو كالمسجد يحمل إليه، ولايحمل عليه ويؤخذ بيديه، ولا يؤخذ من يديه، فهو إمّا غانم أو سالم» إلّا أن هذا التصوّر من الخوارزمى للصوفية ربما كان لجماعات كانت موجودة فى عصره تعيش عالةً على غيرها، لأن كثيرًا من الصوفية يغلب عليهم الجود، ومن شأن التصوف أن يربى أبناءه على البذل والعطاء، وهو ما يشاهد منهم ويلاحظ فى علاقاتهم ببعضهم وبغيرهم من الناس.

وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار فى مصر وفى سواها من البلاد الإسلامية حتى مطلع هذا القرن، وكانت أكثر ازدهارًا فى الأماكن التى ينطبق عليها الوصف السابق، أى وجود الفراغ الروحى، فمن الطبيعى إذن أن تزدهر الطرق الصوفية فى أفريقية، حيث بساطة الحياة وفراغ الوقت، وحيث أفاقت القارة من الوثنية، ومن عبادة الأنهار، والأشجار، والأشخاص، وأخذت تتطلع إلى ما يملأ فراغها الروحى، فوجد الناس فى التجمّع حول الشيخ وفى الانضمام لحلقات الذكر، ما يشبع هذا الظمأ ويسدّ هذه الحاجة.

وطالما جذبت الطرق الصوفية إلى الإسلام جموعًا أفريقية، فقد كان الشيخ ومريدوه ينزلون على القبيلة ويقيمون بها حلقات الذكر

وينشدون الأناشيد والتراتيل الدينية، والشيخ تكسوه حالة من وقار، والمريدون يبرزون له أسمى الطاعة والولاء، يتلمّسون منه البركة والدعوات الصالحات، وطالما شاع الاعتقاد بأن للشيخ كرامات واسعة، يلعب الخيال بها، فيصل إلى فكّ العانى وشفاء المريض وإزالة العقم، وكان الناس يتناقلون هذه الشائعات ويضيفون إليها، فتتوافد على الشيوخ جموع الوافدين الراغبين فى دخول الدين والانضمام للمريدين.

وهكذا كان للطرق الصوفية مجال غير المجالات التى كانت للمهاجرين والتجار المسلمين، فإذا كان التجّار ينزلون المدن فإن رجال الطرق الصوفية يميلون للقرى والنجوع، وإذا كان التجّار يسعون للربح فرجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال، ولا يسعون إلاّ للكفاف، ومن هنا كان المريد يلقّب بالفقير، وإذا كان نشاط المهاجر ونشاط التاجر يغلب أن يكون بالنهار، فإن نشاط الطرق الصوفية يرتبط بالليل، ولهدوء الليل سحر وجلال، وجمهور الليل أوفر ومريدوه أكثر، و «حضرة» الذاكرين تشدّ لها الحاضر، وتقرّب لها البعيد، وفى هدأة الليل تغمر أصوات الذاكرين النجع كله فيهرع الجميع إلى حلقة الذكر من شيب وشبّان ورجال ونساء، بل ربما انتقلوا مع الشيخ من نجع إلى نجع، ومن قرية إلى قرية[1] وقبل

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء ٦ ص٢٠٩ د. أحمد شلبى.

، نتكلم عن الطرق الصوفية بأفريقية نذكر أنها فى الغالب حافظت
لى النهج الإسلامى السليم، ولم يكن فى أصولها بدع أو خرافات.
قد سئل مؤسس التيجانية سؤالاً مهمًا هو: أيكذب عليك؟ فقال:
نعم، إذا سمعتم عنى شيئًا فزنوه بميزان الشرع، فما وافق الشرع
إعملوا به، وما لم يوافق فهو كذب علىّ يتحتّم أن تتركوه.

وأشهر الطرق الصوفية التى نشرت الإسلام بأفريقية ثلاث هى:
لقادرية، والتيجانية، والسنوسية وقد انتشرت هذه الطرق فى القطاع
لأفريقى، وكانت القادرية والتيجانية، أوسع انتشارًا فى النصف
لغربى من القارة، والسنوسية أوسع نشاطًا فى النصف الشرقى، مع
نتشار القادرية فى شرق أفريقية، كما توجد الأحمدية والشاذلية..

والطرق التى لها انتشار كبير هى:

١ - الطريقة القادرية:

ومؤسّس هذه الطريقة هو الشيخ عبد القادر الجيلانى من أشهر
جال الصوفية، ويعرف بالقطب الجيلانى، وهو أحد الأقطاب
الأربعة: الرفاعى، والجيلانى، والبدوى، والدسوقى، ولد بجيلان سنة
٤٧١ هـ(١٠٧٧م) ونشأ بها وانتقل إلى بغداد سنة ٤٨٨هـ
١٠٩٥م) وهناك تتلمذ على كبار الشيوخ وتفقّه على أبى سعيد
لمخرمى، وأجاد الفقه والأدب، واشتغل بالوعظ والتعليم، ثم مال
للتصوف ولجأ للخلوة ومجاهدة النفس، وعزف عن ضجيج المدن

فاتجه إلى الصحراء، وكان له مريدون كثيرون نهجوا نهجه وساروا سيرته.. وعُرف الجيلانى بالتسامح الدينى وحبّ الجار، والبعد عن الترف وملذّات الحياة، ومن تسامحه الدينى أنه كان إذا ذكر أهل الكتاب لم يزد عن أن يعبّر عن حسرته لانحرافهم عن طريق النور، ويدعو الله أن يهديهم سواء السبيل، ومن حبّه للجار أنه كان لا ينعم بطعام أو مال دون جيرانه، فكان يوزع عليهم كل ما يرد إليه من الهدايا والأموال، ويدعوهم إلى مشاركة طعامه، كلما لذّ له هذا الطعام، وكان عزوفه عن الغنى سببًا فى أن يعيش فقيرًا، على الرغم من أن الملوك والسلاطين كانوا يتقرّبون إليه بالهدايا والأموال، ولكنه كان يوزعها فى الحال على الحاضرين وعلى الجيران والمريدين، وأكثر أتباع عبد القادر الجيلانى ساروا على هذا النمط من خلق أستاذهم وكان هذا هو السبب فى انتشار القادرية وكثرة أتباعها، وتوفى الجيلانى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ببغداد، وله بها ضريح ومزار يعتبر من أهم مشاهد المدينة، وكثير من الافارقة الذين ينتسبون إلى الطريقة القادرية يسافرون من بلادهم لزيارة ضريحه، وكثير منهم يذهب لزيارته بعد أداء فريضة الحج إن كان قد توجّه لأدائها.

وقد كتب فى التصوّف كتبًا من أهمها «فتوح الغيب» و«الفيوضات الربانية» وقد انتشرت طريقته فى العراق واليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب وغربى أفريقية ووسطها، وكان للقادرية أسلوبها فى هداية الناس للإسلام بأفريقية.

إنهم لم يكتفوا بما عرف عن الطرق الصوفية من حلقات ذكر وتراتيل، بل اتجهوا وجهات مختلفة قربتهم من الجماهير ونشرت الدعوة الإسلامية، فكثير منهم جلسوا معلّمين للصبية، وتفقّه بعضهم فى الدين، فأصبحوا علماء وخطباء وكتابًا، واتجه بعضهم إلى كتابة التمائم والتعاويذ، أما أغنياؤهم فاتجهوا إلى الشبان يختارون أذكاهم، ويرسلونهم إلى مراكز الثقافة بالشمال ليتزود هؤلاء بالعلم، وليعودوا قادةً بين أهلهم، وفتح الأغنياء كذلك المدارس للطلاب، ولما جاء القرن التاسع عشر كانت السيطرة الروحية والفكرية تامّة لجماعات القادرية فى أكثر نواحى أفريقية الغربية، وعلى يد رجال القادرية تحوّل الدخول للإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية، ومن أشهر قادة القادرية فى أفريقية سيدى أحمد البكاى.

وقد عمل على نشر دعوته فى الجزء الغربى من الصحراء الكبرى، وتعرف طريقته بالطريقة البكائية، وقد ازدهرت فى أفريقية حتى سنة ١٨٥٠. ومنهم محمد بن عبد الكريم التلمسانى، الذى اتّجه بجهوده إلى الجزء الأوسط من الصحراء وإلى بلاد الهوسا، والشيخ السيد التأرازى الذى عمل على نشر القادرية فى جامبيا وغينيا البرتغالية وليبريا وساحل الذهب، والشيخ سيدى بابا فى مطلع القرن العشرين، وكان عالمًا وأديبًا واسع الفكر، عمل على القضاء على كثير من البدع والخرافات التى تفشّت بين المسلمين، وفى التاريخ المعاصر انتهى الإشراف على القادرية إلى يد الشيخ

عبد الله بن الشيخ سيدى، ويتخذ من موريتانيا مقرًا له وله فى الحياة السياسية دور كبير بهذه البلاد[1].

والصومال تنتشر فيها الطريقة القادرية، وبها طرق أخرى لكن أوسعها انتشارًا هى القادرية.

ومن الطرق الأخرى الموجودة فى الصومال:

الطريقة الأحمدية:

ويقال لها الإدريسية أسسها «سيد أحمد بن إدريس الفاس» المتوفى فى بلاد عسير بالسعودية سنة ١٨٣٧ م. وله مؤلّف عنوانه «كنوز الجواهر النورانية فى قواعد الطريقة الشاذلية».

وقد أدخل هذه الطريقة إلى شرق أفريقية الشيخ «على ميه درجيا» الصومالى وقد جعل وقته كله لنشرها فى الصومال، وقد ذاعت هذه الطريقة لما كان يتصف به هذا الشيخ من صلاح وتقوى وزهد وإخلاص، والتفّ حوله عدد كبير من المريدين وبخاصة من سكان وادى شبيللى الأوسط، وتوفى فى مدينة «مركة» سنة ١٩١٧. ودفن فيها، وأتباع هذه الطريقة يتركزون فى مقديشيو وبورهكبة..

---

(١) د. عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية جزء أول.

الطريقة الصالحية:

وتنسب إلى محمد بن صالح، وهو ابن أخ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ أحمد بن إدريس «مؤسّس الطّريقة الأحمدية». وقد توفى محمد ابن صالح عام١٩١٩ وقام بنشر طريقته الشيخ محمد جوليد أحد تلاميذه، وكان الشيخ محمد بن صالح قد عيّنه خليفةً على الطريقة فى الصومال، وقد أسّس الشيخ جوليد زاويةً ومركز استيطان للطريقة فى منطقة تقع ما بين بلدتى «جوهر» و «بلعد» على نهر شبيللى، ومن أشهر مشايخ هذه الطريقة الشيخ «على نيروبى» الذى أسّس مركزًا لها فى جنوب بلدة «برديرة» ويلاحظ أن الطرق فى الصومال لا يتوارث أبناء مشايخها آباءهم فى الطريقة كما هو سائد فى كثير من البلاد، وفى مصر كذلك ولو كان الابن.. ليست له ثقافة دينية، ولكن يرث الطريقة أحد التلاميذ الذين يتميّزون بالعلم والمعرفة وقوّة التمسّك بتعاليمها، وعلى هذا لا توجد بيوت يتوارث الأبناء منها الطريقة الصوفية عن الآباء..

وأتباع الطريقة الصالحية فى الإقليم الشمالى من الجمهورية الصومالية لهم سياسة وحكمة وفيهم تعصّب شديد لعقيدتهم، ومن شيوخها الكبار الشيخ عثمان عمر، وله مكانة مرموقة فى نفوس مريديه.

ومن أبرز أتباع هذه الطريقة رائد القومية الصومالية «محمد عبدالله حسن» مهدى الصومال الذى أعلن الثورة فى وجه الاستعمار فى الربع الأول من القرن العشرين، والسيد محمد يوسف الذى ثار ضدّ الحبشة ودخل معها معارك ضارية عام ١٩١٧م. وتنتشر الطريقة الصالحية بين سكان المنطقة الواقعة بين مديرية مجريتنيا وبين الصومال الشمالى، كما تنتشر فى الأوجادين، وفى بعض المناطق جنوب الصومال.

الطريقة الرفاعية:

وأتباعها غير كثيرين فى الصومال، وأغلبهم من العرب المستوطنين، ومن أشهر شيوخها الشريف العيدروس العلوى من العرب القدامى فى الإقليم الجنوبى وهو أوّل من أقام احتفالاً كبيرًا بذكرى المولد النبوى الشريف.

الدندرية:

وتنسب هذه الطريقة إلى والد الشيخ أبى العباس الدندرى من أهل دندرة بصعيد مصر، وله أتباع فى الإقليم الشمالى ما بين بربرة وأودوين وشيخ وهرجيسة.

الميرغنية:

وتسمى بالختمية، وقد أدخلها إلى الصومال الشيخ رمضان المصوعى، ومن بعده جاء الشيخ نور حسين المصوّعى.

٢ - الطريقة التيجانية:

وتنسب إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار، وهو فقيه مغربي ولد بقرية عين ماضى بالجزائر عام ١١٥٠ هـ(١٧٣٧م) ودرس العلوم الدينية بمدينة فاس ثم انتقل إلى تلمسان، وفى عام ١١٨١ هـ(١٧٦٨م). خرج إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وعند عودته إلى بلاده أمضى فترة من الزمن بالقاهرة، وقد غلب الاتجاه التصوّفى على فكره فانضم للطريقة الخلوتية التى تنسب إلى كريم الدين الخلوتى الصوفى المصرى المتوفى سنة ١٥٧٨ م. ولكن التيجانى سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاهًا جديدًا ضمن الطريقة الخلوتية، مما يجعل بعض الباحثين يرى أن الطريقة التيجانية فرع من الخلوتية، وقد اتّخذ التيجانى من مدينة فاس مقرًّا له ينشر منه طريقته الجديدة، فتبعه عدد كبير من المريدين أطلق عليهم «الأحباب» وعندما توفى سنة ١٨١٨ م. كانت الطريقة التيجانية قد استقرّت وعلا شأنها ببلاد المغرب، وبعد وفاة التيجانى قام ابناه محمد الكبير ومحمد الصغير بنشر دعوته بمعونة اثنين من أكبر مريدى الشيخ، وهما الشيخ محمود

ابن على التونسى والحاج على بن عيسى، وانتقل مركز الدعوة إلى قرية عين ماضى مسقط رأس صاحب الطريقة، وقد وجدت هذه الطريقة لها أنصارًا عديدين فى الصحراء الكبرى وغربى أفريقية ووسطها، وقد كان السيد أحمد التيجانى ومن جاء بعده لا يقتصرون فى تعاليمهم على بث التصوف والزهادة الروحية، بل يجتازون إلى أفريقية السوداء يبثّون فيها الإسلام ويربونهم، كانوا يعلّمون الزنوج الإسلام، وينشئون لهم معاهد تدرّس الإسلام، ويأخذون بعض الأفريقيين إلى المغرب الأقصى يعلمونهم مبادئ الإسلام، ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاةً ومدرّسين فى المعاهد التى أنشئوها، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسلام فى غرب أفريقية ووسطها حتى إنك ترى الكثرة الكاثرة فى ساحل الذهب وساحل العاج وغانا وغينيا والسنغال والكنغو ونيجيريا من المسلمين الأقوياء فى تدينّهم وإن كان فيهم جهل يحتاجون معه إلى من يعرّفهم بالأحكام الإسلامية بإجمالها وتفصيلها وفروعها وكلّياتها.

ولما استعمرت أوربا أفريقية، وأرسلت لها المبشرين فرادى وجماعات لم تستطع تنصيرهم، ولم يستطيعوا أن يهضموا بعقلهم الفطرى المستقيم المعانى التى يدعو إليها نصارى هذا الزمان، ولكن الأوربيين جعلوا حكّامهم من غير المسلمين، ولا يزالون بعد أن خلعوا نير الاستعمار من فوق رقابهم يتعاطفون مع الأجانب وخصوصًا الذين كانوا يستعمرونهم. والحبشة كثرتها الساحقة مسلمة.

بالدعوة الحضرمية، ولكن حكامهم يحولون بينهم وبين العلْم، لا يمكنون منه إلاّ غير المسلمين، ليقتل الجهل المسلمين، مع أن الإسلام دين العلم.

وتتميّز الطريقة التيجانية بتزمتها وشدّة مناوأتها للوثنية، ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى روى التيجانى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه أخذ تلك الطريقة عنه، وقد فرض على أتباعه أن ينفردوا بصلاتهم عن بقية الجماعات الإسلامية، ولهم مسبحة خاصة بهم، تتوسّطها خرزة تفصل الاثنتى عشرة حبّة الأولى منها عن بقيّتها، وانتشرت هذه الطريقة انتشارًا واسعًا فى أفريقية السوداء وذلك أنها لا تتطلب من مريدها وقتًا طويلاً ولا مجهودًا فكريًّا[1].

٣ - الطريقة السنوسية:

تنسب السنوسية إلى السنوسى بن العربى جدّ مؤسّسها محمد بن على بن السنوسى وينتهى بنسبه إلى الأدارسة[2]. وقد ولد مؤسس السنوسية سنة ١٧٩٨م. فى بلدة مستغانم بالجزائر وتلقى بها مبادئ الدراسة، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين،

(١) الديانات فى أفريقية السوداء: روبير ديشان ص ١٣٥.

(٢) الطيب الأشهل: السنوسى الكبير ص٧.

ورحل بعد ذلك إلى الأزهر فتعلّم به وعلّم، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد بعلمهم وأعجب بالكثيرين منهم، وأدرك السنوسى حاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار.. ووضع السنوسى مبادئ السنوسية، وتتلخّص فى أنه يرى أن الحدود السياسة بالعالم الإسلامى حدود مصطنعة، وأن حركة إصلاحية ينبغى أن تقوم بالعالم الإسلامى تتخطّى الحدود وتتجه إلى محاربة الانحراف والبدع، والعودة بالإسلام إلى اليسْر، والاعتماد على الكتاب والسنّة ومحاربة الزهد والخمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية، ومحاربة التضرع للأولياء والتبرّك بقبورهم، واعتمد السنوسى على نظام الزوايا ليصل أتباعه إلى الأهداف التى رسمها، وأنشأ الزاوية الأولى فى «أبى قبيس» بالقرب من مكّة المكرمة، ثم أتبعها بزوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة المنوّرة وبدر وجدّة وينبع.

ثم أحسّ مؤسس السنوسية أن أفريقية أولى بحركته، فغادر الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس، وفى سنة ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر ثم نقل مركز الدعوة إلى واحة الجغبوب سنة١٨٥٦، وقد استلزم انتقال الدعوة إلى أفريقية أن يضم إلى مبادئها مبدأ جديدًا ذلك هو نشر الإسلام بين الوثنيين بأفريقية لهدايتهم إلى الخير من جهة، ولمواجهة حركة التبشير المسيحية التى كانت آن ذاك تغزو أفريقية من جهة أخرى.

وضمّت الزوايا مئات بل آلافًا من الشخصيات التى تنتمى إلى أقطار وجنسيات مختلفة، ويجمعها كلها دين الإسلام، والحماسة لخدمته ونشره، وهكذا انتقلت السنوسية من حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه تضم إلى ذلك حركةً لنشر تعاليم الدعوة، وأصبحت عدّة قبائل أفريقية كانت وثنية أو مسلمة إسلامًا اسميا، أصبحت من أتباع الإسلام المتحمسين له منذ أن حلّ فيهم من قبل دعاة السنوسية، وللسنوسية نفوذ كبير فى بلاد واداى «والجلا» وحول بحيرة تشاد وفى بلاد كانم وباجرمى ودارفور، وعلى العموم كانت السنوسية تنتشر فى المنطقة المحصورة بين ساحل البحر وحوض النيجر وينشرون زواياهم فى واحات هذه الأجزاء(١).

وكانت أولى ثمرات هذه الزوايا - خصوصًا بين الوثنيين - ذيوع الدين الإسلامى فى قلب تلك القارة المظلمة، ونجحت تلك الدعوة السنوسية فى هذه الجهات، لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوربية المنبعثة فى القارة الأفريقية كلها، تجد فى الدعوة إلى الإسلام من السنوسيين خصمًا عنيدًا لا قِبَل لها بالتغلّب عليه، مع ما أوتيت من مال وقوّة دولية(٢).

كان كبير السنوسيين يرسل إلى الزوايا، وينقلون القوافل

---

(١) د. زاهر رياض: استعمار أفريقية ص ١٥٩.

(٢) د. محمود فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة.

والسائرين فى الصحراء، يدعونهم إلى الله آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، هادين الوثنيين، حتى تكوّن من عمل هؤلاء وعمل من سبقوهم من التيجانية دول إسلامية أكثرها مسلمون.

ولقد خشى المتعصبون من الأوربيين من نجاح هذه الطريقة فحاربوا السنوسيين، ودسّوا بينهم وبين الدولة العثمانية التى كانت تلك البلاد تابعة لها أو خاضعة لنفوذها.

ولكنهم كانوا ماضين فى بثٍّ الإسلام فى نفوس الأفريقيين وإن ضجّ منهم المبشرون، وضاقوا ذرعًا بهم، إذ وجدت الإرساليات التبشيرية فى السنوسيين خصوما أقوياء، وقد أفسدوا عليهم دعاياتهم، ومعلوم لمؤرّخى العصور الحديثة أن التبشير نذير الإستعمار يتقدّمه ويقوّيه ولذلك أحسّت الدول التى باشرت استعمار أفريقية كفرنسا وإيطاليا وإنجلترا بخطر الدعوة الإسلامية ونشرها على مطامعهم المتعصّبة على الإسلام، وإن ظهرت بغير ما تخفى، ولذلك حاربت السنوسية أو حاربت فيها الدعوة إلى الإسلام، بكل الطرق سواء أكانت مشروعة فى قانون الأخلاق أو غير مشروعة، وقد اتّجهت الدعوة السنوسية إلى جنوب السودان، وكان آخر السنوسيين فى قوّة دعوته وإخلاصه، السيد أحمد الشريف السنوسى وكان قد رأى جنوب السودان وحاجته إلى الدعاة، فأرسل إليه الرسل من السنوسيين يدعون إلى الإسلام، حتى ضاق بهم ذرعًا

المندوب الإنجليزى - إذ ذاك - وهو اللورد كتشنر، فأرسل إلى السيد السنوسى يتضرع إليه أن يخفّف دعوته، ولولا حروب الطليان مع السنوسية فى ١٩١١ وسنة ١٩١٢ لحول الجنوب السودانى إلى مسلمين.

ولم يمت السنوسى سنة ١٨٥٩م. حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دينية وذلك بذكائه، واستخدام كل وسائل الترغيب فى نشر دعوته، ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة، ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام - بأوامر القرآن فى دقة بما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد المطلق تلك المبادئ التى تجعل التعبّد لله وحده، وتحرّم التضرّع للأولياء وزيارة قبورهم تحريمًا قاطعًا، وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يسهموا بنصيب معيّن من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرّسوا أنفسهم لخدمتها، كما أوجبوا على أنفسهم أن يجندوا كلّ نشاطهم من أجل تقدّم الإسلام وأن يقاوموا فى الوقت نفسه أىّ لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربى، ومع أن السنوسية كانت فى أوّل أمرها حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة حتى أصبحت عدّة قبائل أفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمةً إسلامًا اسميًا بحتًا من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حلّ فيهم دعاة السنوسية[١].

(١) د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ص٤٧، ٤٨.

وفى ختام حديثنا عن الطرق الصوفية نذكر أنه من الشائع إسناد كثير من الفضل إلى الطرق الصوفية فى نشر الإسلام بأفريقية، ولكننا نقرّر حقيقةً أوضحتها الأرقام والتواريخ والتى تفيد أن نشاط هذه الطرق بأفريقية بدأ متأخرًا جدًّا، ولم يتّضح إلاّ فى القرن التاسع عشر، لكن الدعاة المسلمين والمهاجرين والتجّار بدأ نشاطهم قبل ذلك بحوالى عشرة قرون، ومن هنا يمكن أن نقرّر حقيقة تاريخية هى أن دور الطرق الصوفية كان استمرارًا ولم يكن تأسيسًا[1].

لكننا نستطيع أن نقول إن التحول الإسلامى انتقل على يد الطرق الصوفية من حالات فردية إلى حالات جماعية، وأن الطرق الصوفية لم ترتبط بالخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبيرة، بل اندفعت إلى الناس فى القرى والنجوع هنا وهناك، وهى مآثر لا ينافسها سواها فى مجالها، إذن نستطيع أن نقرر أن الصوفية لم يكن دورها استمرارًا بل يعتبر تأسيسًا فى تلك المناطق النائية عن طرق التجار، وفى داخل البلاد التى دخلتها بعيدًا عن السواحل.. فأثرها فى نشر الإسلام والحفاظ عليه واضح بدليل الواقع، وحكم التاريخ..

---

(١) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء ٦ ص ٢١٩.

البَابُ الثاني

دراسة ميدانية معاصرة

دراسة ميدانية فى الصومال

امتدت الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل إلى الجنوب من البحر الأحمر فشملت الصومال، وجاء الاستعمار الغربى بعد أن أبعد عن الحكم إسماعيل واقتسم هذه الإمبراطورية، فكان الصومال من نصيب انجلترا وفرنسا وإيطاليا جميعًا.. ومن الموانئ الهامة التى وصل المصريون إليها ميناء زيلع، الذى يقع على خليج عدن، وكانت زيلع قبل الإسلام تابعة للحبشة[1]، ويذكر ابن حوقل أنها كانت ميناءً للعبور من هذه البقعة فى أفريقية إلى الحجاز واليمن[2]، ويسميها الإدريسيون «زالع»[3]، وقد انتشر فيها الإسلام منذ عهد مبكر، ربما يرجع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت هجرات المسلمين إلى الحبشة تتصل بها ومن أشهر الذين هاجروا إليها ونشروا الإسلام بها بنو عقيل.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان: ٤٣٥.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٦١.

(٢) صفة المغرب وأرض السودان ص:٣٥.

ومن تتبّع المراجع العربية يتّضح لنا خطوات تكاثر المسلمين فى هذه المنطقة، حتى أصبحوا الغالبية العظمى بها، فالمسعودى يتحدّث عن زيلع والدهلك وناصع، ذاكرًا أنها مدن فيها خلق كثير من المسلمين، إلّا أنهم فى ذمّة الحبشة[١]. ويقول أبو الفدا[٢] ويجاور الحبشة من الجنوب «الزيلع» والغالب على سكانها دين الإسلام، أما عرب فقيه فيذكر عن زيلع أنها أصبحت عاصمة السلاطين المسلمين[٣].

وهكذا يمكننا أن نقرر أن زيلع انتشر بها الإسلام منذ مطلعه، وظلّ ينتشر بها رويدًا رويدًا حتى غلب على أهلها، ثم تكوّنت بها سلطنة إسلامية سرعان ما امتدّ نفوذها. فلما جاء القرن الرابع عشر كان قد تم للمسلمين تأليف سبع ممالك زاهرة فى هذه المنطقة سميت «الطراز الإسلامى» لأن بعضها يقع على جانب البحر كالطراز له، ويعدّد المقريزى هذه الممالك السبع فيقول: إنها أوفات، ودوارو، وأرابينى، وهدية، وشرخا، وبالى، وداره، وأعظمها «أوفات» ويقال لها «جبرت»[٤] وهى المجاورة لخليج عدن وتتبعها ميناء زيلع، وتتبعها كذلك إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما «مورا» وميناء «عدال» إلى

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٢ ص١٨ – ١٩.

(٢) المختصر فى تاريخ البشر جـ١ ص٦٩.

(٣) فتوح الحبشة ص٥.

(٤) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص٦.

الغرب من ميناء زيلع. وقد تحوّل إلى ميناء زيلع كثير من النشاط التجارى الذى كان من قبل يتركّز فى منطقة مقديشيو. أما باقى ممالك الطراز الإسلامى فتتعمق بداخل القارة فى أرض الحبشة الحالية، وأكثرها تعمّقًا مملكتا هدية وأرابيني وتقربان من نهر سوباط..

وزيلع من قديم تتميز بوجود مجموعة من العلماء والمفكرين، أقاموا بها ينشرون الإسلام، ويتولّون كثيرًا من المناصب القضائية والإدارية، وفى قمّتهم الفقيه عبد الله الزيلعى، وهو الذى رأس سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد حوالى سنة ١٣٣٨م. ليساعد أهل زيلع فى صراعهم ضدّ الأحباش، وليعمل على حماية المسلمين فى هذه البقاع[١]. ومن علماء زيلع من وفد إلى القاهرة وأقام بها، ومن هؤلاء فخر الدين الزيلعى الذى وفد إلى مصر سنة ١٣٠٥ وجلس بها للتدريس والإفتاء على مذهب أبى حنيفة وله كتاب عنوانه «تبيين الحقائق فى فقه الحنفية» وهو شرح على كنز الدقائق للنسفى وتوفى فخر الدين سنة ١٣١٣. ومنهم جمال الدين الزيلعى، وقد وجّه اهتمامه لدارسة الأحاديث، واهتم اهتمامًا خاصًا بتخريج الأحاديث الواردة فى تفسير الكشّاف للزمخشرى، وأحاديث الهداية فى فقه الشافعية، وألّف فى ذلك كتابًا عنوانه «نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية» وتوفى فى القاهرة سنة ١٣٦٠م.

---

(١) القلقشندى/صبح الأعشى جـ٥ ص٣٢٣.

ذكرنا هذا التاريخ لتلك المدن التى عمرت بالإسلام، وبالعلماء الذين بذلوا جهودًا ضخمة فى نشر التراث الإسلامى، وفى التآليف المختلفة فى العلوم الدينية، فإذا ما سألنا عنها الآن وجدناها قد وقعت تحت سيطرة الأحباش، وهى تمثّل المنطقة المتنازع عليها، وتدور من أجلها المعارك بين الصومال والحبشة. وأهل هذه البلاد ينتظرون اليوم الذى يتحرّرون فيه من سطوة الأحباش. وعودتهم إلى أصلهم الصومالى، ولقد كان إمبراطور الحبشة «هيلاسلاسى» مشهورًا بالتعصّب الديني، ويحارب الإسلام فى أى مكان يوجد فيه مسلمون، ولهذا كان يشدّد قبضته على هذه المنطقة الإسلامية، وجاء النظام الثورى الحالى ولم يخفّف قبضته عنها، ولم يقل فى تعصبّه عن «هيلاسلاسى»، ولقد حاولت وأنا أعمل بالصومال أن أزور هذه المناطق فلم تصرِّح لى سلطات الأحباش، لأنهم يدركون مغزى هذه الزيارة من عالم مسلم ومصرى، وكيف يكون أثرها عند أبناء المنطقة.

لقد عملت فى الصومال ست سنوات، مبعوثًا للأزهر الشريف، وكنت شيخًا لمعهد الدراسات الإسلامية بمقديشيو ورئيسًا لبعثة الأزهر، ولم أترك إقليما من أقاليم الصومال إلّا زرته، والتقيت بأهله وشاركتهم عاداتهم وتقاليدهم، ولمست عمق الإسلام فى قلوبهم، وحبّهم للعرب، وللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، كما لمست حبّهم للأزهر الشريف ولعلماء الأزهر، وأذكر أننى فى

إحدى زيارات منطقة جوبا العليا جلست مع الأهالى فترة من الزمن، ولما حان موعد الانصراف وركبت السيارة وابتدأت تتحرك، رأيت رجلاً مسناً يتوكأ على عصا، وأقبل من بعيد مهرولاً تتعثّر خطاه وهو قادم وهو يشير إلى السيارة، فتوقّفت لأرى حال هذا الرجل الشيخ، وجاء وقال: لقد سمعت أنّ أحد مشايخ الأزهر جاء إلى منطقتنا فسارعت لأراه، وأخذ يضع يده على ملابسى الأزهرية كمن يتبرك بها، ويقول: الحمد لله الذى أطال فى عمرى حتى رأيت شيخاً من شيوخ الأزهر.

هذه صورة من صور تعلّق أبناء هذه البلاد بالأزهر الشريف، وصورة أخرى كنت أشاهدها كثيراً حينما يكون لبعض التجّار معاملات مع مصر، ويتأخر وصول ما يريدون استيراده، كانوا يأتون إلىّ ويقولون: اكتب لشيخ الأزهر ليأمر بتيسير أمورنا حتى ترد البضائع، إنهم يعتقدون أن شيخ الأزهر فى مصر يستطيع أن يصدر أوامره إلى مختلف الأجهزة دينية أو اقتصادية أو سياسية ليحقّق لإخوانه المسلمين ما يريدون... هذه المكانة يسّرت لنا أداء مهمتنا من موقع احترامهم وتقديرهم لنا، وثقتهم بأن كل ما نطالبهم به، أو نوجّههم إليه إنما هو خير لهم وللإسلام، وقد شاهدت بعد معركة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ مدى الانفعال الذى يعيش فيه هذا الشعب، علماً بأنه لم يكن آنئذ قد استقل عن إيطاليا فى إقليمه الجنوبى ولا عن انجلترا فى إقليمه الشمالى، ورأيت رجلاً ذهب

يشترى جهاز راديو من حانوت بائع الأدوات الكهربائية، فجاء إليه بجهاز صغير، فسأله: هل يمكن لهذا الراديو أن يسمعنا صوت العرب؟ إننى لا أريد شراءه لشىء إلاّ أن أسمع صوت العرب.. قارن بين هذه الثقة المتبادلة، والحب المبذول منهم للمصريين، ومن المصريين لهم وبين معاملة الأجانب لهم؟ إن المسيحية تدعو إلى المحبة والرحمة والسلام إلاّ أن المبشرين بها كانوا بعيدين عن هذه المبادئ السمحة، واستمع إلى هذه المناقشة التى حدثت بين أحد القساوسة ورجل أفريقى ملوّن:

«قال القسيس: «لابد من أن يكون الله أبيض، فهو لم يخلق اللون الأسود، فيما خلقه من ألوان النبات والأشجار والبحار، هل رأيت ثلجًا أسود؟ أو مطرًا أسود؟ أو بحرًا من الحبر؟ هل رأيت ملاكًا فى صورة سوداء؟ هل رأيت نبيًّا أو رسولاً جاء من الجنس الأسود؟ إن كل هذا دليل على أن الله أبيض، وأنه اختار الشعوب البيضاء لتقود الحضارة الإنسانية»..

أولا: دراستي الميدانية للجانب الاقتصادي

١ - تمهيد:

المشكلة الاقتصادية موجودة فى كل ما يتّصل بحياتنا اليومية؛ لأن الإنسان يريد أن يتوفّر له قدر كبير من ضروريات الحياة، وتقوم المنازعات بين الأفراد وبعضهم مع بعض وبين الدول كذلك من أجل الحصول على أكبر نصيب من ناتج الأرض والوصول إلى أعلى مستوى من العيش الكريم، لكن هل تتيسر هذه الضروريات لجميع الناس؟ إننا لا نجد منها إلّا القدر المحدود الذى تحدّده الموارد الطبيعية فى بعض الأحيان - وتحدّده الموارد الإنسانية كمًّا وكيفًا فى أحيان أخرى، وتحدّده الموارد الآلية التى يخلقها الإنسان بمؤازرة الطبيعة فى أحيان ثالثة، هذا القدر المحدود من الطيبات يجعلنا نجيب إجابة سريعة عن هذا السؤال: لماذا يوجد الفقر المدقع؟ ولماذا يعيش كثير من الشعوب فى تخلّف مادّى، ولا يجدون لقمة الخبز إلّا بشقّ الأنفس وفى أفريقية بخاصة بينما تنعم بعض الدول بسعة من العيش وبالرخاء الزائد، وبالشبع الزائد إلى حدّ التخمة؟ يمكن أن نجيب بكلمة واحدة، وهى الضغوط الاستعمارية على هذه القارة

البكر التى تحمل فى بطونها ثروات لا حدّ لها، وهى لو وجدت الأيدى العاملة المدرّبة تدريبًا دقيقًا، ولو وجدت العلماء الذين يخطّطون لاستغلال هذه الثروات لعاش أبناؤها فى نعيم ورفاهية. فأساس المشكلة - إذن هو عدم التكافؤ بين الثروات الكامنة وبين الأيدى العاملة، فلابد من بذل جهود مضاعفة، ويعتبر الاقتصاديون قدماؤهم ومحدثوهم أن بذل الجهود أو العمل هو أصل لكل الثروات المنتجة، أى الطيبات التى لا يمكن الحصول عليها بدون عناء... ولهذا نجد الأديان السماوية والإسلام بوجه خاص يحثّ على العمل والسعى فى الأرض والكدّ فيها،والقرآن الكريم يذكر عن أنبياء الله أنهم كانوا يعملون بأيديهم فى الإنتاج، والآيات الكريمة التى تدل على تسخير الأرض والبحر للإنسان تنبهه إلى استخراج ما فيهما من خيرات، وبهذا يؤكد الإسلام تكريمه للإنسان الذى ذكره ربنا تبارك وتعالى فى قوله: ﴿ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[1].

٢ - نشاط السكان:

يختلف نشاط السكان فى الصومال من مكان إلى آخر حسب طبيعة البلاد وموقعها، ففى المناطق الساحلية يشتغل السكان بالصيد والتجارة مع الأقطار المجاورة، وفى الداخل حيث المراعى يحترف

---

(١) سورة الإسراء آية: ٧٠.

السكان الرعى كما يقومون بجمع الصمغ واللبان والبخور، ويعتبر اللبان من أهم أركان الاقتصاد القومى فى المنطقة الشمالية وقد اشتهرت به منذ أيام المصريين القدماء، وتعتبر أكبر مصدر للّبان فى العالم إذ تنتج ما لا يقل عن ٦٠٪ من محصول اللبان فى العالم، وفى مناطق الأشجار يقومون بقطع الأخشاب وصيد الحيوانات للاستفادة بجلودها وأنيابها، وحول النهرين الرئيسيين(١) والآبار يشتغل السكان بالزراعة - أما الصناعة فبرغم توفّر عواملها إلاّ أن النشاط فيها ضئيل.

والرعاة يكوّنون حوالى ٧٠٪ من مجموع السكان والزراع تصل نسبتهم إلى ١٤٪ أمّا الصنّاع وأرباب الحرف فيصلون إلى ١٢٪ ويأتى التجّار بعد ذلك فنسبتهم حوالى ٣٪ تقريبًا، أما صيادو السمك فلا تزيد نسبتهم على ١٪ من عدد السكان، وتقدّر ثروة الصومالى ومركزه الاجتماعى بعدد قطعان الحيوانات التى يملكها، ويحتل اللبن مركز الصدارة فى الغذاء اليومى للصوماليين، إلى جانب بعض دقيق الذرة المطبوخ وتسمى «جبشيشة» ومعها اللحم ثم القهوة المصنوعة من البن المقلى فى الزبد، والحيوانات الموجودة هناك والتى تكوّن الثروات لأصحابها هى الإبل والبقر والأغنام والماعز، ومع أن الظروف المواتية للزراعة فى الصومال متوفّرة إلاّ أن التقدّم فى مجالها

(١) نهر جوبا ونهر شبيللى.

ضئيل ولعلّ السبب فى ذلك راجع إلى العوامل الآتية:

(أ) طباع السكان حيث يغلب عليهم الطبيعة الرعوية وهذا أمر طبيعى لما تمتاز به البلاد من ثروة حيوانية ضخمة.

(ب) قلّة عدد السكان بالنسبة لمساحة الأرض الصالحة للزراعة.

(جـ) عدم انتشار الآلات الزراعية البسيطة، فالصومالى لا يستخدم إلّا الفأس فى الزراعة ولو وجدت عندهم الساقية والمحراث والشادوف والنورج وما إلى ذلك من الآلات الزراعية البسيطة التى يستخدمها الفلاح المصرى بسهولة لكان للزراعة أثرها الكبير فى حياتهم..

علمًا بأن الإيطاليين فى الإقليم الجنوبى كانت لهم مزارع كبيرة واستخدموا فيها الوسائل الحديثة...

وأهم المحاصيل الزراعية: الموز - الذرة الشامية - الذرة الرفيعة - الفول السودانى - السمسم - قصب السكر - البصل - الفاكهة.

وتشمل كثيرًا من أنواع الفاكهة الاستوائية مثل المانجو والباباى وبعض أنواع الموالح مثل البومبامو (جريب فروت) كما يوجد هناك بكثرة جوز الهند، أمّا الخضراوات فهى كميات صغيرة وتزرع قريبًا من مقديشيو العاصمة وأهمّها الباذنجان والطماطم والبامية

والإسفاناخ والكوسة والقرع العسلى والخيار والقتّة والشمام والبطيخ والفلفل والخص..

ويقوم الصيد بدور هام فى الاقتصاد المحلى للصومال لاتّساع البلاد وتنوّع حيواناتها وكثرتها ولطول سواحلها وتعدد أنواع أسماكها.

صيد الحيوان:

أهم حيوانات الصيد فى الإقليم الشمالى الوعل والنعامة والغزال والظبى الصغير وتصاد هذه الحيوانات للحمها ودهنها وقرونها وجلودها، وفى الجنوب تصاد هذه الحيوانات أيضًا إلى جانب صيد النمر والفهد لجلودها الثمينة، كما يصاد الأسد لجلده والفيل لعاجه ويصاد الزراف وفرس البحر.

صيد السمك:

يوجد فى سواحل الصومال أنواع شتى من الأسماك، وتكثر أسماك التونة والقرش وتوجد الآن مصانع حديثة على ساحل مجرتين لتعليب سمك التونة وتصديره، كما توجد حاليًا مصانع فى مدينة مركة لحفظ اللحوم وتصديرها للخارج.

٣ - أهم الصناعات:

لقد عمد الاستعمار إلى إبعاد هذه البلاد عن عالم الصناعة برغم توفّر المواد الخام، واليد العاملة، ورءوس الأموال، والأسواق التى تصدّر إليها الصناعات وذلك حتى يظلّ محتكرًا النشاط الاقتصادى فيها.

ومن أهم الصناعات:

(ا) صناعة حفظ اللحوم والأسماك.

(ب) صناعة السكر.

(جـ) صناعة الأحذية والجلود.

(د) صناعة الأثاث.

(هـ) صناعة الحديد وأهمها الخناجر الطويلة والسكاكين والبلط لقطع الأشجار.

(و) صناعة الزيت والصابون.

(ز) حلج القطن ونسجه.

(ح) صناعة المشروبات وأشهرها المياه الغازية المعروفة فى الإقليم الجنوبى «بالكوابنرالى» أى المياه المعدنية، كما توجد مصانع قليلة فى مقديشيو لإنتاج شراب الفواكه.

(ط) صناعة الثلج الذى يعتبر ضروريا فى هذه المناطق الحارة.

والصومال قد اكتشف فيها بعض المعادن مثل القصدير والرصاص والحديد، وكذلك بدأت شركات أجنبية تنقّب عن البترول.. ولم تظهر للآن نتائج لهذه الأبحاث.

٤ - النشاط التجارى:

تقوم التجارة الداخلية على المنتجات المحلية المختلفة مثل الحبوب والخضر والنباتات الزيتية كالسمسم والفول السودانى والحيوانات والفواكه.

أما التجارة فقد كانت أيام الاستعمار تحتكرها إيطاليا فى الإقليم الجنوبى وانجلترا فى الإقليم الشمالى، وبعد الاستقلال تحرّرت من هذا الاحتكار ووسّعت تجارتها فشملت: جمهورية مصر العربية وعدن وكينيا واليابان وغيرها.

وأهم الصادرات:

الموز - الماشية - اللبان - والصمغ - والبخور - اللحوم المحفوظة - وعلب سمك التونة.

وأهم الواردات:

الآلات الزراعية - السيارات - المنسوجات - الأدوية - مواد

البناء - الأدوية الكهربية - منتجات البترول - الأرز - دقيق القمح - البصل - المواد الغذائية الأخرى.

٥ - بعض المشروعات المقترحة:

وفى ختام هذا الفصل أريد أن أذكر بعض المشروعات التى ينبغى إقامتها فى الصومال خدمة للمسلمين وذلك من واقع خبرتى فى العمل هناك، وهذه المشروعات أهمها ما يأتى:

(ا) إقامة مصنع كبير لغزل القطن ونسجه، وقد نجح الصوماليون أخيرًا فى إنتاج القطن الطويل التيلة، وأصبحت البلاد تنتج من هذا القطن الخام حوالى ٢٠٠٠ طن فى العام، ومما يؤسف له أن إيطاليا أيام الاحتلال وفى ظل الوصاية كانت تشترى ناتج القطن بثمن بخس، فهى تشترى الكيلو جرام الواحد من القطن الخام بحوالى ٦٠ سنتا صوماليًا أى ٣٠ مليما، وتقوم بغزل القطن ونسجه فى بلادها ثم تعيد تصديره أقمشة قطنية غالية الثمن، لأبناء الشعب الذى كدّ وكدح فى سبيل إنتاجه.

(ب) إقامة شبكة مياه لتغذية العاصمة مقديشيو بالمياه العذبة من نهر شبيللى الذى لا يبعد عنها أكثر من ثلاثين كيلو مترا، إذ أن المياه الموجودة حاليًا فى العاصمة وتجرى فى الأنابيب هى مياه مالحة، وتكاليف استهلاكها عالية إذ يبلغ استهلاك المنزل الواحد الذى

تسكنه أسرة من ٥ أفراد ما بين ٣٠، ٤٠ شلنًا صوماليًّا فى الشهر، وهذه المياه لا تستخدم إلّا فى دورات المياه وغسيل الملابس والأوانى، وأما النوع الثانى من المياه فهو مياه الآبار الارتوازية المنتشرة فى المدينة وتنتقل إلى المدينة عن طريق سيارة كبيرة كسيارات حاملات المازوت أو فى براميل صغيرة على ظهور الحمير، وتستخدم فى الأعمال المنزلية العادية ويشرب منها عامة الشعب، ويستهلك المنزل الواحد المكون من ٥ أفراد حوالى ثلاث صفائح يوميا بمعدل ٢٠ شلنًا صوماليا شهريا، أما المياه الثالثة فهى عبارة عن المياه المقطرة التى تقوم بتقطيرها إحدى ماكينات شركة النور بمقديشيو وهى صالحة للشرب تمامًا ولا يستخدمها إلّا القلائل ويستهلك منها المنزل الواحد شهريا بحوالى ٢٤ شلنا صوماليا، وهناك النوع الرابع من المياه وهى المياه المعدنية المحلية وتستخدم فى بعض المنازل المحددة والمقاهى والهيئات الدبلوماسية ويستهلك منها المنزل المكون من خمسة أفراد بما قيمته ٤٠ شلنًا صوماليا شهريا، وبحساب بسيط يظهر أن المنزل الواحد فى العاصمة يستهلك شهريا بحوالى ١٢٠ شلنًا صوماليا أى حوالى ستة جنيهات فى المياه فقط، فإذا أقيم هذا المشروع الحيوى فكم يتوفّر للسكان من النفقات فضلًا عن سهولة الحصول على المياه؟؟

(جـ) مشروع خاص برصف الطرق، فحيث لا توجد قطارات سكة حديد تكون وسائل الانتقال ونقل البضائع هى السيارات،

والطرق هناك طويلة جدًّا، لذا فهى فى حاجة إلى رصف لأنها بحالتها الراهنة تؤثّر تأثيرًا سلبيًّا على اقتصاديات البلاد.

(د) مشروع بناء المساكن ليحدّ من ارتفاع إيجار المساكن الحديثة وخصوصًا فى العاصمة.

(هـ) توسعة ميناء مقديشيو، وبناء مطار هرجية الجوى إلى جانب توسيع الموانى البحرية الأخرى، مثل ميناء بربرة فى الإقليم الشمالى، وميناء كسمايو وميركا فى الإقليم الجنوبى وبناء الأرصفة لها لتيسير عمليات الشحن والتفريغ.

(و) إقامة أكثر من مجزر أوتوماتيكى تلحق بها ثلاجات لحفظ اللحوم وتصدّر للخارج مثلجة.

(ز) التوسع فى إقامة مصانع تعليب اللحوم وتعليب سمك التونة للتصدير إلى الخارج.

* * *

ثانيا: دراستى الميدانية للجانب الاجتماعى

١ - أسس المجتمع الصومالى:

يقوم النظام الاجتماعى فى الصومال فى أساسه بوجه عام على النظام القبلى، ولعل منشأ هذا النظام يرجع إلى أسلوب الحياة السائدة هناك وهو نظام الرعى، وقد لعب هذا النظام دورًا هامًّا قبل قيام الدولة الحديثة والمجتمع الجديد، وكانت القبيلة تُحكم حكمًا ديمقراطيا، أساسه التعاون ونصرة المظلوم والإخاء، تبعًا للمبدأ الذى أصبح قولاً مأثورًا وهو أن القبيلة الطيّبة لا يوجد فيها أحد جائع إذا لم يكن الجميع جائعين، وقد كان هناك عُرْف قبلىّ صومالى يسمونه (حير) وهو مجموعة التقاليد المتوارثة التى تلتزم القبائل بأحكامها، وكان للحير نفوذ قوى على القبائل وخصوصًا فى الشمال، ويظهر تأثيره واضحًا فى حالات كثيرة منها الحروب القبلية ودفع ديات القتلى، وفى الالتزامات التى تتقيّد بها المرأة.

والآن مع قيام الدولة الصومالية وتقوية الوحدة الوطنية فإن أهل الرأى وأصحاب الوعى الكامل من الصوماليين كافحوا من أجل

نبذ نظام القبيلة الذى يعرقل النهوض والتقدم، وبحمد الله نجحت هذه الدعوات المخلصة وحلّ الولاء للوطن ككل محلّ القبيلة الخاصّة.

٢ - أثر البيئة فى المجتمع:

للظروف الطبيعية السائدة فى شبه جزيرة الصومال تأثير كبير فى حياة المجتمع وتشكيل ألوان نشاطه، فحيث الارتفاع المستمر لدرجة الحرارة وغزارة الأمطار ووجود كثير من الحيوانات المتوحشة كان الصومالىّ حادّ البصر مرهف الحسّ سريع الحركة له قدرة فائقة فى التحمّل والجلد، وعلّمتهم حياة الترحال الأمانة والوفاء وغرست فيهم روح الحرية والاستقلال، وفى أرض الصحراء يتصّف سكانها بالشجاعة والكرامة وشدّة التدين، والصبر على المكاره وقوّة الاحتمال، والشعب الصومالى عمومًا من أشد شعوب العالم الإسلامى تديّنًا وإيمانًا بالله وبوطنه وبإخوانه، وعقيدة الإسلام تعتبر قوّة وحدوية ربطت بين الصوماليين ودعمت أخوّتهم وتعاونهم.

٣ - بعض الظواهر الاجتماعية فى الزواج:

الأسرة لها قداستها فى المجتمع الصومالى، وتقوم أساسًا من زوجين وأولاد - وللصوماليين فى الزواج تقاليد طريفة، فالخطيب يتقدّم فى جماعة من أقاربه وأعمامه إلى والد الفتاة ومعهم شبْكة تقدر

قيمتها بحوالى ١٠٠ شلن صومالى، فإذا وافق الأب على الخطيب أحالهم على أعمام الفتاة فهم الذين بيدهم الأمر النهائى فى القبول أو الرفض، فإذا وافقوا أخذوا الشبكة، واقتسموها فيما بينهم دون أن يأخذ والد الفتاة أو أبناؤه منها شيئًا، ثم يدفع الخطيب نحو مائة وخمسين جنيها بعد ذلك لإرضاء أهلها وشراء الجهاز للبنت، وقد يكون المهر عينًا أو دينًا مؤجّلًا على ذمّة الزواج، وبعد عقد القران تتم عملية الزفاف التى يصاحبه كثير من صنوف النشاط الذى يشمل القرية أو الحى من المدينة، وكثيرًا ما يتزوّج الواحد أكثر من واحدة لظروفه المالية، والزواج فى القبيلة يختلف عن الزواج فى المدن، ففى بعض القبائل لا يتزوّج الرجل من ابنة عمه، أو أحد أفراد القبيلة لأنه يعدّها جزءًا من نفسه، فإذا تقدّم العريس لخطبة فتاة، وقبل أهلها دفع شيئًا ممّا معه من عمامة أو خنجر أو مسبحة، ثم يقدّم المهر الذى يكون عينًا أو نقدًا، ثم تزفّ الفتاة إلى زوجها وتمكث فى بيت أهلها حتى تلد ولدها الأوّل، ثم يرحل بها إلى قبيلته، ويعتبر المهر بمثابة أمانة لدى أسرة الزوجة، فإن حدث توافق وانسجام بين الزوجين أصبح المهر ملكًا لأسرة الزوجة، وإن حدث اختلاف بينهما ردّ إلى الزوج، وإن مات الزوج تزوجت أرملته أقرب الناس إليه.

ومن الظواهر الاجتماعية الموجودة شيوع الطلاق فى البلاد وبخاصّة فى المدن والقرى الجنوبية، وهو لا يحدث نتيجة مبررات

قوية تحتمه ولكن يحدث لأوهى الأسباب، وقد يكون بلا سبب إلّا مجرد إرادة الزوج تجديد الزوجة، أو يكون عدد من على ذمّته من الزوجات أربع زوجات ويريد أن يتزوج زواجًا جديدًا فيعمد إلى طلاق إحدى الزوجات، ليمكن له أن يتزوج بالجديدة بحيث لا يزيد العدد على أربعة حسبما قرّره الشرع الإسلامى، ونتج عن فوضى الطلاق مشكلة اجتماعية وهى كثرة المشردين الذين يتسكعون فى الطرقات، وقد شاهدت موقفًا مؤثرًا من أثر فوضى كثرة الزواج والطلاق... كنت جالسًا فى مطار مقديشيو منتظرًا قدوم أحد المصريين من القاهرة، وجلست فى استراحة المطار وعلى المائدة التى بجوارى جلس شاب ومعه فتاة فى مثل عمره، وقد وصل إلى سمعى كلماتهم الغزلية–وهما لايعرفان أننى أعرف اللغة الصومالية – واستمر الحديث فترة من الزمان تبادلا فيه كلمات الحب والهيام.. ثم قال لها: لماذا لا نتزوج؟ قالها وهو يضغط على يديها فى حرارة. فقالت: كنت أتمنّى ذلك، لكننى فى عصمة رجل كبير فى السن. قال لها: إذا لم تكن حياتكما الزوجية سعيدة، فلماذا لا تطلبين منه الطلاق، وقد أحلّه الله، ﴿وإن يتفرّقا يغن الله كلًّا من سعته﴾ أجابت البنت: كيف أجرؤ على ذلك؟ إنه رجل كبير وعظيم وقد زوّجنى أبى منه حينما زار هذا الشيخ قبيلتنا، ووالدى وهو شيخ القبيلة – عرض عليه الزواج منى مبالغةً فى الحفاوة به، وفى نفس الوقت تكريم لأبى – فقال لها: من هو هذا الرجل، وأنا أتدخل فى فكرة الطلاق؟

فذكرت له اسمه، وفجأةً وجدت هذا الشاب قد استحال إلى طفل صغير يبكي بكاءً حارًّا ويقف يقبل رأس الفتاة ويقول لها: سامحيني، إنك فى منزلة أمّي، إنك زوجة أبى، واسمه شيخ الإسلام مختار، هذا المشهد المؤثر جعلته مادةً لحملة مستمرّة فى المساجد لمقاومة فوضى تعدّد الزوجات وفوضى الطلاق، حفاظًا لكيان الأسرة.

٤ - عادات وتقاليد قديمة ينبغى مقاومتها:

يوجد عديد من العادات الشعبية الشائعة فى الصومال، وهى تحتاج إلى توعية الناس بعدم جدواها ومثالها: عادات الزار، وعادة إشعال الحرائق فى أوّل السنة النيروزية والضرب بالعصى حتى إسالة الدماء فى أوّل أغسطس من كل عام فى منطقة أففوى وقد يحدث قتل شخص أو أشخاص، ويقولون إنها من بقايا العادات الفرعونية فى الصومال والزرع لا ينمو نموًّا كاملاً بدونها.

وعلاج الأمراض بالكيّ بدلا من التداوى، وحلقات اللعب والرقص وكيّ الحيوانات بالنار لتميزها عن مواشي القبائل الأخرى مع عدم مراعاة ضياع قيمة هذه الجلود التى أصابها الكيّ، ومن عاداتهم فى الولادة والختان أنهم يفرحون كثيرًا بولادة الذكور ويحتفلون احتفالات كبيرة بولادتهم، أما الأنثى فيقابلون ولادتها بفتور. وعند تسمية الطفل - وغالبًا ما يكون فى يوم السبوع -

يذبح الأب ضحية[1]، وبعض القبائل تلطّخ رأس المولود بدم الذبيحة، أما عاداتهم فى الدفن والحداد فتتميز بالبساطة المتناهية التى تتّفق مع تعاليم الإسلام، وقد حضرت كثيرًا من حالات العزاء، وكان يقدّم لنا أهل المتوفى شراب البرتقال المثلج، ويقدمون البلح مع القهوة -.. ولم نسمع صراخ النساء ولا بكاء أحد من أقارب المتوفى.

٥ - مركز المرأة:

يُنظر إلى المرأة على أنها أقل من الرجل بكثير، وليس لها حقّ حضور مجالس القبائل أو العشائر، كما لا يحق لها أن تطالب بدية أولادها؛ إذ يتولّى ذلك نيابة عنها ولىّ أمرها الذى يرتبط بها من ناحية العصب لا الرحم وهذا إذا كانت غير متزوجة، أما إذا كانت متزوجة فإن زوجها هو الذى يتولّى عنها ذلك، وتتضح هذه النظرة كذلك فى عدم السماح للنساء بركوب الدواب فى أثناء الارتحال بل عليهن السير على أقدامهن فيما عدا العجائز وقد يكلّفن بحمل بعض الأمتعة على رءوسهنّ... بينما كان الرجال يركبون الخيل فى أثناء هذه الارتحالات.. وملابس المرأة الصومالية تمتاز بالاحتشام وهى ليست متبرّجة ومع ذلك لا يضعن حجابًا على وجوههن، ونادرًا ما تضع المساحيق على وجهها، وحرية الاختلاط مكفولة للفتاة

---

(١) وهى فى عرف الإسلام تسمّى عقيقة وهى سنّة مستحبّة.

الصومالية فيمكن لها أن تسير وحدها. والتعليم الابتدائى والثانوى مشترك بين الابن والبنت، وكذلك فى الفصول المسائية للكبار، وهى تشارك فى مواكب الدعاية الانتخابية ولها حق الترشيح وإعطاء صوتها بمحض اختيارها.

٦ - الأعياد والمواسم:

يحتفل الصوماليون بالأعياد الدينية الإسلامية بنفس البساطة التى تسود حياتهم، ففى عيد الفطر يصنعون نوعًا من الفطائر يتناولونها قبل ذهابهم إلى صلاة العيد، وفى عيد الأضحى يذبحون الضحايا بعد الصلاة، ويحرصون على ارتداء الملابس الجديدة فى أيام الأعياد، ويزور بعضهم بعضًا مهنئين، أمّا الأعياد الوطنية فهى كثيرة فى الجنوب وخاصة عند جماعة البانتو الزراع الذين يسكنون ضفاف الأنهار، ومن أشهرها عيد رأس السنة الشمسية حيث يشعلون النيران ويقفزون فوقها، ويرقصون حولها وبعد الانتهاء من كل رقصة يغرز ربّ الأسرة رمحه فى النار إشارة إلى فقء العين الشريرة، ويستمر إيقاد النار عدّة أيام وتسمى كذلك عيد فرعون، وهذه التسمية تدل على مبلغ قدم هذا العيد، كما تدلّ على الصلة التاريخية القديمة مع مصر.. وهناك عيد آخر هو عيد الاستسقاء أو طلب المطر، ويحتفلون به فى بداية موسم المطر، وفى هذا الاحتفال يقرأ الفقهاء

الآيات القرآنية والأحاديث، بينما يخرج الأهالى رجالاً ونساءً فى جماعات تطوف بالبلد وتنشد الأناشيد وتردد الدعوات لطلب المطر، وعند نزوله تذبح الضحايا وتقام الولائم التى يطلق عليها. «الله برى» أى «شكرًا لله».

ثالثا: دراستى الميدانية للجانب الثقافى

١ - اللغة:

الصومال بلد ذو ثقافة عريقة وقديمة، ويرجع تاريخها إلى الزمن الذى كانت فيه الحضارة القديمة كحضارة قدماء المصريين والإغريق والفرس، وقد أثبت التاريخ وجود الصلات التاريخية والتجارية مع هذه الحضارات منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ولا تزال النقوش والآثار القديمة فى دور الآثار تشيد بذلك.. وفى الصومال عادات قديمة متوارثة لها صلة وثيقة بعادات قدماء المصريين مثل بناء الأهرامات الموجودة فى مناطق بحر ينبيا ومدق، كما توجد كلمات مشتركة بين اللغتين الصومالية والمصرية القديمة، وقد ذكر الأستاذ سليم حسن المؤرخ المعروف: إن هناك تشابهًا كبيرًا بين اللغة المنطوقة بالصومالى ومثيلتها فى بلاد النوبة فى مصر، ومما يدلّ على تشابه الألفاظ الصومالية مع الألفاظ المصرية القديمة هذه الأمثلة:

الكلمة	معناها في اللغة الصومالية	معناها في اللغة المصرية القديمة
سماء	عـر	حـر
ماء	بيو	مـو
شمس	قرح	رع
النار	دب	دب
أنا	أنيجا	أنج
هـو	أموجا	أمو

واللغة الصومالية تسمّى لغة الأم لأنها تستخدم فى التخاطب فقط ولا تكتب، ويطالب المثقفون الآن بضرورة كتابة هذه اللغة ولكن بأى حروف تكتب؟ هناك دعوة لكتابتها بالحروف اللاتينية، ولكن يعارض هذا الرأى جماهير الشعب لأن علاقة الصومال باللاتينية كانت عن طريق الاستعمار الذى فرضها عليه فرضًا، والآن بعد أن تخلّصت البلاد من كابوسه يجب أن تتخلصّ من آثاره، فضلًا عن أن التبشير يرعى اللاتينية بهدف ربط ثقافة الشعب بالغرب، وكثيرًا ما كنت أسمع عند الحملة على هذه الطريقة قولهم إن اللاتينية معناها اللادينية وذلك بهدف تنفير الناس منها، وهناك من يدعو إلى اختراع كتابة جديدة بحروف جديدة، ولكن كم من الزمن يحتاجه

الشعب ليتعلم هذه الطريقة الجديدة وأية الحروف التى ستستحدث والمطابع والوقت علمًا بأن العالم فى سباق من أجل تنمية معارفه وزيادة ثقافته، إذن لم يبق إلّا كتابتها بالحروف العربية ويرجّح هذه الفكرة وجود الأسباب الآتية:

١ - أن الشعب الصومالى مسلم مائة فى المائة، وبحكم إسلامه يدرس القرآن ويحفظه ويدرس الحديث والفقه والتوحيد وما إلى ذلك من مختلف العلوم باللغة العربية، ودراسة الدين واجبة بنص الدستور.

٢ - قرأت فى دستور وحدة الشباب الصومالى الذى كوّن فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٣ فى المادة ٢ فقرة «ب» هذا النص:

(الاهتمام بتعليم اللغة العربية نظرًا لأنها لغة القطر الرسمية).

٣ - الحجج والوثائق فى البيع والشراء والزواج والوقف وما إلى ذلك كلّها مكتوبة باللغة العربية منذ زمن بعيد.

٤ - كتابة الصومالية باللغة العربية يسهل على الدارس دراستها نظرًا لأنه يألف هذه الحروف من قراءته فى المصحف وفى كتب الحديث ويجعله على صلة وثيقة بالثقافة الإسلامية.

٥ - هناك شعوب إسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية مثل الباكستان وإيران والملايو.

٦ - من السهل الحصول على المطابع والحروف العربية وبذلك يتيسّر طبع المؤلفات باللغة الصومالية والحروف العربية.

وإذا بحثت فى القرآن والأحاديث تجد كثيرًا من الكلمات العربية تشترك فى لفظها ونطقها ومعناها مع اللغة الصومالية، وهذا يدلّ على قرب اللغتين ببعضهما مثلًا: أعوذ - أسماء - أب - إقرار - أخبار - أصنام - إنس - أمانات - اقتصاد - استعمار - اسم - أيتام - هجرة - هدية - هباء منثورا - هدهد - هلال - واحد - وعد - والد - وقت - ورقة - وزن - يوم - يتيم - ياقوت - وغير ذلك من مئات الكلمات المشتركة.

كما توجد جمل وتراكيب مشتركة بين اللغتين فى مناسبات التحية واللقاء والوداع والدعاء مثلًا عبارات:

الحمد لله - الله أكبر - حاشا لله - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وعليكم السلام - إن شاء الله - تبت إلى الله - صباح الخير - أستغفر الله - تفضّل معى - على بركة الله - بإذن الله - على الله - كيف حالك - بعت واشتريت - مع سلامة الله - صديقى - صاحبى - أحسنت - بيت الله الحرام..

ومع فهم الأهالى للغة العربية لأنها لغة القرآن، ومع أن جميع الشعب سواء فى البادية أو فى الحضر يتكلمون اللغة الصومالية مع اختلاف فى بعض لهجاتها فإن اللغة الإنجليزية تنتشر بين المثقفين فى

الإقليم الشمالى واللغة الإيطالية فى الإقليم الجنوبى، ومع قداستهم للغة العربية نجد أن لغة الدواوين، والكتابة فى المصالح الحكومية هى الإيطالية فى الجنوب والإنجليزية فى الشمال، الأمر الذى يجب التنبيه إليه لمضاعفة النشاط فى تعليم اللغة العربية من أوّل مراحل التعليم إلى نهايته حتى تكون هى لغة الدواوين، وقد انحسرت – بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٩ – اللغات الأوربية فى مجال التعليم وفى الثقافة العامة.

٢ – الثقافة فى الصومال:

كلمة ثقافة تعنى التهذيب والتربية والتنمية وتتأثر بالدين والعادات والتقاليد والفنون والآداب والمذاهب والفلسفة، وعلى هذا فإننا نجد للأمة الصومالية ثقافة عريقة – نابعة من دينها وعاداتها وفنونها، فدينها الإسلام، بما يمثّله من عقيدة وشريعة وقيم وأخلاق وسلوك، وللصوماليين تراث أدبى يعتزون به يشمل الروايات والقصص والأناشيد والأمثال والأنساب، وهم يتناقلون هذا التراث جيلاً بعد جيل بالرواية فقط بسبب عدم كتابة اللغة الصومالية والشعر الغنائى الصومالى ثلاثة أنواع:

(ا) شعر المدح ويسمى جباى.

(ب) شعر الحرب ويسمى جرار.

(جـ) شعر الحب والغزل ويسمى حس آو بين.

وليس قرض الشعر خاصا بالرجال، بل كثيرًا ما تلقيه النساء فى الاحتفالات وخاصة حفلات الزواج، ويصاحب شعر الغزل غالبًا أنغام موسيقية كذلك يوجد فنانون فى التمثيل ويمثلون فى الغالب أبطالهم الذين كان لهم دور بطولى فى مقاومة الاستعمار.

ومن وسائل نشر الثقافة المذياع الذى يذيع أحاديث وتمثيليات وموسيقى وغناء، وكذلك توجد الصحف والمجلات التى تكتب بالعربية وبالإيطالية فى الإقليم الجنوبى وبالعربية والإنجليزية فى الإقليم الشمالى، ولكنها لا تقرأ من سكان البوادى.

٣ - التعليم فى الصومال:

توجد عدّة أنواع من المدارس بالصومال تسهم جميعها فى رفع المستوى، التعليمى والثقافى للشعب وفى تنمية الوعى القومى، إلّا أن هذه المدارس لا تزال ضئيلة بالنسبة لاحتياجات السكان المتزايدة ومواجهة رغباتهم فى تعليم أبنائهم.

وأهم أنواع التعليم هناك أربعة أنواع

١ – التعليم الدينى

وهو تعليم الغالبية العظمى من الصوماليين الذين لهم إلمام بالقراءة والكتابة وله ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

التعليم فى الكتاتيب وتسمى «الدوكسى» باللغة الصومالية والتعليم فيه يمضى على غير نظام وعلى طريقة واحدة فى الصومال كلها، فالتعليم فيه يبدأ بتعليم الطفل فى سنّ السابعة أو الثامنة تقريبًا الحروف الهجائية منفصلة بعضها عن بعض، ثم نطقها بأشكال مختلفة ثم ترتيبها فى كلمة مكوّنة من حرفين أو ثلاثة وبعد الانتهاء منها يبدأ بتعلم القرآن ابتداءً من سورة الفاتحة ثم المعوذتين وهكذا من آخر المصحف إلى أوّله حتى سورة البقرة. وكل أبناء البادية يعلمون أولادهم فى الدوكسى لأنهم يعتقدون بأن الرسول سيسألهم يوم

القيامة عن تعليم أبنائهم لغة القرآن، وتستخدم الألواح الخشبية فى تدريب الأفراد على قراءة القرآن وحفظه وتسمى «داركين» ولكل لوح يد يُمسك منها خشية إزالة الكتابة نتيجة الاستعمال المستمر، ويقوم الأولاد بالكتابة على هذه الألواح بواسطة قطعة من الخشب طويلة من فروع الأشجار، أما الحبر فهو من لبن البقر أو الغنم مضافًا إليه الفحم والصمغ، ويمكن إزالته بالمياه والكتابة على الألواح مرّة أخرى.

ويتقاضى معلّم الدوكسى من كل تلميذ مبلغًا يتراوح ما بين شلنين أو ثلاثة مع نهاية كل شهر، وجدير بالذكر أن نظام التعليم فى الدوكسى بوسائله البدائية هذه تمتاز بسرعة حفظ الأطفال للقرآن، إذ يتم الطفل كتابة القرآن كله فى مدة سنة ونصف أو سنتين فيعيد كتابته مرّة ثانية، وأحيانًا ثالثة ليتمكن من إتقانه ولكل طفل فى الدوكسى ثلاثة ألواح أو أربعة طويلة وقصيرة، حسب مدارج الطفل من سلم القرآن، فمن كان فى قصار السور أخذ اللوح القصير، ومن كان فى طواله أخذ اللوح الطويل، وفى السور الوسطى يأخذ اللوح المتوسط، بمعنى أن التلميذ كلما زاد فهمه فى القراءة والكتابة كلما زاد تبعًا لذلك طول لوحه وكثرة عشره، وقد جرت العادة فى البادية أن المعلّم يأمر الأطفال بالاحتطاب مساء كل يوم من أيام الأسبوع ماعدا مساءى الخميس والجمعة، حيث يوقدون النار ليلًا ليقرءوا فى نورها المقرّر حفظه فى المساء بعد المغرب، ويكتبوا فى نورها القدر

المطلوب حفظه فى الصباح، وبعد الانتهاء من تعليم القرآن يغاد
الطفل الدوكسى ليرعى الجمال أو البقر أو ليحرث الأرض، أما مز
يريد مواصلة دراسته الدينية، فينضم إلى شيخ من مشايخهم ويتتلمذ
عليه فى مادّة اشتهر بها ويدرس عليه كتابًا معروفًا فى التفسير أو
فقه الشافعية وغالبًا ما يكون منهج الطالبين أو كتابًا آخر من كتب
النحو أو الصرف. وليست الدوكسيات قاصرة على البوادى بل إنها
تنتشر فى المدن، ففى مقديشيو يبلغ عددها حوالى ٣٠٠ دوكسى
وأغلبها فى الأحياء الشعبية وعدد التلاميذ فى كل دوكسى حوالى ٠
تلميذًا ويوجد فى باقى الإقليم الجنوبى عدد كثير منها، وفى بعضها
يقوم بالتعليم فيها سيّدات ويسمين حرمات، وقد بنيت أخيرًا فى
الأقاليم أبنية حديثة للدوكسيات عن طريق مشروع ساعِد نفسك،
ويوجد فى مدينة هرجيا بالإقليم الشمالى حوالى ٥٠ دوكسيا ومتوسط
تلاميذ كل دوكسى حوالى ١٠٠ طفل وطفلة. وبعض الدوكسيات بها
معلمان أوثلاثة ويتقاضون مرتبهم من صاحبها، وعند إتمام التلميذ
حفظ القرآن فى المدينة مع تجويده يلبس أحسن ما عنده من ثياب
ويدور فى المدينة فى حفل كبير يحيط به أهله مع جمع كبير من الناس
ليعلم الجميع أن هذا الصغير قد أصبح شيخًا وهو فى سنّ الصبا
حافظًا للقرآن كلّه، وحبذا لو اعتنى بمعلّمى الدوكسيات عن طريق
تدريبهم على أساليب التعليم الحديثة وتزويدهم ببعض العلوم مع رفع
مستواهم المادّى، حينئذ يكون لها أثرها الجبّار فى تنشئة الأجيال على

حفظ القرآن وإجادة اللغة العربية كتابةً ونطقًا.

المرحلة الثانية: التعليم فى المساجد:

الصوماليون يعتبرون علم الدين من فقه وتفسير وحديث وتوحيد ومناقب: مقاصد، ويعتبرون اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة ونصوص وسائل ضرورية تجب دراستها لمعرفة علوم الدين، وهذه المواد كلها تدرس فى المساجد على يد علماء صوماليين كرّسوا وقتهم لتعليم طلّاب المساجد ابتغاء وجه الله ولا يتقاضون أجرًا على التعليم، أمّا الطلاب فإن الأهالى يطعمونهم ويكسونهم ويقدّمون لهم بعض المعونات ويعتبرون ذلك قربى إلى الله.. هذا النوع من التعليم ليس له منهج معيّن، ولا زمن محدّد ولا عدد معيّن من السنين فلا امتحان فيه وبالتالى لا يعطى لدارسيه شهادات وإنما يتعلّم المتعلّم ليفهم حكم الشريعة فى العبادات وفى المعاملات والتقاضى فيقضى بين المتنازعين ويفتى الناس متطوعًا، وقد يعطونه جَعْلًا وهو قدر من المال يسمّونه «حق العلم» ولهؤلاء العلماء تقدير كبير فى الصومال ولهم رأيهم الذى يسمع ولهم مواقفهم المشهودة فى مقاومة الاستعمار.

وبعض الطلاب ينتقلون بين البلاد فى البوادى يعلّمون التلاميذ تحت الأشجار، وكثيرًا ما يقضى بعض طلّاب العلم حياتهم مجاورين فى المساجد كما هو الحال فى جامع شيخ عبد القادر وجامع مرواس

بمقديشيو، ومواد التعليم الديني مركزة في عدد من المتون التي تجمع أمهات المسائل وفي شروح هذه المتون.

وهؤلاء التلاميذ يتّصلون بالأزهر روحيًّا عن طريق الكتب التي يدرسونها فهي من الأزهر، وبعضهم يكمل تعليمه في الأزهر فيسافر بطريقته الخاصّة، وأعرف بعضًا منهم حضر إلى مصر ماشيًا على قدميه هذه المسافة الطويلة وهدفه أن يلحق بالأزهر الشريف، ومن قديم والصوماليون يراسلون الأزهر لاستفتائه في مسائل استغلقت عليهم فهمًا ويأتيهم الرّد عليها، ولهذا يجب تقوية صلة الأزهر بهم لتظلّ الدعوة الإسلامية قوية في هذه المنطقة.

المرحلة الثالثة: الدراسة بالمعاهد الدينية:

عملت في الصومال من عام ١٩٥٧ - ١٩٦٣ وكنت رئيسًا لبعثة الأزهر هناك وقد خبرت عن قرب طلاب المساجد، ورأيت شدّة تعلقهم بالأزهر وحرصهم على تعلّم علوم الدين واللغة العربية، وهم عدد لا بأس به، موجود في مقديشيو وفي البادية، ووجدت أنهم يقصرون دراستهم على هذه المواد ولا يعرفون شيئًا عن المواد الحديثة، ولا يحصلون على شهادات دراسية وبالتالي لا يشتغلون في أيه وظيفة من وظائف الدولة مع علمهم وخلقهم الرفيع وأمانتهم، ورأيت أنهم يعيشون منفصلين عن مجتمعهم ففكّرت في جمعهم من المساجد ليتلقّوا العلوم الدينية والعربية والمواد الحديثة في معهد ديني

على نظام معاهد الأزهر، وعرضت الأمر على بعض المخلصين من أبناء العاصمة مقديشيو فرحّبوا بها كل ترحيب.. وأعلنا عن هذه الفكرة ووافق الأزهر على ضمّ هذا المعهد إليه وأنشئ معهد مقديشيو الدينى لطلاب المساجد فى عام ١٩٦١ ووردت إليه أسئلة امتحان الشهادة الابتدائية الأزهرية من الأزهر وعقدت لجنة امتحان ووكل الأزهر إلى رئاستها، وبعد الامتحان أرسلت أوراق الإجابة لتصحّح فى مصر وفاز المعهد الذى أنشئ لأوّل مرة بمرتبة متقدّمة من بين معاهد الأزهر، ومُنح الطلّاب الشهادات الموقّع عليها من شيخ الأزهر، وقد كنتَ تشهد منظرًا مؤثرا حينما تسلم الطلاب لأوّل مرة شهادة من الأزهر وهم فى الصومال وعليها توقيع شيخ الأزهر، لقد اعتبروها وثيقة لها قداستها وجلالها، وكذلك مُنح طلّاب معهد برعو الدينى فى الإقليم الشمالى هذه الشهادة للناجحين منهم، وقد استمر المعهدان فى أداء رسالتهما ووصلت مراحل التعليم فيهما آنذاك إلى السنة الثانية الثانوية، ثم إلى نهاية المرحلة الثانوية، وتعدّدت بعد ذلك المعاهد الدينية فيوجد الآن ثمانية معاهد أزهرية وجميعها معاهد إعدادية ما عدا معهدى مقديشيو وبرعو فهما إعدادى وثانوى وأهم هذه المعاهد:

١ – معهد مقديشيو الدينى.

٢ – معهد برعو الدينى.

٣ – معهد بلدوين الدينى.

٤ - معهد بيدوا الدينى.
٥ - معهد جلكاعيو الدينى.
٦ - معهد كسمايو الدينى.
٧ - معهد بورما الدينى.
٨ - معهد هرجسا الدينى.

ويوجد فى مقديشيو معهد اسمه معهد الدراسات الإسلامية وقد أنشئ عام ١٩٥٣ فى عهد الإدارة الإيطالية الوصية قبل الاستقلال وكان هو المنفذ لدخول شيوخ الأزهر إلى الصومال للتدريس فيه قبل الاستقلال، ومدّة الدراسة به ٤ سنوات وتخرّج الفوج الأوّل منه عام ١٩٥٧، وقد طورناه حينما كنت شيخًا له وألحقنا به تخصّصًا للقضاء ليخرج القضاة الشرعيين والمحامين، وتخصّصًا للتدريس ليخرِّج المدرسين، وكنت أتمنّى أن يطوّر ليكون نواة للجامعة الإسلامية فى الصومال على نظام كليات الأزهر الشريف، وقد خرّج هذا المعهد مجموعةً من خيرة الشباب الصومالى الذين تثقفوا بالثقافة العربية والدينية بعمق وأصالة وأكثرهم تولّى مناصب رفيعة فى وزارة التربية والعليم الصومالية وبعضهم حصل على مِنح من جمهورية مصر العربية لإتمام تعليمه فى الأزهر وفى الجامعة وفى الكليات العسكرية ولا أزال أفخر بأن من بين تلاميذى فى هذا المعهد الذين أتموا تعليمهم فى الكلية الحربية بمصر ضباطًا فى مجلس قيادة الثورة الصومالية التى قام بها صفوة من خيرة الشباب المثقف

فى الصومال بقيادة اللواء محمد سياد برى وذلك فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٩ وقد علمت أخيرًا مع الأسف أن هذا المعهد لا يأخذ حظّه من الرعاية وهو آخذ فى الاضمحلال.

٢ – التعليم الحكومى

١ – تطور هذا النوع من التعليم:

لقد كان التعليم فى الصومال قبل النصف الثانى من هذا القرن تعليمًا لغويًّا دينيًّا فقط، ونشبت الحرب العالمية الثانية وكانت إيطاليا تستعمر الإقليم الجنوبى وبريطانيا تستعمر الإقليم الشمالى، وقد استولت إيطاليا أوّل الأمر على منطقة الصومال البريطانى، وبقيت فيها لمدة سبعة أشهر ثم انسحبت منها فى أوائل عام ١٩٤٠ وعادت إليها القوات الإنجليزية المرابطة فى عدن، وفى عام ١٩٤١ وقعت الصومال كلها فى يد بريطانيا عدا الشمال الأقصى الذى كانت قوّات فرنسا الحرة تسيطر عليه، وانتهت الحرب والبلاد تحت وطأة الحكم البريطانى، وفى أثناء الحرب حدثت تفاعلات نتيجة الاتصال المباشر بين الجنس الأجنبى الوافد بعلمه وصناعته وأسلحته الحديثة، وأيقن الشعب الصومالى أنه لابد له من نهضة علمية جبارة يستطيع بها أن يقف فى وجه هذه الدول المتقدّمة، فأنشأ الأهالى المدارس

وعيّنوا فيها مدرسين غير مؤهلين، كما أنشأت الأحزاب والجمعيات بدورها مدارس كثيرة، وشجّعت بريطانيا رغبة الشعب فى التعليم ولكن بلغتها الإنجليزية.

ثم وضعت الأمم المتحدة صوماليا تحت الوصاية الإيطالية لمدة عشر سنوات تبدأ فى ديسمبر سنة ١٩٥٠ وتنتهى فى الثانى من ديسمبر سنة ١٩٦٠ بإشراف إيطاليا عليها يراقبها مجلس استشارى من الأمم المتحدة مكوّن من مندوب من مصر ومن الفلبين ومن كولومبيا وذلك لإعداد البلاد سياسيا واجتماعيا للحكم الذاتى، ولما عادت الإدارة الإيطالية الوصية فى أبريل عام ١٩٥٠ بدأت تفتح مدارس لتدريب المعلمين لتدريس لغتها، ثم قامت مصر بفتح باب القبول فى مدارسها للطلاب الصوماليين وبهذا استقبلت مصر أوّل بعثة صومالية تغادر البلاد للتعليم فى الخارج عام ١٩٥٢ وبعدها بدأت إيطاليا تفتح المدارس وتستقدم للتدريس فيها مدرسين كثيرين من إيطاليا ودرّبت بعض الصوماليين على تدريس اللغة الإيطالية وأرسلت عددًا كبيرًا منهم إلى بلادها، وفى نفس الوقت كانت المدارس آخذة فى الانتشار وبخاصة فى المرحلة الابتدائية وقد استقل الصومال واتّحد الإقليم الجنوبى مع الشمالى فى أوّل يوليو سنة ١٩٦٠ ومنذ ذلك الحين اتسع نطاق التعليم وفتحت المدارس الحكومية الكثيرة فى مراحل التعليم المختلفة ومراحل التعليم الحكومى تسير كالآتى:

(ا) المرحلة الابتدائية:

ومدّة الدراسة بها ٤ سنوات وتدرس بها المواد باللغة العربية مع وجود لغة أجنبية.

(ب) المرحلة الإعدادية:

ويلحق بها التلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية ومدّة الدراسة بها ٤ سنوات وتنقسم هذه المدارس إلى قسمين:

١ – **القسم الإنجليزى:** وتدرس فيه جميع المواد باللغة الإنجليزية عدا اللغة العربية التى تدرس كلغة إضافية.

٢ – **القسم الإيطالى:** وتدرس فيه جميع المواد باللغة الإيطالية عدا اللغة العربية التى تدرس كلغة إضافية.

وأهم مشكلات هذه المرحلة أن التلميذ ينتقل فجأةً من المدرسة الابتدائية والتدريس فيها باللغة العربية إلى المدارس الإعدادية والتدريس فيها بالإنجليزية أو الإيطالية.

(جـ) المرحلة الثانوية:

ويلحق بها الطالب الحاصل على الشهادة الإعدادية ومدتها ٤ سنوات ويحصل الطالب فى نهايتها على الشهادة الثانوية التى تمكّنه

من الالتحاق بالجامعة الصومالية وقد كانت تسمى «معهد صوماليا الجامعي» وهى كلّيتان للاقتصاد والحقوق، ويمكن للطالب بعد حصوله على الشهادة الإعدادية أن يكمل تعليمه فى كلية المعلمين بأفجوى التى تخرّج مدرّسين للمدارس الابتدائية، والتدريس فى هذه الكلية باللغة الإنجليزية ويوجد بها قسم لاستقبال الحاصلين على الشهادة الثانوية، وبعد تخريجهم منها يتم تعيينهم فى المدارس الإعدادية، كما توجد مدرسة للإدارة ويلاحظ أن جميع المدارس الحكومية فيها التعليم مشترك فى جميع المراحل بنين وبنات.

٣ - التعليم الوطنى

ونقصد به التعليم الذى يسير وفق مناهج مدارس جمهورية مصر العربية وتدرس فيه المواد المختلفة باللغة العربية، وسمّى بالتعليم الوطنى لأن مدارسه فى الأصل أنشأتها لجان قومية من الصوماليين الوطنيين المؤمنين بضرورة مشاركتهم مشاركة إيجابية فى إصلاح بناء التعليم والحفاظ على لغة القرآن الكريم، وأنشئت أوّل مدرسة فى مقديشيو عام ١٩٥٤ ثم أنشئت مدارس فى أنحاء أقاليم الصومال، وأنشأت الأحزاب والجمعيات مدارس أهلية على نظام المدارس الوطنية. وتساعد البعثة التعليمية بالكتب والمدرسين ويوجد فى مقديشيو وحدها من المدارس الوطنية المدارس الآتية:

١ - مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية:

ومبناها تمتلكه البعثة التعليمية لجمهورية مصر العربية بالصومال، وبها ١٧ فصلًا ومجموع تلاميذها ٩٢٥ تلميذًا وتلميذة وعدد المدّرسين فيها ٣٣ مدرسًا منهم مشرف وأمين معمل، وذلك فى خلال الستينات.

٢ - معهد المعلمين الوطنى بمقديشيو:

وقد أنشئ فى العام الدراسى ١٩٦٦/٦٥ والغرض من إنشائه إعداد مدّرسين للمدارس الابتدائية بالصومال يدرّسون فيها جميع المواد باللغة العربية وكان به ٦ فصول وعدد طلبته ٢٤٠ طالبًا وطالبة.

٣ - مدرسة محمد عبد الله حسن الإعدادية بمقديشيو:

وقد أنشئت عام ٦٩/٦٨ وأطلق عليها اسم الزعيم الصومالى البطل الشهيد محمد عبد الله حسن، وقد قامت البعثة التعليمية العربية ببنائها ضمن مبانى مجمع المؤتمر الإسلامى وبها ٩ فصول وعدد تلاميذها ٣٩٠ تلميذًا وتلميذة.

٤ - مدرسة المجمع الإسلامى الإعدادية:

وتشرف عليها البعثة التعليمية فنيًا وإداريًا فقط حيث إنها ملك

لصاحب المحفل المذكور وبها ٣ فصول إعدادى وعدد تلاميذها ١٣١ ويعمل بها خمسة مدرسين.

وفضلاً عن ذلك يوجد عدد ٩ مدارس ابتدائية وطنية فى مقديشيو وتوجد مدارس وطنية فى المدن الآتية:

هرجسا بالإقليم الشمالى: جلكتاعيو، بلدوين، بيدوا، ميركا، براوة، جماعة كسبايو، ومدرسة كسبايو ابتدائية وإعدادية وثانوية وهى أكبر المدارس الوطنية فى الصومال بعد مدرسة جمال عبدالناصر الثانوية بمقديشيو وقد أطلق عليها أخيرًا اسم جمال عبدالناصر إحياءً لذكراه.

وبعد ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٩ أممت هذه المدارس كلها وأصبح التعليم فيها كلها وطنيًّا ما عدا المعاهد الدينية فبقيت تدرس طبقًا لمناهج الأزهر الشريف باعتبار أن الدراسة بها دراسة دينية والدين عام لجميع الأمم والشعوب.

٤ – التعليم الأجنبى

كان يوجد بالصومال كثير من المدارس الأجنبية التابعة لجاليات مختلفة وأهمّها ما يأتى:

١ - فى مقديشيو:

توجد المدرسة الثانوية الروسية وقد أنشأتها الجالية الروسية وتعرف باسم مدرسة نادر الثانوية والدراسة فيها باللغة الروسية وتبعث بخريجيها للحصول على الشهادة الجامعية من روسيا، وهى مدرسة كبيرة وعليها إقبال كبير من الصوماليين، كما توجد المدرسة الإيطالية وتشمل الحضانة والروضة والابتدائى والإعدادى والثانوى، والطلبة فيها خليط من الإيطاليين والصوماليين وبعض أبناء رجال السلك السياسى فى مقديشيو من الأجانب، وخريجو هذه المدرسة يعينون فى الوزارة والمصالح الحكومية بالصومال الجنوبى، لأن اللغة الإيطالية هى لغة دواوين المصالح الحكومية المختلفة.

٢ - فى بيدوا:

يوجد بها كثير من أبناء الجاليات المختلفة، الجالية الإيطالية ولها مدرسة ابتدائية، والجالية الكندية وتقوم بتعليم اللغة الإنجليزية مساءً لتقوية التلاميذ فيها، والجالية الروسية وتقوم بتعليم اللغة الروسية مساءً لمن يرغب فى تعلمها، ونظام الدراسة بها داخلى.

٣ - فى براوه:

توجد مدرسة ابتدائية ملحقة بالكنيسة الإيطالية ونظام الدراسة

بها داخلى، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة يلحق التلميذ بمدرسة إعدادية فى بلد أخرى ثم ينتهى به الأمر إلى التعليم العالى فى إيطاليا.

٤ - فى بلدوين:

ويوجد بها مدرسة إيطالية ابتدائية يديرها المبشّرون كما يوجد بها فصول اللغة الإنجليزية ويشرف على هذه الفصول بعض الأجانب العاملين فى مستشفى الأمريكان.

٥ - فى كسمايو وجماعة:

يوجد بكسمايو مدرسة إيطالية عدد فصولها ٥ فصول وعدد تلاميذها ١٥٧ تلميذًا، ويوجد بمدينة جماعة مدرسة أمريكية تضم ٧٥ طالبًا وبالمدرسة قسم داخلى يضم ٢٨ طالبًا ويوجد بالمدرسة قسم مسائى يضم حوالى ٤٨ طالبًا وطالبة والدراسة بهذا القسم ٤ أيام فى الأسبوع، كما تقوم المعلمات الأمريكيات وزوجات الأطباء ومدرس المدرسة بتعليم النسوة أشغال الإبرة والتطريز وشئون المنزل.

وهذه المنطقة تعتبر من المناطق التى ينشط فيها المبشرون، وبعد ثورة أكتوبر أممت هذه المدارس وأصبحت كلها وطنية، ويتبين منها فكرة التبشير التى يريد المبشرون نشرها عن طريق المدارس الخاصة. والتى توجب على المشتغلين بالدعوة الإسلامية اليقظة لمثل هذه الأساليب، والتى يدخلون بها للشعوب عن طريق نشر التعليم..

الطرق الصوفية كما شاهدتها فى الصومال

١ - أثر الطرق الصوفية:

حينما يذكر انتشار الإسلام فى هذه المنطقة من أفريقيا تذكر الطرق الصوفية؛ فلقد أدّت ولا تزال تؤدّى حتى الآن - دورًا رائعًا فى نشر الإسلام وفى الحفاظ على قيمه ومبادئه وفى التصدّى للمبشّرين وللمستعمرين. إنهم رهبان الليل وفرسان النهار، فهم يتجمّعون فى حلقات الذكر يرفعون به أصواتهم ويجأرون إلى الله بالدعوات وينشدون القصائد فى مدح رسول الله حتى إذا ما جدَّ الجدُّ ونادى منادى سارعوا بدافع عقيدتهم إلى حمل أسلحتهم وتقدّموا صفوف المقاتلين واعتبروا ذلك جهادًا فى سبيل الله. ومن شدّة تمسّكهم بقيم دينهم تجدهم يسمّون الأجانب غير المسلمين نصارى، أمّا كلمة يهودى عندهم فهى من أخسّ الكلمات وأبشعها لديهم ولا يحبّون سماعها، وإذا ما أراد واحد من أهل البلاد أن يسبّ آخر بلفظ بالغ الإيذاء قال له يا يهودى، وحينئذ تراق الدماء دفاعًا عن الكرامة، ومما يذكر بالفخر موقف رجال الطرق الصوفية وعلماء الدين فى أيام استقلال عام ١٩٦٠ حينما وصل إلى مسامعهم أن وفدًا

من إسرائيل سيحضر إلى الصومال للتهنئة بعيد الاستقلال وقامت المظاهرات فى المساجد وتعاهدوا على القتال حتى الموت ولا يدخل إسرائيلى أرض هذه البلاد المؤمنة.

وقد كان. ولم يحضر إسرائيلى واحد، وبفضل جهود العلماء والطرق الصوفية والوعى الإسلامى العميق تعتبر الصومال من الدول الأفريقية القليلة التى لم تعترف بإسرائيل، ولم تتعامل معها مباشرة ولا بالواسطة ولا يوجد بها يهودىّ واحد، ولقد كان لرجال الطرق الصوفية وللعلماء مواقف خالدة أيام العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ فقد اعتبروا أن العدوان واقع عليهم وكوّنوا لجانًا لجمع التبرعات وعاشوا بقلوبهم مع مصر، وكذلك كان موقفهم فى عدوان يونيو ١٩٦٧. وللصوفيين طرائف يذكرونها إذا أرادوا تنفير الجماهير من فكرة معيّنة فمثلاً يسمّون اللاتينية: اللادينية، ويسمّون المبشّرين: المغْوين، ويسمّون الاستعمار بأنه استخراب وهكذا.

٢ - أشهر الطرق الصوفية:

الصوماليون يتمسّكون بعقيدتهم الإسلامية، ويقدّسون كتاب الله ولغة القرآن، وينشئون أبناءهم على معرفة العلوم القرآنية وشريعة الإسلام، وقد عبّروا عن تعاونهم الأخوىّ بطرق شتّى، حيث يعتبر التعاون الأخوى فى الإسلام من العناصر الأساسية فى هذه الدعوة، هذا التعاون الأخوىّ هو المحور الأساسى فى عقيدة المتصوّفين التى

تنتشر فى كافة أنحاء الوطن الصومالى الكبير، والطرق الدينية من أهم الظواهر الإسلامية فى الصومال، وهدفها هو التقدّم المادّى والمعنوى ومساعدة الضعفاء ونشر الدين والعلم.

ومن أهم الطرق الصوفية ما يأتى:

أولاً: القادرية: يقول صاحب كتاب «مسالك الأبصار» الذى جمع حقائق عن طريقة المتصوّفة فى شرق أفريقيا «١٣٣٢ - ١٣٧٨ م» أن القادرية هى أولى طرق المتصوّفة جاء بها إلى البلاد مهاجرون من اليمن وحضرموت - وانتشرت فى مصوّع وزيلع ومقديشيو حتى وطدت أقدامها فى المدن الساحلية عامة، والذى جاء بالمتصوّفة إلى هرر رجل من الأشراف يدعى عبد الله العيدروس الذى مات فى عدن سنة ١٥٠٣ م. وأدخل هذه الطريقة فى منطقة جوبا العليا الشيخ أديس محمد محيى الدين القادرى البراوى وأقام مسجدًا فى بيولى عام ١٩٠٩ وقد جمع حوله مئات الألوف من الصوماليين الذين وجدوا فيه الإيمان الصادق، والإخلاص والصلاح والتقوى، وتوفى ودفن فى بيولى بجمهورية الصومال ويقام فى كل عام احتفال كبير بمناسبة ذكراه يقام حول ضريحه ويستمرّ ثلاثة أيام، ويشهد هذا الاحتفال مندوب من الحكومة الصومالية. ومع أن بيولى تقع فى وسط البادية وبعيدة عن العاصمة، وفى واد غير ذى زرع، والطريق إليها طويل وشاقّ إلاّ أنك ترى فى أيام الزيارة الوفود

تقدم إلى هذا المكان من العاصمة ومن جميع جهات الصومال والجميع ينشدون الأناشيد الدينية، وقد قمت فى عام ١٩٦٢ بزيارة هذا المكان أيام الاحتفالات مع بعض الأصدقاء الصوماليين ومن بينهم بعض كبار المسئولين فشاهدت أمرًا عجبًا: عشرات الألوف يتجمّعون فى مكان واحد يقضون نهارهم فى قراءة القرآن وإنشاد الأناشيد، وفى الليل تقام حلقات الأذكار يذكر فيها اسم الله وصفاته والصلاة على رسول الله وذكر مناقب الشيخ أديس ويخيل إليك أن الكون كله يرتجّ من أصوات الذكر، وأن صدى الأصوات تتجاوب به السموات ورأيت حلقات قراءة القرآن عينًا، وصورتها كالآتى:

تعقد حلقة يجلس فيها أكثر من مائتين من حفاظ القرآن وأكثرهم من أبناء البادية الذين لم يدخلوا مدرسة ولم يجلسوا إلى معلّم سوى محفّظ القرآن، وتبدأ التلاوة بواحد من الحلقة يقرأ الآية الأولى من سورة البقرة، والذى يليه يقرأ الآية الثانية والذى يليه يقرأ الآية الثالثة وهكذا، كل واحد يقرأ الآية التى يصل دوره عليها ويستمرون هكذا حتى يختموا القرآن حفظًا، ولقد دخلت إحدى هذه الحلقات وشاركتهم هذه القراءة، ولم ألاحظ لحنًا واحدًا من أىّ واحد منهم، بل إن القراءة مجوّدة تجويدًا كاملًا، ولمّا قرب الدور منى أسرّ صديقى الذى رافقنى فى هذه الرحلة فى أذنى وقال مداعبًا: تنبّه يا شيخ، خشية أن تنسى أو تخطئ فى القراءة، وأنتم يا مشايخ الأزهر مثلنا الأعلى فى حفظ القرآن وتجويده. وعشنا معهم ثلاثة أيام

فى بساطة وأخوّة، نأكل لحم الإبل، ونشرب اللبن ولا شيء سوى ذلك، ولا ننام من الليل إلا قليلاً، وفى آخر يوم يقام احتفال رسمى يتحدّث فيه مندوب الحكومة، وأحد مشايخ الطرق الصوفية، كما تحدثت فيه داعيًا إلى الحفاظ على كتاب الله فهو الرباط الذى يربط بين المسلمين جميعًا فى مشارق الأرض ومغاربها، وعدنا إلى العاصمة، وسجّلت هذه الزيارة فى سلسلة مقالات فى الجريدة الرسمية عندهم وتسمى «بريد الصومال» وجعلت عنوانها الشعار الذى كانت الوفود تنادى به وهم متجهون إلى الزيارة «هيا المدد يا نور الله» ولقد علمت بعد ذلك أن الأعداد التى نشرت فيها هذه المقالات قد ملأت سائر جهات الصومال واحتفظوا بها لأنها سجّلت ذكرى عزيزة عليهم وهى ذكرى زيارة الشيخ أديس فى بيولى، وبعد أن عدت تجمّع شيوخ الطريقة القادرية وأعلنوا فى احتفال كبير اختيارى «خليفة خلفاء الطريقة القادرية» وسلّمونى فى هذا الحفل علم الطريقة الأخضر، وإجازة هذا الاختيار فى سلسلة طويلة مكتوبة بخطّ عربى مزخرف.

وقد أخذ عن الشيخ أديس الطريقة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاش الشهير بالشيخ صوفى المتوفى سنة ١٩١٩م. وقد أسّس زاوية فى مقديشيو حيث يوجد ضريحه ويقام فى ذكراه كل عام احتفال كبير يحضره مندوب عن الحكومة وكان الشيخ صوفى يسكن فى حياته فى حى حمراوين بمقديشيو وكان عالمًا جليلاً يدرّس لتلاميذه

العلوم الإسلامية والنحو والفقه والتوحيد، وكان مواظبًا على عبادة ربه، وقد زهد فى الدنيا ابتغاء مرضاة الله، وكان يعيش عيشةً بسيطة لا متاع فيها، وظلّ فى زهده، خمسة عشر عاما إلى أن لقى ربه، وكان دائمًا يقول لأتباعه: إن الدنيا ليست دار قرار، وعلى الإنسان أن يقدّم بين يديه عملاً صالحًا ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، وكان من صفاته أنه لا يخرج من بيته إلاّ يوم الجمعة لتأدية الفريضة، وقد لقب بالشيخ صوفى لأنه كان يلبس لباس العلماء والأولياء أيام حياته، وكان شافعيّ المذهب، وقد صرف كلّ ما يملكه فى الدنيا فى سبيل مواساة الفقراء والمساكين ومعاونة الطلّاب الذين لا يجدون وسيلة للعيش، وفى صلة الأقارب والأرحام، وقد أدّى فريضة الحج وكان متحدثًا لبقًا باللسان العربى الفصيح واللغة السواحيلية واللغة الصومالية، وكان ملمًا بتاريخ الإسلام وأحوال المدن الإسلامية فى زمانه، وكان يملك النفوس بفطانته وإرشاده ويستولى على قلوب مريديه لبلاغته وإخلاصه فى دعوته، ومن تلاميذ الشيخ صوفى الشيخ محيى الدين بن معلم مكرم وغيره من المشايخ وقد انتشرت هذه الطريقة فى الإقليم الشمالى وبخاصة مديرية مجريتنيا على يد الشيخ عبد الله بن يوسف القلنقولى.

ثانيًا: الطريقة الأحمدية ويقال لها الإدريسية: أسّسها «سيد أحمد بن إدريس الفاسى» المتوفى فى بلاد عسير بالسعودية سنة

١٨٣٧ وله مؤلّف عنوانه: «كنوز الجواهر النورانية فى قواعد الطريقة الشاذلية»...

وقد أدخل هذه الطريقة إلى شرق أفريقيا الشيخ «على قية درجيا» الصومالى وقد جعل وقته كله لنشرها فى الصومال. وقد ذاعت هذه الطريقة؛ لما كان يتّصف به هذا الشيخ من صلاح وتقوى وزهد وإخلاص والتفّ حوله عدد كبير من المريدين وبخاصة من سكان وادى شبيللى الأوسط وتوفى فى مدينة مركة سنة ١٩١٧ ودفن فيها، وأتباع هذه الطريقة يتركّزون فى مقديشيو وبورهكبة.

ثالثًا: الطريقة الصالحية: وتنسب إلى محمد بن صالح – وهو ابن أخ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ «أحمد بن إدريس» مؤسّس الطريقة الأحمدية، وقد توفى محمد بن صالح عام ١٩١٩ وقام بنشر طريقته الشيخ محمد جوليد أحد تلاميذه وكان الشيخ محمد بن صالح قد عيّنه خليفة على الطريقة فى الصومال، وقد أسّس الشيخ جوليد زاويةً ومركز استيطان للطريقة فى منطقة تقع ما بين جوهر وبلعد على نهر شبيللى ومن أشهر مشايخ هذه الطريقة الشيخ «على نيروبى» الذى أسّس مركزًا لها فى جنوب بلدة برديرة، وأصحاب الطريقة الصالحية فى الإقليم الشمالى من الجمهورية الصومالية لهم سياسة وحكمة وتعصّب شديد لعقيدتهم، ومن شيوخها الكبار الشيخ عثمان عمر، وله مكانة عظمى فى نفوس مريديه، والشيخ الحاج

محمود عثمان، ومن أبرز أتباع هذه الطريقة رائد القومية الصومالية «محمد عبد الله حسن» مهدى الصومال الذى أعلن الثورة فى وجه الاستعمار فى الربع الأوّل من القرن العشرين، والسيد محمد يوسف الذى ثار ضدّ الحبشة ودخل معها معارك ضارية عام ١٩١٧ م وتنتشر الطريقة الصالحية بين سكان المنطقة الواقعة بين مديرية مجريتنيا وبين الصومال الشمالى كما تنتشر فى الأوجادين، وفى بعض المناطق جنوب الصومال.

رابعًا: الطريقة الرفاعية: وأتباعها غير كثيرين فى الصومال، وأغلبهم من العرب المستوطنين، ومن أشهر شيوخها الشريف العيدروس الناضرى العلوى من العرب القدامى فى الإقليم الجنوبى، وهو أوّل من أقام احتفالاً كبيرًا بذكرى المولد النبوى الشريف.

خامسًا: الدندرية: وتنسب هذه الطريقة إلى والد الشيخ أبى العباس الدندرى من أهل دندرة بصعيد مصر وله أتباع فى الإقليم الشمالى ما بين بربرة وأدوين وشيخ وهرجية، وإذا ما ذهب إليهم نائب الشيخ استقبل استقبالاً لا مثيل له.

سادسًا: الميرغنية: وتسمّى بالختمية، وقد أدخلها إلى الصومال الشيخ رمضان المصوّعى ومن بعده جاء الشيخ نور حسين المصوّعى.

هذه الطرق الست تكلّمنا عنها سريعًا لنتبيّن أثرها فى الحفاظ على العقيدة الدينية وعلى كتاب الله وسنّة رسوله، وفى الارتباط

الوثيق بين هذا الشعب المسلم المتديّن وسائر الشعوب الإسلامية وبخاصّة الشعوب العربية، ويلاحظ أن جميع أتباع هذه الطرق ملتزمون كل الالتزام بالتمسّك بأهداب الدين وبالحفاظ على شعائره فلا تجد واحدًا منهم يفرّط فى صلاة أو صوم أو زكاة، ومن استطاع الحجّ ينهض لأداء هذه الفريضة مهما تكن المشقّات، وكلٌ منهم يحفظ قدرًا يسيرًا أو كثيرًا من القرآن، ويعرف أحكام الفقه الشافعى كعالم من علماء الأزهر، ويلاحظ أن كل شيخ من مشايخ هذه الطرق إذا نزل مكانًا من الأماكن كان أوّلَ ما يفعله هو إقامة المسجد الذى يجمع المسلمين جميعًا، وفى ظلاله يؤدّون الصلوات ويقيمون حلقات الذكر ويتلون الأدعية والأوردة الخاصة بكل طريقة منها، ويسمعون دروس العلم من العلماء، وهذه الطرق الكثيرة بالأعداد الضخمة التى تتبعها تدلّ على تغلغل التصوّف فى نفوس الصوماليين وعلى حسن اعتقادهم بالله والصالحين من أولياء الله والتوصّل بهم إلى الله.

كما أن للطرق الصوفية أثرًا كبيرا فى محاربة الرذائل ومقاومة التبشير والاستعمار؛ لذا فإن دراستها تعتبر وثيقة الصلة بموضوع بحثنا وهو الدعوة إلى الله فى منطقة شرق أفريقيا..

٣ - أثر الطرق الصوفية فى مقاومة التبشير ومحاربة الاستعمار:

التبشير يدخل إلى مثل هذه البلاد بأسلوب مقنّع، فهو يذهب مختفيًا وراء مستوصف يقام لعلاج المرضى، أو مدرسة للتعليم،

أو مزرعة يعمل فيها فلاحون أو مصنع من المصانع، ومن هذه الطرق ينشر دعوته برفق ولين، وكثيرًا ما يستخدم وسائل الإغراء المادّية، ولقد تيقّظت الطرق الصوفية لخطر هؤلاء المبشّرين وأسموهم المغوين أى الذين يغوون الناس وليسوا مبشرين لهم، وقام شيوخهم يناهضون الحركة التبشيرية المسيحية ويحذّرون المسلمين من خطرها ويدعون إلى الجهاد المقدّس باسم الإسلام وينشرون تعاليم هذا الدين الحنيف ولهذا أقاموا المدارس والكتاتيب والمساجد لتحفيظ القرآن وتفسير آياته، وقد حبّبوا إلى مريديهم التعاون والاتحاد والتمسّك بمكارم الأخلاق كما حبّبوا إليهم البذل والتضحية بالنفس والمال فى سبيل الدين والعقيدة.

وكانت أوامرهم واجبة التنفيذ لدى مريديهم ومن أصدق الأمثلة على ذلك سيرة «الإمام أحمد جرى» المجاهد الصومالى حيث كانت حياته صورةً صادقة للمتصوّف الذى قاد حربًا ضارية للقضاء على الحرب الصليبية التى شنّتها الحبشة والبرتغال ضد الصومال الإسلامية فى القرن السادس عشر، وكذلك أمامنا سيرة البطل الثائر «السيد محمد عبد الله حسن» ومواقفه فى مناهضة التبشير المسيحى والاستعمار ويسجّل التاريخ مواقف خالدة لهذا الشعب المؤمن وأثر التصوف فى الحفاظ على عقيدته، ومن أمثلة ذلك ما حدث عام١٨٩٧م. حينما نزلت إلى البلاد جماعة من المبشّرين، وأقاموا مدرسة فى بربرة تحت إشراف مبشّر مسيحى وأخرى فى قرية ديمولى

وعليها مبشّر مسيحى كذلك، وقد حاول هذان المبشران تحت حماية الاستعمار البريطانى أن يحوّلا بعض الصوماليين عن الإسلام عن طريقة إعطاء الهدايا المالية والملابس والطعام والعلاج.

واستطاعوا أن يجمعوا خمسين طفلاً من الأيتام واللقطاء وحملوهم على اعتناق المسيحية، وأدرك الصوفيون هذا الخطر من أعمال المبشرين فأعلنوا الجهاد المقدّس ضدّ جميع المبشرين ومن معهم من رجال الحامية البريطانية.

وقد تمكن الصوماليون من هدم مدرسة مبشر ديمولى الذى هرب إلى زميله فى مدرسة بربرة، حيث أطلق مبشّر مدرسة بربرة رصاصةً على مؤذن المسجد القريب من منزله بحجّة أنه يؤذن فى الفجر ويزعجه من نومه، وإن كانت الرصاصة لم تصب المؤذّن بالقتل إلّا أنها كانت الشرارة الأولى فى الكفاح الشعبى المقدّس بقيادة محمد عبد الله حسن، مما اضطر الاستعمار إلى أن يهرّب المبشرين إلى عدن تحت حراسة السفن البريطانية بل إن الحكومة البريطانية أصدرت مذكرة إلى شعب الصومال أذاعتها السلطات الاستعمارية فى هرجيسيا وهى تحتوى على ضرورة خروج المبشرين من أى جنس بصفة عامة من الصومال وعدم السماح لهم بعد ذلك بدخول البلاد وعدم السماح ببناء كنيسة أو أديرة فى البلاد كلها وعدم فتح محلّات للخمور أو السماح بتعاطيها، وقد استمر هذا التعهّد سائر المفعول حتى عام ١٩٥٠ حينما أنشئت كنيسة صغيرة للضباط، والجنود البريطانيين فى

داخل المعسكر، كما فتحت خمّارة صغيرة فى هرجيسيا للأجانب.

وكان أهل الطرق الصوفية فى الجنوب متيقّظين لخطر التبشير كذلك ولم يعرف الإقليم الجنوبى المبشرين إلاّ حينما تعرضت البلاد للغزو الإيطالى، وكان المبشرون يجدون الأذى الشديد من الصوفيين والشعب الصومالى المسلم، وفى خلال فترة الوصاية الإيطالية على الصومال الجنوبى حرّضت الإدارة الإيطالية بعض الإرساليات المسيحية على إيجاد مناطق للتبشير فى الجنوب وإنشاء مدارس وملاجئ للأيتام واللقطاء إلاّ أن الصوفيين كانوا لهذه الحركات بالمرصاد، وقد ظهر صراع جديد بين المبشرين وبين الشعب الصومالى حينما ظهر التبشير المسيحى على يد المبشرين الأمريكيين الوافد مع النقطة الرابعة وشركات البحث عن البترول والخبراء ومكتب الدعاية الأمريكية وكانت البعثة الأولى برئاسة المبشر الأمريكى القسيس «ويلبرت لند» البروتستنتى، والبعثة الثانية برئاسة الأمريكى «مورد بكرويد» وبدأ نشاطهما فى مقديشيو عن طريق تدريس اللغة الإنجليزية ثم تشويه معتقدات الطلاب وأرادا أن يمدًا نشاطهما خارج العاصمة فى جوهر ومهداى إلاّ أن الشعب الصومالى المسلم بقيادة زعمائه العلماء ورجال الطرق الصوفية قاوموا هذه الفكرة، ولم يمكنوهم من نشر نشاطهم فى تلك البقاع، بل قد حدث اعتداء من بعض المتحمّسين الصوماليين على بعض هؤلاء المبشرين. وقد حاول التبشير الأمريكى أن يمدّ نشاطه فى داخل

الصومال وخصوصًا فى مناطق البحث عن البترول مما يدل على الصلة القوية بين التبشير وشركات البترول، وقاد الصوفيون معارك ضارية ضد الاستعمار الإيطالى فى الجنوب والبريطانى فى الشمال، باعتبارهم أعداء لهم فى الدين فضلاً عن معاونتهم للمبشرين أعداء الإسلام وللصوماليين أثر كبير فى الحفاظ على اللغة العربية باعتبارها لغة الإسلام ولغة القرآن، ولشيوخهم قصائد باللغة العربية يحفظها مريدوهم حفظًا جيدًا، ومثال ذلك قصيدة الشيخ أويس وعنوانها:

حادية الأنام إلى قبر النبى عليه الصلاة والسلام. ويقول فى مطلعها:

إذا ما شئت تيسير المراد فصلّ على رسولك خير هادى
وقل مستنجدًا فى كل ناد صلاة الله ما نادى المنادى
على المختار مولانا الحماد

حبيب الله أفضل من ترقى وقبره فاق كرسيًا ومرقى
وكل مواضع الخيرات صدقا يفوح المسك والريحان حقا
لقبر محمد نور الفؤاد .

ويختتم قصيدته بقوله:

ورحمتنا ونعمتنا وبشرى وعصمتنا بذى الدنيا وأخرى
وتسليم عليه يفكّ عسرا وحضّ الآل والأصحاب طرّا
مع الأتباع ما نادى المنادى

ومن شعراء الصومال العظام الشيخ عبد الرحمن الزيلعى، وله قصائد صوفية رائعة منها «سراج العقول والسرائر» فى التوسل بالشيخ عبد القادر ويقول فى مطلعها:

ياغوث أعظم قم لنا غوثا مدد ... يابان أشهب هب لنا خيرًا أبد
يا محيى الدين أحينا يا معتمد ... يا سيدى كن لى ظهيرًا بالمدد
يا سيد السادات عبد القادر .

وللبطل المجاهد محمد عبد الله حسن قصائد حماسية تعدّ من الأدب البليغ كتبها باللغة الصومالية وبحروف عربية، وهذه بعض أبيات له مع معناها بالعربية:

النص الصومالى	معناه بالعربية
١ - أفيكيل كفرك أرى ايلى نىء	لقد جذبتنى رائحة المستعمرين القذرة.
٢ - أخبار فى طريق كومى أولح أفادى.	إلى أفيكيل وما فعلوه بالمجاهدين الأحرار.
٣ - ألوف أبو ألوف كوى اخوتى بىء.	بالله ذبحوا ألوفًا وألوفًا من الصبية والبنات ومن الإبل والأغنام.
٤ - أى أدون كيك صفى أرى أيوء جيليل.	كان هذا .وا أسفاه بمساعدة بعض الخونة.

٥ - اختبارك نمنكا كوك أجراد بحاجة.	الـذين يساعـدون المعتدين باختيارهم وليسوا مكرهين على ذلك.
٦ - أن لجوء اكراهين كلجعل جفر ابرارية.	لابدّ من قتل الخونة مهما نطقوا بالشهادتين.
٧ - الشهادة من جرن كداى أن سح من سوء.	لأن الإسلام برىء من الخونة العملاء.

المساجد كما شاهدتها فى الصومال

واكب إقامة المساجد فى الصومال دخول الإسلام إليه، فمع أن الإسلام يجعل الأرض كلها صالحة لأداء الصلاة فيها حسبما قال رسول الله: «جعلت لى الأرض مسجدًا وتربتها طهورًا» إلاّ أن المسلمين يقيمون المساجد لا لكى تكون أماكن للعبادة فحسب، ولكن لتكون مواطن تجمّع وأماكن تعليم وتثقيف فضلًا عن أن صلاة الجمعة لا تصحّ إلاّ فى المسجد.

والصوماليون يميلون دائمًا إلى أداء الفرائض جماعةً فى المساجد وبخاصة صلاة المغرب، وذلك بالإضافة إلى فريضة الجمعة، وتسود البساطة المتناهية هذه الشعائر، وغالبًا ما يتكوّن المسجد من فناء مكشوف يؤدّى إلى إيوان مسقوف به أعمدة مربّعة الشكل أو مستديرة تحمل عقودًا مدبّبة، وقد تحمل السقف مباشرة وهو الأغلب، وأجزاء المسجد جميعها بما فيها الأعمدة تبنى من الطوب والحجارة وتُكسَى بطلاء الجير الأبيض، وقد يكون للمسجد مئذنة أو يكون له برج أو قبّة مستطيلة والقليل منها طراز المآذن الطويلة

الرفيعة من نهايتها وهى الشائعة فى مصر. والجاليات الإسلامية تبنى مساجد لها على الطراز المعروف لديها مثل الجالية الباكستانية والهندية، وقد كثرت المساجد فى المدن والقرى ولا يمكن أن تجد قريةً إلّا وفيها مسجد، وقد بلغ عدد المساجد بالعاصمة «مقديشيو» حوالى ١٥٠ مسجدًا ما عدا الزوايا، وإذا أقيم مسجد جديد تؤدّى فيه سائر الأوقات ما عدا صلاة الجمعة، فلا يؤذّن بها إلّا بعد استصدار قرار من قاضى المدينة الذى يعاين المسجد فإذا ما وجد مسجدًا تقام فيه الجمعة، ويقع قريبًا من هذا المسجد بحيث يسع المصلين من أهل الحى، فلا يأذن بإقامة شعائر الجمعة فى هذا المسجد الجديد، وذلك لأنهم جميعًا شافعيّون ولا تتعدّد الجمعة عند الشافعية بلا حاجة فالجمعة لمن سبق، هذا فضلًا عمّا فى تجميع أكبر عدد من المصلين فى مسجد واحد للجمعة من إظهار لروح الجماعة ومن وحدة التوجيه الدينى لأهل الجهة، وفضلًا عن قلّة الخطباء الذين يمكن أن يزاولوا الخطبة فى جميع المساجد، وهم يسمّون المسجد الذى لا تقام فيه الجمعة بالمسجد، فإن أقيمت فيه جمعة يسمّى بالجامع لقد وجدت المساجد فى الصومال قبلٍ أن يعرفوا المدارس، وعلى هذا فالمساجد كانت مكانًا للتعليم، تعلّم العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، وتعلّم العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ولا تزال حتى الآن المساجد تضم بين جنباتها طلّابًا نذروا أنفسهم لتعلّم العلم.

ويسمُّوْن طلاب المساجد، وأكثر المثقفين فى الصومال قد درسوا فى هذه المساجد، ولذلك تجد لديهم جميعًا قدرًا كبيرًا من معرفة أحكام الفقه والتفسير والحديث، وطلاب المساجد موضع احترام الناس وتقديرهم وهم يتبرّكون بهم، ويتنافسون فى الإنفاق عليهم، ومن الجميل الرائع أن ترى كثيرًا من المساجد تعجّ بهؤلاء الطلاب من مختلف الأعمار ومعهم كتبهم الدينية والعربية المطبوعة فى مصر، ومعهم مصاحف القرآن حيث يقضون نهارهم كله، فى حفظ القرآن ودراسة هذه الكتب، وهؤلاء الطلاب قرءوا القرآن قبل ذلك فى الدوكسى (أى الكتّاب) وهى منتشرة فى بوادى الصومال وفى المدن والقرى.

هذه المساجد بطلّابها حافظت على التراث الدينى وعلى اللغة العربية فهى تخرِّج أجيالاً متتابعة، وكلّ جيل يتعلم ينتقل إلى مسجد من المساجد يعلّم فيه الطلّاب القادمين إلى المسجد، وهكذا سلسلة متّصلة الحلقات، تعلم وتعلّم وهم يعتبرون أن دراسة هذه الكتب العربية بجانب أنها ثقافة ومعرفة هى قربى إلى الله؛ لأنها توصّل إلى فهم كتاب الله وسنّة رسوله الكريم...

إن الصوماليين جميعًا موحِّدون بحكم عقيدتهم وشريعتهم، فمن نعم الله عليهم أنهم مسلمون دينًا، شافعيون مذهبًا أشعريون عقيدة، صوفيون طريقة؛ ولهذا ترى الواحد منهم حينما يكتب اسمه على كتاب أو على وثيقة يقول:

فلان الشافعى مذهبًا الأشعرى عقيدةً القادرى طريقة مثلاً.
والشافعية عندهم خطبة الجمعة لا تصحّ إلاّ باللغة العربية ولهذا ترى فى يوم الجمعة جميع منابر الصومال تنطلق منها الخطبة باللغة العربية الفصحى، وغالبًا ما يقرأ الخطيب من ديوان قديم مطبوع، والجمهور يفهم ما يسمع، وإذا ورد فى الخطبة اسم رسول الله ارتجّ المسجد بالصلاة والسلام عليه، وإذا تحدّث الخطيب عن نماذج مما تعرّض له الرسول من إيذاء المشركين أو تعرّض له أصحابه ترى أعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وهم يذهبون إلى المسجد فى ثياب بيضاء نظيفة ولا يتخطّون الرقاب بل يجلس كلٌّ فى أوّل مكان يجده خاليًا، مهما تكن مكانته الاجتماعية، ولقد شاهدت بنفسي رئيس الجمهورية وهو يحضر إلى المسجد لصلاة الجمعة ولا يجد مكانا إلاّ فى مؤخرة الصفوف فيجلس كما يجلس سائر الناس، وبعد الانتهاء من الصلاة يتّجه إلى خارج المسجد للخروج فيسلّم عليه المصلّون الذين يمرّ بهم وهو واقف وهم جالسون كما يسلّمون على أى مواطن.

ولقد كان لخطبة الجمعة التى هى بالعربية أكبر الأثر فى الحفاظ على اللغة العربية، ولطلّاب المساجد أثرهم الكبير فى الحفاظ على تعاليم الإسلام ونشره فى سائر جهات الصومال، وتفهّم الناس أحكامه وقواعده وآدابه، ومن أهمّ الدلائل على تعمّق الدين فى قلوب الصوماليين وعلى مدى تمسّكهم بالشريعة الإسلامية ما تحقّق

عمليًا كصدى لآمال الجماهير فى دستور الجمهورية الصومالية حيث ورد فى البند الأوّل من المادة ١١ منه «الإسلام دين الدولة» وفى المادة الخمسين نصّ على أن «الفقه الإسلامى مصدر أساسىّ لقوانين الدولة» وقد طبّق هذا النصّ لفظًا وروحًا، فلا تجد قانونًا يصدر هناك إلّا إذا أبدى الفقهاء رأيهم فى مدى ملاءمته لمبادئ الشريعة الإسلامية، وما حدث أخيرًا من الاعتداء على بعض العلماء فى عهد الثورة الحالية كان بسبب سوء فهم بين قيادة الثورة وبعض العلماء الذين احتجّوا على مشروع للميراث كان المسئولون يفكرون فيه وهو يجعل نصيب المرأة مساويًا لنصيب الرجل فى الميراث، وهذا بخلاف ما جاء فى القرآن الكريم، وقد تصدّى العلماء بعنف لهذا الاتجاه، واعتبروا أن الشيوعية لها أثر فى هذا التفكير فقاومتهم الثورة كذلك بعنف، وحوكم بعضهم ونفّذ فيه الحكم ولكن لم ينفّذ هذا الرأى فى الميراث، وسارت الثورة على منهج الإسلام تمامًا وبخاصة بعد أن أبعد عن الدولة المستشارون الروس، وبالتالى انزاح عن البلاد كل ما يتصل بثقافتهم ومذاهبهم الهدّامة.

وفى المساجد تعبأ الجماهير ضدّ أساليب الاستعمار وموجات التبشير، وكم من مظاهرات خرجت من المساجد عقب صلاة الجمعة، احتجاجًا على نشاط مبشر من المبشرين، وأذكر أنه فى عام ١٩٦٠ وهو عام استقلال الصومال أشيع أن وفدًا من إسرائيل سيحضر إلى مقديشيو ضمن الوفود التى ستحضر للتهنئة وانتشر

الخبر فى سائر جهات الصومال انتشار النار فى الهشيم، وجاء يوم الجمعة وتحدّث علماؤهم مبيّنين خطورة هذا الموقف وأعلنوا مقاومتهم لحضور أىّ يهودى إلى بلادهم، وخرجوا فى مظاهرات عارمة وعسكروا حول دار البرلمان وباتوا ليلتهم فى الميدان حتى أذيع بيان رسمى ينفى دعوة إسرائيل للحضور ولم يحضر يهودى إلى البلاد، والصومال كسائر الدول العربية لا تعترف ولن تعترف بإسرائيل وقد حدث هذا فعلاً، فالصومال من أشد الدول عداءً لإسرائيل - وتعتبرها قد سلبت أرض العرب وممتلكاتهم وأدانت هذا العدوان، وحينما يشنّ الاستعمار عدواناً على أية دولة عربية ولا سيما مصر فإن المساجد تقوم بإلهاب حماس الجماهير، لتقف مؤيّدةً لكفاح العرب وقد أيّدوا مصر ولا يزالون تأييدًا معنويًّا وماديًّا...

وللصوماليين علماء وفدوا إلى الأزهر وتعلّموا فيه وعادوا يحملون رسالة الهدى والخير، وهم يؤدّون واجبهم فى نشر اللغة العربية وفى الحفاظ على الشريعة الإسلامية، ويتّخذون من المساجد أماكن توعية للجماهير، والبعثة الأزهرية حينما وصلت إلى هناك تقوم بالخطابة فى أشهر المساجد وبإلقاء الدروس الدينية طوال الأسبوع فى مختلف العلوم الدينية... والصوماليون يقبلون على هذه الدروس إقبالاً رائعًا، ولكى تكون الإفادة من الدروس مائة فى المائة فإنهم يحبّذون أن يعبّر أحد الصوماليين المتفقهين باللغة الصومالية عمّا يشرحه الشيخ الأزهرى.

وأذكر أننا حينما أنشأنا مكتبًا لبعثة الأزهر فى مقديشيو لأوّل مرة عام ١٩٥٩ وجعلنا فيه مكانًا لمكتبة عربية لتشدّ الشباب الصومالى إلى القراءة لم أجد ما أعمّر به مكتبة البعثة الأزهرية إلّا أن أستعير من أحد فقهائهم مجموعةً كبيرة من الكتب الدينية والعربية والتاريخية وهى كتب مراجع، ويمكن ألّا تجدها فى مكتبة بعض خريجى الأزهر المصريين...

ومن أثر المساجد فى الحفاظ على الشريعة الإسلامية ما شاهدته من مواقف علمائهم وطلّاب مساجدهم فى مقاومة دعوة مسمومة ابتدأت تنفث سمومها فى العاصمة وهى الدعوة البهائية وكان ذلك عام١٩٥٧. لقد تحرّك العلماء فى المساجد ونبّهوا الجماهير إلى خطورتها على الإسلام فاحتجّ الجميع عليها وعلى القائمين بها، وقُضى عليها فى نفس العام.

وإذا ما أحصيت مساجد الصومال ومقارنتها بعدد السكان فستجدها تمثّل أكبر نسبة فى العالم الإسلامى بالنسبة لعدد السكان.

وهذا يدلّ على أصالة الفكر الدينى عندهم وعمق التديّن فى قلوبهم وتعتبر بحق حارسةً لدعوة الإسلام فى منطقة شرق أفريقية كلّها...

دراسة ميدانية فى كينيا

زرت كينيا مرتين فى عامى ١٩٧٢، ١٩٧٣، وكانت الزيارة للاطلاع على أحوال المسلمين بها وسير الحركة الإسلامية بين شعبها، خصوصًا وأن رئيسها هو «جومو كينياتا» المسيحى المتعصّب لمسيحيته[١] وقد لاحظت فى أوّل الأمر أن نظرة الجهات الحكومية إلىّ فيها شىء من الريبة، فكانوا يتابعون خطواتى واتصالاتى بالمسلمين متابعة دقيقة، وإذا استطاعوا أن يضعوا فى طريقى مضايقات تنفّرنى من البقاء عندهم فترة الزيارة لوضعوها، ولكنهم خشوا ما يترتب على ذلك من آثار لدى المسلمين فى كينيا فضلاً عن الأثر السياسى بين دولتين صديقتين.. وأذكر أنى أوفدت واحدًا من علماء الأزهر الذين يعملون معى فى المركز الإسلامى بدار السلام بتنزانيا لزيارة مدينة ممباسا - إحدى الموانى الرئيسية - لكينيا وكان له ببعض المقيمين بها صلات دينية. ووصل الشيخ إلى مطار

(١) لقد توفى منذ أشهر قلائل واختير غيره رئيسًا للدولة «الكينية».

ممباسا، وقدم جواز سفره، ومعه حقيبته، وبعد فترة من الزمن وبعد خروج جميع القادمين على هذه الطائرة من المطار إلى المدينة نودى عليه من السلطات المختصة بالمطار، وسلّموه جواز سفره وحملوا له حقيبته إلى الطائرة، فسأل: إلى أين؟ فقالوا له: إلى دار السلام عاصمة تنزانيا، يعنى لقد منع من دخول المدينة لكن بطريقة مهذبة، ورجع إلى دار السلام وأخبرنى بما حدث فأصررت أن أتخّذ فيها إجراءً رسميًا عن طريق سفارتنا لكن اتجه الرأى إلى أخذ هذا الموضوع بالرفق أوّلاً لأن الزيارة غير رسمية. وثانيًا: لا ينبغى أن يشعر الأفارقة لا فى تنزانيا ولا فى كينيا بأن شيخًا أزهريًا منع من دخول إحدى الدول الأفريقية لزيارة بعض إخوانه المسلمين فقد يترتب على ذلك عواقب سيئة نحن فى غنى عنها، وحينما وصلت إلى ميناء نيروبى توجهت إلى مفتش الجمرك، حيث كانت الحقيبة فى انتظارى، وكان المفتش هنديًا من طائفة السيخ، قد ترك له لحية طويلة شاملة لوجهه ومتصلة من شاربه إلى عارضيه ثم رأسه وهذا هو الشكل المألوف لأبناء طائفة السيخ فى منطقة شرق أفريقية كلها، ولما رآنى قال: وكأنما أرهقه العمل: «رخصة موجود شيخ» وهى كلمات عربية مستعملة فى الأردية وربما قد ظن أننى أعرف اللغة الأردية، ثم رسم علامة التفتيش على الحقيبة ولم يفتشها، ثم اتجهت من المطار إلى نيروبى..

ومعنى نيروبى «بلغة الماساى: الورد العذب أو الماء العذب، وفى

داخل المدينة يلفت نظرك كثرة المحلات التجارية، ومغالاة الناس هناك فى عرض السلع الكمالية المتنوعة، مما يدلّ على أن البلاد فيها رخاء. لكن يلاحظ أن الذين يسيرون فى الشوارع التجارية هم من الأوربيين ومن أغنياء الهنود وهم الذين بأيديهم التجارة - أما المواطنون الأفريقيون فلا تكاد ترى كثيرًا منهم فى الأحياء التجارية ولعل السبب فى ذلك أنهم غير قادرين على الشراء من تلك المحلات التى لا تبيع إلّا المستورد من الخارج. واتجهت إلى المسجد الجامع فى وسط المدينة وهو مسجد ضخم البناء وغاية فى الجمال والذوق الرفيع، قبابه مبنية على الطراز المغولى ضخمة، ويحيط بالمسجد أفنية واسعة نظيفة لا تكاد تجد فيها قذارة لو بحثت عنها، وفيه أماكن للوضوء فى غاية النظافة، كما أن فيه قسمًا للنساء منفصلًا هو عبارة عن شرفة فوق القسم الخلفى المسقوف من المسجد، وقد كتب على مدخل المسجد باللغة الإنجليزية: الدخول بالأحذية غير مسموح به فى أفنية المسجد وللأحذية مكان خاص عند مدخل المسجد..

وعلى بداية المسجد كتب بخط جميل ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ كما ألحق بالمسجد مكان للمسافرين من فقراء المسلمين، يقيمون فيه فترة من الوقت حتى يجدوا مكانًا غيره، وهذه الظاهرة من أجمل ما شاهدته فى مساجد المسلمين، وفوقه مكتبة عامة فيها كتب قليلة باللغة العربية، وأكثر منها باللغة الأردية، وإمام

المسجد باكستانى الأصل، ولا يجيد العربية وإن كان يعرف طرفًا قصيرا منها، لكنه يقرأ القرآن بلسان عربى مبين، ومؤذّن المسجد أفريقى يعرف العربية، وقد ذكر أنه تعلّمها فى زنجبار ويلبس ملابس السواحيليين ويصلّى فى هذا المسجد الهنود المسلمون والأفريقيون، وقد قرأت لوحة تأسيس هذا المسجد فوجدت أن مؤسسه اسمه عبد الله شاه، وقد فرغ من بنائه عام ١٩٣٧ ميلادية ويعرف المسجد بأنه المسجد الجامع لأنه تقام فيه صلاة الجمعة فى هذا الحىّ الأوربى من مدينة نيروبى، وهذا المسجد لأهل السنّة والجماعة، وهناك مساجد أخرى للطوائف الأخرى مثل مساجد للشيعة ومساجد للإسماعيلية، وقد التقيت فى نيروبى بكثير من أعيان المسلمين، وأكثرهم وافدون من حضرموت ووضع المجتمع الكينى كالآتى: بعد أن غادر الإنجليز البلاد صار الأوربيون فى القمة - يليهم الآسيويون من الهنود والباكستانيين، وفى المرتبة الثالثة يأتى العرب وبعدهم الوطنيون الأفريقيون، وأغلب العرب هنا فقراء وفى مكانة غير مرموقة كما أنهم قلّة فى جميع أنحاء كينيا، إلاّ فى منطقة الساحل فى مدن «ممباسا» و«مالندى» «ولامو» وما بينهما.

زيارة مدينة كيسومو:

كيسومو عاصمة مقاطعة نيانزا التى تقع حول بحيرة فيكتوريا نيانزا التى ينبع منها قسم كبير من مياه النيل الأبيض - وتبعد تلك

المدينة عن نيروبى بمسافة ٣٨٠ كيلو مترا تقريبا، وفى الطريق توجد منطقة قبيلة (الكيكويو) أكبر القبائل الأفريقية فى كينيا والتى ينتسب إليها الزعيم جوموكينياتا ومنها كان رجال «الماوماو» الذين أزعجوا الحكم البريطانى أيام الاستعمار، وطوال الطريق لم نشاهد إلّا أرضًا خضراء وحقولاً مزروعة، ترعى فيها الأبقار، وهذا يدلّ على أن أفريقية لا ينبغى أن يطلق عليها أفريقية السوداء - بل أفريقية الخضراء.. وكيسومو تقع على بحيرة فيكتوريا نيانزا.. وقد دخلت مع مرافقى الميناء الكبيرة. وشاهدنا البواخر وهى تفرغ حمولتها وينزل منها المسافرون وبعضهم من السياح الأوربيين الذين قدموا من أوغندا بهذه البواخر التى تمخر عباب البحيرة الكبيرة - التى تمتد مسافة طويلة يسير المرء فيها بالباخرة ١٥٠ كيلو مترا داخل كينيا، ثم تصل إلى حدود أوغندا..

وزرنا المسجد الجامع فى كيسومو، وشاهدنا أغلب المصلين فيه من الباكستانيين، والمسجد يسمّى «مسجد الجمعة» وهو الوحيد الذى تقام فيه الصلاة فى بلدة كيسومو. وهو مسجد جميل البناء - مفروش فرشًا كاملاً وفيه مكبّر للصوت، ويحيط به فناء مكشوف، تحيط به من الداخل بعض الأشجار، وفى ركن من أركانه عدد من الغرف. قالوا: إن هذه مدرسة لتعليم القرآن للأفريقيين، وفى ناحية بعيدة أيضا غرف هى مسكن لإمام المسجد. وقد قام على بناء المسجد جماعة من المسلمين - وأكبر العبء فى ذلك على الباكستانيين الذين عجبنا

لكثرتهم فى المسجد، فى الوقت الذى لم نر فيه فى صلاة المغرب إلاّ اثنين فقط من العرب، وبعد صلاة المغرب تجمّع صبية من الباكستانيين حول رجل منهم أخذ يعلّمهم القرآن من جزء «عمّ» وهم من طلبة المدارس الإنجليزية التى يدرسون فيها فى النهار، وفى الليل يتعلّمون القرآن الكريم وأمور الدين، وقد استرعى انتباهنا عبارة كتبت فى أسفل الجدار على يمين المحراب باللغة العربية «فى سبيل الله» وانطلق منها سهم يشير إلى ما يشبه علبة وضعت على الأرض ففهمنا أن تلك العلبة يجمع فيها التبرعات لصالح المسجد، وبسؤال الإمام عنها قال: إنها ليست لمنافع المسجد لأن الذين قاموا على بنائه من المسلمين قد أوقفوا عليه عمارتين تدرّان عليه ما يحتاج إليه، ولكن الصندوق له مفتاح يوجد عند هيئة موثوق فيها وهذا الذى نراه إنما هو غطاء الصندوق فى الأرض، ولا يفتح إلاّ أيام العيد حيث يؤخذ ما تجمّع فيه ويفرّق على الفقراء المسلمين فى العيد، إنها فكرة رائعة وجميلة، ابتكرتها عقول أفريقية تعيش تحت خط الاستواء - ولا تخطر ببال أحد فى مصر أو فى أى بلد عربى.. وعلمت من فضيلة قاضى المسلمين فى مقاطعة نيانزا - وهو من العرب الموجودين فى كينيا وجنسية كينية - أن المسلمين هنا يتمتعون بنفس الرعاية التى يتمتع بها غيرهم - والعرب بخاصة موضع تقدير الحكومة والمسئولين - ولا يلاقون أية صعوبات فى إقامتهم أو مباشرة نشاطهم الدينى - ولكن المسلمين والعرب

أنفسهم لا يبذلون جهودًا كافة من أجل تحسين أوضاعهم - فهم مختلفون على أنفسهم - ولا يقومون بالواجب المفروض عليهم فى الدعوة إلى الله بصفتهم من العرب الذين انتشر الإسلام على أيديهم فى العالم، وقد ذكر فضيلة القاضى: أن المسلمين يحتاجون إلى المساعدة وبذل المعونة فى حقل التعليم الدينى لأن الحكومة لا تعارض فى التعليم الدينى ولكن لا يمكنها أن تساعد على أىّ تعليم دينى، لأن ذلك قد يحمل أرباب الأديان الأخرى على الاحتجاج وطلب المساواة، إلّا أنّ أهل الأديان الأخرى يجدون من يساعدهم ويساندهم فى بناء المدارس الخاصة بهم. والتبشير هناك يبذل الكثير، ويجدون كذلك من يعلّمهم اللغات التى يرغبونها ويساعد على نشر ديانتهم ومساعدة الفقراء منهم، أما المسلمون فلا يجدون المساعدة قالوا: وأوضح مثال على ذلك: أنه كانت توجد مدرسة عربية إسلامية خاصّة تقوم على جمع التبرعات ثم عجزت عن الاستمرار بسبب قلّة التبرعات فطلبت المساعدة من وزارة التعليم الكينية وقبلت ذلك بشرط أن تشرف عليها من ناحية المناهج، وعلى أن يُحضِر المسلمون من يدرّس مادة اللغة العربية والدين الإسلامى لهم فى هذه المنطقة ويكون مرتّبه على الحكومة الكينية، لكنهم لم يستطيعوا الحصول على المدرس المذكور - وألحقت المدرسة بالحكومة، والحقيقة المرّة أن هذه الحالة عامة شاملة للمسلمين فى أقطار شرق أفريقية، حيث يخشى أن يفتن بعض المسلمين عن دينهم

- إما بالإغراء بالوظائف والمناصب، أو نتيجة الجهل بالدين بحيث ينشأ الجيل الجديد فى جوٍّ ثقافى بعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية، وإن كان بعض المسلمين من أهل البلاد يبذلون جهودًا كبيرة فى سبيل الإبقاء على إسلامهم وتعليم لغة القرآن الكريم لأبنائهم، ويضحّون فى سبيل ذلك بالشهادات والمناصب، ولكن هل هذا الطراز من الرجال المسلمين الغيورين على دينهم كثير بين الناس؟ لا أظن ذلك، ومن هنا يأتى دور مصر أولاً والدول العربية ثانيًا ومدّ يد المعونة لهذه الشعوب، وأن تبذل جهود مشتركة من البلاد الإسلامية فى هذا المجال بالاتفاق مع الحكومات المحلية، ومن تلك الجهود فتح الملاجئ ودور التربية للأطفال المسلمين من الفقراء والأيتام الذين قد يضطرون إلى دخول المدارس التربوية والتبشيرية فينسلخون عن دينهم، وتقطع الرابطة التى تربطهم بالعرب والمسلمين ومن ذلك فتح المدارس الإسلامية الخاصّة وتقريبها من المناهج الحكومية فى تلك البلاد، حتى تؤهل الطالب بعد ذلك لمتابعة تعليمه المدنى العالى فى بلاده أو خارجها بعد أن يكون قد تعلّم اللغة العربية وأمور الدين الإسلامى فى المدارس المذكورة بدون أن ينعزل انعزالاً كاملاً عن الوسط الثقافى فى بلاده، ومن ذلك توفير المنح الدراسية لأبناء المسلمين فى كافة الجامعات والمدارس فى الأقطار الإسلامية ولاحظنا أن مدينة كيسومو لم نر بها رجلاً واحدًا من البيض وإنما غالبية السكان من الأفريقيين وأكثرهم من قبيلة «جلوا» وبشرتهم

أكثر سوادًا من «الكيكويو» ولباسهم الزى الإفرنجى غير الكامل. وتوجد بينهم جالية هندية إذا رأيتهم بسمرتهم المعروفة فى بلادنا خيل إليك أنهم أكثر الناس بياضا، وذلك بمقارنتهم فى اللون بأهل البلاد، وأغلبهم إن لم يكن جميعهم يشتغلون فى أعمال التجارة، وقد لفت نظرى فى المدينة معابد الهنود على مختلف دياناتهم فهناك معبد السيخ تظلّله قبّة ضخمة ذات طيات عديدة تشبه القمع (المحقن) المقلوب، ثم هناك معبد الهندوكيين، ومعبد الإسماعيلية أتباع أغاخان، ويسمّونه مسجد، وهناك مدرسة عظيمة كبيرة يديرها الإسماعيليون، ويلحق بها غيرهم من المسلمين، وتسير وفق برامج الحكومة الرسمية..

الذهاب إلى ممباسة:

وردت هذه الكلمة فى رحلة ابن بطوطة مكتوبة هكذا (منبسة) ولكنها لا تنطق الآن، وتكتب الا (ممباسة) وتقع على ساحل المحيط الهندى، وفى الطريق شاهدنا عراةً من قبائل «الماساى» شاهدنا رجلًا وامرأة وطفلًا، أما الطفل فكان عريانًا تماما ولكن عرى الأطفال فى القرى الأفريقية ليس غريبًا - وإنما الغريب أن الرجل والمرأتين كانوا عراةً تقريبًا ليس عليهم إلّا قطعة من القماش الخفيف وقد وضعه كل منهم على ظهره، وعقد طرفه فى رقبته. وأقل نسمة هواء تطير تكشف قطعة القماش ما تحتها من عورة الرجل والمرأة. ولا يحسّ الواحد منهم بالحياء أو الخجل من ذلك، والحقيقة

أنك لا تستطيع تمييز الرجل من المرأة إلّا بما خلق الله لهما، فالمرأة والرجل كلاهما ليس فى وجهه شعر وكلاهما قد خرق أذنيه وأثقلها بعدد من الأقراط، بل جعل فى أعلاهما حلقة بيضاء لعلّها من الفضة، تكون قائمة فى أعلى الأذن زيادة على الأقراط والأشياء الأخرى التى تتدلّى منها، والرجل يضع أساور فى عضده وفوق ركبته بخلاف المرأة. كما أنه يحمل عصًا غليظة وهى لا تحملها، وتعتبر قبيلة «الماساى» من أغنى القبائل الأفريقية لأنهم رعاة مهرة، يمتلكون قطعانًا كثيرة من الأبقار، كما أنهم محاربون أشدّاء - ويقال: إن أصلهم من الحاميين أى الصوماليين والجالا الذين قدموا منذ فترة بعيدة إلى تلك البلاد وتغلّبوا على السكان الأصليين الذين كانوا موجودين فيها قبل قدومهم، وهم يعتمدون فى غذائهم على اللبن واللحم، وأفضل الأشربة عندهم هو الدم الممزوج باللبن، وهم جفاة ونسبة التعليم فيهم قليلة، ولم يدخل المسيحية أو الإسلام منهم إلّا عدد ضئيل أمّا غالبيتهم فوثنية حتى الآن، ومن الواجب على المهتمين بالدعوة الإسلامية فى أفريقية أن يعملوا على إيصال الإسلام إلى هؤلاء، وقد جرّبت شخصيًا - وأنا بتنزانيا دعوتهم إلى الإسلام. لقد سافرت فى رحلة إلى منطقة يكثر فيها عددهم ومعى بعض الأصدقاء الأفارقة، وتحدّثت معهم فى الدين وفى أن هناك خالقًا يسير هذا الكون، وهو الذى يُحيينا ويميتنا، وهكذا بكل يسر وبساطة، ومجاراة لهم فى عاداتهم لم أتركهم إلّا وقد دخلوا فى الإسلام..

ومثل هذه القبيلة يستفاد من إسلامها فى جعل غيرها تعتنق هذا الدين، بل إنها ستدافع عنه ببسالتها وشجاعتها.. وصلنا إلى ممباسا، ووجدناها مدينة جميلة عصرية، فيها أحياء يقطنها الأوربيون وأغنياء الهنود، وقد هجر معظم الأوربيين بيوتهم وتركوها للأفريقيين حيث غادروا كينيا نهائيا كما أن فيها الحىّ الأفريقى «ماجنقو» ومعنى «ماجنقو» الحافّة أو الهامش، والكلمة سواحيلية. وبيوت هذا الحىّ من عشش بنيت جدرانها بالطين، وسقّفت بالقشّ والصفيح - فكأن أولئك الأفريقيين يعيشون فى بلادهم على هامش الحياة بسبب فقرهم وتخلّفهم، وهناك فى ممباسا الحى القديم الذى يبلغ قدمه مئات السنين، ويقع على ساحل البحر ويدعى «لوكالى» وسكانه خليط من العرب الذين استوطن آباؤهم ممباسة، ومن الأفريقيين، وأكثر بيوته مبنية بالطين والحجارة..

والأفريقيون فيها معظمهم من السواحيليين نسبة إلى السواحل «جمع ساحل» والمراد به ساحل شرق أفريقية أو ساحل بلاد الزنج - كما كان العرب يسمّونه فى القديم، وبينهم وبين بقية سكان كينيا من «البانتو» «والزنوج فرق كبير» إذ أن سواد السواحيليين غير حالك - كما أن تقاطيعهم أقرب إلى التقاطيع العربية، وهم فى مرتبة فكرية أعلى من غيرهم من سكان كينيا الأصليين وذلك بسبب اختلاطهم بالعرب واعتناقهم الدين الإسلامى منذ قرون عديدة، ولا شك أن السواحيليين خليط من أبناء العرب الذين كانوا باستمرار

يفدون إلى تلك البلاد منذ قرون طويلة حتى قال بعضهم: إن هجرة العرب وصِلتهم بسواحل شرق أفريقية كانت قائمة قبل الإسلام، وقد ازدادت بعد الإسلام قوّة واتساعًا حتى الآن، أى أن أولئك السواحيليين خليط من الأسيويين والأفريقيين الأصليين، وبذلك اكتسبوا ملامح ميزتهم عن غيرهم من سكان داخل كينيا.

ونساؤهم يتحجّبن لأنهن جميعًا من المسلمين، ولباسهن من عباءة سوداء وغطاء للوجه يشبه اللثام، ولكنه أعلى منه، ويتركن قطعة من خمار الرأس، تتدلّى على الجبهة، وتكاد تلتقى من أعلى اللثام، ولكن يبقى بينهما ما يكفى العينين للنظر، بدون أن يصف الوجه، أما الرجال فلباسهم لباس المسلمين فى شرق أفريقية، وهو جلباب طويل وواسع يضرب إلى الكعبين فوقه صدرى «جاكيت» وعلى الرأس طاقية بيضاء وإذا كان الشخص منهم عالمًا أو وجيهًا لبس عمامةً صغيرة فوق الطاقية، ويضعون على ملابسهم نقوشًا من الخيوط حول الجيوب: ويظهر من جميع أحوالهم أنهم يعيشون بقايا مدنيّة خاصة بهم، كانت قائمة هنا قبل مجىء الأوربيين تشبه إلى حدٍّ كبير ماعليه العرب فى شرق الجزيرة العربية، علما بأن البلاد كلها كانت محكومة بالعرب من العمانيين قبل الاستعمار البريطانى، وكان ساحل كينيا بالذات تابعاً لسلطان زنجبار وقد تولّت الحكومة الإنجليزية إدارتها بالنيابة عنه بموجب معاهدة حماية عقدت بين الطرفين، وقبل الاستقلال اتفقت الحكومة الإنجليزية وحكومة كينيا

الحاضرة عن أن ينصّ فى الدستور «أن للساحل الكينى ثقافته الإسلامية المميزة عن غيره من أنحاء كينيا، وأغلب التجارة والاقتصاد فى مدينة ممباسة بأيدى الهنود، أما الشركات والوظائف الكبرى فكانت بأيدى الإنجليز وقد تخلّوا عن بعضها الآن، ولا يزال بعضها الآخر فى أيديهم، ولكنهم يتركونها ويهجرون البلاد باستمرار خشية على أنفسهم من أن يقع عليهم ضيم من أولئك الأفريقيين الذين كانوا من قبل يحتقرونهم، وحتى العرب هنا فبعضهم متخوّفون من المستقبل، ويقولون: إنهم يخشون أن يأتى يوم يثور فيه الأفريقيون على وجود العرب فى كينيا كما فعلوا فى زنجبار ويقولون: إنه لولا حكمة الزعيم جومو كينياتا وحنكته لكان من المحتمل أن يحصل للعرب من النكبة هنا ما حصل لهم فى زنجبار، ولكن الزعيم كينياتا ناشد الزعيم الأفريقى آن ذاك عبيد كرومى حاكم زنجبارأن يحترم القانون ويرعى جوار العرب ويقولون: إن الزعيم كينياتا ذكّر الأفريقيين بفضل العرب وأياديهم السابقة فى تمدين ساحل شرق أفريقية، وقال: إنهم منكم وليسوا أجانب إنهم يخالطونكم فى السكن، ويشابهونكم فى العادات وبينكم وبينهم أصهار ورحم.. والحقيقة أن الزعيم كينياتا يعتبر هنا الشخص المحبوب المحترم من الجميع، وقد أثبت بمواقفه العديدة فى ضبط النفس وكبح جماح العاطفة الوطنية الأفريقية ما لا يستطيع الكثير من الرجال تحمّله، وكان دائمًا يناشد الأفريقيين احترام أولئك الناس الذين

يعملون فى كينيا ما داموا يحترمون القانون.. ومما يلفت النظر أن أكبر شوارع ممباسا شارع اسمه «سالم رود» وهو منسوب للشيخ سالم بن خلفان أحد رجالات العرب من العمانيين الذين كانت لهم جهود بارزة فى ميدان الحكم والإصلاح فى منطقة ممباسة، ويذكرون أنه عند استقلال البلاد عرض بعض الوطنيين الأفريقيين على الرئيس جومو كينياتا أن يغيّر اسم الشارع فيسمّى باسمه، فامتنع عن ذلك وقال: لقد عمل سالم بن خلفان لممباسة أكثر مما عملت ولذلك لا ينبغى محو اسمه من الشارع فأطلق اسم «جوموكينياتا» على شارع آخر فى ممباسة، وبقى الشارع الأعظم فيها (سالم رود) أو شارع سالم على ما هو عليه.. وطابع مدينة ممباسة طابع إسلامى فالوجه العربى واضح فى نظام مبانيها، وفى كثرة العرب بها، وفى ارتدائهم للملابس العربية وهى عبارة عن جلباب «جاكت» وفى الفجر تسمع كثرة المؤذنين وارتفاع أصواتهم خلال الليل الساكن لينبّهوا المسلمين إلى صلاة الفجر، ويوجد عدد من الناس يمشون فى الطرقات لينبهوا النائمين لصلاة الفجر مثل مايحدث فى كثير من القرى المصرية حتى الآن - وينادون بأصوات عالية: الصلاة، الصلاة، ياعباد الله الصلاة، والمسجد فى الفجر يعمر بالمصلين ولا تجد فيه مكاناً خالياً، وكأنك فى صلاة الجمعة، لكن مما يؤسف له أن المسلمين منقسمون على أنفسهم، فمسلمو الهند يعزلون أنفسهم عن المسلمين العرب، ومسلمو العرب يعزلون أنفسهم عن مسلمى

الأفريقيين ومسلمو الأفريقيين يعزلون أنفسهم عن الجميع، بل وقد يظهرون العداء للعرب، وقد نشرت الجرائد منذ مدة أن جماعة من مسلمي الأفريقيين قد طلبوا مقابلة الزعيم جومو كينياتا ليطلبوا منه أن يعيّن لهم قضاة من غير العرب، الذين كان العرف المتبع أن يتولّوا القضاء الشرعى للمسلمين فى كينيا عربهم وأفارقتهم، وبعد الاستقلال أمرت الحكومة أن تشتمل صلاحية قاضى المسلمين مسلمي الهنود أيضًا، ولعلّ ظاهرة بعض الأفريقيين للعرب كانت لها أسباب عميقة الجذور، ساعد على نموّها قدرة القومية الأفريقية، التى نتجت عنها مأساة زنجبار.. وقد قمت بزيارة عدد من المدارس والكتاتيب الإسلامية وأهمّها مدرسة الفلاح ويديرها مواطن عربى حضرمى، كما زرت مسجد سكينة وهو بناء عظيم قامت بالعبء الرئيسى فى إنشائه سيدة مسلمة هندية تدعى «سكينة» وشارك فيه عدد من المسلمين منهم هنود وعرب، وهو يتألف من عدة مبان يضمّها فناء واسع مسوّر بسور خارجى، يدخل إليه من بابين رئيسيين وتظلّله الأشجار الكثيفة، وبداخله المسجد الجامع ومساكن للمسلمين الفقراء، وقاعة اجتماعات كبيرة، ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم - ولهذا البناء الإسلامى الكبير أوقاف تدرّ عليه آلاف الشلنات شهريًا - تكفى لصيانته وترميمه، وهو فى الواقع مفخرة لمؤسسيه، والواقع أن خير ما يفعله المسلمون فى هذه البلاد هو أن يوقفوا الأوقاف على المساجد والمدارس والمؤسسات لكى تستطيع

مواصلة أعمالها، وقد وجّهت المسلمين إلى هذه الفكرة، وحثثتهم عليها، ورحبوا بها كل الترحيب.. وفى ممباسا قاضى القضاة الشيخ «عبد الله صالح الفارس» وهو عمانى الأصل ومن العلماء الفاهمين للدين وأحكامه، ومن أجمل ما عمل تأليفه تفسيرًا للقرآن الكريم باللغة السواحيلية وقد أهدانى نسخةً منه، وراجعت تفسير بعض سوره على ضوء ما تعلّمت من اللغة السواحيلية فوجدت التفسير سهلًا وجيّدًا وقد انتشر بين السواحيليين فى منطقة شرق أفريقية، وأقبلوا على اقتنائه.

المساعدات التى يمكن تقديمها لأبناء كينيا المسلمين:

١ - الجمعيات والهيئات الإسلامية فى كينيا كثيرة، وعلمت أنه يوجد بها أكثر من ثلاثمائة جمعية أو هيئة إسلامية بعضها موجود بالاسم فقط وبعضها مكوّن من ثلاثة رجال أو نحو ذلك، وقد قيل لى: إن هناك أكثر من أربعين جمعية: منها بمنطقة نيروبى، والباقى فى منطقة ممباسة وغيرها، وقد استخلصت من دراستى لأحوال الجمعيات هناك أنها تقوم على أساس عنصرى قومى، فهناك الجمعيات الإسلامية الهندية والجمعيات الإسلامية العربية، والجمعيات الإسلامية الأفريقية وبعض الجمعيات تتبادل التهم مع الجمعيات الأخرى، وحتى الأفارقة قد كونوا جمعياتهم على أساس قبلى فلمسلمى كل قبيلة جمعية خاصة مع أن الإسلام جاء بالمؤاخاة بين

المسلمين، وحارب تميزهم على أساس قبلى أو عنصرى، ولكن الظاهر أن السبب فى ذلك مرجعه إلى أن المجتمع كله عند تأسيس الجمعيات فى عهد الاستعمار الانجليزى قائم على التفرقة العنصرية، وإن لم يكن ذلك مفروضًا بحكم القانون فإنه مفروض بحكم العرف والعادة المتّبعة، لهذا لا أنصح بأن توجه مساعدات إلى أية جمعية هناك. حتى تتّحد الجمعيات كلّها فى جمعية واحدة على مستوى الدولة كلها.

٢ - اختيار طلبة لإكمال دراستهم فى مصر.

٣ - إرسال مدرّسين ومرشدين لتعليم اللغة العربية والوعظ والإرشاد، ويرسل هؤلاء بعد الاتفاق مع الحكومة الكينية ليسهلوا لهم الإقامة وأداء العمل.

٤ - إمداد المساجد الكبيرة بالمصاحف والمطبوعات العربية المترجمة إلى الإنجليزية أو السواحيلية.

النشاط المعادى للإسلام فى كينيا:

دخل الإسلام كينيا منذ أكثر من عشرة قرون حيث نزل العرب فى السواحل - أما فى داخل البلاد فلم يدخلها الإسلام إلّا قبل مائة سنة تقريبا، وتبلغ نسبة المسلمين فى كينيا إلى مجموع السكان ٢٥٪ يقطن معظمهم فى منطقة ممباسة على ساحل المحيط الهندى، حيث

تقدر نسبة المسلمين فى ممباسا بالنسبة إلى بقية السكان ٦٥٪ من العرب والأفريقيين، ثم فى باقى المناطق الساحلية مثل مالیندی ولا مو - روجيرى - التى يتكوّن معظم سكانها من المسلمين الصوماليين - أما بقية المسلمين فيوجدون متفرقين فى كل مكان تقريبًا، حيث يقدّر عددهم فى العاصمة نيروبى ٤٠ ألفا من مجموع سكانها البالغ عددهم ٢٥٠ ألفا، ونظرا لتغلغل الإسلام فى كل مكان فى كينيا فإن النشاط المعادى للإسلام قد كثف نشاطه ليقف فى وجه هذا التيار الزاحف، فدخل التبشير المسيحى إلى كينيا مع الاستعمار الإنجليزى الذى سبق غيره إلى دخول القارة، وقد نجح التبشير فى تنصير عدد كبير من السكان الوثنيين، ولا يزال يواصل جهوده فى داخل الجماعات الوثنية وهى كثيرة هناك، كما يوجد نشاط صهيونى كبير يستخدم سلاح الدعاية والإغراء بالمنح الدراسية والدورات التدريبية فى تحسين سمعة إسرائيل وتشويه سمعة العرب، وأقرب مثال على ذلك فيلم سينمائى أذكر أنه عرض منذ وقت قريب، وهو يصوّر كفاح الأفريقيين للتخلّص من العرب الذين كانوا يستعبدونهم ويذيقونهم صنوف العذاب، على حدّ ما جاء فى الفيلم المذكور كما يوجد نشاط من الجماعات غير الإسلامية التى تتستّر باسم الإسلام كالقاديانية والإسماعيلية، ولكنها لم تحقق نجاحًا ذا بال، مما جعل جهودها تتناقص وتصفّى أعمالها فى كثير من البلاد، ولهذا أرى أن جهود الدعاة ينبغى أن توجّه إلى الوثنيين لدعوتهم إلى الإسلام، وهو

التسابق الحقيقى بين الإسلام ودعاة التبشير، ولا نطمع فى أن نخرج مسيحيا عن مسيحيته ليعتنق الإسلام، بل نطمع فى أن نضمّ هؤلاء الملايين من الوثنيين الذين يعيشون فى فراغ دينى، أن نضمهم إلى الإسلام، والذى يسبق إليهم هو الذى سيجذبهم إليه فلا ينبغى أن نفوّت الفرصة، وندع المجال للتبشير يعمل حسبما يحلو له، والمسلمون من أهل البلاد لا حول لهم ولا طول، إذن يحتاج الأمر إلى معاونة الدول الإسلامية القادرة.

الاقتراحات بعد الجولة الميدانية:

أولا: إنشاء معهد دينى إسلامى على غرار المعاهد الدينية فى مصر. يكون مقرّه فى ممباسا ويقبل فيه طلاب من سائر أنحاء كينيا، ويقوم هذا المعهد بتخريج مدرّس الدين الإسلامى واللغة العربية، كما يعدّ الطلاب الذين يودّون أن يكملوا دراستهم فى إحدى الجامعات الإسلامية بالبلاد العربية.

ثانيا: عدم دفع معونات مالية لشخصيات تدعى خدمة الإسلام، لأن بعضهم يستأثر بها لنفسه.

ثالثا: الإكثار من إرسال المدرسين والدعاة الذين يعرفون اللغة الإنجليزية أو السواحيلية إلى كينيا.

رابعا: توزيع عدد كاف من الكتب الإسلامية باللغتين

الإنجليزية والسواحيلية ثم طبع ترجمة صحيحة لمعانى القرآن الكريم باللغة السواحيلية، إذ أن الترجمة للطالب تسهّل له فهم معانى القرآن، وقد كتبت تفسيرًا للكلمات الصعبة عليهم فى القرآن الكريم باللغة العربية وترجمتها إلى السواحيلية وقد كان له أثره الطيب والحمد لله فى منطقة شرق أفريقية كلها. وقد رأيت ترجمة للقرآن قامت بها جماعة القاديانية ودسّوا فيها أفكارهم. وحذّرنا المسلمين من قراءتها.

خامسًا: مساعدة المدارس الموجودة فعلًا والمنتشرة فى سائر أنحاء كينيا تشجيعا لأصحابها على الاستمرار فيها. وتشجيعا لطلابها وجميعهم فقراء، ومحرومون من التعليم الحكومى..

دراسة ميدانية فى تنزانيا

تنزانيا تتكون من جزيرة زنجبار، وتانجانيقا، وتعدادها ١٢ مليون نسمة، وقد اتّحدتا فى عام ١٩٦٤ وتشكلت منهما جمهورية تنزانيا، وزنجبار أهلها كلهم مسلمون تقريبًا، فنسبتهم ٩٥٪ من عدد سكانها البالغ عددهم حوالى ٢ مليون نسمة. أما تنجانيقا فالمسلمون فيها حوالى ٦٠٪. والوثنيون فيها نسبتهم ٢٥٪ والباقون ونسبتهم ١٥٪ يتكونون من ديانات أخرى، ويتميّز المسلمون هناك بأنهم جميعًا سنيّة شافعية متصوّفة - وتكثر نسبة المسلمين فى مدن ساحل المحيط الهندى مثل دار السلام وتانجا، أما الهنود فيوجد منهم جميع الطوائف، منهم السنيّون الأحناف، والأباضية، والشافعية، والشيعة الاثنا عشرية.. والإسماعيلية أتباع أغاخان، والبهرة، والقاديانية...

ويلاحظ أن جزيرة زنجبار كان حكّامها من قديم حتى تاريخ الاتحاد مع تانجانيقا مسلمين، فلما اتّحدت وأصبح رئيس الدولة واحدًا، دخلت تحت حكم الرئيس «جوليوس نيريرى» الذى كان مبشرًا بالمسيحية، ويتعصّب لها. ويعمل بذكاء لسيادة المسيحية فى الدولة كلها...

لقد صدر قرار جمهورى بإعارتى مديرًا للمركز الإسلامى بدار السلام عاصمة تنزانيا فى ديسمبر سنة ١٩٧١ م. وسافرت فى منتصف ١٩٧٢ ومكثت هناك ثلاث سنوات ونصف وكل مقرّ نشاطى هو المركز الإسلامى، ومنه انطلقت لزيارات ميدانية خارج الجمهورية وداخل الجمهورية، بحيث لم أترك إقليماً من أقاليم تنزانيا إلاّ زرته، ودعوت إلى الإسلام فيه - ولم أترك قبيلة من القبائل إلاّ وجلست مع زعمائها وتحدّثت معهم حتى بعض القبائل الوثنية، لقد حاورتهم بهدوء فى وجود الله، وفى اليوم الآخر وأحمد الله تعالى الذى وفقنى لأن يدخل فى الإسلام على يدى قبائل كاملة، وكل ما أرجوه من مصر ومن الغيورين على دعوة الإسلام فى كل بلد عربى وإسلامى أن يمدّوا يد المعاونة المادية لهؤلاء. فلهم من الزكاة سهم المؤلفّة قلوبهم، حتى يحتفظوا بإسلامهم ولا تستطيع قوّة خارجية أن تزحزحهم عن عقيدتهم بإغراءاتها المادية، وكثيرًا ما شاهدت حرارة حفاوتهم بنا - وساعدنى على الاتصال المباشر بهم معرفتى باللغة السواحيلية وتخوّفهم من المبشّرين لأنهم يعتبروننا أفارقة مثلهم فبيننا وبينهم علاقات قوية، أما المبشّر فهو أجنبى عنهم - وفد من أوربا أو أمريكا ولا يزال أثر الاستعمار البغيض عالقًا بأذهانهم، لذلك فهم يضمرون فى قلوبهم البغض لهم... وابتدأت قيادات التبشير تلاحظ ذلك فأخذت تعمل على تربية جيل من الشباب الأفريقى المسيحىّ ليكون هو المبشّر بالمسيحية، وبذلك يكون الدعاة منهم ولأهليهم

فيطمئنون إليهم.

حينما سافرت لم أضع فى خطّتى أن أخرج مسيحيًّا عن مسيحيته ليعتنق الإسلام، ولكن ركّزت على الوصول المبكّر للقبائل الوثنية التى تتوق إلى أىّ دين، وأوّل دين يصل إليها ستعتنقه وفعلاً وصلت إليهم مبكرًا، وإن كنت قد وجدت هناك مبشرة تقيم داخل البلاد، وسأتحدث عنها بعد قليل - كما ركزت على تبصير المسلمين بأمور دينهم - لأن معرفتهم به معرفة سطحية لا تتعدّى القشور... وخطّطت ثالثًا لنشر اللغة العربية، لغة القرآن، وقد ساعدنى على تنفيذ هذا التخطيط لغتهم السواحيلية، فأصلها لغة عربية مع قليل من التحريف، وتدخلها كلمات عربية كثيرة سأتحدّث عنها عند الحديث عن اللغة السواحيلية.

وخططت رابعًا لتعليم جيل من الشباب أصول الدعوة إلى الإسلام، ليرجعوا إلى قومهم فيعلموهم ويعظوهم، ويبيّنوا لهم عظمة هذا الدين، وينطلقوا إلى القبائل الوثنية فيدعوهم إلى الإسلام، ويكاد الطالب يكون من نفس القبيلة، وحينئذ يكون الاستماع إليه أقرب، وتأثيره فيهم أقوى.. ويتم تنفيذ هذا التخطيط عن طريق المركز الإسلامى.

أما المبشّرة التى تحدثت عنها فأمرها ما يأتى: لقد شاهدت فى أثناء رحلاتى فى الداخل مركزًا للتبشير فى منطقة تقع وسط

الجمهورية وتقوم به سيدة أجنبية، والمركز فى منطقة جبلية نائية، وهى تقيم فى منزل أنيق تحيط به حديقة صغيرة، ولديها طائرة عمودية «هليوكوبتر» وضعت هى وطيارها تحت إمرتها لكى تنقلها وقتما تشاء إلى وسط الغابات فتخاطب سكانها وتتحدث معهم بلهجاتهم التى أصبحت تتقنها اتقانًا تاما، وتقدم الهدايا إليهم، وتعيش بينهم أيامًا، ثم تصحب المجذومين منهم بطائرتها إلى المركز العلاجى للجذام الذى أقامته وزوّدته بالأطباء والممرضات.

فى تلك المنطقة بالذات رأيت القوة الروحية للإسلام أمام ضخامة القوة المزودة بها البعثات التبشيرية، فالقسيس الذى كانت هذه السيدة المبشّرة قد أعدّته من أهالى المنطقة ووضعت الإنجيل المكتوب باللغة المحلية بين يديه لكى يسير داعيًا إلى المسيحية وسط أهله وعشيرته، ويعاونها فى جذب المزيد من السكان إلى حظيرة الكنيسة، هذا القسيس نفسه تحوّل إلى الإسلام عندما التقى بواعظ مسلم من أهل بلده، وصادقه دون أن يقدم إليه هذا الواعظ شيئًا فى مقابل ذلك، ودون أن تكون لديه وسائل الانتقال إلى الغابة بالطائرات العمودية، أو علاج المجذوبين أو تقديم الكساء لمن يريد، وكل الذى استطاعه هو أنه عيّنه بعد دخوله إلى الإسلام مؤذنًا بمسجد القرية الذى يؤمّ المسلمين للصلاة فيه...

لكن هناك مبشرًا آخر عاش فى قبيلة من القبائل، ووجد أن بها

رجلاً يشتغل بالسحر، وقد استحوذ على مشاعر قومه، فهم يجلّونه ويقدرونه، وقد حاول المبشّر أن ينفذ إلى قلوب الناس ويجذبهم إليه فلم يستطع لقوّة الساحر بينهم، ومكانته فيهم، وأخيرًا اهتدى إلى هذه الحيلة.. لقد سألهم ذات يوم هل يستطيع الساحر أن يخلع أسنانه جميعًا أمامكم، ثم يعيدها إلى فمه دون أن تنزف منه قطرة دم، ودون أن يحسّ بألم.

فسألوه: وهل تستطيع أنت؟ فأجاب بنعم، وهنا سارع الأهالى إلى إعداد الاحتفال اللازم وأهابوا بالساحر أن يقبل التحدّى، واثقين أنه سوف يبطل حجّة المبشر ويتغلّب عليه وأوقدوا نارًا وبدءوا رقصاتهم استعدادًا للتبارى بين قوة الساحر وقدرته وبين المبشر وما يقول. وعجز الساحر بطبيعة الحال عن أن يقوم بشىء مما طلبه المبشّر فتقدّم الأخير وأخرج أسنانه جميعًا، ثم فتح لهم فاه فلم يروا فيه سنّةً واحدة ولا ضرسًا باقيا، ولم يشاهدوا دما ينزف ولا جرحا. وبعد قليل أعاد المبشر أسنانه إلى مكانها وشرع بتناول طعامه أمامهم فى لذّة وسرور.. ولم يخطر ببال أحدهم بطبيعة الحال أنها أسنان صناعية...

وصلت مطار دار السلام مساء الخميس، وأوّل ما سمعته كلمة «السلام عليكم» يقولونها بحرارة ترحيبًا بالقادم إلى بلادهم، فاستبشرت بذلك خيرًا من أوّل لحظة لوجودى فى هذه البلاد -

وسمعت منهم أيضًا كلمة كان وقعها فى أذنى مألوفًا كأننى سمعتها وعرفتها من قبل أن أصل إلى هذه المنطقة هى كلمة «آهسنتى سانا» وشعرت وقتها بأننى كنت أيضا أقولها معهم، ثم عرفت فيما بعد معناها وهو أحسنت صنعا باللغة العربية وقد حذف منها حرفا الحاء والعين لاستحالة النطق بهما، وسمعت غير ذلك كثيرًا من الكلمات العربية، وأيقنت أن اللغة السواحيلية التى يتكلمون بها فى شرق أفريقية هى مزيج من اللغة العربية واللهجات المحلية...

وتفاءلت مرة ثانية فى اليوم التالى لوصولى، وهو يوم الجمعة، لقد خرجت مع أحد الزملاء قبل وقت الجمعة لأداء الصلاة، فى المسجد الجامع.. وقد نزلنا فى حىٍّ بعيد عنه اسمه حى «أوبيخا» ووقفنا فى الطريق العام ننتظر سيارة أجرة توصلنا إلى المسجد، وما هى إلّا لحظات، حتى مرّت سيارة، وأشرنا إليها ووقفت، وركبناها وانطلقت وسألنا السائق بلغة عربية ركيكة: إلى أين؟ قلنا: إلى المسجد الجامع، ووصلنا إلى المسجد الجامع، وأخْرج صاحبى نقودًا محليةً ليحاسبه فقال: لا يا شيخ اليوم يوم الجمعة، سألنا: وما معنى هذا؟ قال: إن يوم الجمعة أعمل فيه من الصباح إلى وقت الصلاة، أنقل الركاب إلى المسجد بلا أجر، وفى آخر الوقت أصلّى فى المسجد الذى وصلت إليه، وبعد الصلاة أبدأ فى العمل بالأجر.. هكذا شأنى كل يوم جمعة، إن هذا واجب على نحو إخوانى المسلمين، فى معاونتهم

لأداء الفريضة، فاستبشرت كذلك خيرًا وقلت في نفسي: والله هذه البلاد فيها خير كثير، وإن للإسلام بها شأنًا جليلًا...

ومرّت بي الأيام، وتعدّدت مشاعري وأحاسيسي، ففي كل مدينة زرتها رأيت العمارات الشاهقة والمباني الحديثة، والفنادق الفاخرة والسيارات الأنيقة مثل ما رأيت في نيروبي وكمبالا ودار السلام، وفي كل بقعة من الريف ذهبت إليها شاهدت الطبيعة ساحرة بجبالها وغاباتها وطرقاتها البكر وبحيراتها وأشجارها وطيورها المتعدّدة النوع والشكل. قابلت مسيحيين ومسلمين ووثنيين ورأيت الكنائس والمساجد، وشاهدت الرقصات الوثنية والاحتفالات بالشعائر التقليدية التي تحملك معها إلى عالم من الرهبة والغموض، وشاهدت الحياة في الأقاليم حيث الطبيعة الفاتنة بسحرها وجمالها الذي تصنعه الطيور بألوانها الزاهية والتربة الحمراء مع لون الشجر الأخضر، والسماء الصافية الزرقاء، وصورة أرضها وسكانها وطقوسهم وحياة الناس وشعائرهم.. إن هذه المنطقة لا يقال عنها إنها من أفريقية السوداء ولكنها من أفريقية الخضراء...

المركز الإسلامى ودوره الإسلامى

حينما زار الرئيس المغفور له جمال عبد الناصر فى أواخر الستينيات جمهورية تنزانيا، بدعوة من صديقه الرئيس جوليوس نيريرى - التقى به زعماء المسلمين، وطلبوا منه أن تمدّهم مصر، بصفتها رائدة العمل الإسلامى بالمساعدات، حتى يستطيع المسلمون هناك أن يواجهوا التحدّيات العنيفة من التبشير المؤيّد عالميًّا من قيادات المسيحية، سواء أكان من الحبشة أو إيطاليا أو انجلترا أو أمريكا ومن الاستعمار وأعوانه فى المنطقة، ففكّر بأفقه السياسى البعيد فى أنه لو أعطاهم منحةً مالية فإنها ستنفق وسيزول أثرها بعد زمن قصير، مع ما يلاحظ من أن بعض زعماء المسلمين فى تلك المناطق ينتهز مثل هذه الفرصة ليحقق لنفسه كسبًا ماديًّا باسم العمل الإسلامى؛ لذلك قال لهم: سنهديكم مركزًا إسلاميا يعلّم أبناءكم اللغة العربية وعلوم الدين.. وقابل «نيريرى» وطلب منه قطعة أرض لتبنى مصر مركزًا إسلاميًّا عليها ويكون ملكًا للمسلمين التنزانيين.. ورحّب «نيريرى» بالفكرة، وأهدى المسلمين أرضا

متسعة يبنى عليها مركز كبير، وأهداهم حوالى فدانين من الأرض، لكن فى أي مكان من العاصمة؟ فى ضاحية من ضواحيها تسمى «تشانجومبى» وهى تبعد عن وسط العاصمة من حيث التجمعات الجماهيرية المسلمة بحوالى عشرين كيلو مترا. والقصد من ذلك ألّا يكون المركز فى وسط التجمعات الإسلامية، بل إن بعده عن وسط المدينة يجعل نشاطه محدودًا... وقامت وزارة الأوقاف ببنائه، إنه بناء كبير به حوالى عشرين حجرة، وقاعة محاضرات، وحجرة مكتبة واسعة، وجناح لعيادة طبية.. سافرت والمركز مبنى ولكن لا نشاط له. فخططت لنشاطه بحيث يكون متعدّد الأنشطة.

أولاً: المسجد:

لم يبن أمام المركز مسجد كما كان متفقًا عليه وكما هو مبين برسم إنشاء المركز حيث يلحق بالمسجد، لم يبن بسبب الحالة الاقتصادية التى تعانى منها مصر آنذاك، لهذا جعلت فناء المبنى وهو فى سعة مسجد من المساجد الكبيرة مسجدًا، فرشته بالحصير، وحدّدته بأخشاب متحركة، وأحضرت له مكبر صوت، وأسطوانات مشاهير القراء المصريين، ومنضدة وكرسيًّا بدلاً من المنبر، وصنعنا مئذنةً فوق المركز من الصاج ووصلنا بها تيارًا كهربيًّا ولمبات كهربية حتى إذا ما أضىء فى الليل رآه جميع سكان هذه الضاحية، مع الضواحى المجاورة، وعلّق عليها سمّاعات فى مختلف الاتجاهات، ويؤذّن فى هذا

المسجد للأوقات الخمسة، فيسمع الأذان كل من بالجهة ويحضرون للصلاة، وفى يوم الجمعة تدار الأسطوانات بالقرآن الكريم، حتى موعد الصلاة وكنت أخطب فيه الجمعة باللغة العربية، ثم نفسرها بالسواحيلية، وما هى إلّا أسابيع حتى عرف شأن هذا المسجد فى جميع مدينة دار السلام، وكنت ترى يوم الجمعة مئات السيارات الوافدة من مختلف الجهات، يحضر فيها المسلمون ويقولون: سنصلّى الجمعة فى مصر، لأنهم يسمعون القارئ المصرى وخطبة الجمعة من الشيخ المصرى وشدّ كثيرًا من شباب جامعة دار السلام المسلمين، الذين كانوا يجلسون بعد الصلاة ليسألونى أمور دينهم. وفيما يعرض لهم من مشاكل فى دراستهم وتعاملهم مع زملائهم غير المسلمين وكثيرًا ما دعونى إلى أن أحاضرهم فى الجامعة بعد أن كوّنوا فيها اتحاد الطلاب المسلمين، وقد حاضرتهم فى موضوعات كثيرة منها «مسئولية الشباب المسلم» «مناقشة حول تعدّد الزوجات فى الإسلام» «الطلاق من وجهة نظر الإسلام» «المذاهب الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها» وكان يدور حوار حرٌّ بينى وبينهم بهدف استجلاء الحقائق عمّا يثار حول الإسلام من أعدائه علمًا بأن النشاط التبشيرى تغلغل وسط الجامعة، وكان يأتى للصلاة فى مسجد المركز سفراء الدول العربية والإسلامية، وكثير من الهنود والباكستانيين المسلمين.. وقد أدّى هذا المسجد - والحمد لله - دورًا كبيرًا فى تجميع كلمة المسلمين وفى توعيتهم بأصول دينهم..

ثانيًا: المعهد الدينى:

أنشأت به معهدًا دينيًّا على نظام معاهد الأزهر بحيث ندرّس فيه العلوم الدينية والعربية، والعلوم الحديثة، واللغة الإنجليزية، وقد أدخلنا فيه هذه المواد الحديثة - لأننا نجحنا فى الاتفاق مع وزارة التربية والتعليم التنزانية بأن تأخذ خريجيه للعمل مدرّسين للدين بمدارس الحكومة، وبهذا وجد الشباب المسلم مجالاً للعمل فى الحكومة، بعد أن كان لا يجد فرصة لذلك..

وقد وصل هذا المعهد الآن بطلّابه إلى السنة الثانية الثانوية، ويضمّ حوالى ثلاثمائة طالب، واعترف الأزهر بشهادته الإعدادية، ومن المتّفق عليه أن يعترف بشهادته الثانوية بعد أن يصل إليها الطلاب، وبذلك يكون للأزهر معهد إعدادى وثانوى على شاطئ المحيط الهندى، يؤهّل لجامعة الأزهر.. والطلاب يتنافسون فيما بينهم من أجل الحصول على منح الأزهر الشريف، وقد قدّمت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة وأنا هناك منحتين لطالبين من طلّاب المعهد، وقدّم السودان كذلك بعض المنح، وقدّم الأزهر منحتين لطالبين من طلّابه، وإن كانت إجراءات سفرهما تأخذ وقتًا طويلًا قد يصل إلى سنة حتى يتمكّنا من السفر، بحسب الإجراءات البطيئة التى تتّخذ فى الأزهر، ويدرّس بالمعهد مبعوثون من وزارة الأوقاف

ومن الأزهر الشريف، ويدفع الأزهر نفقات مبعوثيه وتدفع الأوقاف نفقات مبعوثيها، وهم ما بين علماء لتدريس الدين واللغة العربية، وما بين خريجى كلية الآداب لتدريس المواد الحديثة واللغة الإنجليزية، وتسير الدراسة فى هذا المعهد حتى الآن بانتظام، وقد أسميته «معهد الدراسات الإسلامية» وقد أعددت خطّة الدراسة بالمعهد واعتمدها الأزهر الشريف للمرحلتين الإعدادية والثانوية.

ثالثًا: الجامعة الشعبية:

المعهد تقوم الدراسة فيه نهارًا طبقًا لمناهج محدّدة ولحصص منظمة وفيه كشوف لحضور وغياب الطلاب، لكن هناك كثيرًا من الرجال المسلمين الموظفين والتجار، تقدّموا برغبة فى تعلّم اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - وهم لا يعرفون كلمةً واحدة منها، فماذا نصنع معهم؟ لقد أنشأت لهم دراسةً حرّةً فى اللغة العربية والدين الإسلامى من العصر إلى المغرب كل يوم، ويدرّس لهم أساتذة المعهد، وقد أقبل على هذه الدراسة مئات من المسلمين من مختلف الأعمار، ومختلف المهن، فكنت ترى مديرى مصالح حكومية مسلمين، ومديرى شركات - وتجارًا - وعمّالاً - وشبابًا - ومن لا مهنة له، يجلسون جميعًا فى فصول ليدرسوا لغة القرآن، التى يعشقونها ولم يجدوا وسيلة لتعلّمها «وأحمد الله» على أن ما عندهم من رغبة قويّة فى تعلمها جعلهم بعد أشهر قلائل يجيدون التحدّث بها وكتابتها وكانوا

يفخرون بذلك، ويحاولون أن يتحدّثوا باللغة العربية مع بعضهم ومعنا..

رابعًا: العيادة الطبية:

وفى المركز كذلك خدمات طبية، فقد تبرّعت وزارة الصحة المصرية بإمداده بالأدوية المختلفة خصوصًا أدوية المناطق الحارة، وأسهمت وزارة الأوقاف فى تأسيس جناح من هذا المبنى، تكون به حجرتان للكشف على المرضى، وصالة واسعة للانتظار، وصيدلية تصرف الدواء بمبلغ رمزى يصرف على أجر الصيدلانية والخادم الذى ينظّف العيادة، واشترينا الأجهزة الطبية اللازمة، وأوفدت وزارة الأوقاف طبيبًا مصريًّا وطبيبةً، وكان الطبيب يفحص الرجال والطبيبة تفحص السيدات، من جميع الأجناس والديانات، ويدفع المريض خمس شلنات يفحص بها لمدّة سنَة، كأجر رمزى يصرف على تنظيف العيادة وعلى أجرة العمال بها، ويفحص الطبيبان فى اليوم عددًا لا يقل عن مائة مريض، والعمل فى العيادة يستمر يوم الجمعة لأن العطلة الأسبوعية كما هو متبّع فى الدولة يوم الأحد، والجميل أن العمل فى العيادة يبدأ فى الصباح حتى قبيل وقت الجمعة، فيتهيّأ جميع من بالعيادة من المرضى المسلمين والمسلمات لأداء صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبة الجمعة، وكان ذلك يعطيهم نوعًا من الاطمئنان إلى أن الله تعالى سيهيّئ لهم الشفاء، ولذا كنت ترى العيادة فى يوم

الجمعة تزدحم ازدحامًا غير عادى بسبب تبركهم بهذا اليوم المبارك من جهة، ولوجود فرصة لصلاة الجمعة لهم فى مسجد مصر، كما أطلقوا عليه من جهة ثانية، وقد هيّأنا مكانًا خاصًا لصلاة السيدات، فى مؤخرة الصفوف..

خامسًا: القسم النسائى:

المرأة التنزانية لا تستطيع أن تمسك الإبرة بيدها لتركّب زرار قميص، فضلًا عن أن تخيط ثيابًا لها أو لأطفالها، وكل شيء يرسلونه «للفوندى» أى الصانع، حتى ترقيع الثياب، وقد فكّرت فى إنشاء قسم ليتعلّم السيدات حياكة الثياب، والتطريز وأشغال الإبرة، ووجدت سيدة مصرية زوجة أحد المبعوثين متخصّصة فى هذا الفن، فتطوعت بتدريب السيدات التنزانيات، وساعد سفيرنا المصرى[١]، فى إنشاء هذا القسم وأهداه ثلاث ماكينات خياطة تدار بالكهرباء، وأعلنّا فى الصحف عن إنشاء هذه الدراسة بالمجان، فانهالت الطلبات من مختلف أنحاء تنزانيا وأخذنا فى أوّل دفعة مائة سيدة، واستمرّ تدريبهن ٦ أشهر تخرجن بعدها يجدن تفصيل الثياب وأشغال الإبرة، فصنعن المفارش المختلفة، وأقمنا معرضًا لمنتجات

---

(١) كان فى هذا الوقت هو السفير محمد فؤاد البديوى، وكان من المتحمسين للمركز أشدّ التحمّس، ومن المؤمنين بدوره فى خدمة الدعوة الإسلامية فى هذه المنطقة «وهو الآن سفير مصر فى جمهورية زائير».

القسم ودعونا إليه كبار المسئولين التنزانيين وزوجاتهم والسفراء العرب والمسلمين، وقد اشتروا جميع المعروضات وسرّوا سرورا بالغًابهذا النشاط «وأعطينا شهادة تخرج لهؤلاء السيدات» وهى شهادة فخرية فقط، وأخذنا دفعة ثانية لمدة ٦أشهر كذلك، وقد استطاعت الكثيرات من المتخرجات أن يشترين ماكينات خياطة لهن ويصنعن بالأجر ملابس للسيدات والأطفال، وبهذا وجد باب رزق شريف جديد للمرأة المسلمة التنزانية...

سادسًا: المكتبة:

توجد قاعة فسيحة لمكتبة إسلامية، أمدّها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالعديد من الكتب من مطبوعاته، والعديد من المصاحف، وقد أهدى المكتبة كذلك سفراء الدول العربية عددًا كبيرًا من مطبوعات بلادهم، وأهدتنا السعودية الكتب المدرسية التى تدرس فى معاهدها، وقد وزعناها على الطلاب ليدرسوا فيها اللغة العربية، والتفسير والحديث، وينقص هذه المكتبة ركن للكتب الدينية باللغة الإنجليزية ليقرأ فيها من لا يعرف اللغة العربية، كذلك ينقصها كتب باللغة السواحيلية، وهى ضرورية جدًّا لنشر الثقافة الإسلامية بلغة الشعب التنزانى، ولولا ما نقدّمه لها من بعض كتبنا التى كتبناها بالعربية وترجمت إلى السواحيلية ما وجدوا ما يقرءونه بلغتهم، وذلك مثل كتاب «أيسر التفسير لكلمات القرآن الكريم»

«ودليل الحاج» «ومسئولية الشباب المسلم» «والإسراء والمعراج» والصيام، وبعض المحاضرات الدينية وبهذه المناسبة أناشد المسئولين عن نشر الثقافة الإسلامية فى هذه المنطقة من الدول العربية والإسلامية أن يقدّموا لهم مطبوعات باللغة السواحيلية إن أرادوا أن ينشروا قيم الدين الإسلامى.. وأن يسهموا فى الدعوة إلى الله فى هذه المنطقة..

سابعًا: قاعة المحاضرات:

وقد استخدمناها فى الاحتفالات الدينية فى المناسبات المختلفة، مثل عيد الهجرة، ومولد النبى، والإسراء والمعراج، واستقبال شهر رمضان، وغزوة بدر الكبرى، وليلة القدر، واستقبال العيد، والاحتفال بسفر الحجاج التنزانيين، فضلاً عن التمثيليات التى درّب عليها طلّاب المركز وأدّوها خير أداء باللغة العربية مرةً، وباللغة السواحيلية أخرى، وهى تمثيليات دينية مثل إسلام عمر، والهجرة..

ثامنًا: مجلة رسالة الإسلام:

وقد أنشأناها بالمركز وتكتب على الآلة الكاتبة وتطبع على «الرونيو» وتوزّع بالمجان، وقد طبعنا غلافها فى وزارة الأوقاف المصرية بالألوان، ثم يجمع أوراق العدد بعد طبعه ويوضع داخل هذا الغلاف، ويدبّس ثم يوزّع هدية من المركز إلى المسلمين بالمجان.

هى قسمان: قسم باللغة العربية وقسم باللغة السواحيلية، وهى تعرض قيم الإسلام بأسلوب مبسّط سهل يفهمه الجميع وترد إليها مجموعات كثيرة من الفتاوى والأسئلة من مختلف أنحاء منطقة شرق أفريقية ونجيب عليها فى عدد المجلة، وتوزّع الأعداد على كبار المسئولين الإسلاميين فى تنزانيا، وعلى الجالية العربية، وترسل إلى كبار المسلمين فى أوغندة وكينيا وزنزبار، وبذلك عقدنا صلةً ثقافية بين المركز وبين المسلمين فى المنطقة، وهى المجلة الإسلامية الوحيدة التى تنشر فى شرق أفريقية وتكتب بالعربية والسواحيلية وهى شهرية وتصدر فى غرّة كل شهر هجرى.

تاسعًا: النشاط الرياضى

شباب المركز عندهم طاقة جسمانية قويّة فوجهتها إلى النشاط الرياضى وأقيم فى المركز فريق لكرة القدم، وكرة السلة، والكرة الطائرة، وكرة البنج بونج وبذلك أحسّ شباب المركز بأنهم لا يقلّون عن شباب أية مدرسة حكومية فى مزاولة الأنشطة المختلفة..

وقد جعلت هذا الشباب يعمل فى زراعة الأرض الواسعة المحيطة بالمركز ويزرعونها بالخضر السريعة الإنتاج ويوزّعونها على بعضهم، وزرعوا بعض الأشجار المعمّرة مثل الباباى وشجر «النارجيل» أى

جوز الهند – وشجر المانجو – وقد أثمرت أشجار الباباى وأنا موجود هناك.

إن أهمية هذا المركز تتّضح إذا علمنا أن المسئولين عن التعليم يضعون قيودًا شديدة على تعليم أبناء المسلمين بحيث لا يجتاز المرحلة الإعدادية إلاّ عدد قليل منهم، ولا يجتاز المرحلة الثانوية إلا أقل القليل، ثم لا يدخل الجامعة إلاّ أعداد محدودة، ويبقى الآخرون للوظائف المتوسطة، أما الوظائف العليا فى الدولة فلا يشغلها فى الأعم الأغلب إلاّ شباب غير المسلمين، ولعلك لا تعجب إذا عرفت أن وزير التعليم الحالى فى تنزانيا كان قسيسًا، وجاء الكنيسة وخلع ثياب الرهبان ولبس الملابس المدنية وولِىَ وزارة التعليم...

اقتراحات لتنشيط المركز

أوّلًا: يفد إلى المركز شباب من مختلف مناطق تنزانيا، بل وفد إليه شباب من جزر «الكومورو» والتى استقلت حديثًا، ومن كينيا وزنزبار، وهؤلاء الطلاب قد وفدوا ليتعلّموا فى معهد الدراسات الإسلامية بالمركز الإسلامى، وليس لهم أهل يقيمون عندهم، لكنهم يقيمون فى المساجد، والمساجد أكثرها فى وسط المدينة، فيحضرون إلى المركز صباحًا كل يوم ويمشون مسافة عشرين كيلو مترا،

ويعودون بعد الظهر كذلك سائرين على أقدامهم.. ومن المشاهد التى أثّرت فى نفسى تأثيرًا بالغًا وكتبت عنها فى بعض الصحف المصرية، مشهد ذلك الشاب الوافد من آخر منطقة فى تنزانيا على الحدود بينها وبين أوغندا، ويقيم بأحد المساجد، وهو شاب مواظب وممتاز وحريص على تلقى العلم، وكل أمله أن يكمل تعليمه فى الأزهر الشريف، لاحظت يومًا أنه لم يحضر إلى المعهد، ولفت ذلك نظرى لأننى أتابع نشاطه وأتوقع له مستقبلاً طيبًا يمكن أن ينتفع به فى خدمة الإسلام فى هذه المنطقة ولطالما قلت: إن إقامتنا نحن المصريين هنا محدودة، ويجب أن نكوّن جيلاً من شباب هذه البلاد يحملون عبء الدعوة إلى الله، والقيام بإدارة هذا المركز والمعهد الدينى وهم أقدر الناس على نشر الإسلام بلغة أهل البلاد وبلهجاتهم المختلفة، وحينما نطمئن إلى وجود من يحمل المسئولية، ننقل نشاطنا إلى منطقة أخرى من مناطق أفريقية، وهكذا حتى يكون للإسلام دعامة من بين أبناء المناطق التى تريد نشر الإسلام فيها، ولما جاء هذا الشاب فى اليوم التالى سألته: يا خميس، وهو اسمه - لماذا لم تحضر بالأمس؟ فأجاب بصراحة - ومن عاداتهم الصراحة فى كل شىء: مولانا الشيخ، أنا أحصل من بعض أولى الخير على شلن كل يوم كمساعدة، هذا الشلن أفطر منه وأتغذّى وأتعشى وأرقد فى المسجد، وأذهب إلى المركز صباحًا ماشيًا على قدمى وأرجع ماشيًا كذلك - يعنى يقطع أربعين كيلو مترا يوميًا ذهابًا وعودة - وأمس

أحسست بأن صحتى لا تساعدنى على المشى، فإذا ركبت الأوتوبيس بنصف شلن ذهابًا وبنصف شلن عودة بقيت اليوم كله بلا طعام، وقد جربت ذلك من قبل فازداد تعبى، لهذا تخلّفت كارهًا تخلّفى عن حضور الدراسة، أرأيت كفاحًا فى سبيل التعليم أشقّ من هذا الكفاح؟ فى الوقت الذى يرى فيه الشباب غير المسلم يعيش العيش الطيب، وتغدق عليه المعونات من كل مكان، لكن ضريبة الدعوة إلى الإسلام يتحمّلها أمثال هذا الشاب المؤمن إيمانًا بالله لا يهتز وثقة بنصره لا تتزعزع، وأذكر أننى حين نشرت هذا المشهد فى إحدى صحفنا المصرية كتب إلى أحد الأطباء المصريين الذين يعملون فى ليبيا وفى مدينة «الخميس» عارضًا معاونته لهذا الطالب، وفعلاً أرسل إليه مبلغًا من المال فرح به الطالب أيما فرح. وتأكد له أن المسلمين يحسّون إحساس إخوانهم المسلمين فى كل مكان وأن المسلم لن يضيع من الله ولا من إخوانه المسلمين..

لهذا أقترح على مصر إقامة قسم داخلى يلحق بالمركز إمّا حوله - والمكان متسع - وإما أعلاه، ويؤثث ليتسع لخمسمائة طالب من الوافدين من خارج دار السلام، وحبّذا لو أعطى كل واحد شلنًا فى اليوم ليأكل منه، ويشرف على هذا القسم الداخلى أساتذة المركز ويتناوبون المبيت فيه كل واحد ليلة فى الأسبوع بحيث يعيش الشيخ المصرى مع الطلاب إعاشة كاملة، ويسألهم عن أحوالهم، ويسألونه عن الصعب فيما يتعلّمون، ويتعوّدون منه النطق العربى

السليم، وأنا واثق من أن هذا النظام لو اتبع فلن تمضى عشر سنوات إلّا ويكون عندنا سفراء دينيّون من أبناء المنطقة تعلموا وأقاموا، وعادوا إلى قومهم يعلّمونهم، ويثقّفونهم تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فلوْلا نفَر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين ولِيُنذِروا قومَهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون﴾[1].

والأصل فى العمل الدينى أن يقوم على التطوّع والاختيار والرغبة فى العمل فى هذا المجال، وذلك كله موجود لدى هذا الشباب المؤمن المتحمس الغيور على دينه. فى مواجهة النشاط التبشيرى المكثّف فى هذه المنطقة.

ثانيًا: يلحق بالمركز قسم للتعليم المهنى، وما أشدّ احتياج المسلمين هناك إلى وجود الصانع المسلم الماهر، إن الصناعة احتكرها غير المسلمين، واحتكرها كذلك الهنود فلماذا لا يتدرّب الشباب المسلم على بعض المهن، ليأكل عيشه من كسب يمينه، وعرق جبينه، إذا وجد هذا القسم فيتدرّب الشباب على حرفة النجارة، وما أكثر الثروة الخشبية عندهم، وعلى السباكة - وعلى أعمال الكهرباء - وعلى ميكانيكا السيارات، وحبذّا لو عملت بعض الأنوال اليدوية الصغيرة لتدريبهم على صناعة الأكلمة، وفى نفس الوقت يدرسون دراسة نظرية فى العلوم الدينية والعربية، فيتخرج الشاب وهو مُلِمٌّ

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٢.

بأصول دينه، ومعه حرفة يعيش منها.. كما صنعنا فى القسم النسائى، لقد كانت المرأة تتعلّم صناعة التفصيل وحياكة الملابس، وفى نفس الوقت تتعلّم الكتابة العربية، وتحفظ بعض سور القرآن القصيرة، فتعلمت الدين والدنيا معًا..

إن ملاحظاتى حينما أزور مصلحة حكومية أو مصنعًا من المصانع، أو متجرًا من المتاجر أن أرى رؤساء المصالح، ومديرى المصانع، والفنيين بها وأصحاب المحال التجارية من غير المسلمين، أمّا المسلمون فهم السعاة فى المصالح الحكومية وهم الخدم فى المصانع والمحلات التجارية، وهذا يضفى جوًّا من الهوان على المسلمين، وبالتالى لا يجعل للإسلام العزّة التى أرادها الله له وللمؤمنين، فالتعليم إلى آخر مداه، والمنح الدراسية الكثيرة والتدريب المهنى، كل ذلك يجعل للمسلمين قيمة فى بلادهم، ويكونون بوضعهم الاجتماعى الممتاز خير دعاة للإسلام..

وصف لمدينة دار السلام

مدينة دار السلام عاصمة جمهورية تنزانيا وهى ميناء بحرى هام، تقع على شاطئ المحيط الهندى، وهى مدينة تجارية عريقة فى التجارة، ويظهر من وجوه أهلها ومظهرهم العام أنها ليست فى مستوى نيروبى أو كمبالا فى جودة الهواء، وكثيرًا ما نرى مظاهر عدم الصحة على

الوجوه، مع أنها ليست بها أوبئة عامة وتشرب دار السلام من ماء نهري. ولكن يطهّر بأدوية كثيرة ولا تكاد تستسيغ شرب الماء بسبب شدّة ظهور طعم الأدوية المطهّرة وخاصة مادة الكلور فيه، والجوّ فيها حارّ رطب، وتوزيع سكانها يتم كالآتى: الأوربيون ويسكنون فى فلّات متباعدة محاطة بحدائق كبيرة، مشجرة الشوارع، نظيفة غاية النظافة وكأنها مدينة قائمة بذاتها، وتقع على شاطئ المحيط الهندى، تليها مدينة متّصلة بها للهنود، وفيها غالبًا الأحياء التجارية وتتألف بيوتها من طابقين أو ثلاثة، ومعظمها مبنى بالأسمنت المسلّح وشوارعها ضيّقة غير مشجّرة ولكنها مرصوفة، ثم العرب ويسكنون مع الأفريقيين فى أحياء واحدة لأنهم يتعايشون معهم ويصاهرونهم، ولهم بهم صلات ودٍّ وأخوّة منذ زمن طويل، وينظرون إلى العرب نظرة احترام وتقدير فمنهم السادة الذين ينتسبون إلى آل البيت، ومنهم الفقهاء والمعلّمون وحفظة القرآن الكريم، وتلك ميزة يتميّز بها العرب عن غيرهم، لأن الهنود من طبيعتهم أنهم متقوقعون على أنفسهم حتى إن لهم مساجدهم الخاصة بهم ومعابدهم المختلفة، ولا يصاهرون أحدًا من الأفارقة، ولعل هذا التوزيع فى المساكن قد تمّ بذكاء من الأوربيين، فهم يتوقعون من قديم أن تقوم ثورة عليهم من الأفريقيين، فيجدون أمامهم حاجزًا حصينًا وهم الهنود، وحتى يصلوا إليهم يكونون قد ركبوا البواخر التى لا يخلو منها شاطئ المحيط وغادروا البلاد، ويبلغ عدد العرب فى دار السلام وحدها حوالى

عشرة آلاف عربى مسلم، أمّا فى الجمهورية فلا يقلّون عن ربع مليون؛ لأنك تراهم فى كل مكان ويشتغلون فى التجارة وفى الزراعة، وبعضهم موظفون فى الشركات وأغلبهم من حضرموت وعمان، وتوجد أقلية منهم من اليمن وعدن، وليس فيهم من عرب الشرق الأوسط أحد... وحينما تتجوّل فى دار السلام يلفت نظرك كثرة العرب بلباسهم المعروف: الجلباب الأبيض وعليه الجاكت والطاقية والمسلمون هناك يلبسون هذه الملابس، ويحرصون على لبس الطاقية التى تميّزهم عن غير المسلمين.

ويسترعى الانتباه فى دار السلام كثرة المساجد، وإن كان لا يوجد فيها مسجد يقع على الشاطئ لأنه - كما قلت - مكان لسكنى الأوربيين - وأكبر المساجد فى وسط البلد يقع فى حىّ العرب واسمه المسجد الجامع، وتقام فيه الجمعة والاحتفالات الدينية، ويصلّى فيه العيد، ويحضر الصلاة ممثلوالحكومة من المسلمين، وكبار رجال الدولة ووجهاء البلاد، وإمام المسجد وخطيبه رجل فاضل أصله عربى هو الشيخ عبد القادر الجنيد - وهو يخطب الجمعة باللغة العربية الفصحى ويحضّرها تحضيرًا جيدًا، وإذا حضرنا أو حضر شيخ أزهرى فى المسجد يؤدى درسًا بعد «صلاة الجمعة» وقد شاركنا فى الاحتفالات الدينية التى تقام بهذا المسجد من ذكرى الهجرة والمولد النبوى الشريف، وليلة القدر، أمّا ليالى رمضان فإن المسجد يمتلئ عن آخره فى صلاة المغرب ويفطر الصائمون فيه على بعض من

التمر ويشربون الماء ثم يصلّون المغرب وينصرفون للإفطار فى بيوتهم، ويعودون لصلاة العشاء والتراويح حيث يشهد هذه الصلاة عدد يساوى عدد الحاضرين فى صلاة الجمعة، وبعدها يجلسون لقراءة القرآن الكريم، أو يستمعون للقارئ الذى تبعثه وزارة الأوقاف لإحياء ليالى رمضان بتلاوة القرآن، ثم يشرح ما قرأه واحد من علماء الأزهر، وغالبًا يكون موفدًا من وزارة الأوقاف مع القارئ لإحياء ليالى رمضان.. وللشيخ عبد القادر الجنيد نشاط فى نشر التوعية الدينية فهو يقرأ من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء كل ليلة كتابًا من كتب الفقه الموسّعة على مذهب الإمام الشافعى وقد قرأ للناس كتاب المنهاج وقرأ لهم أحاديث من صحيح مسلم، وهكذا يقبل المسلمون على معرفة هذه العلوم الدينية ويمضى الذين استوعب فكرهم الكتابة العربية والمؤلفات العربية وخصوصًا ما يكتب عن الدين، ومن الظواهر الطيبة التى تلفت النظر أن المسلمين يجدّون طوال النهار فى أعمالهم التجارية، ولا يضيعون من وقتهم فى اللهو أو الحديث اللاهى أو المشى فى الطرقات، ولا يغلقون محلّاتهم من طلوع الشمس حتى غروبها، فإذا أذّن للمغرب أغلق الجميع محلاتهم التجارية، وذهبوا إلى بيوتهم واستبدلوا بملابسهم "الملابس البيضاء" النظيفة واتجهوا إلى المسجد، ويظلّون فى عبادة دائبة إلى ما بعد صلاة العشاء بحوالى ساعة، ثم يعودون إلى بيوتهم ليناموا ويكون استيقاظهم مع الفجر حيث يؤدّون صلاته فى المسجد،

ويعودون إلى بيوتهم للراحة قليلاً وفى طلوع الشمس تكون المحلات التجارية قد فتحت أبوابها، وبدأت الحياة تدبّ فى المدينة..

. هذه حياة طيبة، وقت العمل يقطع كله فى العمل، ووقت المسجد فى المسجد ووقت الراحة يكون للراحة، وكل مشغول بأمر نفسه..

هذا المسجد الجامع إمامه شافعى المذهب وروّاده جميعًا شافعية، وهناك مذاهب طائفية لها مساجدها المتميزة والخاصة بهم، وهناك مسجد السنّيين الأحناف، ومسجد الأباضية، ومسجد الشيعة الاثنى عشرية، ومعبد الإسماعيلية أتباع أغا خان ويسمونه مسجدًا وكتبوا عليه مسجد الخوجا، ومسجد للبهرة، حتى القاديانية لهم مكان يسمونه مسجدًا..

ومن المعلوم أن دار السلام أوّل من بناها العمانيون، وذلك عندما انتصروا على البرتغاليين فى إحدى المعارك، وآبوا بأسطولهم إلى مرفأ دار السلام حيث أطلقوا على هذا المرفأ اسم دار السلام، وأخذت المدينة تنمو حتى أصبح عدد سكانها الآن يقارب ربع مليون نسمة.

المتحف الوطنى فى دار السلام: ويقع فى الحىّ الأوربى فى ضاحية جميلة شمالى شرق المدينة وقد كتب عليه لافتة أنه أنشئ فى عهد الملك جورج الخامس ملك بريطانيا، ولهذا لا تعجب إذا وضعت فيه صور تمثّل العرب وهم مستعمرون لهذه البلاد، ووضعت صور

تمثّل الأفريقيين الذين سيق منهم العبيد إلى جزيرة زنجبار ليبيعهم العرب، إن هذا كله قد دسّ على العرب بذكاء لإذكاء روح الكراهية من الأفريقيين نحو إخوانهم العرب، ويستغلّ هذه المناظر أعداء العرب وأعداء الإسلام، ويلهبون به مشاعر الوطنيين ضد العرب، ولكنهم غافلون عن الذين استعمروهم وأذاقوهم العذاب، وساقوهم إلى الحروب العالمية ليكونوا نارها الموقدة، وغير غافلين عمّن كان يتخطّفهم ويشحنهم إلى أوربا وأمريكا ليباعوا هناك.

يتألّف المتحف من غرف تضمّ إحداها المخلّفات القبلية وكلها حديثة، ويتألف معظمها من طبول ورماح وسيوف وأقنعة وملابس أفريقية، وقد كتب عليها بالإنجليزية، وفى بعض الأحيان يكتب عليها بالسواحيلية إيضاحات غير كافية، وقاعة أخرى تضمّ مخلّفات عربية معظمها من زنجبار، وتضمّ رسومًا زيتيّة عن بعض المناظر التاريخية الحديثة فى البلاد مثل منظر العبيد والسخرة، الذين كان الألمان يجبرونهم على العمل إبّان الاستعمار الألمانى لشرق أفريقية وقبل دخول الإنجليز، كما يضمّ بعض المناظر لبيع العبيد، ومنها منظر سوق بيع العبيد فى زنجبار منذ مائة سنة، ورسومًا إيضاحية لتاريخ الاستعمار العربى، لساحل تنجانيقا، على حدّ تعبير الذين كتبوا على تلك اللوحات، وجميع الرسوم التى كتبت عن التاريخ العربى تظهر العرب بمظهر الحاكم المسيطر على الأفريقيين، ولكن المخلفات العربية فى غاية الروعة والجمال وهى تدلّ على الحضارة التى بلغها

الحكام العرب فى شرق أفريقية وبخاصّة فى زنجبار حيث عرض فيه كرسى جميل مطعم بعضه بالذهب وبعضه بالفضة، وسرير للنوم يشبه سرير سلاطين المماليك فى مصر والشام، وأوانى صنع القهوة وسيوف وخناجر محلاة بالذهب وملابس عربية جميلة من القرن الماضى، ومن المفارقات فى هذا المتحف أنه وضع فى داخله تمثال نصفى لأحد الإنجليز الذين أسّسوا هذا المتحف وأفنوا حياتهم فى جمع مادته، وقد وضع الأفريقيون بعد الاستقلال بجانبه صورة بارزة للرئيس «جوليوس نيريرى» رئيس الجمهورية، مع أنه ليس له فى إنشاء المتحف يد، وهذا خلاف ما جرت عليه العادة فى المتاحف الأخرى، حيث يخلّد أصحاب الجهد الحقيقيون فى إنشائها، لا يذكر معهم الزعماء السياسيون الذين يعملون فى غير هذا الحقل، وعلى سبيل المثال فلم توضع صورة الزعيم «جومو كينياتا» بجانب صورة الإنجليزى الذى قام بإنشاء متحف نيروبى العظيم.

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الباكواتا)

كان فى تنزانيا كثير من الجمعيات الإسلامية، وأكبرها جمعية الإسعاف الإسلامية وكان أمينها العام رجلاً مخلصًا متفانيًا فى خدمة الإسلام واسمه الأستاذ «عزيز خاكى» أما رئيسها فهو أحد زعماء

المسلمين من الأفريقيين فى هذه البلاد، ولهذه الجمعية مدارس كثيرة تديرها وتشرف عليها. والمسئول عن التعليم الإسلامى فيها رجل مسلم متديّن اسمه الأستاذ «عمر مهاجى» وهو فى الوقت نفسه أحد موظفى الحكومة، وأحد أعضاء الحزب الوطنى الأفريقى الحاكم، ومن المعروف أن الحكومة التنزانية الحالية تميل إلى الشيوعيين ولها صداقة قويّة بالصين، وتتبادل معها التجارة، حيث تستورد منها كل ما يحتاجه الشعب بدءًا من الصناعات الثقيلة إلى الأطعمة المعلّبة؛ لذا فهى تطبق كثيرًا من أساليبهم ولذلك فقد ألغت رخص جميع الجمعيات الإسلامية عدا جمعية واحدة هى المسماة جمعية الإسعاف الإسلامية، لأن الجمعية المذكورة يشترك الإسماعيليون فى تمويلها، وهم أصحاب ثراء وأملاك طائلة فتستفيد الدولة ماديًا من الجمعية المذكورة وقد عمدت الحكومة إلى ربط جميع المدارس الإسلامية النظامية وجعلها تحتِ إشراف هذه الجمعية لكنها حولت أكثرها إلى مدارس مدنية وأصبحت حصص الدين واللغة العربية فيها قليلة جدا.. ثم حلّت هذه الجمعية فى أوائل السبعينات وأقيم مكانها مجلس على مستوى الجمهورية اسمه «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية» ويعرف فى اللغة السواحيلية باسم «باكواتا» وهو الجهة الوحيدة المسئولة عن الإسلام فى تنزانيا من ناحية إنشاء المدارس الإسلامية، وطلب إيفاد مدرّسين لها، وطلب منح دراسية فى الجامعات الإسلامية والترشيح للمنح، وإقامة المساجد، وتنظيم سفر الحجاج، وإصدار

الفتاوى وله فروع فى سائر أنحاء الجمهورية وهو معترف به من الدولة كهيئة إسلامية رسمية.. وقد اختار رئيس الجمهورية أعضاءه بذكاء، رئيسه رجل فاضل ولكنه مشغول بتجارته واسمه «صالح مساس» ونائب الرئيس شيخ فاضل يعمل مستشارًا لرئيس الجمهورية واسمه الشيخ «عبد الله شوارمبو» وأمين الصندوق اسمه الشيخ «محمد على» وأمينه العام اسمه الشيخ «آدم نصيبو» وله مقرّ معروف فى العاصمة، وله مدارسه التى يشرف عليها، ورأيه لا يخرج عن رأى الحكومة ولا يبتّ فى أمر من الأمور إلّا إذا استشار الحكومة فى هذا الرأى، وحينما وجد هذا المجلس المركز الإسلامى قد أخذ فى النشاط وله عيادة طبية وتدرّ بعض الدخل المادّى عليه طلبوا الاستيلاء عليه فعارضت فى ذلك لأن المركز لم يستكمل إنشاءاته بعد.

فطلبوا تشكيل مجلس إدارة مشترك من المصريين والتنزانيين فقلت لهم: إن مديره معيّن من وزارة الأوقاف المصرية، وحينما تتمّ أنشطته ويقف على قدمية يسلّم إليكم لتديروه بمعرفتكم، إلّا أن مصر أقامته هدية لكم، ولا تهديه إلّا بعد أن يكون مستوفيًا كل ما يحتاجه من أنشطة، وفى الواقع أنا أتخوّف من تسليمهم هذا المركز لأنى لا أطمئن إلى حسن إدارتهم له، وأرجو أن يسلم إلى جيل جديد من الشباب الذى تثقّفَ فى الأزهر وعنده غيرة على إنجاح رسالته، وعلى نشر الثقافة الإسلامية عن طريقه بالأسلوب العلمى الحديث؛

لذلك كانت تجرى فى الخفاء صراعات بينى وبينهم ولكن كلًّا منّا يظهر الودّ الكامل لصاحبه ولم يظهر بيننا أىّ خلاف فى الرأى فهم يوافقوننى على كل نشاط نقوم به، وحينما يقيم المركز حفل إفطار فى رمضان لطلّابه وفقراء الحىّ الذى يقع فيه المركز ويدعو أعضاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية يسارعون إلى تلبية الدعوة مشكورين وإذا طلبنا منهم كلمةً فى احتفال دينى تحدثوا وأثنوا على نشاط مصر فى هذا المركز.. وحتى الآن لا زال المركز يدار عن طريق مبعوث من وزارة الأوقاف المصرية.. ويمضى فى طريقه قُدمًا على حسب الخطة التى رسمناها له من قبل، إذن فإن هذا المجلس بوصفه الحالى لا يفى بالقيام بمسئوليته كمجلس أعلى للشئون الإسلامية نظرًا لانتمائه إلى الحاكم...

جزيرة زنجبار

تتكوّن تنزانيا من تنجانيقا وزنجبار:

أوّلًا – تنجانيقا: ويعتبر المسلمون أكبر جماعة دينية فيها، ويأتى بعدهم فى الكثرة الوثنيون فالمسيحيون ومع ذلك فالسلطات الحقيقية بأيدى المسيحيين نظرًا لوجود المتعلّمين منهم أكثر من المسلمين، ونظرًا لأنهم بطبيعتهم كانوا فى زمن الحكم الإنجليزى أكثر ميلًا

للأوربيين، بل إنهم جميعًا تعلّموا فى المدارس الأوربية أو فى مدارس المبشرين، وعلى الرغم من أن حكومة تنزانيا يساريّة فإن رئيسها «نيريرى» مسيحى وله نائبان من المسلمين هما «رشيد كواوا» و «عبود جوبتى» حاليا، وكان من قبيلة «عبيد كارومى» وحوالى نصف أعضاء الحكومة من المسلمين ويقدّر سكان تنزانيا بـ ١٢ مليونا فى الوقت الحاضر منهم أكثر من ٦ ملايين مسلمون وثلاثة ملايين ونصف وثنيون.. ومليونان ونصف مسيحيون ، ويكثر المسلمون على ساحل المحيط الهندى حيث توجد مدن تكاد تعتبر مدنًا إسلامية مثل دار السلام «العاصمة» ومدينة «تانجا» حيث تبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٠٪ ولولا هذه الحكومة اليسارية لكان بالإمكان إدخال عدد كبير من غير المسلمين فى الإسلام نظرًا إلى أنه كانت توجد جمعيات إسلامية قويّة هناك ولكنها ألغيت كلها كما قدمنا عدا واحدة، ومع ذلك فقد ذابت فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى تسيطر عليه الحكومة، ومع ذلك لا يزال عدد الأفريقيين من المشايخ وأئمة المساجد والطرق الصوفية يقومون بالدعوة الإسلامية بصفة فردية فى الأماكن النائية من البلاد، ولا يزال عدد الداخلين الجدد فى الإسلام يتزايد ولا يزال يبنى العديد من المساجد، وبخاصة فى الأماكن النائية بالجهود الذاتية ونحن نظن أنه لو كانت الحكومة التنزانية بعيدة عن الميل إلى اليسار الذى يقترب شيئًا فشيئًا من الشيوعية لكان من الممكن أن تغدو مركزًا للدعوة الإسلامية فى

شرقى أفريقية نظرًا لسابقة سكان السواحل فيها إلى الإسلام، وشدّة تديّنهم.

ومما يدل على قوّة تديّنهم وتعلقهم بكتاب الله تعالى هذا المنظر الذى شاهدته بنفسي، رأيت أحد الأفارقة يمسك المصحف ويقرأ فيه بصوت مرتفع وبقراءة فيها مَد وغَنٌّ بنطق للأحرف سليم، واستمعت منه كثيرًا من التلاوة وطلبت منه أن يقرأ فى سورة أخرى فقلب أوراق المصحف وأخذ يقرأ قراءةً مجوّدة سليمة ثم أعطيته مجلّة كانت معى مكتوبة باللغة العربية وطلبت أن يقرأ منها فلم يستطع أن يقرأ كلمة واحدة، فقلت له اكتب اسمك باللغة العربية فلم يستطع فهتفت من فورى يا الله، صدقت وأنت تقول: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ إن هذا الرجل يقرأ القرآن فى يسر وسهولة، ولا يستطيع أن يقرأ أويكتب مجرد اسمه، إن تلك الظاهرة معجزة للقرآن الكريم، وقد علمت منه أنه تعلّم القرآن فى الكتّاب على يد شيخ، وكان الشيخ يقرأ من المصحف وهو يردّد خلفه القراءة ويكرّر القراءة مرات ومرات حتى انطبعت فى عقله وكأنها صورة فوتوغرافية رسمت فى عقله، وهكذا قرأ القرآن كله، فحينما ينظر إلى أية سورة منه يتذكّر ما يعقله من كلماتها وحروفها فيقرأ بسهولة.. ويدلّ هذا أيضًا على حرص المسلم التنزانى على أن يكون متّصلاً بالقرآن قارئًا له، متعبّدًا بتلاوته..

ثانيًا – زنجبار: جزيرة فى المحيط الهندى لا تبعد عن الساحل

الأفريقى أكثر من ١٧ دقيقة بالطائرة الصغيرة وهى وسيلة الانتقال السريعة بينها وبين دار السلام وهناك وسيلة أخرى وهى عن طريق البواخر، تظهر الجزيرة من الطائرة خضراء كثيفة الأشجار وقد كسا أرضها نخيل جوز الهند وأشجار القرنفل الذى قيل إن زنجبار تنتج منه ٩٠٪ من جميع القرنفل فى العالم، وفى المطار تشاهد بعض الصور التى تمثل بعض مناظر زنجبار فى السابق، ومنها إظهارهم الأفريقى قد حطم القيد من يديه - والقيد يعنى العربى - فيما يزعمون ولقد حصلت كارثة للعرب فى زنجبار بعد استقلالها بأقل من شهر، فلقد كان الحكم فيها للعرب وكانوا يعاملون الأفريقيين معاملة الأخ لأخيه، ولم يشعر الأفارقة بأدنى اضطهاد لهم، وكانت هذه الجزيرة تعتبر معقلاً من معاقل الإسلام فى أفريقية وكانت كذلك معقلاً للغة العربية، وفيها المساجد شامخة البنيان والمدارس الإسلامية، وفيها معهد إسلامى كبير خرّج كثيراً من المثقفين الذين درسوا اللغة العربية وتعلموها وأصبحوا كمن تخرّج فى أى معهد عربى فى أى بلد عربى، ولكن فجأة قامت ثورة حمراء على العرب[1] فأطاحت بهم وقتلت منهم الكثير وزجّت فى السجن بزعمائهم واستطاع الكثيرون

---

(١) من أثر الدعاية الأجنبية التى صوّرت العرب أنهم كانوا تجار رقيق، وكذلك لتأثرهم بالقومية الأفريقية التى تريد السيطرة الأفريقية على كل شأن من شئون البلاد واعتبار العرب غرباء عن البلاد.

أن يفرّوا من هذا العدوان الغاشم، تاركين أموالهم ودورهم، والأفريقى إذا ثار أصبح كالأسد الهصور لا يستطيع أحد أن يقف فى طريقه، وانتهت بهذه الثورة فترة طويلة من أخصب الفترات التى مرّت بهذه الجزيرة وهى فترة الحكم العربى، وكانت تلك الثورة عام ١٩٦٤م، وعند زيارتى للجزيرة عام ١٩٧٣ شاهدت أن الجزيرة تكاد تكون خالية من سكانها، ولفت نظرى أننى لم أر فيها شبابًا كثيرًا فكل من رأيت شيوخًا مسنّين وأطفالاً، وذلك لأن الشباب العربى إمّا قد قُتل فى الثورة أو زُجَّ به فى السجون أو فرّ من البلاد، وأخذت أتقصّى الحقائق عن أسباب هذه الثورة فخرجت بالنتائج الآتية:

أولاً: أن بعض العرب كانوا يحكمون فى زنجبار من غير أن يختلطوا بالأفريقيين ويمتزجوا سياسيًّا معهم فكان الأفريقيون ينظرون إليهم لهذا السبب نظرتهم إلى حكام أجانب يجب التخلصّ منهم.

ثانيا: أن هناك رواسب قديمة من مشاعر الكراهية للعرب تولّد معظمها من كون بعض العرب والآسيويين ممن لا يتقيّدون بأحكام الشريعة الإسلامية، ولا يميّزون بين الحلال والحرام فيما كانوا يصنعون من اتخاذهم بعض الأفارقة عبيدًا لهم، وقيل إنهم كانوا يتاجرون فيهم، ويقولون إن بعض العرب ممّن لا دين لهم كانوا ينهبون الأفريقيين ومنهم مسلمون ويبيعونهم فى الخارج، ويفرقون

بذلك بين المرء وزوجه وأهله وذويه، وإن كانت هذه الحالة حدثت فردية، ولم تكن سمةً عامّةً للعرب هناك، إلاّ أن أعداء العرب كانوا يستغلونها فى إثارة الكراهية لكل ما هو عربى، فلما قامت الثورة بتلك العواطف المهتاجة لم تفرّق بين الجانى وغير الجانى من العرب.

ثالثًا: أنه عند وصول الإنجليز إلى زنجبار بعد أن عقدوا معاهدة حماية مع سلطانها وفدت معهم الثقافة الغربية التى منها حرية الصحافة والتعبير، فاستطاع أن يسيطر على الدعاية والإعلام أناس من الأوربيين وغيرهم من الحاقدين على الإسلام والعرب، فجعلوا على المدى الطويل يظهرون العرب للأفريقيين على أنهم أناس غزاة مغامرون وصلوا إلى أفريقية لهذا الغرض، كما شرحوا بطريقة مبالغ فيها زعمهم أن العرب كانوا يزاولون تجارة الرقيق هناك، وقد استطاعوا على مرّ السنين أن يسمّموا أفكار الأفريقيين فى نفس الوقت الذى لم يكن فيه العرب يعنون بالرد على تلك المفتريات بل لم يكونوا يعنون بالدعاية السياسية أصلاً.

رابعًا: أن ريح الوطنية الأفريقية قد هبّت على زنجبار من سائر أنحاء القارة الأفريقية، وتلك الروح الوطنية ترى الحكام العرب عنصرًا خارجًا عن نطاق القومية الأفريقية؛ وذلك لأن العرب يتميزون بلونهم عن الأفريقيين ولم يوفقوا إلى أن يُبقوا على صلات القربى التى كانت تصلهم بهم على مر العصور.

خامسًا: تسللت اليسارية الماركسية والأفكار المستوردة من خارج القارة الأفريقية إلى زنجبار فأخذت تصوّر الحكام العرب فى زنجبار، لا للأفريقيين فحسب بل ولبعض العرب بأنهم حكام إقطاعيون مستبدّون يجب القضاء عليهم وإسقاط حكمهم تحقيقًا للأهداف اليسارية، فاجتمعت الماركسية المتعصّبة ضدّ الإسلام مع القومية الأفريقية المتعصّبة ضدّ العرب، بعد أن غذّتها العوامل التى ذكرتها على نكبة العرب فى ذلك المكان الذى حكموه مئات السنين، وكان لهم شرف طرد البرتغاليين منه بعد أن عاث هؤلاء البرتغاليون فيه فسادًا وإفسادًا.

والمؤسف فى الأمر أنه قد ذهبت فى تلك العاصفة الهوجاء دماء عربية بريئة وأهدرت كرامات عزيزة، وكان من أبرز ما فى ذلك هتك أعراض الأسر العربية الكريمة من الرعاع والسوقة، حتى أصبحت أسر عربية كريمة بين يوم وليلة تتكفّف الناس لكى تعيش بعد أن كانت تنعم بالكرامة والعيش الرغيد، وأصبحت بعض كرائم وعقائل العرب إذا وجدت من يمنّ عليها بالملجأ والعيش عيشة الخدم فإنها تشعر بأنها قد حصلت على خير كثير، وللأسف لم تتحرك دولة إسلامية واحدة لمساعدة العرب المطحونين فى الجزيرة آنذاك، والوقوف بجانب الإسلام الذى يطارد فى شخص دعاته العرب...

والآن ما هى الحالة فى زنجبار؟

لا نستطيع إلاّ أن نعلّق على أحوالها الآن فنقول: إن الله سبحانه قد ابتلى الزنجباريين الآن بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ فقد جاء إلى الحكم أناس واصلوا اضطهادهم لكل ما هو عربى، وحاولوا أن يبعدوا اللغة العربية عن المدارس والمساجد، فلم يبق لعامة الناس إلاّ الخوف والإرهاب وأصبحت زنجبار بعد أن كانت تسمى «جزيرة الأحلام» لأنها كانت آمنة مطمئنة أصبحت تعيش الكراهية والحرمان والتعصب حتى بين صانعى النكبة أنفسهم.

العرب فى شرقى أفريقية:

ويسوقنا هذا الكلام إلى تسجيل كلمة مختصرة عن العرب فى شرقى أفريقيا، لقد لاحظت خلال دراستى الميدانية عن أحوال العرب فى شرقى أفريقية فى الحاضر والماضى، أنهم كانوا على مرّ القرون يفدون إلى تلك الديار زائرين وتجّارًا، بل ومستوطنين، وأن كثيرًا منهم قد اتخذوها دارًا واندمجوا بأهلها ونشأ عن ذلك اللغة السواحيلية والمدن العربية الأفريقية التى كانت تقوم فى مختلف العهود فى تلك البلاد والتى لا يزال بعضها قائمًا حتى الآن مثل ممباسة وليندى ودار السلام، بل كان العرب أوّل من لفت الأنظار إلى تلك

البلاد وسمّاها «بر الزنج» التى حرِّفت بعد ذلك إلى زنجبار أى الزنج لأن كلمة «بار» هى كلمة «بر» بالعربية ضد «بحر» وجميع العرب فى شرق أفريقية هم من جنوبى وشرقى الجزيرة العربية من عمان حتى اليمن، ويمكن تقسيمهم الآن إلى ثلاث فئات كما يلى:

الأولى: العمانيون:

وهم كانوا الحكام والطبقات الممتازة فى الماضى، ولا يزال منهم فى الحاضر موظفون كبار وحكام ولايات فى كينيا، وهم بمظاهرهم التى منها بياض بشرتهم نسبيًّا، وأنوفهم الشماء وأزيائهم التقليدية يمثّلون الحكام العرب فى نظر الأجانب الوافدين إلى تلك البلاد، حتى أن البرتغاليين عندما وصلوا شرقى أفريقية من رأس الرجاء الصالح سمّوهم المغاربة ظنًّا منهم أنهم من أهل المغرب العربى، أو تشبيهًا لهم بعرب المغرب.

الثانية: الحضريون:

وهم تجّار فحسب، وقد حصل بعضهم على ثروات كبيرة فى شرقى أفريقية، وهم من أنشط الدعاة للإسلام وأحرصهم على العمل المتواصل وسعيهم لإدخال الأفريقيين إلى حظيرته، وأكبر دليل على أن مسلمى شرق أفريقية من الأفريقيين هم شافعيو

المذهب أى على مذهب الحضارم، وليسوا أباضية على مذهب العمانيين.

الثالثة: اليمنيون وأبناء الجنوب العربي:

وكثير منهم الآن يعيش عيشة الكفاف فى تلك البلاد، ومما يؤسف له أن بعضهم يتناولون بيع وشراء القات، تلك الشجرة الخبيثة التى تهدم البدن، وتؤثر تأثيرًا سيئًا على العقل، وقد راح فريق من عقلاء الأفريقيين ينحون باللائمة على باعة القات من العرب، فى أنهم حتى بعد استقلال البلاد لا يزالون يسهلون للأفريقيين الوقوع فى شرك «القات» الخبيث.

هذه هى حالة العرب فى الحاضر، أما فى المستقبل فأنا لا أتوّقع للعرب ولا لأى جنس آخر أبيض أو أسمر أىّ مستقبل مشرق فى أفريقية إلاّ إذا قدّموا لهم المعونات الاقتصادية والثقافية بدون منٍّ عليهم أو استعلاء لأن الأفريقيين قد أخذتهم نشوة الظفر باستقلال بلادهم، فأصبحوا يشعرون بأن لهم الحق فى أن يكونوا دون سواهم من الأجناس سادة البلاد، وأن يعتبروا غيرهم من الوافدين من خارج القارة، غرباء ليس لهم حق العيش كما للأفريقيين إلاّ بمقدار ما يؤدّى للبلاد من خدمة، على أن ينظر إليهم نظرة الغريب المتميز، ومن المعلوم أنه إذا كان التمييز بين الأجناس البشرية بعامل اللون،

فإن ذلك يكون أصعب أنواع التميز لأن لون الإنسان لا يمكن ستره؛ لذلك لا يمكن تناسبه فضلاً عن نسيانه وذلك بخلاف التميز الذى يكون على أساس العرق والدين واللغة.

ومع هذا كله فلا يزال حتى الآن اعتمادهم على العرب وعلى مصر بخاصة فى تثقيف شبابهم المسلم بالثقافة الإسلامية، وتعليمهم اللغة العربية... وحينما ينشب خلاف بين الجهة المشرفة على النشاط الدينى فى تنزانيا «باكواتا» وبين المسلمين فى أية منطقة فى البلاد يلتمسون من مصر المعاونة لحل هذه المشكلات وتصفية الخلافات، باعتبار أن مصر قلعة الإسلام فى العالم، ورائدة النشاط الإسلامى فى خارج جمهوريتها، وفى سائر القارات، وقد عثرت على تقرير من إحدى الأجهزة المصرية يدل على مكانة مصر وعلمائها عند المسئولين التنزانيين وقدّم التقرير على أثر مقابلة تمت مع السيد نائب رئيس الجمهورية التنزانية السيد/عبود جومبى «وهو نائب الرئيس والحاكم لإقليم زنجبار وأحد كبار المسئولين المصريين، ويتبين من التقرير طلبه أساتذة مصريين لتعليم الإسلام واللغة العربية للشباب التنزانى، وأذكر أنى قابلت السيد/عبود جومبى «بصحبة السيد سفير جمهورية مصر العربية فى تنزانيا آنذاك، وكان ذلك عام ١٩٧٣ لمعرفة احتياجات زنجبار من وزارة الأوقاف المصرية، وتركّزت طلبات سيادته على طلب مساعدة مصر فى تعليم المواد الدينية باللغة

السواحيلية، وأكّد على ذلك، مما جعلنا نحسّ بأنه لا يريد اللغة العربية وذلك من قبيل التعصّب للغة القومية وهى السواحيلية..
ونصّ التقرير ما يلى:

تقرير
بشأن الإسلام فى تنزانيا

عـــام:

١ - وردت برقية رمزية من سفارتنا فى دار السلام عن مقابلة السيد عبود جومبى «نائب رئيس الجمهورية بشأن اجتماعه بزعماء المسلمين فى شمال تنزانيا لتسوية الخلاف بينهم وبين المجلس الإسلامى الأعلى، وطلبه تزويد حوالى عشرين مدرسة ابتدائية وثانوية بأساتذة مصريين لتعليم الإسلام واللغة العربية.

التفصيلات:

٢ - وضح اهتمام مصر منذ منتصف الستينات بضرورة مواجهة نشاط البعثات التبشيرية المسيحية المتزايدة فى تنزانيا، والتى نجحت فى نشر الدين المسيحى والتعصب له ضدّ المسلمين والعرب، مستفيدة فى ذلك من ترحيب الحكومة ومختلف المنظمات التنزانية لنشاطها، وقد تمثّلت مظاهر الاهتمام المصرى فى نشاط وزارة الأوقاف وشئون الأزهر الذى تبلور على النحو التالى:

(أ) إيفاد اثنين من الوعاظ المصريين للعمل مع جمعية مسلمى شرق أفريقية ثم مع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الباكواتا) بعد حلّ الجمعية المذكورة (تتحمل وزارة الأوقاف مرتباتها بالكامل) وكذلك إيفاد اثنين آخرين للعمل فى جزيرة زنجبار (تتحمل سلطات الجزيرة نصف مرتباتها).

(ب) مداومة إيفاد مقرئين لتلاوة القرآن الكريم خلال شهر رمضان من كل عام.

(جـ) إقامة مركز ثقافى إسلامى فى دار السلام منذ منتصف ١٩٦٩ يهدف إلى إعداد دراسات خاصة لأئمة المساجد فى تنزانيا وتخرج مدرّسين لتدريس الدين الإسلامى فى المدرسة التنزانية علاوة على تزويده بمركز طبّى لتخريج ممرضات من الفتيات يعملن فى العيادة الخارجية التابعة للمركز، وكذلك تقديم كتب ثقافية إسلامية لأبناء تنزانيا.

(د) تقديم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية المصرى بعض ما يصدره من الكتب والمجلات الإسلامية كما وافق رئيس المجلس أثناء زيارته لتنزانيا فى ١٩٦٨ على التصريح لخمسة من مسلمى تنزانيا لأداء فريضة الحج على نفقة المجلس..

(هـ) تخصيص المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عددًا محدودًا من المنح الدراسية سنويًا للطلبة التنزانيين للدراسة بالأزهر الشريف

ووفق عام ١٩٧٥ على تقديم منحة دراسية أثناء زيارة وزير الداخلية التنزانى للقاهرة.

التعليق:

٣ - تعتبر منطقة شرق أفريقية أكثر مناطق القارة الأفريقية التى تضم جاليات إسلامية كبيرة لكونها معبرًا لنشاط الدعوة الإسلامية إلى أفريقية منذ القرن الأول الهجرى (أكثر من ٩٠٪ من سكان الصومال وإقليم إرتريا وجزر الكمورو من المسلمين، ويمثل المسلمون فى كل من تنزانيا وموريشيوس أكثر من ٦٥٪ تقريبًا من تعداد السكان إلّا أن التاريخ الاستعمارى الذى شهدته بعض هذه الدول قد أدّى إلى نجاح العناصر المسيحية فى تحقيق قدر أكبر من التفوّق الاجتماعى والثقافى مما ساعدهم على الوصول إلى الحكم، وتولى المراكز السياسية والإدارية العليا.

٤ - تعكس الاتجاهات المسيحية الخاصة بالرئيس «جوليوس نيريرى» وتعصّبه للكنيسة الكاثوليكية علاوة على حساسية تجاه دور العرب فى تجارة الرقيق واهتمامه بتقليص نفوذ العناصر الإسلامية، الأمر الذى يمكن إيضاحه على النحو التالى:

(أ) تجنب الإعلان عن تفصيلات إحصائيات السكان فى تنزانيا مع تعمّد إبراز العناصر المسيحية كأغلبية بين سكان البلاد.

(ب) اتجاهه لتقليص دور الشخصيات الوزارية من المسلمين فى تنزانيا، وافتعال ما يثير سخط الشعب التنزانى تجاههم (تجميد المنصب الثانى لرئيس الجمهورية فى ١٩٧٧ الذى كان يشغله رشيد كواوا وإسناد وزارة الدفاع إليه بغرض إحراجه والتمهيد لإقصائه نهائيا، وتصفية جمعية مسلمى شرق أفريقية واختيار قيادة «الباكواتا الجديدة» من العناصر الموالية للحكومة، ووضع العراقيل أمام مسلمى تنزانيا لأداء فريضة الحج بدعوى انتهازهم فرصة الحج للهرب من البلاد».

(جـ) الترحيب بنشاط البعثات التبشيرية المسيحية المنتشرة فى جميع أنحاء تنزانيا، والتى تركّز على إقامة المدارس والمستشفيات وتشترط على المسلمين الذين يلتحقون بها اعتناق الدين المسيحى (نجحت هذه البعثات فى إقناع العديد من مسلمى تنزانيا باعتناق الدين المسيحى).

(د) عدم اهتمام المجلس الثورى الزنجبارى فى إطار اتجاهاته اليسارية، وتنسيق رئيسه عبود جومبى مع الرئيس جوليوس نيريرى عدم اهتمامه بنشر الثقافة الإسلامية (إلقاء السلطات التنزانية عام ١٩٧٥ القبض على ٢٨٥ من مسلمى زنجبار بدعوى معاداتهم للنظام القائم فى الجزيرة).

٥ - ومن ناحية أخرى، وبرغم إمكانيات التحرّك المصرى

لدعم الثقافة والدين الإسلامى فى كل من الدولة الأم (تنجانيقا) وجزيرة «زنجبار» (نشاط السفارة فى العاصمة دار السلام والقنصلية المصرية فى الجزيرة تواجد المركز الثقافى الإسلامى - غياب الاهتمام الكافى من جانب الدول العربية الإسلامية الأخرى بالمسلمين فى تنزانيا - تقبُّل الحكومة التنزانية لمساندة مصر فى هذا المجال) إلّا أن هذا التحرك قد اعترضه العديد من السلبيات، يمكن تلخيص أهمها فيما يلى:

(ا) ضآلة عدد مبعوثى وزارة الأوقاف فى تنزانيا (أربعة فقط) علاوة على أن بعض من انتهت إعارتهم منهم لم تجدد لهم ثانية، إضافة إلى افتقار هؤلاء المبعوثين للإلمام الكامل باللغة الإنجليزية أو باللغة السواحيلية التى يتحدث بها سكان جزيرة «زنجبار». وبعض المسلمين فى الدولة الأم (تنجانيقا) وقد يكون من المفيد تولّى الجهات الإسلامية فى مصر ترجمة الكتب والمواد الإسلامية إلى هذه اللغات قبل إرسالها إلى تنزانيا.

(ب) عدم إنجاز المركز الإسلامى الثقافى المصرى فى تنزانيا للأعمال الموكلة إليه لقلة الإمكانات المادية اللازمة، (لم يتم اختيار الأعضاء المصريين لمجلس إدارة المركز برغم تحديد المسئولين فى تنزانيا ممثليهم فى هذا المجلس).

(جـ) ضآلة حجم المواد الثقافية الإسلامية والمنح الدراسية

للتعليم فى الأزهر، والتى تخصّص لسكان جزيرة «زنجبار»، برغم احتياجهم الشديد إليها، وبرغم إمكانية الاستفادة من قنصليتنا التى افتتحت مؤخرًا فى الجزيرة (١٩٧٤) فى هذا المجال.

(د) الرقابة الشديدة من جانب الحكومة التنزانية على النشاط الإسلامى إلى جانب اشتراطها بأن يكون التقابل مع الفئات الإسلامية من خلالها الأمر الذى يعكس ولا شك تأثيراته على نمو هذا النشاط وانتشاره.

نظرة فى اللغة السواحيلية
وصلتها باللغة العربية

اللغة السواحيلية إحدى اللغات الأفريقية الشائعة، وهى اللغة القومية لتنزانيا وكينيا، وأوغندا وجزء كبير من جمهورية زامبيا وجمهورية موزمبيق.. وهى مركب لغوى من أصل أفريقى قد طعِّم باللغة العربية، وهى لغة مكتوبة وكانت تكتب باللغة العربية، إلى وقت قريب، حيث استطاع الاستعمار وأعوانه أن يتركوا العربية ويكتبوها بالحروف اللاتينية بحجّة أنْ هذه الحروف مشهورة دوليًّا، لكن هدفهم إبعاد اللغة العربية عن طريق ترك حروفها العربية. وبما أن القرآن الكريم مكتوب بالكلمات العربية فسينسى المسلمون بمضىّ الزمن كتابة المصحف، لأنهم لم يألفوا الكتابة العربية ولم يعرفوا الحروف العربية، ومع ذلك ظلّت حتى الآن عقود الزواج والطلاق ومسائل الميراث، والكتابة التى تكتب على جدران المساجد والتى تكتب على شواهد المقابر وكل ما يتصل بالدين تكتب باللغة العربية وما زال كثير من سكان المناطق الداخلية فى تنزانيا يكتبون

السواحيلية بالحروف العربية، محافظة منهم على الحروف التى يكتب بها القرآن الكريم. والمهاجرون العرب الذين استوطنوا الساحل الشرقى للقارة أوّل من تكلم بها ولذا فقد سمّيت بذلك، لقد كانت لغة التجارة فى مراكز الاستيطان العربية، وعزا بعض الباحثين بأنها كانت أصلاً لغة بعض القبائل.. وهى لغة «بانتوية» صرفة تستمدّ خصائصها من شرق القارة، غير أنها فقدت الكثير من هذه الخصائص، وليست بلغة مختلطة كما يرى البعض، وتضمّ ألفاظًا عربية كثيرة ومستعارة، واندمج فيها الكثير من الألفاظ الأجنبية، فيها كثير من اللغة العربية وخصوصًا ما يتعلّق منها بأسماء الفرائض والشرائع الدينية، وكل ما يتعلق بالدين، تنطق بأسمائها كما هى فى اللغة العربية أو محرفة قليلاً تبعًا لقدرتهم على النطق بحروفها.. ومطاوعة مخارج الحروف لكلماتها، فهم مثلاً لا يستطيعون نطق الحاء بل ينطقونها هاء. والعين همزة، وما إلى ذلك مما سنراه فى النموذج الذى سنعرضه لبعض الكلمات، وكان من أثر وجود الأجانب هناك دخول بعض الكلمات الأجنبية واعتبارها كلمات سواحيلية ويظهر ذلك فى الصناعات والمخترعات الحديثة، وما جدّ من تقدّم للمجتمع لم يكن موجودًا من قديم، مثل وسائل المواصلات، إنهم يسمّون محطة الأتوبيس «ستيشن» والسيارة الكبيرة «باص» وسائق السيارة «دريور» والكمسارى «كونداكت» والتذكرة «تكت» وهكذا مما جدّ من وسائل المدنية الحديثة.

وهى اللغة الرسمية فى شرق أفريقية - وقد اعترفت السلطات الاستعمارية بها، وهى لغة الدراسة فى المدارس، وتعمل السلطات على نشرها، وأنشأت فى دار السلام مدارس لمحو الأمية بتعليم الأميين لغتهم السواجيلية قراءةً وكتابة.

ومن لهجاتها لهجة ممباسا، وتعرف باسم «كمفيتا» وتنتشر فى المنطقة السواحيلية فى كينيا «وكبوبخوجا» أو لهجة زنجبار وتنتشر فى كل أنحاء شرق أفريقيا.. وفى سنة ١٩٣٩ تشكّلت لجنة من ممثلين لجميع الأقاليم لوضع كتابة اللغة السواحيلية، ووفّقت اللجنة إلى حدٍّ ما.. ولكن هل نجت اللغة السواحيلية من دنس المستعمرين؟ طبعًا لا، فقد أوعزوا إلى عملائهم بأن ينادوا بإحلال الإنجليزية محلّ اللغة السواحيلية تدريجيا، وقد قررت البعثة الملكية التى وصلت إلى شرق أفريقية لدراسة الأوضاع اللغوية (١٩٥٣-١٩٥٥) بأن تعليم اللغة السواحيلية مضيعة للوقت، وكذا تدريس الحصص القرآنية، وحتى تنال من اللغة السواحيلية روّجت للغات المحلية، وجعلتها لغة تعليم فى المرحلة الابتدائية، وأخيرًا قررت أن تكتب السواحيلية بالحروف اللاتينية لتقطع كل خيط يتصل باللغة العربية، وجعلت تعلّم اللغة العربية فى الكتاتيب فقط لتنفى عن نفسها صفة التعصّب أو التحيّز ضدّ الإسلام.

مجمع اللغة السواحيلية

يوجد هذا المجمع فى دار السلام، وهو عبارة عن جمعية تشرف على الكتب والمطبوعات التى تصدر باللغة السواحيلية فتأذن بإخراجها إذا كانت لغتها قوية، وفقًا للقواعد المطلوبة، كما أن تلك اللجنة تقدّم المقترحات الخاصّة بالنهوض بتلك اللغة وحمايتها من الألفاظ الدخيلة، وآخر عمل لتلك اللجنة تقدمت به إلى حكومة تنزانيا هو أن تعلن أن اللغة الرسمية للدولة هى السواحيلية فقط وكانت قبل ذلك اللغة الإنجليزية.. وهكذا أعلنت الحكومة ذلك وهذا منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا، مما جعل بعض الحاقدين على العرب فى نيروبى يكتب فى صحيفة يومية تصدر بالإنجليزية قائلاً: إن اللغة السواحيلية تذكّر الأفريقيين بالعهد الذى كان فيه العرب يبيعون الأفريقيين، وهو يشير بذلك إلى أن جزءًا كبيرًا من مفردات اللغة السواحيلية قد دخلها الكثير من اللغة العربية، واللغة السواحيلية قد أسماها العرب بهذا الاسم نسبة إلى السواحل جمع ساحل والمراد بها سواحل أفريقية الشرقية فهى عبارة عن اختلاط العربية لغة العرب الذين قدموا إلى تلك البلاد باللغة المحلية للمواطنين الأفريقيين هناك، ويمتدّ نفوذ اللغة السواحيلية من كينيا إلى أواسط الكونغو على اختلاف تلك الأقطار - فمثلاً فى تنزانيا وكينيا

لا يعرفون غيرها، وفى المناطق الأخرى توجد لغات أخرى ولكنها تتّصف بصفة المحلية، أما السواحيلية فإنها لغة إقليمية يمكن للجميع أن يتفاهموا بواسطتها. واللغة السواحيلية حافلة بالمفردات والتعابير العربية، وهناك خلاف بين اللغوين: هل هى عربية مؤفرقة، أى أنها العربية دخلها كثير من المفردات والتعابير الأفريقية أم أنها لغة أفريقية معربة؟ وأصح الأقوال أنها فى الأصل عربية مؤفرقة، أى أنها عبارة عن مفردات وتعابير عربية أخضعت للطابع الأفريقى.. وقد دخلت العربية إلى السواحل الأفريقية الشرقية فى عصور مختلفة، وكلما ضعف تأثير العربية لسبب من الأسباب، جاءت موجات جديدة من الهجرة العربية فدفعت فى عروقها بدماء عربية جديدة، والآن وقد أصبحت اللغة السواحيلية إحدى اللغات الرسمية فى كثير من بلدان شرقى أفريقية ووسطها حتى الكونغو فإنها قد ظفرت بعناية الباحثين والدارسين...

وقد جمعتُ بعض الكلمات العربية فى جداول سأوردها هنا على سبيل المثال لا الحصر، ويلاحظ أن الكلمات العربية أصبح كثير منها خاضعا للنطق الأفريقى الذى يحوّل الكلمات لمقاطع محدودة، ولا تنطق حروف الحلق بل ينطقونها ها، فمثلاً «سكر» العربية صارت «سكارى» بالسواحيلية و «سمك» «سماكا» «قهوة» «قهاوا» وما ألطف قول الأفريقيين حين يقابل بعضهم بعضا: «خبارى»؟ أى «خبرك» والمراد ما خبرك؟ أى كيف حالك؟ فيجيبه: «سلاما»..

وقد قرأت لافتة على بنك فى دار السلام، مكتوبة بالسواحيلية وبالحروف اللاتينية: «بنك يابياشلرا» فقلت فى نفسى: ما معنى هذه الكلمة؟ هل يوجد بنك للبشارة، وقد ظننت أن معناها كذلك، وظلت الكلمة غامضة علىّ، إلى أن اهتديت إلى معناها، وهو بنك «بيع وشراء» أى البنك التجارى، وقد سهّل علىّ كثرة الكلمات العربية فى اللغة السواحيلية تعلّمها فتعلّمتها فى أقل من ثلاثة أشهر، وكنت أدوّن معنى الكلمات التى أسمعها وأصلها عربى، ومن مجموع حوالى ٢٠٠ كلمة استطعت أن أتكلم بالسواحيلية.

ويلاحظ أنها ليست غنية بالكلمات، فكلماتها محدودة ويمكن حصرها فى قاموس فى حدود ألف كلمة فقط..

ويلاحظ أن الأرقام فى السواحيلية أكثرها عربية فمثلاً:

الرقم	النطق السواحيلى	الرقم	النطق السواحيلى
١	موجا	١١	كومى ياموجا
٢	ميلى	١٢	كومى ياميلى
٣	تامو	١٣	كومى ياتامو
٤	انى	١٤	كومى يانى
٥	تانو	١٥	كومى ياتانو
٦	سيتا	١٦	كومى ياسيتا

الرقم	النطق السواحيلى	الرقم	النطق السواحيلى
٧	سابا	١٧	كومى ياسابا
٨	ثانى	١٨	كومى ياثانى
٩	تيسا	١٩	كومى ياتيسا
١٠	كومى	٢٠	اشيرينى
		وهكذا إلى..	
٣٠	ثلاثينى	٨٠	ثمانينى
٤٠	أربعينى	٩٠	تسيئينى
٥٠	خمسينى	١٠٠	بيـة
٦٠	ستينى	١٠٠٠	ألف
٧٠	سبئينى	مليون	مليون

وهذه بعض الكلمات العربية فى السواحيلية:

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
خبر	خبارى	زيادة	زيادا
كامل	كاميلى	ربع	ربعو
نصف	نصو	رأس	راسى

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
إذاعة	إذاعا	ساعة	ساعا
عسكر	عسكرى	غال	غالى
واجب	واجب	عنوان	عنوانى
سياسة	سياسا	أمة	أما
بعض	بعض	عدو	عدوى
عمر	عمارى	معنى	معنى
مرضى	مراضى	الحرية	أهورو
قبول	كبولى	تفضل	تفضلى
قريب	كريبو	كتاب	كتابو
قلم	كالامو	سفر	سفارى
قرطاس	كاراتاسى	صندوق	صاندوكو
دكان	دوكانى	ظن	كودانى
فكرة	فيكيرا	عقل	اكيلى
وزير	وزيرى	رئيس	رئيسى
وزارة	وزارا	علم	عيليمو
عافية	عافيا	دليل	داليلى
صحة	سيها	مصحف	مصاحفو
خطبة	هوتوبا	طبيب	طبيبو

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
فرح	فوراحا	لغة	لغا
سلام	سلاما	فخر	فخارى
فائدة	فائدا	مال	مالى
أو	أو	شرط	شرتى
مشرق	ماشاركى	مغرب	ماغاربى
وقت	واكاتى	حديث	حديثى
تعريف	تعريفا	خوف	خوفو
فرس	فاراسى	خصوصا	كوهوصو
لوم	لاواما	كنيسة	كانيسا
شكر	كوشوكورو	السواك	مسواكى
خسر	هسارا	سبب	سابابو
قياس	كباسى	نفس	نفسى
صبر	كوصبيرى	سلاح	سلاحا
دين	دينى	عبادة	عبادا
شريعة	شاريعا	مشقة	ماشاكا
صوت	صوتى	بيع	بيعى
ثمن	ثامانى	ست	سيتا
سبع	سابا	تسع	تيسا

النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى	العربية
ثلاثينى	ثلاثين	عشرينى	عشرين
سيهيمو	سهم	ضمانا	ضمان
حرامو	حرام	حالالى	حلال
مارا	مرة	ماعيشا	معيشة
شريكا	شركة	هالص	خالص
كوهيتاجى	احتياج	ناعاما	نعم
سلتانى	سلطان	فلانى بن فلانى	فلان بن فلان
دونيا	دنيا	صاهيهى	صحيح
داكيكا	دقيقة	تايفا	طائفة
تابيعا	طبيعة	موهيمى	مهم
سوالى	سؤال	اذيا	أذية
مسكيتى	مسجد	ماجى	ماء
صاداكا	صدقة	صالا	صلاة
		زاكا	زكاة

اللغة العربية فى مواجهة اللغة السواحيلية

كان من أثر التوسّع فى الفتوح الإسلامية أن اعتنق كثير م الأفريقيين الدين الإسلامى فى البلاد المفتوحة، وبدءوا يتعلّمون اللغا العربية لفهم القرآن وأداء الشعائر، واتّبع العرب سياسة هجرة المسلمين إلى البلاد المفتوحة، وكثر عددهم فيها وأخذوا يختلطون بسكان المدن والقرى تدريجيًّا، ويتزجون بهم ويصاهرونهم، وزاد هذا الاختلاط، عندما سمح لجند العرب بسكنى الريف فزادت الصلة بينهم وبين الأهالى وازدادت اللغة العربية تبعًا لذلك انتشارًا.

انتشرت اللغة العربية واتّسعت خطوط انتشارها مع الهجرات العربية فى الغرب والشرق، فلقد وصلت فى شرق أفريقية إلى الداخل حتى حدود الكونغو، وأعالى المناطق الشرقية منه.

ووصلت فى غرب أفريقيا إلى قرب خط الاستواء، ومن العوامل الرئيسية التى ساعدت على انتشار اللغة العربية بين الأفريقيين اعتناقهم للإسلام وإحساسهم بالحاجة إلى تفهّم القرآن ورغبتهم

الصادقة فى تعلّم اللغة العربية وهجرة فقهاء المسلمين إليهم من الحجاز ومصر لتثقيفهم وتعليمهم فى الخلوات والكتاتيب حتى يفهموا أصول دينهم.. والهجرات العربية أشعلت الرغبة فى تعلّم اللغة العربية وانتشارها، ومنها هجرة بنى هلال وبنى سليم إلى غرب أفريقية، وهجرة العناصر اليمنّية والحضرمية والعمانية إلى سواحل شرق وجنوب أفريقية، واختلاطهم بالأفريقيين. ومن أقوى العوامل فى هذا الموضوع مشكلة التعدّد اللغوى الأفريقى، وصعوبة التفاهم فيما بينهم وبخاصة فى المعاملات التجارية حيث دفعت بهم إلى التمسّك بالعربية لغة الأسواق التجارية والدين، وأعان على ذلك أن التجارة كانت فى أيدى العرب، وكانوا ينتشرون فى كل مكان ويرتحلون فى جميع الوديان. ولقد دخلت اللغة العربية فى معارك لغوية كثيرة، وخرجت منها مظفّرة، دخلت فى صراع لغوى مع اللغات الأفريقية المحلّية وانتصرت عليها، بل لقد استمدّت منها اللغات الأفريقية المحلية الكثير والكثير من الألفاظ والمعانى..

فاللغة السواحيلية أخذت منها قواعد التركيب اللفظى، وفى مناطق أخرى احتفظت بشكلها المعروف، وبخاصة فى ميدان التقنين والتشريع فى المجتمعات التى ساد فيها النظام الإسلامى، فإنّ خَلْق لهجة عربية خاصة بعد الاحتكاك اللغوى احتاج إلى عملية امتصاص وتفاعل وتمثيل وأخذ تيّار العروبة يزحف إلى الكثير من أجزاء القارة حتى اصطدم بالاستعمار الأوربى. اصطدم تيار العروبة

ع انجلترا رائدة الاستعماريين ثم مع المستعمرين، وقد وجدوا أن خطر ما سيواجههم فى السيطرة على القاهرة هو تيار العروبة، أخذوا الثقافة الأفريقية وصنّفوها، ووجدوا أنهم أمام نوعين منها:

ثقافة عربية: تستند وتتساند على تراث فكرى ودينى يجعلها لا تخضع ولا تلين أمام الثقافات الأخرى، بل تستطيع مقاومة هذه الثقافات والسيطرة عليها.

وثقافة أفريقية: هيّنة يسهل هضمها وضغطها فى الثقافات الأخرى القوية. وبعد هذه الدراسة واجه المستعمرون هذه اللغة القويّة بأكثر من أسلوب تبعًا لاختلاف جنسية المستعمر، فالإنجليز انفردوا بأسلوبهم المتميز الفريد فى محاربة اللغة العربية فى أفريقية، لقد أحيوا الثقافة الأفريقية الأصلية وصبغوها بصبغة قبلية إقليمية تستهدف أغراضهم ومناهجهم الاستعمارية.

والمقصود بذلك إقامة سدٍّ فى وجه اللغة العربية، تلا ذلك تسلّل تدريجىّ لإحلال اللغة الإنجليزية ونشر الثقافة الإنجليزية، وقد رسموا لذلك تخطيطًا استعماريا لغويًّا، يبدأ بتشجيع دراسة اللغات الأفريقية على يد المبشّرين وعلماء اللغات؛ لتحقيق المعرفة الأوّلية بهذه اللغات، ثم محاولة تصنيفها وتوحيد مجموعات لغوية تواجه الاحتياجات التعليمية، واختيار لهجة تسود وينتفع بها فى التعليم فى المدارس الابتدائية، ثم إلغاؤها بعد ذلك تدريجيًّا أو نهائيا.

ويأتى بعد ذلك تشجيع اللغة الإنجليزية المبسطة كتمهيد لسيادة الإنجليزية وأخيرًا إحلال اللغة الإنجليزية كلغة أساسية فى مراحل التعليم المختلفة حتى مرحلة التعليم العالى، ولا تنس موقف العداء اللغوى السافر بالنسبة للغة العربية فقد تجنّى عليها المستعمرون، واتّهموها بالضعف، وحاولوا أن يدفعوا الناس إلى كتابتها بالحروف اللاتينية..

إن الاستعمار السياسى يعقبه استعمار اقتصادى، وَيُؤَمِّن عليه باستعمار ثقافى، واللغات الأوربية فى أفريقية رمز خطير للظاهرة الاستعمارية، وهى لم تكتف بالتغلغل والسيطرة، بل حاولت أن تحارب العربية وغيرها من اللغات التى تعلّق بها الأفريقيون..

ولما وجدوا أن الشعوب تنفر من لغة المستعمر، حاولوا تقوية اللغة السواحيلية لتكون بديلاً عن اللغة العربية، لكن الذى حدث أن الأفريقيين درسوا لغتهم وجعلوها لغة رسمية، ولكنهم مسلمون وكتاب الإسلام هو القرآن الكريم - والقرآن باللغة العربية، إذن فإن اللغة العربية بقيت وخلدت، والجماهير المسلمة تنظر إليها لا على أنها مجرد لغة، ولكن تنظر إليها بروح القداسة لأنها لغة القرآن، ولغة رسول الإسلام، ولغة كتب الدين التى يحبّونها ويحترمونها ويتعلّمون منها أصول دينهم.. والله تعالى تكفّل بحفظ

اللغة العربية عن طريق حفظ قرآنه الكريم، فقد قال: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر، وإنّا له لحافظون﴾..

* * *

ويتبيّن من هذا، العبء الضخم الملقى على أجهزة الدعوة الإسلامية فى مصر وفى سائر الدول الإسلامية لرسم خطة لنشر الدعوة الإسلامية وللحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولا يكفى أن تقف الدول العربية والإسلامية موقف المتفرّج واللغة العربية تجد هذا التآمر الاستعمارى، الخطير، الذى يخطّط له وينفّذه الاستعمار مع التبشير ويهدف إلى إيقاف الزحف الإسلامى الجبار فى داخل أفريقية شرقيها وغربيها ووسطها، وحينما يزحف الإسلام من شمال القارة متجهًا نحو جنوبها، فى الوقت الذى يزحف فيه من جنوبها متجهًا نحو شمالها، فسيتقلص نفوذ التبشير، وتتقلّص كذلك الوثنية، وتصبح قارة أفريقية قارةً إسلامية فاهمةً للإسلام مطبّقة تعاليمه حافظةً لكتابه، ناشرةً لغته وهى اللغة العربية...

عادات وتقاليد فى المنطقة

للمجتمع التنزانى عادات وتقاليد يتميّز بها، وذلك بالنسبة لميلاد الطفل وختانه وتثقيفه الإسلامى، والزواج، والموت والحداد.

١ - الميلاد:

يعتبر الأطفال خطرًا يهدّد المجتمع إن ولدوا فى ظلّ ظروف شاذّة، أو بهم مسٌّ من الشيطان أو لحقهم تشويه ما: وعندما يولد الطفل فإن المعلّم، أو أكبر العائلة سنًّا يُدعَى لترتيل الأذان فى أذنه اليمنى أوّلاً ثم فى الأذن اليسرى، ويبقى الطفل فى داخل البيت لمدّة ستة أيام ثم يوضع فوق مطرحة من القش النقى النظيف الخالى من الشوائب ويحمل لكى يرى الشمس ويعرض للعائلة ثم يلقى الماء من فوق سقف البيت ويصيحون والماء يتساقط «إنها تمطر.. تمطر.. أجر.. أجر».

وفى جزر القمر يقام هذا الاحتفال فى اليوم التاسع قبل الفجر، ويربط حجاب وعادةً - مايكون سورة يس - حول رقبة الطفل. والبعض يؤدّى العقيقة، وهى أوّل قصٍّ لشَعر الطفل مع تسميته

تقديم ذبيحة فى اليوم الثامن، وبعد التسمية تنشد الموالد عادةً فى
بت الوالد (وفى منزل أم الزوجة دائمًا بالنسبة لأوّل طفل يولد) وفى
مض الأحيان يختن الطفل سواء كان ذكرًا أم أنثى فى زنجبار فى
ليوم الثامن ويقوم بقصّ شعره حلّاق القرية، وتختلف طريقة
التخلّص من الشعر المقصوص من مكان إلى آخر فالحاديون عادة
يدفنونه فى شاطئ البحر بجوار إبريق ماء، وفى أجزاء كثيرة من
الساحل تتم الحلاقة فى اليوم الأربعين ولا يهتّمون بالتسمية،
والواضح أن احتفال العقيقة قد تحوّل إلى اليوم الأربعين عندما يتم
تطهر الأم والطفل من شوائب الولادة فإن كلًّا من الأم ووليدها
يشتركان معًا فى الطهارة وفى عدمها، وتفرض بعض الممنوعات على
الوالدين من مولد الطفل حتى فطامه. ويُذبح طيرٌ فى اليوم الثامن:
ديك للولد ودجاجة للأنثى، ويُغلى حتى يتحوّل لحمه إلى سائل
ويضاف إليه الفلفل والجنزابيل والحبّهان ويقسم إلى أربعة أنصبة،
نصيب للمعلم، ونصيب للوالدين، وآخر لكبير العائلة، والرابع
للفقراء والمساكين (عادة، يكونون من عبيد المنازل السابقين)
ولا تترك الأم حجرتها حتى اليوم الرابع عشر لكيلا تخطو فوق
العتبة، ويزورها المعلم كل يوم ليرشّ الماء فوق رأسها ويقرأ سورة
يس، ويتمّ قصّ شعر الطفل وتطهر الأم والبيت كله فى اليوم
الأربعين وبعد ذلك تجتمع الأسرة جميعًا حول وليمة يقدَّم فيها خبزٌ
معدٌّ إعدادًا خاصًّا.

ويختار الاسم بواسطة الأشخاص المعتادين، وتختاره عمّات الطفل فى أوساط السواحيليين الشماليين، وأحياناً يختاره المعلم، وأحيانا أخرى يتمّ الاختيار بالقرعة وذلك بأن يقوم طفل صغير باختيار اسم من بين عدد من أسماء الأسلاف.. وفى زنجبار تتبع عائلات قليلة حرفية القانون وذلك بوزن الشعر ثم إخراج ما يعادله ذهباً، والضحية عادة ما تكون عنزة للبنت واثنتين للولد.

وفى زنجبار لا يرتلون القرآن فى هذه المناسبة ولا يقيمون صلاة ولا ينشدون الموالد أيضاً.

ويبدو بصورة عامة أنه لا تعطى أهمية خاصة لتسمية المولود، فالاسم الذى يطلق على الطفل عند مولده لا يستمرّ بالضرورة - بين بعض السواحيليين - كاسم يعرف الشخص به بعد ذلك، فإن الأحوال والظروف قد تستدعى إطلاق اسم مستعار عليه، وقد يكون اسم عيب أو مسبة أو إساءة كأن يسمّى الشخص «العبد»، وفى البداية يطلق عليه اسم بمناسبة الختان ثم فى الزواج يسمى باسم آخر.

ويتميز المجتمع السواحلى، ومنه الأفارقة العرب بقراءة العقيقة للطفل فى اليوم الثانى أو الثالث أو الرابع لوفاته وذلك يقابل الخاتمة فى مأتم البالغين، وتعتبر قراءة «العقيقة» فى الواقع «تسمية طفل حديث الولادة توفى، قراءة الدعوات من أجله»، وهى لا تقام

بطبيعة الحال لمن لا يموت من الأطفال حديثى الولادة إذ أن احتفالات العقيقة الأصلية التى تقام للأحياء من الأطفال عادة ما يتأخر، والاعتقاد الشائع أنه إن لم تتم احتفالات العقيقة، لا يصبح الطفل شخصًا ولا يعتبر مسلمًا ولن يقبله الله، ومنها يردّد المعلم دعوات باللغة العربية تنتهى بأن يدعو الله أن يقبل الضحية التى هى عنزة أو اثنتان (تبعًا لما إذا كان الطفل ذكرًا أم أنثى) كشهادة للطفل، وتذبح العنزة وتشوى فوق الفحم ثم تقدَّم ومعها العسل الأبيض إلى الحاضرين جميعًا[1].

والاحتفال بإشهار إسلام البالغين، شبيه باحتفال العقيقة للأطفال، والإشارة إلى أحدهما تغنى عن الإشارة إلى الآخر.

وإشهار الإسلام أمر له أهميته الكبرى فى شرق أفريقيا حيث يغلب طابع التحول الفردى إلى الإسلام أكثر منه فى غرب أفريقيا حيث التحوّل الجماعى هو القاعدة. وفى زنجبار حيث الإسلام هو الدين السائد لا تثور ضجّة فى مناسبات التحوّل إلى الإسلام ولكنه يعتبر حدثًا هامًّا بين مسلمى الداخل خصوصًا إذا كان الشخص الذى تحوّل إلى الإسلام شخصيةً لها مغزاها كأن يكون زعيمًا مثلا أو أن يكون مسيحيًّا.

وعناصر الاحتفال بإشهار الإسلام هى: الإعداد (التعاليم

---

(١) العسل الأبيض الذى يقدّم مع اللحوم هو عادة حضرمية.

والختان) والاغتسال والتسمية ثم الوليمة الدينية.

ويقول المتحولون: إن التعاليم روتينية وهى فى الأغلب تتكوّن من الشهادتين والوضوء والصلاة وبعض الواجبات الأخرى والممنوعات.

والختان إجبارى إن لم يكن المتحوّل قد ختن من قبل، وبعده بثلاثة أو أربعة أسابيع عندما يشفى الجرح تمامًا يخلع المتحوّل ملابسه القديمة ويغتسل اغتسالاً شاملاً ثم يُعطى مايغطى به عورته ويصب المعلم الماء عليه سبع مرات وهو يقرأ الفاتحة ثم يسميه أمام الحاضرين، ويتمّ ذلك عادةً إمّا فى بيت المعلم أو فى بيت أحد أقرباء المتحوّل من المسلمين، وأحيانًا فى أحد المساجد. وليس ضروريًّا أن يذبح ضحيّة خاصّة، عند التسمية، ولكن الوليمة تعتبر جزءًا من المناسبة وعادةً تقام فى أحد بيوت أفراد قبيلته من المسلمين فإن لم تكن قبيلة أو كان قد انفصل عنها ففى بيت المعلم، وفى أوغندا يختار المتحوّل عادةً اسمه بنفسه، وقد تم اختيار اسم اسلامى لزوجة مسيحية لأحد زعماء أوغندا بعد خلوة لمدّة يوم كامل أمضته فى بيت المعلم، وبعد اغتسالها قام المعلم بتبريك الماء الذى اغتسلت به ثم خرجت بعد ذلك إلى الناس للاحتفال بتسميتها.

وفى الداخل فى تنجانيقا يستقبل الذين يشهرون إسلامهم ويتحولّون إليه بطقوس وشعائر معيّنة وأحيانًا يرسل الوالدان

الوثنيان أبناءهما إلى هذه الاحتفالات لكى يسملوا اعتقادًا منهم أنها وسيلة تساعدهم فى مستقبل الأيام.

وغيرهم يتحوّلون إلى الإسلام فى صمت دون احتفال فيطلقون على أنفسهم أسماء إسلامية ثم يعرفهم الناس بعد ذلك عند أدائهم الصلاة فى المساجد.

٢ - الختان والتلقين:

تعتبر شعائر التلقين من القوانين والعادات القبلية التى احتفظت بقوّتها والتلقين القبلى فى كامل صورته يتمثّل فى احتفالات الجاندو التى يقيمها المسلمون للختان والتلقين معاً.

والرقصات التى تقام فى مناسبتها تسمّى أويناجو، أمّا الإسلام نفسه فلا يعرف من ذلك سوى عادة الختان وهى شعيرة للتطهّر، فردية فى طبيعتها ومع ذلك فلها أهمية اجتماعية قصوى لأنها تفتح الطريق أمام حياة البالغين الإسلامية، والوحيدون الذين يأخذونها بهذا المعنى المحدّد هم العرب والمندمجون منهم وبعض العائلات الجديدة، أما بالنسبة لغالبية الأفريقيين المسلمين فإن الختان يعتبر مقدّمة يكملها التلقين، كما أنه جماعىّ وليس فرديًّا وتكون فترة الشفاء من الجرح، ومن وقت خلوة المختن واختفائه إلى بداية إعداده فى مدرسة من مدارس التلقين أو التأهيل.

وفى المجتمعات السواحيلية كثيرًا ما يكون المختن هو نفسه المعلم أو شيخ الجماعة حيث إنها شعيرة إسلامية، ولكن مدّة الخلوة بعدها يحدّدها رجل الدين التقليدى. ولقد اجتمعت فيها عناصر من الإسلام وعادات البانتو ولكنها لم تنصهر جميعًا معاً، فإن الإسلام يظهر واضحًا فقط عندما يتمّ فى النهاية إنشاء الموالد وتوزيع الصدقات وهناك مراحل ثلاث: الختان، والعزلة أو الخلوة، ثم الخروج بعدها.

٣ - التثقيف الإسلامى:

يحتلّ التثقيف الإسلامى مركزًا هامًا فى الحياة السواحيلية، فعندما يبلغ الطفل من العمر ست أو سبع سنوات، يتفق والده مع المعلم على إلحاقه بالكتّاب، أى مدارس القرآن - وعادةً يستشير العراف ليحدّد له يومًا ذا طالع سعيد يبدأ فيه دراسته، وعند حلوله يصحب ابنه إلى المدرسة وهو يحمل معه العطاءات والهبات المعتادة التى تتكوّن فى زنجبار من أرز مخلوط بالخبز وأذرة محمصة، ويقول للشيخ وهو يسلّمه تلك العطاءات أمام ابنه:

«لقد حضرت لكى أعهد إليك بابنى، لا تحافظ على شىء من سوى عينيه» ومعنى ذلك: لا تبخل بالعصا وقد سمعت أن بعض المدرّسين لا يبخلون بها وأن التلاميذ يضربون ضربًا مبرحًا، ويقسم الوالد العطاء الذى أحضره، يعطى الشيخ الأرز المخلوط بالخبز،

ويوزع الأذرة على التلاميذ.. وفترات الدراسة تبدأ فى الصباح من (٧-١٢) وبعد الظهر من (٢-٥).. وفى هذه الأيام يحدث كثيراً أن يذهب الصبية إلى مدرسة عادية فى الصباح، ثم إلى الكتّاب بعد الظهر لأن التلاميذ الذين تقتصر دراستهم على الكتّاب لمدة ثلاث سنوات، ثم يذهبون بعدها إلى المدارس العادية يتأخرون كثيرًا عن غيرهم من التلاميذ، وتدريس القرآن عمل دينىّ لا يتوقّع عليه أجر، ومع ذلك فإن الشيخ يتلقى فى العادة بعض الهدايا وفى كل يوم من أيام الخميس. يحضر الطفل معه للشيخ نصف شلن، أما قبل الأعياد وقبل شهر رمضان بثلاثة أيام فيأخذ المدرس من ٥ شلنات إلى سبعة شلنات ونصف كعيدية، وتغلق المدرسة خلال تلك الأيام الثلاثة وبعد الظهر طوال أيام رمضان كما تعطّل لمدّة سبعة أيام فى عيد الفطر وكذلك فى أيام الجمعة وبعد الظهر من كل خميس، وبعد تعلّم الألف باء بالعربية ويرسل الآباء هدايا للمدرّس وطعامًا للأطفال، وكذلك يفعلون عند نهاية كل مرحلة من مراحل التعليم، وتُعطَى هدية أكبر للشيخ عندما ينتهى الطفل من حفظ القرآن، وبعض المدرّسين يقومون بصنع الجبب والكوفيات وبيعها، وفى بعض المناطق يعمل التلاميذ فى بيوت المدرّسين فى حمل الماء وفى جمع خشب الوقود، أو يعملون فى مزارعهم وفى تنظيف البيوت وفى بعض الأعمال الأخرى، كما أنهم يستخدمون فى إنشاء الموالد التى يتقاضى عنها أجرا..

ويبدأ التلميذ بتعلم القراءة والكتابة بعد الألف باء، وبعد ذلك

يكتب المدّرس فوق «اللوح» بداية «جزء عم». وبعد أن يتم التلميذ استظهاره يبدأ فى حفظ القرآن جميعه مبتدئًا بالفاتحة.

وفى زنجبار يبدءون عادةً بالفاتحة، ثم ينتقلون إلى جزء «عم» وقد يكون على التلميذ أن ينقل فوق لوحه سوراً من أجزاء القرآن المطبوعة التى يجب عليه أن يحصل عليها بنفسه من المصحف، فإن تقدّم فى دراسته قد يعطيه أبوه مصحفًا كاملاً.. والمصاحف هناك ليست كثيرة، وأذكر أننى وأنا فى إحدى رحلاتى إلى المناطق الداخلية لجمهورية تنزانيا أخذت معى مجموعة من المصاحف لأوزّعها هدايا على تلاميذ المدارس القرآنية، وأوزّع بعضها فى المساجد، فتسابق الطلاب، وتسابق الأهالى كلٌّ يريد أن يأخذ مصحفًا، ولمّا لم يتسّع عدد المصاحف التى معى لهم جميعًا. أخذوا يقسّمون المصحف الواحد إلى أجزاء، وكل واحد يأخذ جزءًا بحسب نصيبه الذى أدركه فى التوزيع، ويخصّص صباح يوم الخميس لتعلم إنشاد مولد يسمى مولد البرزنجى باللغة العربية، ومثل هذه المدائح النبوية كان لها تأثير كبير فى المحافظة على اللغة العربية نطقًا لا كتابةً، وغالبيّة الذين ذهبوا إلى الكتّاب لا يتكلمون العربية ولا يكتبونها، ولكن يحفظون ما أمامهم فى المصحف، عن طريق تلقين معلمهم ما يريد منهم قراءته أو حفظه، فإذا ما كرّر النطق نقشت كلمات القرآن فى عقله، ويستطيع أن يقرأها فى المصحف ولكن لا يستطيع قراءة غيرها من الكلمات العربية.

وعندما يُخطِر المدّرس والد الطفل بأن ابنه قد أكمل استظهار القرآن فإن مجموعةً من المعلّمين تُستدعَى لاختباره، فإن اجتاز الامتحان يُعطى والده للمدّرس مبلغًا يتراوح من ثلاثين إلى ستين شلنًا كفدية لولده، وفى بعض الأحيان يكون ذلك مناسبة لإنشاء الموالد وإقامة الولائم إذا كان الوالد قادرًا على ذلك.

ومن الضرورى للنساء أن يكنّ قادرات على تلاوة القرآن وأداء الصلوات المفروضة وفى الكتّاب يتعلّم الذكور جنبًا إلى جنب مع الفتيات حتى يبلغن سنّ البلوغ وعندها يحجبن، وفى بعض المناطق تتردّد فتيات كثيرات على المدارس، بعكس مناطق أخرى حيث يقلّ عددهن، كما أنه لا يوجد سوى عدد قليل من مدارس البنات (فى تانجا وزنجبار)، ومع ذلك لا حظت أن التلاميذ الأكثر تفوّقا فى المدارس التى قمت بزيارتها كان بينهم عدد لا بأس به من الفتيات.

٤ - الزواج:

يقوم الزواج فى شرق أفريقية - شأنه شأن باقى نواحى الحياة الإسلامية، - على عنصرين:

الأوّل: عنصر إسلامى وتحكمه القوانين والعادات الإسلامية.

والثانى: عنصر إقليمى وتحكمه العادات والتقاليد الوطنية.

وبينما ظلّت الناحية الإسلامية منه على ما هى عليه لم تتغيّر، لأنها

تقوم على قانون ثابت ومكتوب، وإن حدث فيها اختلاف، فسببه الجهل والإهمال، فإن هناك تنوعات كثيرة وملحوظة فى العنصر الوطنى الأهلى بين المجموعات السواحيلية المختلفة.

والزواج فى صورته العامة يتكوّن من ثلاث مراحل: العرض، والاحتفال بالعقد الإسلامى، ثم اجتماع العريس بعروسه.

(أ) **العرض**: الزواج فى أساسه هو عقد بين والدين، والد العريس، ووالد العروس، وفى البداية، أى قبل اتّصال العائلتين، تستشير أسرة «العريس» عرّافًا فى طالع الفتاة وأسرتها قبل الإقدام على الارتباط بها، فإن جاء الطالع سعيدًا والفأل حسنًا، قام أفراد من أسرته - من بينهم خاله فى أغلب الأحوال - بزيارة أسرة العروس ويحملون معهم هدية يقدّمونها قبل التقدّم بعرض الزواج، ويهتم العرب عادةً بأن يكون العريس كفئًا لعروسه، أما المسائل المالية فيناقشونها بعد التأكد من مدى كفاءته ولياقته لابنتهم. وبعد الاتفاق المبدئى بين الأسرتين يدفع مندوبو أسرة العريس مبلغًا لأسرة العروس يسمّى «فاتح الباب».

وهذا المبلغ كما تدلّ تسميته بفتح الباب فى وجه العريس من ناحية، ويغلقه فى وجه الخاطبين من ناحية أخرى.

والمدفوعات التى يؤدّيها العريس هى: المهر للعروس ومبلغان أساسيان لوالديها: ثمن العروس لوالدها ويسمونه «ثمن العمامة».

أما والدتها فيدفع مبلغًا يسمى مكاجا أو مويليكو.

والمكاجا هو القماش الذى تلفه المرأة حول وسطها أيام الحمل وبعد أن تضع مولودها، أما المويليكو فهو الرباط الذى يشدّ الطفل إلى ظهر أمه. وإن لم يدفع المهر المتفق عليه بكامله فإن حدّه الأدنى على الأقل لا بدّ من دفعه، على أن يدفع الباقى إذا ما طلّق الزوج زوجته، أو تتقاضاه من تركته[1] وبرغم أن المذهب الشافعى لم يضع حدًّا أدنى للمهر، فإن بين عرب ساحل كينيا لا يقلّ عن أربعة وستين شلنًا، وبجانب تلك المدفوعات توجد مبالغ أخرى تقليدية وهدايا سيجىء الكلام عنها فيما بعد.

(ب) الاحتفال بالعقد: ويسمى «هطوبا»[2] أو عقد النكاح ففى اليوم ذى الطالع السعيد[3] الذى يحدّده العرّاف يتوجّه العريس، ومعه أقرباؤه وأصدقاؤه إلى المسجد أو إلى المحكمة أو منزل العروس حيث يجدون المعلم أو القاضى ووالد العروس أو ولىّ

---

(١) يتراوح المهر فى زنجبار بين ٩٠٠ إلى ٣٠٠٠ شلن للعذراء وبين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ للثيب تدخل فيه المدفوعات الأخرى، وعلى الساحل يختلف مهر العروس الذى يدفع للوالد حسب الحالة الاقتصادية للعريس ومركزه الاجتماعى.

(٢) والأغلب أن هذه الكلمة، - مأخوذة من خطبة أى موعظة لأن كلمة خطوبة بمعناها المعروف لا تنطبق هنا.

(٣) توجد فترات مثل شهر صفر يحرم الزواج فيها.

أمرها وبعض الشهود، ويجلس الوكيل الذى يكون قد تحقق من موافقة العروس سواء بزيارتها شخصيا أو بشهادة شاهد على ذلك، ويفسر صمتها وسكوتها بأنها موافقة - فى مواجهة العريس - وأصدقائه ويسأل سؤالا تقليديا: «هل توافق على أن تتخذ «فلانة» زوجة لك طبقًا لما تمّ عليه الاتفاق معك على صداق مقداره (كذا شلن) الذى دفعت منه مقدار (كذا؟) وبعد الإجابة بنعم يعيد الوكيل السؤال مرة أخرى وتتكرّر إجابة العريس، وهنا يقرأ الحاضرون الفاتحة ويتلو المعلم صيغة عقد النكاح، وبعد انتهائه يصافح الحاضرون بعضهم بعضًا ثم يتناولون القهوة والحلوى.

(جـ) دخول البيت (الدخلة): ولا يكتمل عقد الزواج إلّا بتمام «الدخلة» وإقامة الوليمة، ونادرًا ما تكون «الدخلة» فى نفس اليوم الذى يعقدون العقد فيه، ذلك أنه لابد من استطلاع رأى العراف مرةً أخرى، وعادةً يكون ذلك فى مساء اليوم التالى[1] عندما يذهب العريس إلى منزل زوجته مصحوبًا بأصدقائه مهندمًا[2] ومعطّرًا، فيجلسونهم فى غرفة خارجية قبل أن يأخذوه إلى غرفة العروس. وبعض السواحيلية يذبحون طيرًا أو عنزة كضحية عند عتبة الدار

(١) وبين العرب إذا كان الزوجان أولاد عمومة فمن الممكن أن تصحب العروس إلى منزل عريسها.

(٢) فى زنجبار يلبس العريس رداءً طويلا تزينه أشغال الإبرة ويضع عمامة كبيرة.

قبل دخول العريس حتى يخطو فوق دمها عند دخوله، وفى الساعة التى يحدّدها العرّاف، يدفع مبلغًا يسمّى أيضًا «بفاتح الباب» إلى «بلانة العروس»[1]. فتسمح له بدخول حجرتها حيث يجدها ملتفّةً فى إزارها النسائى، وتطلب «البلانة» منه أن يخلع ملابسه ويضع هو الآخر إزارًا جديدًا وعليه أن يقدّم لعروسه هدية لكى تسمح له بأن يمسك بيدها أوّلاً، وهدية أخرى لكى يمسك بذراعها، ثم لكى يكشف النقاب عن وجهها عليه أن يقدّم إليها الهدية الثالثة.

وفى اليوم الأوّل بعد الدخلة[2] تقام الوليمة الشرعية للزفاف على نفقة العريس وهى غير الاحتفالات التى تبدأ فى اليوم التالى وتستمر لمدة سبعة أيام ويطلقون عليها فونجاتى وفى أثنائها يقدم الطعام على نفقة أهل العروس، وفى بعض الأحيان تتبادل الأسرتان تقديم الطعام كل أسرة فى يوم، ويلاحظ أن الوليمة الشرعية الإسلامية دخلت فى الإطار العام للاحتفالات الأصلية المحلية، وهى كثيرًا ما تقام فى زنجبار فى اليوم السابع من الفونجاتى، يسبقها فى بعض الأحيان إنشاد الموالد.

وهناك أيضًا ما يسمى «بالاحتفال بغسل الأقدام» وليس له

---

(١) أى التى تتولّى تزيينها ومرافقتها حتى منزل الزوجية.

(٢) يطلب عادة الدليل على عذرية العروس معناها عرض القماش الأبيض فوق الفراش وعـ إتمام ذلك يعطى العريس عروسه هدية للتعويض تسمى الجزاء.

وقت محدّد، فأحيانًا يتمّ فى الغرفة الخارجية بعد دفع «فاتح الباب» «للبلانة» وقبل ذهاب أصدقاء العريس، وأحيانًا أخرى - كما فى زنجبار - يقام فى اليوم الأوّل لاحتفالات السبعة أيام (الفونجاتى)، وفى ممباسا يقع فى اليوم الثالث من تلك الاحتفالات وعلى العريس وأصدقائه أن يدفعوا «غسيل الأقدام» لبلانة العروس فتقوم بغسل أقدامهم ومسحها بالزيت.

وإلى جانب ما يقوم العريس بدفعه من مبالغ تقليدية. وما يقدّمه من هدايا تحتّمها التقاليد والعادة، عليه أيضًا أن يقدّم هديةً إلى كلّ فتاة من الفتيات اللاتى تحطن بزوجته من صديقاتها «وصيفات الشرف» إلاّ أننا يجب أن نشير إلى أن كل تلك المظاهر والاحتفالات والهدايا والمدفوعات المختلفة لا تتمّ إلاّ فى زواج العذراء فقط، أما الثيّب (المطلّقة أو الأرملة) فزواجها بسيط لا يحيط به سوى الضرورات فى أضيق حدود الإنفاق.

ويتبع السواحيليونَ قواعد الشريعة فى الطلاق فإن طلّق الزوج زوجته فقد وجب عليه أن يدفع لها الدْين المستحق فى عقد الزواج أما إن كانت الزوجة هى التى حصلت من القاضى على الطلاق، فإنها تعيد ما سبق أن قبضته. ومسبّبات حصول المرأة على الطلاق قليلة ويفسّرها القضاء تفسيرًا محدودًا وضيّقًا وتثور المشاكل كثيرًا حول المبالغ التى تسترد لأن كل ما يدفع يذكر فى العقد ويصبح

استرداد الزوج لما سبق له أن دفعه عبئا ثقيلا على أسرة زوجته، ولذلك فإن كثيرًا من الزوجات يهجرن أزواجهن ليس فقط بسبب الصعوبة التى يواجهنها فى الحصول على الطلاق أمام المحكمة، بل أيضًا بسبب عجز أسرة الزوجة عن مواجهة العبء المالى بردّ ما سبق للزوج أن دفعه إذا ما سمحت لابنتها بطلب الطلاق من المحكمة، ولتذليل تلك الصعوبات كثيرًا ما يتفاهمون على الطلاق مع بعض التعويض. أمّا إذا طلّق الرجل زوجته طلاقا بائنًا لا رجعة فيه فلن يستطيع الزواج من نفس المرأة مرةً أخرى حتى تتزوّج من غيره (المحلّل) ويحافظ العرب على الفترة الشرعية المحدّدة للعدّة بعد الطلاق، ولكن الأفارقة السواحيليين وبخاصة «الوازاليا» فلا يهتمون كثيرًا بها.

وبالنسبة لأركان الحياة العائلية الأخرى مثل علاقة الزوج بزوجته أو زوجاته ورعاية الأطفال، فإنه السواحيليين جميعًا يتبعون المذهب الشافعى فيها، أما شعوب القبائل فلا يزالون يطبّقون عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم السائدة.

٥ - الموت والحداد:

عندما يقترب شخص ما من نهايته ويصبح على شفا الموت، يستدعون شيخًا لتلاوة سورتى يس والرعد، وتأدية بعض الصلوات

وتقترن قراءة البردة للبوصيرى بحالة المرض الخطير، وبالموت أيضًا، وخصوصًا ما جاء فيها عن التلقين لتمكّن الروح من الردّ والإجابة على ملائكة الحساب.

وشعائر الموت ثلاثة:

الجنازة.

الحداد.

نهاية فترة الأربعين.

حفل ختم القرآن:

ومن التقاليد المحمودة فى حالة الوفاة، أن الميت بعد أن يدفن يعلن عند قبره أن حفل ختم القرآن فى أكبر مسجد من مساجد الحى الذى يقع فيه منزل المتوفى، وقد يختارون مسجد الجمعة وهو أكبر مساجد العاصمة «دار السلام» ويقع فى وسط المدينة.

وقد شاهدت هذا الحفل، وهو عبارة عن أن كل من يريد العزاء يفد إلى هذا المسجد، حيث يصلّى العشاء مع الجماعة، وبعد صلاة العشاء وأداء السنّة والوتر، يوزّع شيخ المسجد أجزاء القرآن على كل الحاضرين فى المسجد، ويكون المسجد مكتظًا بالمصلّين مثل صلاة الجمعة، وبهذا المسجد وبالمساجد الكبرى أكثر من ثلاثين مصحفًا، مجزّأةً على أجزاء القرآن الثلاثين، وكل جزء مجلّد تجليدًا قويًا، وذلك

يعنى أن تسعمائة من المصلين يستطيعون أن يقرءوا القرآن فى وقت واحد، وهذه الأجزاء وجدتها مطبوعة فى سنغافورة وبعضها فى الهند، ومهداةً إلى المساجد، ثم يعطى شيخ المسجد إشارة البدء بالقراءة، فيمسك كل واحد الجزء الذى معه، ويقرأ فيه حتى يتمّه، وتسمع للمسجد دويًا كدويّ النحل، وقد أحسست وأنا أشاركهم هذه القراءة أن ملائكةً من السماء تحفّ هذا المكان الذى يرتفع فيه كلام الله بالقراءة، وبعد حوالى ثلث ساعة يعطى إمام المسجد إشارة الانتهاء فتطوى الأجزاء وتجمع. وتوضع فى دواليب خاصّة بها فى المسجد، ثم يتحدّث الشيخ الأزهرى إن كان موجودًا أو إمام المسجد الوطنى بكلمة مناسبة فى الاتعاظ بالموت، والتذكير بالآخرة وبلقاء الله، ثم يدعو للميت بالرحمة والمغفرة والجميع يؤمّنون، ثم توزّع بعض الحلويات وأكواب القرفة التى أحضرها أهل الميت، وبعدها يتّجه أهل المتوفى إلى باب المسجد الخارجى ليتقبّلوا العزاء من الحاضرين، وينصرف الجميع بعد أن احتفلوا بختم القرآن ودعوا للميت بالرحمة. هذه هى كل الاحتفالات التى تقام بمناسبة الوفاة، لا توجد سرادقات ولا قرّاء، ولا سهرات غير هذه السهرة، ويتم الحفل بهذه البساطة، وأعتقد أنها أقرب الوسائل قربى إلى الله وأنفع للميت إذ لايعدم أن يكون فى هذا الجمع لسان طاهر وقلب مخلص يدعو بالرحمة للميت فيستجيب الله.. هذه الظاهرة شاهدتها فى منطقة شرق أفريقية كلها، فى الصومال وكينيا وتنزانيا وأوغندا، وهى ظاهرة

طيبة، حبّذا لو أخذناها عنهم ونبذْنا تقاليدنا المذْمومة من التغالى فى إقامة السرادقات وإحضار مشاهيرْ القراء، وغالبًا يكون ذلك من باب الرياء والسمعة، وليقال: «إن فلانًا صنع كذا لميته».

والميت لا ينفعه إلّا ما ورد فى الحديث الشريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

البَابُ الثَالث

الجهود المبذولة لنشر الإسلام

١ - الجهود المبذولة من الأزهر ووزارة الأوقاف

اتّصل الأزهر بالمنطقة منذ زمن طويل، عن طريق الطلّاب الذين يفدون إلى القاهرة للتعليم بالأزهر، وتوجد به أروقة للطلاب الأفارقة، يقيمون فيه، ويتعلّمون بين جنباته، وتخرّج فيه عدد من العلماء، وخصوصًا من الصومال، أقام بعضهم بمصر، ووجد بها وظيفة مناسبة، وتزوّج من مصرية، وعاش وكأنه بين أهله وعشيرته، وأعرف منهم عالمًا جليلًا اسمه الشيخ على عثمان الصومالى، وبعضهم عاد إلى بلاده يعلّم المسلمين أمور دينهم.

واتّصل الأزهر بإرتريا عقب الحرب العالمية الثانية، حيث أرسل الأزهر مبعوثين منه لتعليم الدين واللغة العربية. وهناك معهد دينى أنشأه رجل حضرمى استوطن «أسمرة» واسمه عبد الله باحبيش.. وبعد أن استولت أثيوبيا على إرتريا منعت دخول مبعوثين أزهريين هناك لنشاطهم فى الدعوة إلى الإسلام. وأثيوبيا حامية المسيحية فى هذه المنطقة، مما اضطر بعض المبعوثين أن يقيموا هناك ولا يعودوا

إلى وطنهم خشية ألاّ يمكّنوا من دخول البلاد. أمّا الصومال فقد ورد في شأنه قرار الأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٥٠. وأهم ما ورد في هذا القرار ما يلي:

١ - يصبح الصومال الإيطالي دولة مستقلة بعد عشر سنوات.

٢ - خلال هذه الفترة يوضع الصومال الإيطالي تحت وصاية إيطاليا، ويتحتّم عليها أن تعدّه للاستقلال خلال هذه الفترة.

٣ - يساعد السلطة الإيطالية مجلس استشاري يتكوّن من ممثّلين لمصر وكولومبيا والفلبين وقد أسهمت مصر ومندوبها الشهيد كمال صلاح بنصيب كبير في تهيئة الشعب الصومالي للاستقلال وقدّمت خدمات واسعة في هذا المجال.

أما الصومال البريطاني فقد وعدت بريطانيا بمنحه الاستقلال سنة ١٩٦٠ وبناءً على ذلك تم استقلال الصومال البريطاني في ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٠، وتمّ استقلال الصومال الإيطالي في أول يوليو ١٩٦٠. وقد حضرت حفلات الاستقلال بصفتي رئيساً لبعثة الأزهر بالصومال آنذاك، وقد أجمع السكان الصوماليون بالصومال الإيطالي والبريطاني على تكوين دولة واحدة هي جمهورية الصومال، على أن يطلق على الصومال البريطاني اسم الصومال الشمالي، وتكون عاصمته الإقليمية هيرجيسة. ويطلق على الصومال الإيطالي اسم الصومال الجنوبي، وتكون مقديشيو عاصمة له، وعاصمة الجمهورية، وأصبحت الجمهورية الصومالية عضواً بالأمم المتحدة ابتداءً من

سبتمبر سنة ١٩٦٠ وقامت ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٩ بقيادة اللواء محمد سياد برى الذى كان قائداً للجيش الصومالى.

وبتكوين المجلس الاستشارى عام ١٩٥٠ ووجود ممثل مصر فيه، بدأ دخول البعثة الأزهرية هناك. بهدف نشر اللغة العربية. لغة القرآن الكريم - وتعليم المسلمين أمور دينهم.. وكان أفراد البعثة معدودين. وحينما اختارنى الأزهر رئيسًا لبعثته الأزهرية اخترت للعمل معى أربعين من خيرة رجال الأزهر، ما بين مدرّسين ووعّاظ. ومن مختلف التخصّصات، وكان الأزهر يتحمّل مرتباتهم ووزّعتهم على جميع المناطق، خصوصًا المناطق المجاورة للصومال مثل الحبشة، والمناطق التى يوجد بها نشاط للتبشير، مع توجيه عدد منهم إلى الإقليم الشمالى وأبقيت بالعاصمة عشرة أساتذة ليغطّوا الوعظ بالمساجد، وليدرسوا بمعهد الدراسات الإسلامية الذى كان تابعًا لوزارة المعارف الصومالية.. وقد غطّيت بهذا العدد جميع مناطق الصومال تقريبًا. ومعهد الدراسات هذا كان له مدير إدارة صومالى معيّن من وزارة المعارف، وكنت مديره الفنى، واستطعنا أن نربى فيه جيلًا من الشباب المسلم المتمسّك بإسلامه، وقد تخرج فيه من ولِىَ القضاء والوظائف العليا فى الدولة وتخرّج فيه شباب أتموا تعليمهم فى مصر فى الأزهر والكلية الحربية.

وكان فى مقدمة الشباب الثائر على القبلية والفساد السياسى بعض خريجى هذا المعهد، ولا يزال بعضهم حتى الآن فى مراكز

القيادة لثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٩. ومن خلال المعهد أنشأنا مجلةً باللغة العربية تعتبر رائدةً فى المنطقة كلها وتسمى مجلة الرائد. وكنا نطبعها على ماكينة «الرونيو» على نفقة الأزهر ونوزعها هدايا بالمجان على المسئولين فى الدولة، ونرسل منها إلى الأقاليم وإلى الدول المجاورة: أثيوبيا، وكينيا، وتنزانيا - وقد كان لها أثر كبير والحمد لله - فى إذكاء الحماس الوطنى والوعى الدينى لدى جماهير المسلمين، وأنشأنا بتمويل من الأزهر مكتبًا للبعثة فى أهم شوارع العاصمة مقديشيو. وكانت تقام فيه الاحتفالات الدينية. وأصبح منتدًى إسلاميًّا يفِد إليه المواطنون من مختلف طبقات الشعب، وخصوصًا الشباب المتعطّش إلى معرفة الثقافة الدينية فكانت تعقد ندوات دينية بصفة مستمرة، وكانت به مكتبة بها كتب متنوّعة فى الفقه والتفسير والحديث. ويقصدها الشباب للاطلاع على ما بها من ثقافة دينية، ويلاحظ أن جميع أهل البلاد شافعيون سنّيون متصوفة، ولذلك لا ترى خلافًا طائفيًّابين المسلمين. وهذه نعمة من الله عليهم. ولكن بدأت بوادر الخلاف العقدى بعد ظهور النشاط السعودى. وسنشير إليه فى الجهود المبذولة من السعودية وأنشأنا فى مقديشيو معهداً دينيًّا تابعًا للأزهر اسمه معهد مقديشيو الدينى وبه أساتذة من الأزهر يعلّمون الطلاب، كذلك أقام الأزهر معهدًا دينيًّا على نظام معهد مقديشيو الدينى فى مدينة برعو بالإقليم الشمالى، وأوفد إليه مبعوثين يدفع نفقاتهم، ويأخذ بعض طلّابه الناجحين فى منح دراسية

لإتمام تعليمهم بالأزهر.. كما يعمل مبعوثو الأزهر فى المدارس الإعدادية والثانوية حتى الآن.

وفى تنزانيا اتصلت وزارة الأوقاف والأزهر بالمسلمين هناك عن طريق اثنين من المبعوثين فى أوائل الستينات طلبوا إلى جزيرة زنجبار - ليعلّموا المسلمين الدين فى المساجد، وكانت سلطات زنجبار تدفع لهم نصف مرتباتهما. وتهيّئ لهما المسكن المناسب - ووزارة الأوقاف تتحمّل نصف المرتب.. وأقامت وزارة الأوقاف المركز الإسلامى بدار السلام عاصمة الجمهورية. وقد سبق أن تحدّثنا عن أنشطته المختلفة - فيه معهد دينى وجامعة شعبية وعيادة طبية، وقسم نسائى. وقاعة محاضرات ومكتبة عامة، واتخذ فناؤه مسجدًا إلى أن تبنى الوزارة مسجدًا مستقلًا بجواره.. وقد زار المركز جميع المسئولين المصريين الذين يفدون إلى تنزانيا فى مهمات رسمية، واطّلعوا على أنشطته وحازت إعجابهم، وكان من الوفود التى زارته وفد من مجلس الأمة الاتحادى، أيام أن كان قائمًا، ووفد من مجلس الأمة المصرى، ووفد من منظّمة التحرير الفلسطينية.

وبالمركز مبعوثون من الأزهر من وزارة الأوقاف، وطبيبان من وزارة الأوقاف تدفع لهما مرتباتهما وبدل العيادة، وتدفع كذلك مرتبات مدير المركز الذى توفده الوزارة مع مبعوثيها. ويدفع الأزهر مرتّبات مبعوثيه، وكان عدد المبعوثين أيام أن كنت مديرًا لهذا المركز عشرة من العلماء خمسة منهم من الأزهر وخمسة من الأوقاف.

كما تمد الوزارة المركز بالكتب. وبالأدوية المطلوبة للعيادة الطبية.

ويقتصر نشاط المركز على العاصمة، وعلى الطلاب الذين يفدون من الأقاليم، لكن ليس للداخل نصيب من هذا النشاط اللهم إلّا بعض الزيارات الفردية فى المناسبات الدينية، وحينما يأتى شهر رمضان توفّر الوزارة بعض القرّاء والعلماء لقراءة القرآن والوعظ والإرشاد فى كثير من المناطق الداخلية، الأمر الذى يجعل المسلمين هناك ينتظرون قدوم رمضان بفارغ الصبر ليستمعوا إلى قراءة القرآن من القراء الذين يسمعون أصواتهم فى المذياع ولم يروا أشخاصهم فهاهم أولاء الآن يجيئون إليهم بأنفسهم بدون أن يتحملوا شيئاً من النفقات، فالبعثة تفد على نفقة الوزارة فى مصاريف السفر وفى بدل السفر طوال شهر رمضان..

أما فى كينيا فلا يوجد للأزهر ولا للأوقاف نشاط دينى، وكنا نمدّهم بالنشرات والكتب الدينية، وخصوصًا نشرة المركز الإسلامى والتى تكتب باللغتين العربية والسواحيلية واسمها «رسالة الإسلام» فهى أداة الاتصال بيننا وبين المسلمين فى كينيا.. وكذلك فى أوغندا كنّا نرسلها إليهم، وتوفد الوزارة إلى أوغندا القراء فى شهر رمضان بناءً على طلب الجهات المسئولة ويلقى القارئ حفاوةً بالغة من المسلمين فى هذه البلاد.

٢ - الجهود المبذولة من السعودية وتقييم هذه الجهود

دور السعودية فى النشاط الدينى بأفريقية دور حديث، إن دورها الباقى الذى تتميز به هو أنها مكان الحرمين الشريفين، وإليها يفد الحجّاج من مختلف بقاع الأرض، فيحسّ الأفريقى الذى يلتقى بإخوانه المسلمين فى الحجّ بأنه عضو فى جماعة كبيرة، وأنه ليس وحده، بل هناك الملايين من أمثاله، يعبدون الإلٰه الذى يعبده، ويؤمنون برسالة الرسول الذى يؤمن به، ويقرءون القرآن الذى يقرؤه. فيحسّ بأنه قوىّ وبأن الإسلام عزيز. وأنه الدين الذى يعلو ولا يُعلَى عليه، فإذا ما رجع إلى بلاده ازداد اعتزازًا بدينه، ونقل لإخوانه ما شاهده من عزّة الإسلام وقوّة المسلمين، فيكون ذلك سدًّا عاليًا بينهم وبين أى نشاط تبشيرى يوجّه ضد الإسلام. فضلا عن تعرفه وهو فى الحج على مناسك الحج، وتعرفه على فرائض العبادات، واستماعه إلى الوعظ والإرشاد وإلى ما يتيسّر له من تفسير للقرآن الكريم، وشرح لأحاديث رسول الله، وهذا دور رائد ومتميّز وباق للسعودية إلى أن تقوم الساعة..

وفى عهد المغفور له الملك فيصل امتدّ النشاط الدينى للسعودية إلى الخارج واهتم اهتمامًا كبيرًا بنشر الإسلام فى أفريقية بصفة خاصّة، لما يدركه من نشاط تبشيرى مكثّف، وللوثنية الموجودة بها، والمسيحية تحاول أن تجذب هؤلاء الوثنيين إليها فضلًا عن محاولة إغرائها لبعض المسلمين المستضعفين؛ لهذا وضع تخطيطًا لإنشاء المساجد الكبيرة فى بعض العواصم الأفريقية، وإنشاء مجمعات إسلامية، وإرسال وفود من الدعاة إلى هذه الأقطار، وإعطاء منح دراسية للشباب المسلم ليتمموا تعليمهم فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة.. لقد شاهدت فى أوائل الستينيات وفودًا من السعودية قدمت من أجل إقامة مجمع إسلامى، وفعلًا أقامت معهدًا دينيًّا، طلّابه محدودون، ولم يؤثّر تأثيرًا كبيرًا فى النشاط الدينى هناك، لكنهم أعطوا منحًا لبعض الطلّاب للدراسة فى المدينة المنوّرة.

كما امتدّ النشاط السعودى إلى تنزانيا، عن طريق منح مساعدات لبعض المساجد، ومنح معونات للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الباكواتا) ولو أنها لم تصرف فى الأغراض المخصّصة لها وحدث مثل ذلك فى أوغندا وفى كينيا..

وتتخذ السعودية الآن طريقة طيبة فى نشر الدعوة الإسلامية فى هذه المناطق خاصّة، وفى أفريقية كلها بصفة عامة، وهى إيفاد علماء أزهريين تعاقدت معهم من القاهرة على أن يعملوا لديها برواتب تدفعها لهم، فإذا ما وصلوا إلى السعودية أوفدتهم إلى الدول

الأفريقية دعاةً إلى الإسلام، على نفقة السعودية، فهى بذلك تسهم بجهد مادّى كبير، ولكن القوى البشرية من علماء الأزهر، كما توفد بعض الدارسين فى معاهدها من الهنود المسلمين، وتخرجوا فى المعاهد العلمية هناك توفدهم إلى هذه المناطق للدعوة إلى الإسلام، وتدفع لهم رواتب مجزية، ومساكن طيبة على نفقة السعودية، وسيارات خاصّة تسهم الدولة فى شرائها لهم ليسهل انتقالهم لأداء أعمالهم، كما ترسل الكتب الدينية إلى المدارس الإسلامية والمساجد، لتسهم فى نشر اللغة العربية..

تقييم هذه الجهود:

إنها جهود مشكورة بلا شك، ولكن لى ملاحظات عليها أرجو أن يدرسها المسئولون عن الدعوة فى السعودية من هذه الملاحظات:

(أ) يحاول المبعوث السعودى من أوّل يوم يصل فيه للعمل نشر الفكر الوهابى، ويجعل كلَّ اهتمامه فى الدعوة إلى إعفاء اللحية، وفى الهجوم على الأولياء والأضرحة، وفى محاربة الاحتفالات الدينية التى ألفها المسلمون هناك مثل احتفالات المولد النبوى الشريف - والهجرة النبوية - وليلة القدر.

وبهذا يشغلون المسلمين بهذه المسائل التى لا تعتبر أساسًا من أساسيات الدين - وتترك تعليم المسلمين كيف يعبدون ربهم -

وتترك الاتصال بالقبائل ونشر كلمة: «لا إله إلّا الله محمد رسول الله» بينهم «لقد شاهدت فى الصومال وفى تنزانيا اختلافات حادّة بين أبناء الدولة الواحدة، هؤلاء يقولون: لا تحتفل بمولد النبى، وأولئك يقولون: لابدّ من الاحتفالات، وخاصم الأخ أخاه، وتنازع أبناء الحى الواحد، ووصل الأمر إلى أنّ بعضهم يكفّر الآخر، وقد حدث أخيرًا خلاف حادٌّ فى مدينة بكوبا على شاطئ بحيرة فيكتوريا بين المسلمين: بعضهم يقول: هى سنّة وينبغى المحافظة عليها، وأدّى هذا الخلاف إلى نزاع سياسى. مما حدا بالمسئولين فى الدولة أن يطلبوا من مصر الرأى الدينى الصحيح فى هذه المسألة حفاظًا على وحدة الصف..

إن منطقة شرق أفريقية كلها شافعيّون سنيّون متصوّفة، ويقفون جميعًا صفًّا واحدًا فى مواجهة تيارات الإلحاد والتبشير، وكلهم إخوة متعصّبون لدينهم، فهل من الحكمة فى توجيه الدعوة أن نبدأ بإثارة خلافات مذهبية مع وجود هذه المخاطر فى المنطقة، وهل هذا يتّفق مع قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾.

(ب) المبعوث السعودى يتّخذ لنفسه أسلوب الانعزال عن زملائه العاملين معه فى حقل الدعوة الإسلامية، ولا يتّصل إلّا بمن اتّفق فكره الدينى، الأمر الذى يظهر الدعاة أمام هؤلاء القوم بأنهم

مختلفون، ومتفرّقون، وكلٌّ يعمل من زاوية رسمها لنفسه. مع أنه إذا تعاون الدعاة من مختلف الجهات التى أوفدتهم، ومع تنوّع فكرهم الدينى، إذا تعاونوا فى أسلوب العمل كان لهم تأثير كبير فى الأخذ بيد المسلمين وتثقيفهم دينيًّا، وليتركوا الخلافات المذهبية فهى تثار مع المتخصّصين لا مع العامة؛ وليجتمع الجميع على الأصول الثابتة التى لا يختلف عليها أحد: توحيد الله «ورسالة الرسول» واليوم الآخر، وفرائض العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج، ومكارم الأخلاق والحرص على وحدة المسلمين والتصدّي لأفكار المنحرفين، وللتيارات الدخيلة التى تهبّ على المنطقة من الشيوعية الهدّامة، سواء أكانت تيارات سوفيتية أو صينية.. حين يتجمّع الدعاة على هذه الأصول سيكون نجاحهم فى العمل محقّقًا بمشيئة الله.

(جـ) يجب التنسيق بين هذه الأنشطة على مستوى قيادات الدعوة فى مصر والسعودية بحيث إذا أقامت مصر مسجدًا فى عاصمة دولة من الدول تقيم السعودية مسجدًا فى جهة أخرى، وإذا أنشأت مركزًا إسلاميًّا فى مدينة، لا تنشئ السعودية مركزًا إسلاميًّا فى نفس المدينة، بل توجّهه إلى جهة أخرى فى نفس الدولة، فمثلاً لمصر مركز إسلامى فى دار السلام عاصمة تنزانيا، وقد أقيم منذ عشر سنوات فلماذا تنشئ السعودية مركزًا إسلاميًّا فى نفس المدينة، لماذا لا تنشئه فى داخل الجمهورية وفى وسط القبائل، وتجعل منه قسمًا داخليًّا وعيادةً طبية ومعهدًا دينيا يضم الشباب التنزانى الذى يعيش فى

داخل الجمهورية بعيدًا عن جميع الثقافات إلاّ ثقافة المبشّرين الذين استطاعوا أن يصلوا إليهم وأن يقيموا بينهم. إن وجود مركزين إسلاميّين لدولتين معناه التنافس والتصارع. مما يظهر الدعاة بمظهر يسيء إلى دعوة الإسلام التى تدعو إلى وحدة الكلمة، ووحدة الصفّ، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا﴾.

وبهذا تكون الجهود المبذولة من السعودية – وهى جهود مشكورة – قد أدّت رسالتها كاملةً فى نشر الثقافة الإسلامية، بين قوم متعطّشين لمعرفة دينهم، وتعلّم لغة قرآنهم الكريم، ولا يجدون من يساعدهم إلاّ الدول العربية الإسلامية التى أخذت على عاتقها مسئولية الدعوة إلى الله، حتى يتحقّق لها قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا، وقال إننى من المسلمين﴾..

الباب الرابع

خطوات المستقبل

أوّلاً: على مستوى الدول والجماعات الإسلامية

(أ) إن القيام بالدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم يتطلّب أموالاً طائلة وأعدادًا بشرية كثيرة وأجهزة فنّية متنوّعة ومن الواجب أن تسهم فى هذه النفقات الدول العربية والإسلامية تخفيفًا للأعباء التى تقع على كاهل الأزهر والأوقاف من جهة، وتنبيهًا لجميع القادة والرؤساء والملوك والموسرين المسلمين إلى أن نشر الإسلام بين المسيحيين وتحويل الوثنيين إلى الإسلام وإنقاذهم من الشرك وتصحيح الأوضاع الإسلامية وعودة المسلمين إلى رحاب دينهم السمح.

كل ذلك أمر يهمّ جميع المسلمين ويجب أن يضطلع به كل المستطيعين ممّا استخلفهم الله عليه من مال، وأقترح أن ينشأ صندوق فى الجامعة العربية يسمى (صندوق دعم الدعوة الإسلامية فى الخارج) ويطلب من كلّ دولة إسلامية وعربية أن تسهم فيه بنسبة معيّنة من اشتراكها فى الجامعة العربية ويطلب من المسلمين

الموسرين أن يسهموا فيه بقدر من زكاة أموالهم من نصيب المؤلّفة قلوبهم وهو مصرف شرعى من مصارف الزكاة.

(ب) وتشكل لإدارة أموال هذا الصندوق موارده ومصارفه لجنة من المتخصّصين وخصوصًا المشتغلين بالدعوة الإسلامية على المستوى العربى والإسلامى، ومهمّتها تنسيق العمل للدعوة بين الجهات القائمة بها من شتّى الدول الإسلامية فى أفريقية والتنسيق فى الأنشطة القائمة الآن والتى تقوم بها مصر والسعودية والكويت إمّا باستقدام دارسين وإمّا بإيفاد مبعوثين.

ثانيًا: على مستوى جمهورية مصر العربية

تخطيط وتنسيق عملية تعلّم الأفريقيين بمصر حيث تستقدم أكثر من جهة طلّابًا يتعلّمون فى الأزهر، يستقدم الأزهر ويستقدم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بدون تنسيق بينهما، ولهذا يقدم عدد كثير ويبذل لهم الكثير ولكن النتائج التى تجنى لا تتناسب مع هذه الأعداد الكثيرة والجهود الكثيرة المبذولة لهم ولهذا توصى الدراسة:

(أ) بإحسان اختيار الوافدين إلينا اختيارًا يقوم على الصلاحية للدراسة والكفاءة بعيدًا عن أى اعتبارات أخرى ولو كانت اعتبارات سياسية.

(ب) تيسير تعليم الطلّاب الأفارقة فى بلادهم فى المراحل الإبتدائية والإعدادية والثانوية ثم استقدام من يحصل على الشهادة الثانوية ليلتحق بجامعة الأزهر مباشرة.. ومتابعة دراسته ليحصل على أعلى الدرجات العلميـة من الشهادة العـالية والمـاجستير والعـالمية (الدكتوراه) فهؤلاء سيعودون إلى بلادهم بأرقى الشهادات ويتولّون وظائف هامة. ويكونون خير دعاية للأزهر والإسلام ويتعصّبون للّغة العربية التى أجادوا دراستها طوال مراحل تعليمهم بالأزهر.. إن هذا

هو الطريق الأيسر للانتفاع بالشباب الأفريقى لا أن نستقدمهم لنعلّمهم فى المراحل الإعدادية والثانوية - فإن الزمن سيطول بهم ويكلّفون نفقات باهظة - وقد يختصرون الطريق ويعودون إلى بلادهم، أو تتخطّفهم السفارات الأجنبية وترسلهم إلى بلادها ليدرسوا بها سنةً أو سنتين ويعودوا إلى بلادهم بشهادات عليا يتولّون بها وظائف مناسبة.

(جـ) إنشاء سجلٍّ لخريجى الأزهر ومتابعة نشاطهم فى بلادهم ومداومة الاتصال بهم ليكونوا همزة وصل بين الأزهر وبلادهم.

(د) التخطيط لاستقبال الحجّاج المسافرين من أفريقية لأداء فريضة الحج عن طريق مصر فى ذهابهم وعودتهم. والعمل على زيارتهم الأزهر والمساجد الكبرى والآثار الإسلامية وإحسان استقبالهم واستضافتهم ليعودوا لسان صدق لمصر وللأزهر فيتعلق المسلمون هناك به ويسارع الأب إلى إيفاد ابنه لإكمال دراسته فيه.

(هـ) العناية بالإذاعة الموجّهة إلى البلاد الأفريقية والتأكيد على روابط الأخوّة الإسلامية بيننا وبينهم وبخاصّة وهم يتلهّفون على سماع صوت مصر من أجهزة الإذاعة عندهم.. وهذه الإذاعة الموجّهة تنقل أخبارهم وتعلق عليها، وتعرض لهم قيم الإسلام وحضارته بلغتهم الوطنية، وقد شاهدت بنفسى أثر هذه الإذاعة فى الصومال باللغة الصومالية وفى تنزانيا باللغة السواحيلية.

ثالثًا: على مستوى الأزهر

(أ) فى المؤتمر الإسلامى الذى يعقده مجمع البحوث الإسلامية مجال خصب لتأكيد أواصر الأخوّة الإسلامية وتهيئة مجالات الدعوة الإسلامية فى أفريقية وغيرها. وتوصى الدراسة بأن يخصّص جانب من بحوث المؤتمر فى كل دورة للتعريف بالعالم الإسلامى الأفريقى ودراسة أوضاع الدعوة والمسلمين هناك وأن يسهم فى هذه الدراسة أبناء أفريقية الذين يدعون فى كل مؤتمر.

(ب) أن يقوم المجمع بنشر وتشجيع الدراسات الإسلامية والأفريقية وبخاصّة المخطوطات التى يجب أن تنال اهتمامًا كبيرًا وصْلاً لما بدأته الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر عام ١٣٨١هـ مارس ١٩٦٢م بنشر كتاب (إحياء السنّة وإخماد البدعة) للشيخ (عثمان وان فودبو)، ولما اقترحه بعد ذلك بنشر كتاب (حصن الأفهام) وقد شاهدت بنفسى مخطوطات قيّمة فى الصومال حبّذا لو وجدت طريقها للتحقيق والنشر، وهى مخطوطات قديمة وباللغة العربية لعلماء صوماليين فى التفسير والحديث والفقه والتصوف.

(جـ) أن يقوم المجمع بدراسات عن العلماء الأفريقيين الذين

تربّوا فى رحاب الأزهر وكذلك دراسات عن الأروقة التى كانت فى رحابه ويأوى إليها الوافدون منها.

(د) أن يعنى باختيار العلماء المبعوثين إلى أفريقية عنايةً خاصّة من حيث الكفاءة والقدرة سواء أكانوا مدرّسين أم وعاظًا وسواء أكانوا لمدّة مؤقّتة كبعثات رمضان أو لمهمّة طويلة كالتدريس، وأن يرسم لهم برنامج عمل وأن يتابع عملهم بجدّية بحيث يكون نافذةً مفتوحةً على العالم الإسلامى الأفريقى ومسيرة الدعوة الإسلامية فيه، وبحيث يكون إنتاجهم فى هذا المجال رصيدًا فى مجمع البحوث الإسلامية من دراسات علمية وميدانية يستطيع المجمع على ضوئها أن يتابع نشاط مبعوثيه فى الخارج.

وتكون كذلك رصيدًا علميًّا للهيئات العلمية فى هذا الحقل فضلًا عن أنها ستكون مادّةً علمية لعمل لجان المجمع المخصّصة للتعريف بالعالم الإسلامى والحضارة الإسلامية وعمل الموسوعات ودوائر المعارف الإسلامية وغيرها من اللجان.

(هـ) التدقيق فى اختيار المبعوث بحيث يجيد لغةً أجنبية بقدر المستطاع، ولكن يجب أن يعرف اللغة الوطنية للجهة التى سيعمل فيها وأن يكون شافعى المذهب للعمل بمنطقة شرق أفريقيا متصوّفًا أو محبًّا للتصوّف وأن يكون له من سنه والتزامه بالزىّ الأزهرى ما يضفى عليه سمات الاحترام فلا يذهب شاب متخرّج حديثًا لا يعتنى بملبسه الأزهرى ويستحسن أن يكون لون بشرته مائلًا نحو

السمرة ولأن هذا يقرّبه من قلوبهم؛ فلونه قريب من ألوانهم. وأن يكون اجتماعيًّا بطبعه يألف الناس ويألفونه ويحبّ تكوين الصداقات.

(و) الاهتمام بثقافة المبعوث فليس كل مبعوث من الأزهر بقادر على العمل فى مجال الدعوة الإسلامية وبخاصّة فى أفريقية حيث النشاط التبشيرى المكثّف والمذاهب الهدّامة والأفكار المستوردة التى تحاول التشكيك فى الإسلام؛ لذا يجب أن يكون المبعوث واسع الثقافة عميق الفكر مطّلعًا على النتاج الحديث فى الدراسات الإسلامية الذى يقدّم له خير عوْن وهو يدعو إلى الإسلام وفى مقدّمة ذلك دراسة الحضارة الإسلامية بمختلف اتجاهاتها وأنواعها.

والمبشّر المسيحى يعرف الكثير عن الإسلام. ويهاجم الإسلام من خلال هذا التعرّف المنحرف؛ ولذلك ينبغى للدارس المسلم أن يدرس مقارنة الأديان ليعرف الأديان السابقة ومكانة الإسلام منها؛ فلقد مضى العهد الذى كان الإسلام فيه يدرس دراسة مستقلّة، واتّجه الفكر الآن إلى تصحيح ذلك فأصبح الإسلام يدرّس كحلقة ختامية فى سلسلة الأديان وهذا يستلزم أن يعرف المبعوث الأديان السابقة ويدرس كل شىء عنها، ثم يعرف الدور المهم الذى جاء به الإسلام ليكمل صلة السماء بالأرض، وليقدم للبشرية خاتمة الرسالات.

(ز) ويتحتّم على الأزهر أن يبذل أقصى الجهد لنشر اللغة

العربية فى أفريقيا فاللغة العربية هى الوعاء الذى جاء به كلام الله وأحاديث الرسول، والتعرّف عليها سيفيد كثيرًا فى مزيد من فهم الإسلام، ثم إن اللغة العربية هى أوسع اللغات الأفريقية انتشارًا وأكثرها حضارة، وإذا لم تكن اللغة العربية هى اللغة الأولى فى الأقطار التى يكون المسلمون بها غالبية مثل الصومال فلتكن الثانية بعد اللغة الوطنية، ولكن يتحتّم أن تسبق اللغات الأوربية ولكن الاهتمام باللغة العربية يجب ألّا ينسينا أن نحاول تقديم الإسلام للناس بلغاتهم، ومما يذكر فى مجال تقديم الدين إلى الناس بلغاتهم نذكر أن الكنيسة وضعت أجزاء من الإنجيل فى حوالى ٥٠٠ لغة أو لهجة أفريقية لتيسّر على الناس قراءة الإنجيل، ولست أقصد بذلك أن نكتب لهم أجزاء من القرآن الكريم بلغاتهم الوطنية، وإنما أقصد أن نقدم لهم تفسيره، وأن نقدّم لهم الفكر الإسلامى بهذه اللغات وتلك اللهجات وأن تكون آيات القرآن الكريم باللغة العربية منارات بين هذه الدراسة.

رابعًا: على مستوى وزارة الأوقاف

فى ريع بعض الموقوفات أموال تخصّص للدعوة الإسلامية وتوصى الدراسة بتوجيه جزء من فائض الريع للدعوة الإسلامية فى الخارج عن طريق:

(أ) إنشاء المساجد فى عواصم دول أفريقيا الشرقية وتؤثّث وتزوّد بمكتبة إسلامية ويختار لها الإمام من الأوقاف وتعيّن الوزارة المؤذّنين والخدم من أبناء البلاد.

(ب) إنشاء مراكز إسلامية فى العواصم وفى المدن الكبرى على غرار المركز الإسلامى فى دار السلام عاصمة تنزانيا ويكون المركز متعدّد الخدمات وتوفد الوزارة مبعوثين إليه من بين العاملين بالأوقاف بدلاً من أن تختار الأوقاف علماء ويختار الأزهر علماء والجميع يؤدّون عملاً واحدًا ويتبعون جهتين مختلفتين كما هو حاصل الآن فى المركز الإسلامى بدار السلام.

(جـ) تنظيم إحياء شهر رمضان فى الدول الأفريقية بابتعاث قرّاء مجيدين وعلماء يشرحون للناس الآيات التى تتلى عليهم ويتمّ اختيار هؤلاء المبعوثين بمعايير دقيقة حتى يكونوا خير دعاة للإسلام ولمصر فى هذه البلاد.

خامسًا: على مستوى جامعة الأزهر

العمل جديًّا للعناية بالدراسات الأفريقية وذلك بتخصيص برامج كاملة لها فى الدراسة تمهيدًا لإنشاء كلّية أو معهد متخصّص لهذه الدراسات وتوضع له البرامج ونظم الدراسة التى تكفل لنا تخريج متخصّصين فيها دعاةً ومدّرسين، وتوصى الدراسة بإنشاء المعاهد الأفريقية الإسلامية وقد سبق أن رصد لمشروع المعاهد الأفريقية الإسلامية أكثر من ثلاثمائة ألف من الجنيهات – فى عهد الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف والأزهر الأسبق وذلك من ريع الأوقاف الخيرية – وهى أوقاف كانت مرصودة على التعليم فى مدارس وزارة الأوقاف قبل تحويلها إلى وزارة التربية والتعليم، ووضع المشروع على أن تكون له أولويّات فى البلاد الأفريقية، فلا تقحم جمهورية مصر العربية نفسها بإبداء الرغبة فى إنشاء معهد هنا أو هناك فى بلد أفريقى إسلامى وإنما تعطى الأولوية للبلد الذى يطلب ذلك من الجمهورية ويعطى تسهيلات يتّفق عليها لإقامة المعهد أو جملة من المعاهد على أرضه، وكان المشروع عبارة عن مدرسة ذات مرحلتين: إعدادية وثانوية وعلى غرار مرحلتى الأزهر وبجانب البرامج التعليمية للوطنيين هناك يعدّ مركز صغير للبحوث

العلمية وعلى الأخصّ فى ميدان الزراعة والثروة الحيوانية وطبّ المناطق الحارة، واللغة واللهجات والوثائق العلمية والتاريخية والدراسات النفسية والاجتماعية وصلتها بالجوّ والبيئة مما يعود على الكشف العلمى فى ذاته بفائدة، كما يثمر فى مراجعة وإعادة تقييم ما كتبه المستعمرون عن هذه البلاد. ومن حصيلة هذه المراكز المتفرّقة تتكوّن الدراسات الأفريقية وتتكون مكتبة للتوجيه السياسى والاقتصادى والثقافى والعلمى والاجتماعى للشعوب الأفريقية فى صلة بعضها ببعض..

وقد سبق أن طلبت زنجبار قبل الانقلاب اليسارى الأخير وانضمامها إلى تنجانيقا تحت اسم تنزانيا ووقوعها تحت حكم (جوليوس نيريرى) عن طريق وفد رسمى حكومى برياسة وزير الداخلية طلبت من وزارة الأوقاف إنشاء معهد من هذه المعاهد على أن تقام معه محطة إذاعة إسلامية لشرق أفريقيا هناك وقد استجابت الوزارة آنذاك ووافقت على سفر مدير الأقسام الهندسية لعمل التمهيد اللازم عن طريق الدراسة الميدانية للواقع والإمكانات وسافر بالفعل وعاد قبل مارس سنة ١٩٦٤ وقامت الثورة فى زنجبار فلم ير المشروع النور. وتوصى الدراسات بمعاودة الاتصال بالسلطات الحاكمة فى زنجبار وحاكمها هو نائب رئيس الجمهورية وهو رجل مسلم متدّين اسمه (حبود جومبى).

سادسًا: على مستوى كليّات الدعوة بالأزهر وقسم الدعوة بكلية أصول الدين

توصى الدراسة بما يأتى:

(ا) توجيه مزيد من العناية بالدراسات الإسلامية الأفريقية من شتى جوانبها واعتبارها مادّةً أساسية بعد تخطيط البرامج وخطة الدراسة فيها لتخرج الداعية الناضج الذى يمكن الإفادة منه فى هذا الحقل.

(ب) توجيه الدارسين فى هذه الكليات لعمل رسائل علمية فى هذا الميدان على مختلف المستويات الدراسية.

(جـ) يدعم قسم الدراسات الأفريقية بدراسة اللغات الأفريقية على نمط جدّى ومنتج.

(د) توفير المكتبة المتخصّصة فى الدراسات الأفريقية بشتى اللغات وتيسيرها بالحصول عليها وتصوير مخطوطاتها للدارسين.

سابعًا: على مستوى أجهزة الدعوة كلها

توصى الدراسة بما يأتى:

(أ) العمل الجدّى لتنسيق أنشطة أجهزة الدعوة المختلفة من جهاز المساجد بالأوقاف وجهاز الوعظ بالأزهر وإدارة البعوث ومجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وكليات الدعوة بالأزهر والجمعيات الدينية والطرق الصوفية ووضع خطة مدروسة تنفذ على المدى القريب والمدى البعيد مع وضوح الهدف فيها والتزام كل جهاز من هذه الأجهزة بتنفيذ ما يكلّف به من أعمال فى المجال الأفريقى الذى يستقطبه الآن النشاط العالمى للمذاهب المختلفة، فالنشاط الإسلامى فى هذا المجال يمثّل مستقبلاً طيبًا للإسلام هناك.

(ب) تلتزم أجهزة الإعلام من إذاعة وصحافة وتليفزيون بالتعريف بأنشطة الدعوة الإسلامية فى هذه المنطقة وتعريف المسلمين بطبيعة العمل فيها والتحدّيات التى تواجه الإسلام من تيارات دخيلة وافدة إليها، وأن تقوم أجهزة الإعلام هذه بالتصدّى لحملات الإلحاد

والاستعمار والتبشير والصهيونية ولكنها تلتقى على معاداة الإسلام ومناوأة الدعوة الإسلامية ومطاردتها من أفريقية.

(جـ) عدم إرسال مجلّات ذات فكر منحرف أو تنطوى على قصص لا تتواءم مع قِيَمنا وأخلاقنا أو تحتوى على صور خليعة تتنافى مع ما ندعو إليه هناك من التمسّك بالفضائل والبعد عن الرذائل، كذلك عدم إرسال أفلام سينمائية من أفلامنا الهابطة التى تصوّر البيت المصرى بصورة البيت الذى يعيش فى اللهو والمجون وشرب الخمر والخيانة الزوجية وما إلى ذلك من الأفلام التى تعرض للكسب المادى فقط بغضّ النظر عن تفاهة موضوعها، مثل هذه الأفلام لا ينبغى أن تعرض فى بلاد ينظرون منها إلى مصر على أنها قلعة الإسلام فى العالم كله ومجتمعها مجتمع مثالى فى التمسّك بالفضيلة والتخلّق بمكارم الأخلاق.

ثامنًا: مقترحات عامة

(ا) توصى الرسالة بأن يعقد سنويًّا لقاء فى القاهرة بين جميع المبعوثين إلى أفريقية من علماء ومدرّسين وأطباء ومهندسين ومن يعمل فى أى مجال هناك من المصريين للتعارف ولتدارس المشاكل التى تواجههم وتقديم الحلول لها، وتنظم هذه اللقاءات وزارة الخارجية ويدعى إلى هذه اللقاءات كل من سبق له العمل فى هذه المناطق للانتفاع بآرائه من واقع عمله الذى كان يزاوله هناك..

وبذلك يستفاد بخبرات السابقين كلّ فى مجال عمله.

(ب) أرى أنّ من ينجح من الدعاة فى العمل هناك ويكون له نشاط بارز وله صلات طيبة بأبناء البلد لا تتقيّد مدّة بعثته بزمن فكلما تقادم عهده بالعمل هناك كلما ازدادت خبرته واتّسع نشاطه وكثر أصدقاؤه وأتقن اللغة الوطنية للبلد التى يعمل بها، أمّا من لم ينجح فى عمله بأن تقوقع حول نفسه أو أثار مشاكل وخلافات مع أهل البلد أو مع زملائه المبعوثين أعيد فورًا إلى القاهرة ولو كان ذلك بعد شهر من ابتعاثه.

وقد شاهدنا المبشّرين يقيمون هناك بصفة دائمة تقريبًا لأنهم

يعتبرون التبشير رسالة دينية تخدم دينهم وأهدافهم من نشر المسيحية والتبشير بها وليسوا مجرّد موظفين يتقاضون رواتب ويعدّون أيام المدّة التي يقضونها هناك ثم يعودون إلى أوطانهم، إنهم خرجوا من بلادهم مكافحين من أجل دينهم وخرجوا للإقامة الدائمة، ولذا تراهم يحفظون كلّ شبر من أرض الدولة التي يعملون بها ويجيدون لغتها الوطنية ويكونون أصدقاء كثيرين...

(جـ) متابعة نشاط بعثاتنا الدينية عن طريق جهاز للتفتيش يسافر إلى الدول التي بها مبعوثون ويتعرّف على نشاطهم ثم يضع التقييم لهم.

وأخيرًا

أحب أن أنبّه بصوت عال إلى أنّ الاستعمار فى أفريقية له ضراوته، وهو يقاوم الإسلام بمختلف الوسائل، وهو إن كان قد أعطى استقلالاً لكثير من دولها، فهو لا يزال يمسك بزمام التوجيه والتثقيف فيها، وعندما رأى أنه سيرحل وضع خطًّا يسير عليه ولا ينحرف عنه قوامه العناوين التالية:

(أ) الذهاب من أجل البقاء - أى أن يذهب جيشه ويبقى نفوذه.

(ب) الاختفاء من أجل الظهور - أى أن يختفى ممثّلوه البيض ليظهر ممثّلوه السود.

(جـ) الخروج من الباب والدخول من النافذة - أى خروج الجيش ثم دخول ممثّلين له خبراء ومستشارين.

إن الاستعمار يقف بالمرصاد من الإسلام ويعمل بكل جهوده للنيْل منه ويثير الفتن فى الداخل بين المسلمين وغير المسلمين ليتخذ من غير المسلمين وسيلته للتدخل وليضعف من قوى المسلمين،

ويحدثنا الواقع الذى شاهدناه بأعيننا ما حدث للمسلمين فى جزيرة زنجبار من تقتيل لهم وتشريد وإلقاء فى السجون، وما حدث للمسلمين فى الفلبين ولم يحرك أحد ساكنًا، كما يحدّثنا عن الصراخ المدوّى والزمجرة العاتية عندما يحصل أى عدوان على غير مسلم فى أى بلد من بلدان العالم. حينئذ نرى ونسمع كلامًا عن الإنسانية وعن حرية الأديان وعن الضمير البشرى.. وما أصدق قول القائل فى تصوير هذا الواقع.

قتل امرئ فى غابة   جريمة لا تغتفر
وقتل شعب بأسره   مسألة فيها نظر

فليتنبّه المسلمون - وليوحّدوا صفوفهم للدفاع عن الإسلام وعن المسلمين فى أى مكان فى العالم، وليدفعوا بإصرار أىَّ عدوان على المسلمين فى أى مكان.

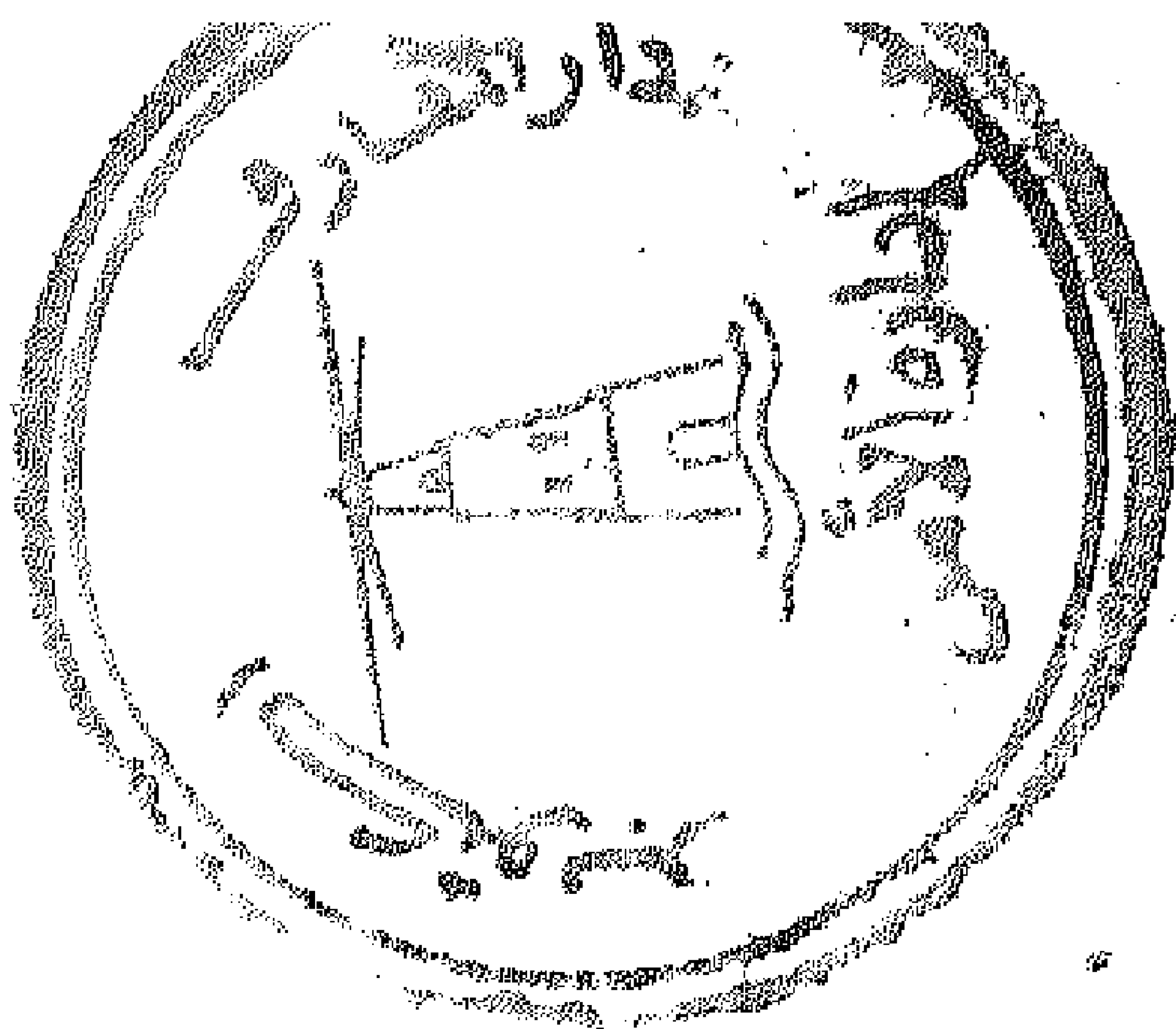
وصدق الرسول العظيم وهو يقول:

«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

رقم الإيداع	١٩٨٥ / ٣٩٤٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٦٦-٧ ISBN

١ / ٨٤ / ١١٧

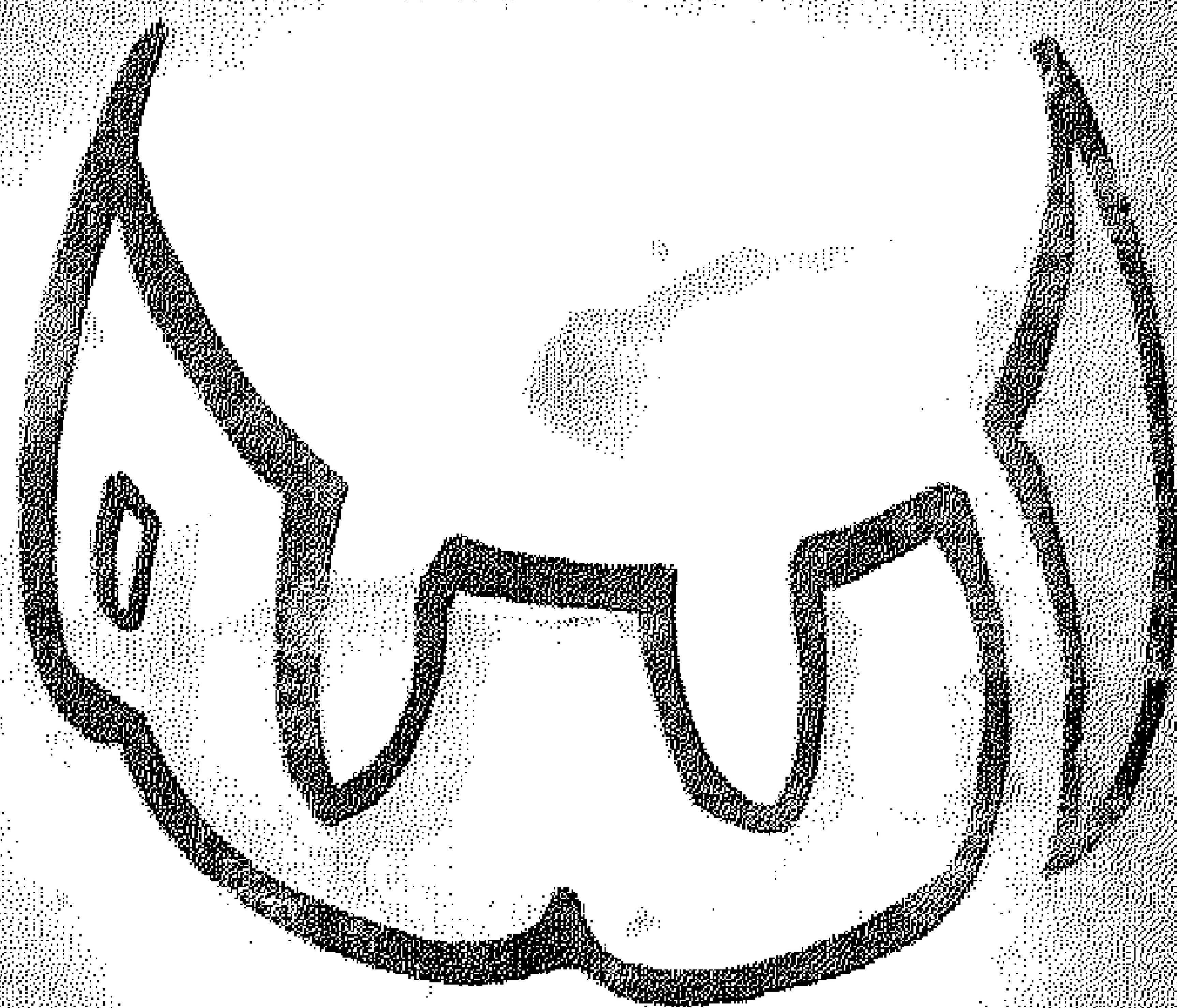
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



٥٠

طاهر أبو فاشا

العشق الإلهي

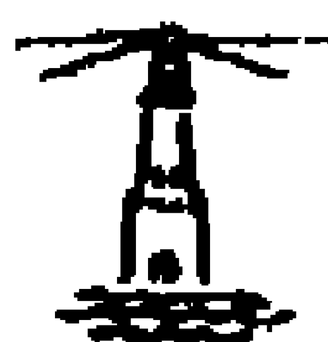


اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٥١٣] - يوليو - ١٩٨٥

رئيس التحرير صلاح منتصر

طاهر أبو فاشا

العشق الإلهى



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

« إذا وصلت إلى الحقيقة عن طريق عقلك .
فأنت فيلسوف . أو متفلسف .
وإذا وصلت إلى الحقيقة عن طريق قلبك .
فأنت صوفى . أو متصوف »

« ط . أ »

أشواقٌ وأذواقٌ ..

كنا ثلاثة نتحلّق حول المائدة الثقافية التى يمدُّها التليفزيون العربى فى أمسيات الأربعاءات : الدكتور كمال جعفر أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة . والأستاذ فاروق شوشة . وكاتب هذه السطور .

أما الموضوع الذى وضع أمامنا على مائدة الحوار فهو « العشق الإلهى » .

والعشق الإلهى مقام من مقامات التصوف العليا لايصل إليه السالكون إلا بعد أن يجتازوا طريقًا طويلاً من المجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية . ويتعرضوا لهزات عنيفة فى متاهات الوجود والشهود .

ومن هذا المقام تسلّل إلى أفكار أئمة المتصوفة بعض الشبهات . فكانوا هدفًا لسهام أهل الظاهر عندما احتدم الصراع بين الفقهاء والمتكلمين من ناحية . وهؤلاء المتصوفة من ناحية أخرى .

واقتضانى هذا أن أعود إلى الغوص فى هذا البحر العميق

لألتمس تأصيلاً لفكرة العشق الإلهى : حقيقته ، ومراتبه ، وظواهره ، وأعراضه .

وانقطعت لذلك أيامًا خرجت منها موقرا بزاد من شراب القوم حملته معى إلى تلك الندوة الثقافية .

***

ولكن الأستاذ فاروق كان يقود الندوة . ويوجهها فى الخط الذى حدَّده ورسمه . فكانت أسئلته بمثابة حدود ليس لنا أن نتجاوزها ، أو نخرج عنها ، فلم يتسع المجال أمامى للشطح فى أودية الأذواق والأشواق التى يخوضها العشاق وأصحاب المواجيد من أهل الباطن .. وخرجت من الندوة ومازال فى الرَّاووق أقباس لم يتسع لها وقت الندوة ولعلى أن أجد متسعًا لشىء منها فى هذه السطور إن شاء الله .

على الطَّريق

ومن المعروف أن بواكير النزعة الصوفية قد ظهرت فى مطالع الإسلام قبل بعثته عليه الصلاة والسلام . بتحنثه فى غار حراء . وفيما كان يأخذ به نفسه – بعد البعثة – من العبادة والزهادة .

وقد انتقلت هذه النزعة إلى الصحابة ، ومن الصحابة انتقلت إلى التابعين ، ومن هؤلاء إلى تابع التابعين .

ولكن هذه النزعة لم تأخذ وضعها كمنهج للحياة الروحية فى الإسلام إلا فى أواخر القرن الثانى للهجرة .

فقد هبَّت على العالم الإسلامى – منذ أواخر هذا القرن – نسمات لطيفة تحمل طيوب المجاهدات النفسية . والرياضات الروحية الصوفية .

لماذا ؟ وكيف ؟

ذلك أن الفتوحات العربية كانت قد بلغت مدى بعيدًا وحملت إلى البلاد العربية الأموال والخيرات من كل مكان . وأخذت الثقافات الأجنبية تطرق أبواب الفكر العربي . وجعلت الحضارة

العربية تزدهر . وارتقت وتنوعت وسائل العيش ، واستبحر العمران . وخرج العرب من بداوتهم ، وزايلتهم خشونتهم . وداخل الترف حياتهم . وركنوا إلى زخرف الحياة الدنيا ، وانعكست على صفحة حياتهم أعراض الترف ، واللهو . والعبث . وجميع السلبيات التي تصيب المجتمعات الغنية المترفة .

وكردّ فعل لذلك ظهر تيار ينزع إلى الزهد ، ومجاهدة النفس ، والانقطاع للتأمل والعبادة . ثم أصبح ذلك منهجًا يميز السالكين طريق الله في دروب الرياضة الروحية ، والمجاهدة النفسية .

* * *

وفى القرن الثالث الهجرى عندما اتسع اتصال العرب بغيرهم ، وامتدت جسور الثقافات . وتلاقحت الحضارات - عندئذ داخلت التصوف الإسلامى عناصر كلامية ، وأخرى فلسفية . وانشعبت مشارع الشريعة ، فأصبح هناك « علم الظاهر » ويختص به الفقهاء والمتكلمون . كما أصبح هناك « علم الباطن » ويختص به الصوفيون » .

وتحددت معانى الصوفية بأفكارها ورموزها ومصطلحاتها . وظهرت كلمة « التصوُّف » واشتقُّوا منها فعلًا . فقالوا : « تصوف » إذا سلك طريق الزهادة . وضرب فى طريق الرياضة الروحية .

ثم وقع الخلاف فى اشتقاق الكلمة ونسبتها . فنظروا إلى مفهوم

كلمة « التصوف » وقالوا : إن الصوفىّ منسوب إلى الصفاء .. ثم قالوا : إن هذا ليس بشىء لأن النسب إلى الصفاء . صفوىّ (بفتح الصاد والفاء) لاصوفى .

وقالوا إنها منسوبة إلى « الصُّفَّة » وأهل الصُّفَّة فى مسجد الرسول .. ولما كان النسب إلى الصُّفة « صفيًّا » لا « صوفيًّا » . فلذلك استظهروا أنها منسوبة إلى الصوف .

ومما يؤيد ذلك فيما يقولون :

١ - صحة النسب . فالنسب إلى الصوف صوفىّ .

٢ - وأن الصوف تتخذ منه « الخِرْقة » خرقة التصوف المشهورة التى كان الشيخ يُلبسها للمريد (التلميذ) فهى لباس الفقراء . والفقراء اسم من أسماء المتصوفة .

٣ - ومن المعروف أن بلاد فارس كانت مركزًا هامًّا من مراكز التصوف الإسلامى . وكثير من أعلام الصوفية الكبار من الفرس .

وكلمة التصوف فى الفارسية هى « بشمينا بوش » ومعناها الحرفىّ « لابس الصوف » .

وكان خصوم المتصوفة يأخذون عليهم ذلك . ويندِّدُون بالخرقة ويقولون :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
ولا بكـاءك إن غنَّى المغَنُّونـا

* * *

وفى مواجهة الحرب العنيفة التى شنها الفقهاء والمتكلمون على المتصوفة - لجأ هؤلاء إلى الرمز والغموض ، وسارت المناهج الصوفية فى تيارين :

١ - تيار فكرى نفسى يعتمد على الفلسفة الروحية .

٢ - وتيار سلوكى يعتمد على الشيخ والمريد . وقالوا : إن المريد كان مرادًا قبل أن يكون مريدًا .

وظهر فى سماء الحياة الروحية أقمار من أمثال السيدة رابعة العدوية التى كانت - بحق - نغمةً متقدمة من أنغام العشق الإلهى الذى تردّد بعد ذلك فى شعر الحسين بن منصور « الحلّاج » وفى أشعار سلطان العارفين الشيخ الأكبر « ابن عربى » ، وفى أشعار سلطان العاشقين « ابن الفارض » وفى أشعار « السهروردى » الحكيم الإشراقى يحيى بن جبش .. وغيرهم ممن عرفُوا الأذواق . وخاضوا بحار الأشواق . وساروا على الطريق فكانت مجاهدتهم جسرًا إلى الحقيقة التى يتهدَّوْن إليها بما ورد فى الشرع ثم بقلوبهم وأرواحهم أكثر من عقولهم . فهم كما يقول « فريد الدين العطار » لايثقون بالعقل كثيرًا . لأن مقصد الصوفى وراء العقل .. ولو أن الناس رجعوا إلى قلوبهم وأرواحهم لما وقعوا فى الخلافات والمشكلات التى يجرهم إليها تحكيم العقول .

وفى هذا يقول سلطان العارفين :

لاتعتمدْ غيرَ الذي تتلوه فى (م)
النَّص الذى نطق الكتابُ المحكم
واعبدْ إلهَ الشرع لاتعبد إلَهَ (م)
العقلِ . مَنْ هادُوا إليـه وأسلموا
فـالنـاس مختلفـون فى معبـودهم
فـمُـنـزِّهٌ مـعـبـودَهُ ومُجَسِّـمُ

ويردِّد ابن عربى هذا المعنى فى أكثر من موضع مؤكدًا أن الإدراك العقلى يخطئ ويصيب .. أما الإدراك الروحى فهو ضمان وصولك إلى الحقيقة .

وهذا هو منهج الإدراك الصوفى .

وهو - عندهم - أصل المعرفة .

القلب والروح . وليس العقل على أى حال . وفى هذا يقولون من (لزوم مالايلزم) .

مَنْ رَامَـهُ بـالعقـل مسترشـدا
سـرَّحَـهُ فى حـيـرةٍ يـلهـو :
وشـابَ بـالـتـلبـيسِ أسـرارَهُ
يقـول من حيـرتـه : هَـلْ هُـو ؟

وهذا المنهج الروحى هو الذى أدخلهم فى هياكل النورانية . وفتح أمامهم آفاق الإشراق والمحبة ، وتأدّى بهم إلى العشق الإلهى .

ومن الذين سبقوا إلى تأصيل هذا المنهج ذو النون المصرى أبو الفيض ، فهو من أوائل من تكلموا عن المقامات والأحوال .

وكان يرى أن المعارف مراتب أعلاها معرفة الخاصة من الأولياء والمقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم . وأن هذه المعرفة أسمى وأيقن لأنها لاتحصل بالتعلّم والكسب والاستدلال ولكنها إلهام يفيضه الله على قلب عبده . فيعرف ربه بربه .

بَيْنَ المَحَبَّةِ وَالعِشْق

ألا ترى أنك تستسيغ أن تقول « أحب التفاح » مثلا ولكنك لاتستسيغ أن تقول « أعشق التفاح » .

وكلمة الحب تدل – من الناحية اللغوية – على الودّ . والميل . والرغبة .

والحب بحسب متعلقاته أنواع ودرجات . فمنه حب الذات الذى ينتهى إلى مانسميه « الأنانية » . ومنه حب الغير الذى يصل إلى مانسميه « الإيثار » .. ومنه حبُّ الحياة . ومنه حب الكون كله وهو صورة من صور الحب الإلٰهى لأن مِنْ صِدْق الحبّ أن تحب مايصدرُ عن المحبوب .

أما العشق . فهو – من الناحية اللغوية – إفراط المحب فى حب من أحب . وهو – أيضًا – له متعلقات ومراتب . تبدأ من الصورة المادية الحسية . ثم تنتقل فى مدارج الصعود حتى تصل إلى الجمال المطلق والعشق الالهى .

والإفراط فى الحب الذى نسميه عشقًا يتطلب نوعًا من التسامى فى المعشوق .. ألا ترى أنك تستسيغ أن تقول « أحب التفاح » ولكنك لاتستسيغ أن تقول أعشق التفاح - مثلا -

حقيقته ومراتبه :

وعن الحب والعشق يحدثنا « داود الأنطاكى » ، فى كتابه تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق . وقد نُشر هذا الكتاب أخيرًا فى ستة أجزاء خصص الجزء الأول منها بالعشق الإلهى .

ونلاحظ أن كتاب داود الأنطاكى هذا أكثره نقولٌ من كتاب « مصارع العشاق » لأبى بكر السرَّاج .

ويقول الأنطاكى إنه اعتمد على كتاب السراج ، وإنه أخذه وحذف منه العنعنات والأسانيد والتكرار . وأضاف إليه بعض الأخبار . ورتبه فى فصول وبوَّبه فى أبواب تتناول ماهية الحب وحقيقته ومراتبه وعلاماته مستشهدًا فى كل ذلك بالأخبار والأشعار .

* * *

ويقرر داود الأنطاكى أن الحب يدلُّ على أريحية فى الطبع . ولطافة فى الشمائل ، لأن غاية العاشق أن يحصل على رضا معشوقه . وهو لايحصل على رضا المعشوق وإعجابه إلا إذا حصل على صفات الكمال التى تملأ نفس المحبوب وتقربه منه .

ويروى أن ابن أبى كثير قال لابن الورقاء : هل عشقت حتى

تكاتب وتراسل . ؟ قال : لا .. فقال له : إذن لن تُفلح واللهِ أبدًا . وأنشد :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فأنت وعَيْرٌ فى الفلاة سواءُ

ويرى الشيخ داود أن العشاق يعيشون فى مرتبة إنسانية أسمى وأعلى من حياة غيرهم :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى
ولا خير فيمن لايحب ويعشقُ

وهو ينظر إلى الحب باعتباره غاية الحياة . فليس وراء الاتصال بالمحبوب غاية . وهو لايعدل بالحب ملك الدنيا وأعلاق الحياة .

وما سرَّنى أنى خَلِىٌّ من الهوى
ولو أَن لى مابين شرق إلى غرب

فإذا كان هذا هو شأن الحب بعامة فكيف بالحب الكبير . العشق الإلهى .. وكيف يصل إليه السالكون .. وهل هو مقام . أو هو حال ؟

* * *

يقسمون النفس باعتبار أصولها ثلاثة أقسام :
أولها : النفس المعدنية الجامدة التى لاتعقل مايرادُ منها .. وما

يصدرُ عنها إنما يصدر بالخاصيَّة . أو بأمر أودعه الله فيها لمصالح يعلمها .

وثانيها : النفس النباتية وهي أرفع من الأولى باعتبار الذُّبول والتحلُّل . أي أنها تعيش وتموت . ففيها نَوْعُ حياة .

وثالثها : النفس الحيوانية .. وتفضل النفوس السابقة بالحركة الإرادية .. ومنها النفس الإنسانية ، وهي أفضل النفوس لأنها - كما يقول الأنطاكي - زبدة الكائنات . ومادامت تملك الحركة الإرادية فهي مقتدرة على أن تتبع شهوات الجسم ، وعوارض التكثيف فتكون حيوانية .. أو تعمل على خلاص النفس من ظلمة ماديتها . وإطلاقها من قفص الجسم ، فتلحق بعالمها الأصلي .. وهذه هي النفس الملكية المتخلصة من عوارض الكثافة . المنتظمة في محض اللطافة . فالإنسان منقسم كأصله .. متميز بفعله .

الروح الأكبر :

وبهذا يحدد الأنطاكي مفهوم العشق الإلهي . فهو نزوع الروح إلى الروح الأكبر . الذي منه المبتدى . وإليه المنتهى .

ويوضح هذه الفكرة الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه الممتع « فريد الدين العطار » المؤرخ الصوفي الكبير الذي يقرر في نصوص متعددة نقلها الدكتور عزام عن الفارسية - أن روح الإنسان من روح الله . وأن الصوفية يحتجون لذلك بقوله تعالى :

(فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ولهذا فإن صلة الإنسان بربه أقوى من صلته بالعالم .. هكذا يقولون .

ويشير الدكتور عزام هنا إلى قصيدة الشيخ الرئيس « ابن سينا » المشهورة :

هبطتْ إليك من المحلِّ الأرفع
ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كل مقلة عارفٍ
وهى التى سَفِرَتْ ولم تتبرقع
وصلتْ على كُرهٍ إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجُّع

فالورقاء هنا رمز للنفس الإنسانية التى هبطت من عالم الروح الأعلى إلى عالم الأرض ..

ولهذا يحن الواصلون من السالكين إلى الاتصال بالأصل والرجوع إليه . ولا يزالون يتدرجون فى معارج الوصول حتى يصلوا إلى مقام العشق الإلهى .

* * *

الطريق :

ولايصل السالكون إلى هذا المقام إلا بعد مكابدة رياضية . ومجاهدة نفسية يُصَفُّون فيها أنفسهم . ويسمونها « طريقًا » .

والطريق مراتب أو مراحل يسمونها « مقامات » ولكل مقام من هذه المقامات ظواهر يسمونها « أحوالا » .

وفَرَّقوا بين المقام والحال .

فالمقام هو الذى يصل إليه السالك بالمجاهدة والمكابدة ، والعمل والعبادة ، والزهادة .

وهكذا يأخذون أنفسهم بضروب من المعاناة فى سفرهم إلى الله .

وزادى قليل ماأراه مُبَلِّغى
أَللزادِ أبكى . أم لطول مسافتى ؟

فالمقام مجاهَدةٌ . ورياضة ، وسعىٌ ، وعملٌ واكتساب .

أما الحال فهو – عندهم – معنى يَرِدُ على القلب من غير تعمد أو اجتلاب . مثل الحزن . والشوق ، والطرب . والأنس .

ولهذا قالوا : « الأحوال مواهب . والمقامات مكاسب » .

مقامات وأحوال ..

ومن هذه المقامات وتلك الأحوال تأتينا أنفاس رجال الوقت من الصوفية وفيها عبق وأقباس من أنغام الإشراق . والأنس ، والطرب ، والوَلَه ، والحزن ، وكل مايتقلَّب فيه السالك من أحوال المحبة التى تتوهج بها أشعارهم .

ففى مقام « الحفظ » يتجرد المحب للمحبوب وحده بحيث يكون الميل إلى سواه إشراكًا فى الحب . أوردة عن شرعة المحبة . وفى هذا يقول سلطان العاشقين :

فلو خطرتْ لى فى سواك إرادةٌ
على خاطرى سهوًا قضيتُ بردَّتى

ولايزال العاشق يتدرَّج فى معارج الشوق والوجد . ويضرب فى مقاماته حتى يصل إلى مرتبة يتحول فيها إدراكه عن غير المعشوق (السِّوَى) بحيث يرى المعشوق فى كل شىء ، فهو لايرى فى كل

مايراه سواه : سوى المحبوب الذى لايغيب عنه أبدًا . أو كما يقولون :

خيالك فى عينى . وذكرك فى فمى
ومثـواك فى قلبى فـأين تغيبُ

وتجد هذا المعنى يتردّد فى أشعارهم كثيرًا :

عـلى بُعْـدِكَ لايصـبر (م)
مَــنْ عــادتــهُ الــقُــرْبُ
وعن قربكَ لا يصبرُ (م)
مَـن تـيَّـمَـه الحــــب
فــإن لم تَـرَكَ الـعـــينُ
فقــد أبصــرّك الـقلــــبُ

وقد يكون عجيبًا ذلك الشجن ، وهذا الشوق .. لأن الشوق لايكون حقيقة إلا فى حالة البُعد . فكيف به مع القُرب . فى هذا يقولون :

ومِـنْ عـجـبٍ أنى أحـنُّ إلــيـهــمـو
وأســأل عـنهم مـن لقـيت وهـم معـى
وتــطلبـهـم عـيـنى وهـم فى ســوادِهــا
ويـشتـاقـهم قـلبى وهـم بـين أضلعـى

وإذا وصل العاشق إلى مرتبة « العدم الكلى » فإنه ينصرف عن علائق هذه الحياة المادية الفانية ويموت عنها ليعيش فى سلام مع نفسه حيث يرى أن « وجوده الحقّ » هو ذلك العدم ، أو كما يقول الفارضى :

فَمَوْتى بها وَجْدًا حياةٌ هنيئةٌ
وإن لم أَمُتْ بالحب عشتُ بِغُصَّتى

وقريبٌ من هذه المرتبة مرتبة « الغناء » ويقصدون بها فناء العاشق فى المعشوق .

وفى هذا يقول سلطان العاشقين :

فلم تَهْوَنِى مالم تكنْ فِىَّ فانيًا
ولَم تَفْنَ مالم (تُجْتَلى)[1] فيك صورتى

ويقول الحسين بن منصور الحلاج :

وتحقّقْتُك فى السِّر فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان . وافترقنا لمعانى
إن يكن غَيَّبَكَ التعظيمُ عن لَحْظِ عِيانى
فلقد صيَّرَكَ الوَجْدُ من الأحشاءِ دانى

---

(١) كذا .

والحلّاج هو صاحب البيتين المشهورين . حيث يقول فى مقام الفناء عندما يفنى المحب فى المحبوب فلا يرى فى نفسه وفيما حوله سواه :

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوٰى أنا
نحن روحان حَلَلْنا بَدَنا
فإذا أبصرْتَهُ أَبْصَرْتَنى
وإذا أبصرتنى أبصرتَنا

وليس هذا المعنى مجرَّدَ خاطرة سنحتْ له .. ولكنه فكرةٌ أصيلة ، نُعاوِدُه ، وتلحُّ عليه ويُؤدِّيها ويُعبر عنها بصور مُختلفة . فهو يقول :

مُـزِجَتْ روحُكَ فى روحى كما
تُمْزَجُ الخمرةُ بالماءِ الزُّلالْ
فإذا مسَّكَ شيءٌ مَسَّنى
فإذا أنت أنا فى كل حالْ

وفى هذا - أيضًا - يقول :

لى حبيبٌ حبُّهُ بين الحَشَا
لو يَشا يمشى على خدِّى مَشَى
روحُهُ روحى . وروحى روحُهُ
إنْ يَشَا شئتُ . وإن شئتُ يَشا

ومن أجل هذه الرموز التى قد يسمونها « شطحات » اصطدم أهل الظاهر بأهل الباطن . وقام الصراع – كما قلنا – بين الفقهاء والمتكلمين من ناحية ، والمتصوفة من ناحية منذ القرن الثالث الهجرى . وأوذى كثير من أعلام الصوفية واستشهد بعضهم .

أعلامٌ وَمَعَالم ..

قــطع الــليــل رجــالٌ
ورجـــال وصــلـــو
رقـــدتْ فـيـــه أنـــاس
وأنـــاسٌ ســهـــرو

وفى تيه المحبة ما أكثر الذين تركوا لنا آثار أقدامهم على الرمال .. وما أكثر الذين تَقَصَّوْا آثارَهم . فوصل بعضهم ، وانقطعت السبيل ببعضهم .

ولكننا نحط رحالنا فى رحاب سلطان العارفين ، وسلطان العاشقين .

ابن عربى ، وابن الفارض .

أو قل وحدة الوجود . ووحدة الشهود .. فهذه هى الوجازة الكافية الشافية التى تضع بين أيدينا خلاصة الفلسفة الروحية عند ابن عربى ، وعند ابن الفارض ومن لف لفهما .

ووحدة الوجود مذهب يوحد بين الخالق والمخلوقات . أو يردّ عناصر الكون فى تغيره وثبوته إلى أصل واحد عند من يقولون بالطبيعة .

وفى متاهات تفسير العلاقة بين الوجود والموجود شطحوا فظهرت فى كلامهم رائحة القول بالطبع ، أو رائحة القول بالعلة الأولى . أو علة العلل وهى نزعات غير مقبولة على إطلاقها . إذا أخذناها على ظاهرها .

وكنا فى أيام الحداثة ونحن نتعاطى الدروس الأولى فى علم الكلام نستظهر من متن « الخريدة . للإمام الدردير » قوله :

وَمَنْ يقــل بـالــطبـع أو بــالعلَّه
فــذاك كفــرٌ عنــد أهــل المِلَّه

* * *

وفى الحق أن وحدة الوجود طريق زلق شائك تزل فيه الأقدام ، وتتصارع الحقيقة والأوهام .

وخلاصة القول فيها - عندهم - أن الله والعالم شيء واحد .

أليس الله موجودًا فى كل الوجود .. فى كل مكان ؟

بلى . ولكن كيف ؟

قالوا - ولله المثل الأعلى - إن وجوده تعالى فى هذا العالم كوجود الماء فى الثلج . بمعنى أنهما - فى الحقيقة - شىء واحد .

فالثلج هو الماء . والماء هو الثلج . وإن اختلفت الشكول والمظاهر .

وأنشدوا فى ذلك :

وما الخلق فى التمثيل إلّا كثلجة
وأنت بها الماءُ الذى هو نافع

وهذا كلام قريب الشبه من كلام الرواقيين الذين يرون أن الحقيقة مادية ، تسودها وتوجهها قوة أزلية (الله) .

وفى هذا ملامح من الأفلاطونية الحديثة . وهى مذهب يجمع بين التصوف والفلسفة أنشأه فيلسوف « صعيدى » ولد بأسيوط فى القرن الثالث الميلادى وسمى نفسه « أفلاطين » تأثرا « بالمعلم الثانى » .

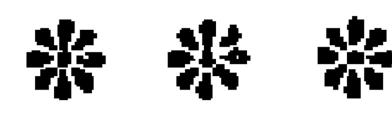
وكان أفلوطين هذا يقول بنظرية « الفيض » وفحواها أن الخالق الواحد - جل شأنه - فاضت عنه جميع المخلوقات . وأن كمال الإنسان لايتحقق إلا بتجرُّده من الجسد . واندماجه مع الواحد . ومعرفته بالشهود .

وهذا كما ترى فلسفة يمازجها التصوف . أو تصوف تشوبه الفلسفة .

مخاطر ومحاذير :

إن القول بوحدة الوجود كالمشى على الشوك .. فهذا هو

المنزلق الذى تردَّى منه المارقون إلى الهاوية .. كما كان المعراج الذى صعد عليه الواصلون إلى عالم الأذواق والأشواق على طريق العشق الإلهى حيث يرتفع اليقين إلى حقيقة أن روح الإنسان من روح الله ، وأن صلته بالله أقرب من صلته بالعالم ، وفى هذا يقول أبو الفيض ذو النون المصرى : « إن بين الرب والعبد حبًّا متبادلاً ، ومن ذاق الحب الإلهى عرف الذات الإلهية » .



وقالوا : إن الروح ليست محدودة بالجسم ، وإلا كانت جسمًا . ولكنها موصولة به تثير الشوق إلى الامتزاج بالأصل الذى هو كل شىء ، وليس فى عالم الحقيقة حقيقة سواه .

وفى بحار العشق الإلهى . وفى متاهات الشوق تواجد القوم ، وذهلوا عن أنفسهم ، وشطحوا وأبعدوا فقال بعضهم : « أنا الحق » ونسب إلى بعضهم قوله « مافى الجبة غير الله » وصوَّروا تجاريبهم تلك الروحية العميقة فى أشعارهم الرمزية الغامضة فأثاروا عليهم أهل الظاهر من الفقهاء وعلماء الكلام الذين رموهم بالزيغ والمروق ، واعتنوا بهم وأوسعوهم رهقًا . ومن هنا كانت المآسى والفواجع التى امتحن بها هؤلاء الأعلام .

مِحَنٌ وَفِتَنٌ

طَلبتُ المستقرَّ بكل أرضٍ
فلم أَرَ لى بأرضٍ مستقرًّا
ونلتُ من الزمان ونالَ مني
وكان منالُهُ حلواً ومُرًّا .

ويتهمون الصوفية بالسلبية ، والانقطاع للتأمل والزهادة . والانعزال عن قضايا الحياة . ومشاكل الجماهير .

وقد لا نرى ردا على هذه الدعوى أبلغ من الإشارة إلى حياة الكثيرين من رجالهم فى « الربط » يرابطون فيها مع المقاتلين ، ويستخدمون نفوذهم الروحي ، ويستثيرون الهمم ، ويستنفرون الرجال ..

إن هذا يقودنا إلى الإلمام بطرفٍ من حياة رجل الوقت الصوفى الكبير الشهيد « الحسين أبى منصور الحلّاج » ووقوفه راسخاً شامخاً

كالجبل الأشم فى وجه القوى التى تالبَت عليه وهو لا يملك غير دفء الحقيقة ، وعواطف الجماهير .

* * *

كانت بغداد يومئذ قد انتهت إلى دَرَك بعيدٍ من الانحلال والفساد ، وشاع فيها التَّرف . وانتشر الميلُ إلى الجوارى والغلمان .

والناس على دين ملوكهم . فقد كان على كرسى دولة الخلافة . الخليفة جعفر « المقتدر » وكان صبيًّا لاهياً يَتَدَلَّه فى حُب جارية رومية شغفته حبًّا فأسلمها قياده ، وانصرف إلى العبث . واللهو ، والمجون بين جواريه وغلمانه . تاركاً تصريف شئون الملك لوالدته ، وهى أم ولد اسمها « شغب » فصار فى يدها كل شىء ، وأصبح إليها الأمر والنهى .

وعلى الجانب الآخر كانت الخلافات العقائدية تطحن « أهل الظاهر » و « أهل الباطن » معاً ، فاحتربت الفرق الدينية من معتزلة . وحنابلة . وأشاعرة . وصوفية .

* * *

وفى هذا الجو المضطرب الخانق ارتفعت صيحة « الحلَّاج » وهاجم الانحلال والفساد فى غير هوادة . ودعا إلى تطهير الحكم ونظافته ، فكان صوته أعلى من صوت الحاكم وبطانته . والتفتْ حوله الجماهير وقد أثارتهم دعوته ، واهتز عرش الخلافة فى بغداد ،

واشتد الصراع على الملك ، ونجحت الثورة وارتفع إلى عرش الخلافة الشاعر البلاغى المعروف « عبد الله بن المعتز » .

ولكنه لم يستمر في دَسْت الحكم إلا يوماً واحداً ، فقد نجحت الثورة المضادة والتفَّ حول المقتدر خواصُّه وأنصاره فاستعاد عرشه . وقبض على ابن المعتز وقتله .

* * *

وظل صوت الحلاج يقرع الفساد ويسوط المفسدين .

وكان لابد لهم من إسكات ذلك الصوت الذى ظلّ مرتفعاً قويا يطرب الأسماع وينفذ منها إلى القلوب .

وكان الحلاج يناضل فى أكثر من جبهة .. كان يقاوم الجبهة التى يقودها الحكام وبطائنهم الذين أفسدوا الحياة السياسية فى بغداد .. كما كان يقاوم الجبهة التى يقودها علماء الظاهر من الفقهاء والمتكلمين الذين يناصبون الصوفية العداء ، فاجتمع عليه هؤلاء وهؤلاء . وأخذوه بكلمات لم يصلوا إلى أغوار معانيها . واختلقوا عليه بعضها . وواجهوه بقوله « أنا الحق » ورموه بالشعوذة ، واتهموه بالمروق والإلحاد ، وادعاء الإلهية ، والقول بالحلول والاتحاد .

وجاءوا به مكبلاً بالأغلال ، ولم يعجزهم أن يُدبِّروا الشهود ، ولم يكونوا فى حاجة إلى شهود ، فهم قد جاءوا به ليحكموا عليه لا ليحاكموه .

ولكن إذا كانوا يريدون قتله فلماذا يقتلونه على هذه الصورة لرهيبة الراعبة التى تناقلها الرواة ؟ !

وثارت الجماهير . واهتزت قوائم الحكم من جديد . فعجل ذلك بالنهاية .

والعجيب العجيب أنهم اشتطوا فى تعذيبه ، وانصبَّ عليه الجلادون بِسياطهم وهو يبتسِم ، ويتواجد ويترنّم قائلًا :

عجبت منك ومنى ... يا منية المتمنِّى
أدنيتنى منك حتى ... ظننتُ أنك أنى
وغبتُ فى الوجدِ حتى ... أفنيتنى بك عنى

وإذا كان هذا عجيباً فأعجب منه أنهم بتروا يديه ، وقطعوا قدميه وهو هو لم يجزع ولم يتألم ، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يترنم ويتواجد ويقول :

وحرمَةَ الوُدِّ الذى لم يكنْ ... يطمعُ فى إفسادِهِ الدهرُ
ما قُدَّ لى عضو ولا مفصلٌ ... إلا وفيهِ لكمو ذكرُ

وإنه لعجيب وغريب حقًّا ألا تفارق الابتسامة شفتيه وأن يتواجد ويترنم ويرقص وهم يجلدونه ويقطعون يديه ورجليه .

ذلك - عند أهل الظاهر - من المستحيلات التى تخرق الناموس - وتخرج عن المألوف . ولعل هذه الأخبار أن تكون من

صنع الرواة . فهى - عندهم - شيء يخرج عن نطاق التصور والتصديق .

وأنا رجل عقلانى . أميل إلى المادية ، ولا أومن بالخرافات . ولا أصدق أن الشيء يكون إلّا أن يكون لحدوثه سبب طبعى يدخله فى نطاق المعقول المقبول .

ولكنى مع هذا أتصور أن ذلك شيء ممكن الوقوع .. وعندى لذلك أسباب ومبررات . وتفسير مقنع .

ذلك أن الإحساس بالألم لا يحدث لمجرد وقوع المؤثر (السبب) وإنما بانتقال أثر هذا المؤثر إلى المخ .. وهو ينتقل إلى المخ بواسطة شعيرات دقيقة تصبُّ فى النسيج العصبى الذى يليها عن طريق « العصب الوارد » الذى يخترق النخاع الشوكى ويصل إلى قشرة المخ حيث يوجد مركز الإحساس ، وعندئذ يحدث الشعور بالألم . ويظهر الأثر فى مكان المؤثر .

فالإحساس عملية تتمُّ فى المخ . وتظهر فى مكان حدوث المؤثر .

فإذا سكت مركز الإحساس فى المخ عن عملية الإحساس بالألم لأى سبب فعندئذ ينعدم الشعور بالألم - كما هو الشأن مع مشرط الطبيب فى العمليات الجراحية .

واعتبر ذلك فى المخدور ، أو الواقع تحت تأثير « البَنْج » أو الإغماء أو الاستغراق .. فإذا حدث شيء من ذلك فإن المخ لا يقوم بدوره فى عملية الإحساس بالألم .

من الممكن أن نتصور أن هذه هى حالة « التَّمَل الروحى » التى ارتفعت إليها روح الحلاج ، واستغرقته إلى الدرجة التى يتعطل فيها المخ عن الإحساس بالألم وهم يجلدونه ويقطعون يديه ورجليه .

وقد نستأنس لذلك بما روته أخت الحلاج عندما جاءها فى المنام بعد مصرعه فى قصة نذكرها من باب الاستئناس وليس من باب الاستدلال ، فقد ذكروا أن الحلاج جاء لأخته فى المنام بعد مصرعه فقال لها : يا أخت إلى كم تبكين علىَّ . ؟ فقالت : كيف لا أبكى وقد جرى عليك ما جرى .. فقال لها : يا أخت .. عندما قطعوا يدى ورجلٍى . كان قلبى مشغولا بالمحبة ، ولما صلبونى كنت شاهداً ربى فلم أدرِ ما فعلوا بى .

والحكمة الإشراقية

وكذلك فعلوا بالسُّهروردى « المقتول » أبى الفتوح يحيى بن حبش الحكيم الإشراقى الذى جمع بين الفلسفة والتصوف فيما كان يسميه « علم الأنوار » وكان جماع حكمته الإشراقية أن الحقائق العلوية لا تنكشف بالفكر وإنما تنكشف بالذوق .

ونجد فى أشعاره العذبة أقباساً من مواجيده ورموزه تتوهج فيها أشواقه التى يتغنى بها فى قوله :

أبـداً تحـنُّ إليـكم الأرواحُ
فـوصـالكم ريحـانُها والـراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم
وإلى لـذيذِ لقـائكم تـرتـاحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
أبـداً . فكل زمـانهم أفـراحُ

والله ما طلبوا الوقوف ببابه
حتى دعوا فأتاهم المفتاحُ
حضروا وقد غابت شواهدُ ذاتهم
فتهتّكُوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم . وقد كُشفت لهم
حُجُبُ البقا . فتلاشت الأشباحُ

* * *

وتنبهنا المراجع الصوفية إلى أنهم يقولون الشُهروردى « المقتول » تمييزاً له عن أبي حفص عمر السهروردي الفقيه المتصوف . وكلاهما من مواليد سهرورد وهى بُلَيْدة من أعمال فارس .

ولقد كانت شطحات السهروردي وسبحاتُه الروحية فى مَغاصات العشق الإلهى ووحدة الوجود أمراً تَعَاظَمَ أهلَ الظاهر من فقهاء الشام الذين ناظرهم فى حلب فظهر عليهم ، وأحفظهم عليه فسعوا به لدى صلاح الدين الأيوبى ، فأمر ابنه « الظاهر » سلطان حلب بقتله فقتلوه عام ١١٩١ م .

وسلطانُ العارفين

ليت شعري هل دَرَوْا أيَّ قلب ملكُوا
وفؤادي لو دَرَى أيَّ شِعبٍ سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا . ؟

وكان سلطان العارفين الشيخ الأكبر « ابن عربي » ممن أوغلوا في مفازات وحدة الوجود ، وانطلقوا منها إلى آفاق العشق الإلهي وهو القائل .

أدِينُ بدين الحبّ أنَّى توجهتْ
ركائبُه فالحبُّ ديني وإيماني

ولم يقل ابن عربي بوحدة الوجود وحسب ، وإنما قال أيضاً بوحدة الأديان ، فالدين كله لله . وهي نظرة سمحة متقدمة .

وكان جماع فلسفته قوله : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » يعني أن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ووجود

الله تعالى هو الوجود الحقيقى ووجود العالم هو الوجود الوهمى .

وقد مَرَّ بنا كيف أخذوا الحلاج بظاهر قوله « أنا الحق » .

وكنا فى صدر الشباب نُلِمُّ بكتاب ابن عربى الشهير « الفتوحات المكية . فى معرفة الأسرار الملكية والملكوتية » فنقرأ فيه ما يبهر عقولنا ، ويبلبل أفكارنا . كقوله فى مقدمة هذا الكتاب : « ولما حيرتنى هذه الحقيقة . أنشدت على علم الطريقة . للخليقة :

العَبدُ حقٌّ . والرب حقٌّ
يا ليت شعرى مَن المكلَّف
إن قلت عبد فذاك نفىٌ
أو قلت رب فهل يُكَلَّفْ

ومثل ذلك أو أبعد منه إغراباً أبيات وردت فى « فصوص الحكم » تجدها فى « فص الحكمة اللوطية » .

وكنا فى أيام الحداثة نستظهر هذه الأبيات ونرويها للإغراب والمباهاة . ولم تسمح لنا حداثة السن يومئذ أن نُحلِّق فى هذه الأجواء البعيدة ، أو أن نقترب من حقيقة معناها الباطن . فهل اقتربنا من حقائق معانيها الآن بعد أن كلأ العمر . وتجاوزنا حدود الشباب ؟

* * *

ثم كان ابن عربى - إلى هذا - يثير قضايا كلامية مثيرة تنبع من رؤيته لوحدة الخالق والمخلوق كما ترى فى قوله :

تُحاسبُهم بما فعلوا
وما فعلوا الذى فعلوا
وتَطْلبُهم بما عملوا
وأنت خلقتَ ما عدلوا
لئن أُخِذوا بما عَلِموا
فأعظمُ منه ما جهلوا

ولهذا لم يكن مستغرباً أن يثور به الفقهاء . وأهل الظاهر والرأى من أمثال ابن تيمية ، وابن خلدون وابن حجر (العسقلانى) وغيرهم ممن فَسَّقُوه ورموه بالإلحاد والحلول والقول بوحدة الوجود - كما يفهمونها - .

ولم يكن مستغرباً - أيضاً - أن يَنْبرِى للدفاع عنه أعلام من الفقهاء وأهل الرأى من أمثال الإمام الرازى . والصفدى . ومجد الدين الفيروز ابادى (صاحب القاموس المحيط) وغيرهم ممن فهموه وعرفوا قدره وعدوه شيخهم الأكبر .

وعندما جاء ابن عربى إلى القاهرة . ونزل على جماعة من أهل الطريق فى « زقاق القناديل » بحى الأزهر - عندئذ انتشرت أفكاره هذه فأثارت علماء الظاهر فى مصر فسعوا بينه وبين الملك العادل . فأوغروا صدره عليه فكاد يوقع به ولكنه نجا بنفسه وانحدر إلى بلاد الشام ليلقى وجه ربه فى دمشق ويدفن بها فى عام ١٢٤٠ م .

وَسُلطانُ العاشقين

إليَّ رسـولاً كنت مِنّى مـرسـلاً
وذاتى بـآيـاتى عـلىَّ اسْتَـدَلَّتِ

وكان ممن ساروا على هذا الدرب سلطان العاشقين « شرف الدين أبو حفص عمر » المعروف بابن الفارض الحموى أصلاً . القاهري مولداً ونشأة ووفاة ، فقد قدم أبوه من « حماة » إلى مصر ، وتولى عملاً يشبه عمل « القاضى الشرعى » من بعض الوجوه إذ كان يقوم بإثبات ما يفرض للنساء من الحقوق على الرجال . ولهذا لقب بالفارض .

وابن الفارض هو شاعر العشق الإلهى غير منازع . ولهذا لقب بسلطان العاشقين .. وقد سلك طريق المجاهدة والرياضة النفسية ، فساح فى وادي المستضعفين بالجبل المقطم ، كما ساح بأودية مكة حيث قضى خمسة عشر عاماً عاد بعدها إلى القاهرة ليعطر أجواءها بنفحات من طيوب شعره الذى لم يأخذ من جماله بعض التكلُّف الذى جعل يُثْقل الشعرَ فى هذا العصر والعصور التالية . بتراكم

المحسنات ، والتقديم والتأخير . والمشاكلة اللفظية والإغراب كما ترى فى قوله :

كهــلال الشّـك لــولا أنـه
أَنَّ . عَيْنِي عَيْنَــهُ لم تَتَـأَىّْ

فى قصيدته :

سائقَ الأظعان يطوى البِيد طَىّْ
مُنْعِمًا عَرِّجْ على كثبانِ طَىّْ

ولكنك إذا تجاوزت عما يعترضك من أمثال ذلك فإنك واقع على أطايب الفارضى وروائعه التى يُحلِّق بها فى سماء العشق الإلهى .

وإذا كان ابن عربى يقول بوحدة الوجود فإن ابن الفارض يذهب إلى وحدة الشهود . وهى ليست بعيدة عن وحدة الوجود ولكنها تزيد عليها باتخاذ الامتزاج بين المحب والمحبوب سبيلاً للمعرفة عن طريق الشهود .

ومما يروى فى هذا الصدد أن ابن عربى قام بنفسه أن يضع شرحاً لقصيدة ابن الفارض « نظم السلوك » وهى التائية الكبرى .. وسأل ابن عربى ابن الفارض فى ذلك فقال له : كتابك « الفتوحات المكية » شرح لها .

ثم إن ابن الفارض — كان عربى — يقول بوحدة الأديان . وأن الدين كله لله .

ولابن الفارض ديوان شعر كبير شرحه البوريني « حسن البوريني » شرحاً لغويًّا وأدبيًّا . وشرحه عبد الغني النابلسي الصوفي الكبير شرحاً صوفيًّا .. وقد طبع الديوان مع شرح البوريني وقطوف من شرح النابلسي في جزأين كبيرين يقعان في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير .

ومن هذا الديوان نقع على قصيدة « الخمر الإلهية » ونقتطف منها هذه العناقيد .

يقول الفارضي :

شربنا على ذكر الحبيبِ مدامةً
سكرنا بها من قَبْل أن تُخلقَ الكرمُ
ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانِها
ولولا سناها ما تصوَّرَها الوهمُ
إذا ذكرت في الحيِّ أصبح أهلُهُ
نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
وإن خطرتْ يوماً على خاطر امرئ
أقامتْ به الأفراحُ . وارتحلَ الهمُّ
ولو نَضَحُوا منها ثَرَى قبرِ ميتٍ
لعادتْ إليه الروحُ وانتعشَ الجسمُ

يقولون لى صِفْها فأنت بوصفِها
خبيرٌ . أجل عندى بأوصافِها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ . ولطفٌ ولا هَوَا
ونورٌ ولا نارٌ . وروحٌ ولا جسمُ
وقالوا : شَرِبْتَ الإِثمَ .. كَلَّا . وإنما
شربتُ التى فى تَرْكِها عندىَ الإثم
فما سكنتْ والهمّ يوماً بموضعٍ
كذلك لم يَسْكُنْ مع النَّغَمِ الغَمُّ
فلا عيشَ فى الدنيا لِمَنْ عاش صاحيًا
ومَنْ لم يمُتْ سكراً بها فاته الحَزْم
على نفسِه فَلْيَبْكِ مَنْ ضاع عمرُهُ
وليس له فيها نصيبٌ ولا سَهْمٌ ..

الحبُّ الإلهيّ والحبُّ البَشَرى

وسألنى الأستاذ فاروق شوشة ونحن نجلس إلى مائدته الثقافية : هل هناك صلة بين الحب الإلهى والحب البشرى . ؟

والجواب : أَنْ نعم .

لأن التصوف رحلة إلى الحقيقة عن طريق الإدراك الوجدانى ، والارتفاع عن ترابية الأشباح ، والتخلص من الكثافة . والدخول فى عالم اللطافة - كما يقولون - حتى تصفو نفوسهم لاستقبال فيوض الحبّ الإلٰهى .

ومن خصائص الحب أن يحب المحب كلَّ ما يصدر عن المحبوب .. ومن هنا كان حب الواصلين للكون كله فما بالك بالإنسان .

واعتبر ذلك فى المنهج السلوكى الذى يعتمد على الشيخ والمريد « التلميذ » .

وهنا يَرِدُ قولُهم : إن المريد كان مُراداً قبل أن يكون مريداً .

وهنا تتجلى المحبة البشرية فى حب الله بين الشيخ والمريد . وبين المريد والمريدين . وبيَن هؤلاء والإنسانية جمعاء .

* * *

أما فى منهج الفلسفة الروحية فمع التسليم بوجود هذه الصلة – فإنها تختلف فى الدرجة . لأن الأمر هنا يرجع إلى المقامات التى يجتازها المسافرون إلى الله كما يرجع إلى الأحوال التى يتقلبُون فيها . فمنهم مَنْ يحب الكونَ كله باعتبارِهِ مظهراً يتجلى فيه جمال الصانعِ الأكبر .. ومنهم مَنْ يشغلُه حبُّه تعالى عن حب غيره بحيث يستغرقه هذا الحب فلا يحب سواه .. وقد سُئلت السيدة رابعة العدوية : كيف حبك لرسول الله : فقالت ، إنى والله أحبه حبًّا شديداً ولكن حبَّ الخالق شغلنى عن حب المخلوق .

إن هذا يعنى أن حب الله تعالى – إذا استغرق القلب – يطغى على كل حب فلا يكون فى قلب المحب مكان لغير المحبوب . أو كما يقول الحلاج :

مكـانُـكَ من قلبى هــو القلبُ كلُّه
فليس لخلقٍ فى مكـــانــك مــوضــعُ

ولأن الصوفيين يعيشون فى عالم من المواجيد الروحية دارت أنغامهم حول هذه المعانى . وجاءت أشعارهم أقباساً من الوجد .

والتوق . والذوق . والأنس . والطرب . والحزن والفناء تبعاً للمقامات والأحوال .. على أى حال ، فعبقت أشعارهم بالنفحات القدسية . والأنفاس الروحانية .

ولنا وقفة مع الشعر الصوفى .

الشِّعرُ الصُّوفى

والشعر الصوفى لون فريد فى الشعر العربى . ليس من حيث موضوعه وحسب . ولكن من حيث أسلوبه . وطريقة أدائه . ورموزه وكناياته .

وللشعر الصوفى معجمه الخاص ، وتعبيراته الرمزية الخاصة – الأمر الذى شحنه بالغموض ، وبخاصة بعد اتساع الفتوحات الإسلامية ، واختلاط الحضارات ولقاح الأفكار والفلسفات .. عندما اختلط التصوف الإسلامى بعناصر كلامية . وأخرى فلسفية .

وأنت تلتمس الرمزية فى مأثور الشعر العربى فلا تكاد تعثر عليها إلا فى أشعار المتصوفة . فهم يصوغون أفكارهم فى صور رمزية لا تخلو من ضبابية تتسم بالغموض فهم – مثلاً – يذكرون الخمر بأسمائها وأوصافها ويريدون بها المعرفة ، أو الشوق والمحبة . والحبيب . ويذكرون الندامى ويقصدون بهم السالكين ، ويذكرون أهل الدير ويريدون بهم أصحاب المعارف .. فهم يستخدمون الرموز

فى التعبير الفنى عن تجاربهم الروحية .

وإذا سألت : لماذا الرمز ؟ ولماذا الغموض ؟ طالعك أكثر من جواب .

فمن قائل : إن هذا الغموض يراد به الحرص على المعانى الصوفية ، وصون القداسة وأسرار الروحانيات .

ومن الواضح أنهم حين يشطحون يخالفون فى شطحاتهم أهل الظاهر ، ويجتلبون خصومتهم ، ويكونون هدفاً لحملاتهم ، ولهذا لجئوا إلى الرمز والغموض ليتسع لهم باب التأويل ليخرجهم من مؤاخذة أهل الظاهر الذين يتربصون بهم .. وربما كان أقرب مثل لذلك ما حدث للشيخ الأكبر « ابن عربى » عندما قال :

يــا مَــنْ يــرانى ولا أراهُ
كــم ذا أراهُ ولا يــرانى

فقد أنكروا عليه ذلك ، وقالوا له : كيف تقول إنك تراه ولا يراك ؟ ! فقال :

يـا من يرانى مجـرماً ولا أَراه آخــذا
كـم ذا أَراه منعـماً ولا يــرانى لائــذا

فتخلص بذكر متعلقات للأفعال بحيث يظهر المعنى بعيداً عما يوحى به ظاهر الألفاظ .

على أن هناك تخريجاً مقنعاً وطريقاً نوجزه فيمايلى :

فقد وجد القوم أنفسهم فى عالم روحى لا يستطيعون الإلمام بأطرافه أو كما يقولون :

إذا تغلغــلَ فكــرُ المــرءِ فى طـرفٍ
مِنْ بحــرِهِ غَـرقتْ فيــه خــواطــرُهُ

وقد وجدوا أنهم لا يستطيعون بالألفاظ المحدودة ذات الحروف التسعة والعشرين أن يعبروا عن هذا العالم غير المحدود . فلجئوا إلى الصيغ الرمزية وفى هذا يقولون :

وإنَّ قميصــاً خِيطَ من نَسْــج تسعـةٍ
وعشــرين حـرفــاً عن معانيـكَ يَقْصُرُ

* * *

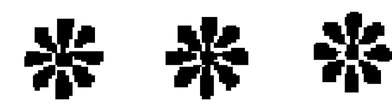
وأخيراً نقول : إن الغموض قد يكون مقصوداً لذاته ، لأنه يحدث لذة فنية فى نفس المتلقِّى إذا تأمل مطاوى الكلام ووصل إلى حَلِّ رموزه وفهم معناه .. وذلك شبيه بالراحة النفسية التى يجدها الإنسان عندما يصل إلى حَلِّ لغز من الألغاز ، ولهذا كانت الألاغيز منذ كانت رياضة عقلية محببة .

* * *

وهناك خصيصة أخرى ينفردُ بها الشعر الصوفى وهى : وحدة الموضوع .

وإذا أنت تجوَّلْتَ فى بساتين الشعر الصوفى فسوف ترى أنها تنتظم أشجاراً متناظرة تنتمى إلى أصل واحد . وتثمر نوعاً واحداً من الثمار .. وإذا كان هناك اختلاف فهو فى الحجم ، أوفى الجودة ، وليس فى النوع على أىّ حال .

وعهدك بدواوين الشعر التقليدى أن ينتظم الواحد منها ألواناً متباينة من القصائد المختلفة ألوانُها وفنونها ، ففيها المدح والهجاء . والغزل والوصف .. الخ خلافاً لدواوين الشعراء الصوفيين التى تمثل خطوةً متقدمة فى وحدة الديوان الشعرى وتناوله موضوعاً واحداً يتناولونه مباشرة فيطرقون باب الندم والتوبة والاستغفار والدعاء .. أو يتناولونه بصورة غير مباشرة فتكون قصائد العشق الإلهى الذى يَفْعَمُ أشعارهم بطيوب المواجيد الروحية .



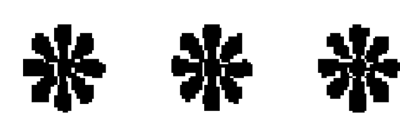
وليست دواوين الشعر الصوفى المكتوب بالعربية هى كل ما تَغَنَّى به شعراء التصوف الإسلامى . ولا هى أكثره . بل هى النزر اليسير من هذا النتاج الضخم الغزير الذى نظمه بالفارسية أعلام التصوف الإسلامى من الفرس . أو الذين تضرب أعراقهم إلى الفرس فلا سبيل إليه إلا بمعرفة الفارسية .

وصحيح أنه قد سبقت محاولات لترجمة بعضه إلى العربية . ولكنها كانت بمثابة قطرات من بحر .. ثم هى لا يمكن أن تنقل هذا

الشعر إلى العربية بكل صناعته الفنية . وخصائصه الجمالية ، لأن قصارى المترجم أن ينقل إلينا المعانى ، وليست المعانى هى كل لشعر .

ونحن نميل إلى رأى الجاحظ فإن شيخنا أبا عثمان يقول : « إن لشعر لا يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، وإنه متى حُوِّل انقطع ظمه . وبطل وزنه . وسقط موضع العجب منه » .

وغنى عن البيان . أن شيخنا أبا عثمان . يتكلم عن الشعر لغنائى الذاتى . فهذا هو الشعر العربى فى أيامه فلم ينتظم ديوان لشعر العربى - إلى أيامه - الشعر الملحمى أو القصصى ، أو لتمثيلى ومثل هذه الألوان من الشعر الموضوعى تيسر الأحداث يها ترجمتها من لغة إلى لغة .



ونحن نتجوَّل فى بساتين الشعر الصوفى فَنَسْتَرْوح أقسام هذه المواجيد ، وننشق عبيرها ، ونستجلى ملامحهم الصوفية فى تلك الأشعار باعتبارها الصياغة الفنية لهذه التجارب الروحية فى بحار الشوق والمحبة .

وربما كانت السيدة « رابعة العدوية » هى المقدمة الموسيقية الرائعة المبكرة التى سبقت إلى التعبير عن تجربتها الروحية بهذه الأنغام الشائقة والشيقة معاً .

كانت تقول عن صلتها بالله : « والله ما عبدتُه خوفاً من ناره .

ولا طمعاً فى جنته . فأكونَ كالأجير السوء . إذا خاف عمل .. ولكنى أعبده حبًّا له . وشوقاً إليه » .

وسئلت مرة : « كيف رأيت الحبَّ بينك وبين المحبوب ؟ فقالت ليس للمحبِّ وحبيبه « بَيْن » وإنما هو نطقٌ عن شوق ، ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف . ومَنْ وصف فما وصف ..

وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب ، وبشهوده ذائب ، وبصحوك منه سكران . وبفراغك منه ملآن » .

وأنشدت :

كأسى وخمرى والنديمُ ثلاثةٌ
وأنا المشُوقةُ فى المحبةِ رابعَه
كأسُ المسرةِ والنديمِ يديرها
ساقى المدام على المدَى متتابعه
فإذا نظرتُ فلا أرى إلَّا له
وإذا حضرتُ فلا أُرَى إلَّا مَعه
يا عاذلى إنى أحبُّ جمالَهُ
تَاللهِ ما أُذْنى لعذلك سامعه
كم بِتُّ مِنْ حُرَقى . وفَرْط تعلقى
أُجْرِى عيوناً من عيونى الدامعه
لا عَبْرتى تَرْقَا ، ولا وصلى له
يَبْقَى ، ولا عينى القريحةُ هاجِعه

ورابعة العدوية بالنسبة - للشعر الصوفى - تعتبر شاعرةً مقلة وليس لها - فيما نعلم - ديوان شعر مطبوع ، أو حتى مخطوط .. وإنما نعثر على نتف من أشعارها منثورة فى مراجع المناقب والطبقات .

ولكننا نجد فى هذه الأشعار اختلافاً فى الأنفاس - الأمر الذى يدلُّ على أن بعض ما نُسب إليها من الأشعار مضافٌ إليها . محمول عليها وقد نسبوا لها أبيات أبى فراس المشهورة :

فليتكَ تَحْلُو والحياةُ مريرةٌ
وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

وليت الذى بينى وبينكَ عامرٌ
وبينى وبين العالمين خرابُ

إذا صَحَّ منك الودُّ . فالكلُّ هيِّنٌ
وكلُّ الذى فوق الترابِ ترابُ

* * *

وقد بقى لنا من رابعة العدوية أخبارٌ متناثرة ، نَرى فى ضوئها ملامح السيدة رابعة ، كما تبدو فى نفسى صورتها « شهيدة العشق الإلهى » تلك الصورة التى أوحت إلىَّ بتقديم السيدة رابعة فى هذه الصورة الفنية . التى صدحتْ بأغانيها أم كلثوم .. فهنا لنا وقفة بين الحقيقة التاريخية . والحقيقة الفنية إن صحّ هذا التعبير .

شَهِيدَةُ العِشْق الإِلهى

شُخُوصٌ

عبد الله	: والد رابعة .
أمة الله	: والدة رابعة .
رابعة	
ثلاثة أطفال	: هُنَّ أخواتها .
الأمير	
عمار	: صاحب الخمارة .
أبو حرام هشام حمزة	أصدقاء الحانة .
مبروك	: خادم .
مالك	: خادم .
عبدة	: خادمة رابعة .
ابن زياد	: مولى رابعة .
علقمة ورد هَمَّام	أصدقاء ابن زياد .
اللص	
ابن دينار	: فقيه متصوف .
سفيان	: فقيه متصوف .
	وبعض النكرات .

مِيلاد

كأنما وُلد القرن الثانى الهجرى ليملى هذه الحوادث .

مدينة البصرة . وكوخ صغير فى طرف المدينة تأوى إليه أسرة فقيرة : الشيخ عبد الله (والد رابعة) ، وزوجته أمة الله . وبناتهما الثلاث .

إنه يستقبل مولودًا جديدًا . ويرجو أن يكون غلامًا على بناته الثلاث .. وجلس الشيخ ناحية يفكر .

ويصل إلى سمعه بكاء الوليد الجديد . ويعرف أن المولود بنت . ويرفع رأسه قائلا وهو يتنهد :

عبد الله : هيه يا صغيرتى . أنت لا تعرفين الحياة ، ولكنك تستقبلينها بالبكاء . [ثم يتنهد وهو

يقول] .. هكذا الدنيا .. بكاء ساعة نستقبلها . وبكاء ساعة نخرج منها .
[ويصل إليه صوت بكاء المولود] . ابكى .. ابكى يا صغيرتى .

عائشة : [الطفلة] . وأبكى أنا الأخرى يا أبي ؟ [تقولها فى سذاجة الطفولة] .

عبد الله : [فى ألم] .. لا . لا يا عائشة .

عائشة : حسبتك تريد هذا يا أبي .

عبد الله : [يلاطفها قائلا] .. عائشة .

أسماء : [ومعها سكينة أختها] .. أبي .. أبي .

عائشة : أسماء . سكينة .

عبد الله : [يسكتها]انتظرى عائشة .

أسماء : [وفى صوتها لون الضحك] .. أرأيت إلى أختنا الصغيرة يا أبي .

عبد الله : [من قلبه].. يارب أنت قدَّرتَ فدبِّرْ .

سكينة : كم هى جميلة يا أبي .

أسماء : [متضاحكة]جميلة ولكنها تصرخ دائمًا .

عبد الله : [متضاحكا] .. لعلها تناديني .

سكينة : [وفى صوتها لون الضحك] .. أجل يا أبي .

عبد الله : يا للصغيرة المسكينة .

أسماء : ألا تكلم أمى يا أبى ؟ .

عبد الله : أفعلُ يا ابنتى .

خذا أختكما هذه عنى فلاعباها .

عائشة : [فى فرح] ونلعب تحت النخيل يا أسماء .

أسماء : [وهى تنطلق معها] تعالى يا عائشة .

عبد الله : [وهو ينهض متثاقلاً] .. أنت تعلم . وغيرك لا يعلم .

[ثم بصوت مرتفع] .. لا تذهبا بعيدا .

سكينة : [من بعيد] .. نحن وراء النخيلات يا أبى .

عبد الله : [يتجه إلى الكوخ ويفتح بابه ويدخل قائلا] .. كيف حالك الآن يا أم البنات ؟ .

أمة الله : [تبكى] .

عبد الله : لا .لا تحزنى أمة الله .

أمة الله : [وهى تبكى] .. كنت أرجو أن تكون هذه المرة ولدًا تقرّ به عينك يا عبد الله .

عبد الله : [وهو يقاوم شعوره] .. ولكن الله أرادها بنتًا يا أمة الله .

أمة الله : [فى حسرة] .. إنهن ثلاث بنات يا عبد الله . وهذه رابعة .

عبد الله : أهو اعتراض على إرادة الله ؟ .

أمة الله : [مستنكرة] .. معاذ الله .. ولكن أَلا ترى إلى ما نحن فيه من فقر وسوء حال ؟ .

عبد الله : [بلهجة الاستسلام] .. إه .. يدبرها خالق الليل والنهار .

أمة الله : [بصوت يتهدج] ليس فى الدار قطرة دُهن ندهن بها موضع خلاصها .. وليس لدينا قنديل نستضىء به ، ولا خرق نلفُّها بها .. ولا .

عبد الله : [يقاطعها] .. كفى . كفى يا أمة الله .. أنت متعبة .

أمة الله : [فى حسرة] . بنتٌ ومسغبة ! إلى الله المشتكى .

عبد الله : [فى لطف] .. رويدك أم البنات . إنك والله لا تعرفين أين يكون الخير .

أمة الله : [من خلال دموعها] .. عبد الله .

عبد الله : [يواصل حديثه قائلاً] .. لقد والله رأيت فيما يرى النائم بالأمس كأن هاتفًا يصيح بى : قم عبد الله . واذهب إلى عيسى زاذان . .

أمة الله : أمير البصرة ؟

عبد الله : نعم يا أم البنات .. وقالى لى الهاتف : « إن الأمير سيعطيك عقيقة المولود » .

أمة الله : [بصوت حالم].. عقيقة المولود . ! .

عبد الله : نعم : نعم . وفى يوم مشهود .

أمة الله : أضغاث أحلام يا عبد الله .

عبد الله : ولكنى قمت من نومى فاستعذت من الشيطان .. وقرأت ماتيسر من القرآن .. ثم نمت . فإذا الهاتف هو الهاتف . والكلام هو الكلام .

أمة الله : [فى دهشة] .. عجبًا .

عبد الله : [يزيدها دهشًا] .. وقمت من نومى فزعًا . فتوضأت . وصليت . واستعذت . وقرأت ثم نمت . فإذا الهاتف للمرة الثالثة . فلم يبق إلا أن تكون رؤيا صدق يا أم البنات .

أمة الله : هذا أعجب يا عبد الله .

عبد الله : وأى عجب يا أمة الله .

أمة الله : ولماذا لم تفعل ما تؤمر ؟ .

عبد الله : أفعل إن شاء الله .

أمة الله : وتذهب إلى الأمير يا عبد الله .

عبد الله : أذهب يا أمة الله .

أمة الله : ويعطيك عقيقة المولود .

عبد الله : [وفى صوته لون الضحك]فى اليوم المشهود .
المولودة : [تبكى فى أثناء كلامها] .
عبد الله : [فى إشفاق] ياللصغيرة المسكينة .
[ثم فى لطف] .. انظرى أمة الله .. كم هى جميلة .
أمة الله : ما ذنب هذه الصغيرة ؟ [وهى تبكى
عبد الله : [مواسيا].. لا تبكى أمة الله .. وأملى خيرًا .. أنا ذاهب إلى الأمير .
[ويظهر صهيل خيول وترتفع بعض الأصوات وهم يطرقون باب الكوخ] .
أمة الله : [لزوجها] ما هذا يا عبد الله .
عبد الله : لا أدرى أمة الله .
[ثم بصوت مرتفع] .. من الطارق .
جندى : [يصيح من الخارج] .. افتح يا رجل .. إنه الأمير .
أمة الله : [تشهق وتقول فى دهشة] .. يا إلهى . ! .
عبد الله : [وهو يسرع إلى الباب ويفتحه ويستقبل الأمير قائلا] .. سيدى .. لقد والله كنت على أن أسعى إلى الأمير .
الأمير : بل نحن الذين نسعى إليك أيها العبد الصالح .

لبنات : [مقبلات يتصايحن فى خوف وذعر] . أبى . أبى . ماذا يريدون بك .

عبد الله : لا تخافا يا ابنتىّ إنه الأمير .

أسماء وسكينة : الأمير .. !

الأمير : لا تراعا يا صغيرتىّ . أنا فى ضيافة أبيكما .

عبد الله : لا أدرى ماذا أقول .. لقد كنت والله فى طريقى إليك يا مولاى . فساقك الله إلىّ .

الأمير : [فى دهشة] .. هذا عجيب ..
[ثم يستدرك بسرعة] .. ولكن لماذا كنت تقصدنى .

عبد الله : بل لماذا جئت أنت يا سيدى ؟ .

الأمير : قل لى أنت أولاً : لماذا كنت تريد أن تسعى إلىّ .

عبد الله : [وهو يتمثل الرؤية التى رآها فى منامه] .. إنه يا سيدى إنه .

لأمير : [بيشجعه على الكلام] .. إنه ماذا ؟ .

عبد الله : إنه حلم رأيته . وهاتف سمعته .

الأمير : [وقد فوجئ] . . يا إلهى . . ماذا تقول يا عبد الله ؟ .

عبد الله : [فى اضطراب] .. سيدى .

الأمير : كم مرة جاءك الهاتف ؟

عبد الله : ثلاث مرات يا سيدى .

الأمير : [فى غاية التأثر] .. لا إله إلا الله .

[ثم يقبل عليه قائلا] .. وكلمك عن عقيقة المولود .

عبد الله : [فى دهشة]الله ! من قال لك يا سيدى ؟

الأمير : الهاتف الذى قال لك يا عبد الله .

عبد الله : يا ربى .

الأمير : [مواصلا كلامه]لقد رأيت ما رأيت . وسمعت ما سمعت .. ولهذا أتيت .

[ويقدم لهُ الصرة وهو يقول] .. خذ . خذ يا عبد الله .

عبد الله : ما هذا ؟

الأمير : هذه عقيقة المولود .. وهذا هو اليوم المشهود .

عبد الله : الحمد لله . والشكر لك يا أمير المؤمنين .

الأمير : بل الحمد والشكر لله .

عبد الله : لقد صادف الغيث أوانه يا أمير .

الأمير : لن تحمل هم الحياة مادمت حيًّا يا عبد الله .

عبد الله : أطال الله حياتك . وأحسن جزاءك .

الأمير : [وهو يتهيأ للانصراف]سأراك يا عبد الله ..
أليس كذلك ؟ .

عبد الله : كلما شئت يا أمير .

الأمير : حسنٌ . سلام عليك أيها العبد الصالح .

عبد الله : [يشيعه قائلا]وعلى الأمير السلام .

الأمير : [يرتفع صوته لتسمعه أمة الله ، فى الداخل]
سلام لك أيتها الأم الصالحة .

أمة الله : [من الداخل]وعلى الأمير السلام .

الأمير : [وهو ينطلق] .. سلام على بناتكما الثلاث .

عبد الله : [يلاحقه متضاحكا]والرابعة يا أمير .

الأمير : [من بعيد] .. والرابعة .

فواجع

ومرت السنون ، وتعاقبت الأيام ، وشبت البنات الثلاث . ويفعت (الرابعة) .

وكانت سنة جدباء . قحط فيها الناس . وكلب الزمان . واجتاح البصرة الطاعون . ورصد الحاكم أفواه الطرق على البصرة يمنع الدخول إليها والخروج منها .

وبات الناس من ذلك فى كرب عظيم .

أبو محمد : [معترضًا] .. كلا هذا غير صحيح .. والنص صريح : « لا عدوى ولا هامة ، ولا طيرة ولا صفر » .

عتبة : [يعارضه] .. وما تقول فيما فعله عمر ؟ .

أبو محمد : وما تقول أنت فى هذا النص ؟ .

عتبة : أقول ما قاله الصدر الأول : « لا عدوى مؤثرة بنفسها »

[وترتفع أصواتهم ما بين موافق ومعترض] .

أبو أسامة : [مقبلاً عليهم . يصيح بهم] .. يا قوم . يا قوم .

أبو محمد : أبو أسامة ! .

عتبة : ما وراءك يا أبا أسامة .

أبو أسامة : اسمعوا هذا واتركوا هذا .

أبو محمد : ماذا ؟ .

أبو أسامة : لقد رصد الأمير جنوده على أفواه الطرق . يمنعون من فى البصرة من الخروج منها . ويمنعون القادمين من الدخول إليها .

مرة : [فى غضب] .. إذن فقد حبسنا الأمير مع الطاعون فى هذا البلد .

أبو أسامة : حتى لا ينتشر الطاعون .

عتبة : أو يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

أبو أسامة : [يهمس لعتبة] عتبة .

عتبة : ماذا ؟ .

أبو أسامة : انظر ، أليس هذا عبد الله .

عتبة : [وهو يتجه بنظره نحو إشارته] .. بلى .

وهؤلاء بناته يمشين وراءه على استحياء .
[ثم يتركه ويسرع إلى عبد الله وهو يقول] ..
يا إلهى . إنه يتهالك على نفسه .
[ويقبل على عبد الله قائلا] .. عبد الله
عبد الله .

عبد الله : [فى إعياء] .. آه . .
عتبة : ماذا أصابك يا عبد الله .
عبد الله : [فى غاية الألم] .. عتبة .
عتبة : ما بك يا عبد الله .
عبد الله : [فى ألم مكتوم] .. لا شىء .

[ثم يتنهد ويقول] .. هيه ، الأمر لصاحب
الأمر .

عتبة : وأولاء بناتُكَ يا عبد الله ؟ .
عبد الله : أجل يا عتبة .
عتبة : ما شاء الله لقد كبرن يا عبد الله .
عبد الله : [فى ألم مكتوم] .. كبرن وكبرن الزمان يا عتبة .
عتبة : [يهون عليه] .. لا حيلة فى الرزق .
عبد الله : ولا شفاعة فى الموت .
عتبة : ولكن من أين ؟ وإلى أين يا عبد الله ؟ .

عبد الله : [فى تردد وارتباك] .. لقد كنت .. أردت .. ! .. أقصد

[ثم يقطع كلامه ويلتفت إلى بناته قائلا] .. أسماء .

أسماء : أبى .

عبد الله : خذى أختيك وانطلقى بهما بعيدًا أكلم عمكن فيما لا ينبغى لكن أن تسمعن .

أسماء : [وهى تنطلق] تعالى يا سكينة .

سكينة : تعالى عائشة .

عبد الله : [فى ألم مكتوم] . هيه .

عتبة : تجلد عبد الله .

عبد الله : لقد جهدتنا الشدة يا عتبة . وكان الأمير عيسى ظلا فانحسر الظل .

عتبة : رحم الله الأمير . ولك طول البقاء .

عبد الله : [فى مرارة] .. البقاء ! .

لقد تركت أم البنات يأكلها الجوع . ويفترسها الطاعون . وخرجت أبيع بناتى .. أبيع بناتى .

عتبة : [مستنكرًا] . . تبيع بناتك ؟ ! .

عبد الله : فى لحظة من لحظات اليأس قد يفكر الإنسان فيما لا يقدم عليه إنسان .

عتبة : [أشد استنكارًا] . .. تبيع بناتك يا رجل ؟ ! .

عبد الله : [بصوت يتهدج] . . قلت أمسكُ عليهنَّ الحياة .

عتبة : أىّ حياة يا رجل .. حياة الذل والعبودية ؟ .

عبد الله : وماذا أصنع يا عتبة . ؟
إذا أبقيتهُن هلكن جوعًا . وإذا بعتهن هلكن ذلًّا .
ماذا أصنع يا عتبة .

عتبة : [متخوفًا] . .. وأين الرابعة ؟ .

عبد الله : [بصوت مختنق] . .. الرابعة . .

عتبة : [وقد ازداد شكه] . .. أتراك بعتها ؟ .

عبد الله : بل تركتها فى خدمة أمها المريضة وخرجت بهؤلاء .. وليتنى وجدت من يشترى .

عتبة : عهدى بك غير هذا يا عبد الله .. لا يا رجل .
[ويخلع قباءه وهو يقول] . ليس هذا طريقك .

عبد الله : ماذا تصنع يا عتبة ؟ .

عتبة : [وهو يقدم له القباء] . .. خذ .

عبد الله : ماذا ؟ .

عتبة : خذه . وارجع ببناتك عبد الله .

عبد الله : ما هذا يا عتبة .

عتبة : هذا قبائى . ولو كنت أملك غيره لقدمته لك .

عبد الله : تقدمه لى .

عتبة : خذه فإنه يساوى شيئًا . ويسدُّ حاجة .

عبد الله : لا يا أخى . أمْسِكْ عليك قباءك . أنت فقير مثلى .

عتبة : ولكنى لست فى مثل حاجتك . هيا عبد الله .
[ثم ينادى] . يا أسماء . يا أسماء .

عبد الله : و .. ماذا ؟ .

أسماء : [مقبلة عليه] . لبيك يا عماه .

عبد الله : عتبة .

عتبة : ارجع ببناتك عبد الله . واعلم أن الذى خلق عباده لا ينساهم .

عبد الله : [بصوت يتهدج] . .. آمنت بالله .

سكينة : [مقبلة مع أختها] . .. أبى .

عبد الله : خذى بيدى يا ابنتى
[وينطلق مع بناته وهو يقول] . يا ما أنت كريم يا كريم ، ياما أنت رحيم يا رحيم .. يا لطيف .. يا لطيف .

على فراش الموت

وعلى فراش الموت كانت ترقد أمة الله وقد اشتدت عليها وطأة الطاعون . وبجانب منامتها ركعت وهي تجهش بالبكاء .

رابعة : [تبكي] .

أمة الله : [على فراش الموت] . .. لا . لا تبكي . يا ابنتي . يكفي . ما أنا فيه يا رابعة . .

رابعة : [من خلال دموعها] . ..بروحي أنت يا أماه .

أمة الله : [بصوت يرتعش] . .. ابنتي .

رابعة : [بصوت مختنق] . .. مرض .. ومجاعة .

أمة الله : الـ . حمد . لله .

رابعة : أماه .. ألا تخبرينني أين ذهب أبي بأخواتي .

أمة الله : [تخفي عنها الحقيقة] . .. ذهب . إلى الـ . أمير عيسى زاذان .

رابعة : [وتنفجر باكية] . .. لا يا أماه . أنت تخفين عنى الحقيقة .
لقد مات الأمير بالطاعون منذ أيام .

أمة الله : [تبكى] . .. ابنتى .

رابعة : أين أخواتى . أين أخواتى .

أمة الله : لا تفكرى فى هذا يا رابعة .

رابعة : [بصوت مختنق] . .. أخواتى . أخواتى .

أمة الله : اسكتى . اسكتى بالله يا ابنتى .

[ويفتح الباب ويدخل عبد الله منهارًا]

رابعة : إنه أبى .

أمة الله : لعله جاءكم بما تتبلغون به .

عبد الله : [داخلًا وهو محطم] . .. آه .. يارب .

أمة الله : عبد الله .

عبد الله : [فى غاية الحزن] .. كيف حالك الآن يا أم البنات .

أمة الله : [بصوت متقطع] . .. أقضيها من عمرى ساعات .. إنه الطاعون يا عبد الله .

عبد الله : ... .. .

أمة الله : وأين البنات يا عبد الله ؟ .

عبد الله : إنهن ورائى .

لم أجد من يشتريهن يا أمة الله .

رابعة : [تشهق من الفزع] . وكنت تريد بيعهن يا أبي ؟! .

عبد الله : [وكأنه يكلم نفسه] . ليتنى استطعت .. إذن لأبقيت عليهن الحياة .. ولكنى كنت مخطئا .. الناس فى البصرة يبحثون اليوم عن اللقمة ولا ينظرون إلى الجوارى .

البنات : [داخلات] . أماه . أماه .

رابعة : أسماء . سكينة . عائشة .

أمة الله : [بصوت مبحوح] . عبد الله .

عبد الله : [يتهالك على نفسه قائلا] . . أمة الله . أمة الله .

البنات : أبى .

عبد الله : إن قدمىّ لا تحملان جسمى .. آه .

رابعة : [صارخة] . وأنت الآخر يا أبى .

عبد الله : [بصوت مبحوح] . اسندينى يا ابنتى .. أولادى أولادى .

رابعة : [صارخة] . .. أبى وأمى .

البنات : [بكاء] . .

الشَّاردة

وخرجت البنات شاردات . وتفرقت بهن
السبل . وهامت رابعة على وجهها حزينة
وفى يدها ناى تتنفس فيه أحزانها .

رابعة : [يغلبها البكاء فترفع الناى وتتجه إلى السماء] .
غريبة الدار .
يتيمة الأبوين .
إذا أمسيت لا أدرى أين أصبح . وإذا أصبحت
لا أدرى أين أمسى .
واقلباه .
إلى أين يا رباه
[ثم تغنى وهى تبكى غناء حزينا]
لـغـيـرك مـا مـددتُ يَـدًا
وغَـيْـرُكَ لا يَـفِـيضُ نَـدى(١)

(١) موسيقى وألحان كمال الطويل . وغناء أم كلثوم .

وليس يَضِيقُ بابُكَ بي
فكيف تَرُدُّ مَنْ قصدا
وركنُكَ لم يزل صَمَدا
فكيف تَذُودُ مَنْ وَرَدا
ولطفُكَ يا خفيَّ اللُّطْـ
ـفِ إنْ عَادِى الزمانِ عَدَا

* * *

على قلبى وضعتُ يَدا
ونَحْوَكَ قد مددتُ يَدا
سَرَى ليلى بغير هُدَى
ولَا أدْرِى لِأيٍّ مَدَى
يُطارِدُنى الأسَى أبَدًا
ويَرْعَانِي الجوى أبَدا
وَيَنْشُرُنى الهوى رُوحًا
ويَطْوِينى الهوى جَسَدا
وأطْوِي البيدَ طاوية
كأنى فى الفضاء صَدَى

* * *

نهارى والهجيرُ لظًّى
وليلى والظلامُ رَدَى

فَـوا كـبـدا إذا أمْـسِـى
وإنْ أضْـحِـى فـواكـبـدا
ولـيس سـواكَ لِى سـنـدٌ
فـقـدتُ الأهْـلَ والسَّـنَـدٰا
فـقـدتُ الأهـلَ والـسـنـدا
(وتـنـفـجـر بـاكـيـة)

عمار : [صاحب الحانة الذى كان يمشى وراء أنغامها فى الصحراء وهى لا تشعر به] . مرحى . مرحى .

رابعة : [تشهق من الرعب وقد فوجئت به] .

عمار : [يضحك] .

رابعة : [بصوت يتهدج] . .. من أنت بحق السماء ؟ .

عمار : [وقد استرعى نظره جمالها .. إلى جمال صوتها] . . بل من أنتِ يا .. يا جنية الصحراء .

رابعة : انْشَقتْ عنك الأرض أم هبطت من السماء .

عمار : بل أنا وراءك منذ ساعة . وأنت مع هذه الأنغام . سابحة لا تحسين وَقْع الأقدام .. وتسألينى من أنا ؟ .

رابعة : [فى خوف] . .. وما شأنك بى يرحمك الله .

عمار : [يواصل كلامه] . .. فتاة تمشى وحدها فى

البيداء .. لا أنيس لها غير هذا الناى الباكى .
وهذا الغناء الحزين .

رابعة : [وهى تبكى] . . دعنى لشأنى . دعنى .

عمار : لا . لا تجزعى يا صغيرتى . إن هاتين العينين لم تُخْلَقا للبكاء .

رابعة : [تبكى] . .

عمار : وهذه الأنغام السماوية .

رابعة : [تبكى] . .

عمار : [ويداعب خدها بيده قائلاً] . .. ياتبارك الخلّاق . ما أصبح وما أملح .

رابعة : [من خلال دموعها] . .. دعنى لا تلمسنى دعنى .

عمار : لا تخافى يا صغيرتى .

رابعة : اتركنى . اتركنى .

عمار : أنت – أنت يا صغيرتى .

رابعة : [من خلال دموعها] . . غريبة الدار .. يتيمة الأبوين .. أرسف فى قيود الذل والهوان .

عمار : لا تراعى ياصغيرتى .. إن جمالك هذا يُجَنِّبُكِ كلَّ هَوان .. و

[ثم يستدرك قائلاً] . ولكن . ما هذا النای . ؟ .

رابعة : إنه سلوة المحزون .

عمار : وما هذا الغناء ؟ .

رابعة : إنه غلالة المهموم .

عمار : ومن علّمك هذه الأنغام يا جميلتی ؟ .

رابعة : علمنی إياها سُهْد الليل وهَمُّ النهار .

عمار : [مأخوذا بجمالها ومنطقها] .. لا لا . أنتِ يا .. ما اسمك يا صغيرتی ؟ .

رابعة : اسمی رابعة .

عمار : [ينفجر ضاحكًا] . . رابعة .. إذن فأين الثالثة وأين الثانية وأين الأولى .

رابعة : إنك لا تهزل .

نحن أربع يتيمات .. مات أبوانا فی الطاعون الذی دهم البلاد .

ولما اشتدت المجاعة بالبصرة وقحط الناس خرجنا نلتمس الحياة ، وتفرقت بنا السبل . فَهِمْتُ علی وجهی لا أعرف أين أمسی ولا أعرف أين أصبح .

عمار : حَسَنٌ. لقد وَصَلْتِ يا جميلتی .

ولكنى أعجب . كيف نجت الشاةُ من ذئاب الصحراء .

[ثم وهو مبهور بجمالها] . . يا لله ! ما هذا ؟ .

رابعة : ماذا ؟ .

عمار : [وهو يلتهمها بعينيه] . طلعةٌ كالصبح إذا أسفر .. وشعرٌ كالليل إذا أظلم . وصوت كالـ . كيف أَصِفُ صوتَكِ يا .. يا رابعة .

[ثم يهمس لنفسه] . .. لقد وَقَعْتُ على صيدٍ سمين .

[ثم يقبل عليها قائلا] . . أَقْبِلِي .. أقبلى .

رابعة : كلا . كلا دعنى .

عمار : لا تراعى يا صغيرتى .

رابعة : دعنى . دعنى .

عمار : أيها الغزال النافر .

رابعة : أستحلفك بالـ .

عمار : [يقاطعها] . .. لا . لا تخافى يا صغيرتى . أنا لا أريد بك سوءًا .. ولا أريد لك إلا الخير .. أَدْبِرِى .

رابعة : دعنى بالله .

عمار : حَسَنٌ حسنٌ . ستكونين قَيْنَةً تتحاكى بها حاناتُ الأُبُلَّة ..
اسمك إذن رابعة ؟ .
رابعة : أجل يا سيدى .
عمار : فما ولاؤك ؟ .
رابعة : ولائى لآل عتبك .
عمار : أى بطونهم ؟ .
رابعة : بنو عَدْوَه .
عمار : إذن فأنت عدويَّة ؟ .
رابعة : أجل يا سيدى .
عمار : هذا جميل .
رابعة العدوية اسم جميل . ومُسَمى أجمل .. تعالَىْ تعالى .
رابعة : لا . لا اتركنى لشأنى .
عمار : لا تكونى حمقاء .. إنما أَنْتَشِلُكِ مما أنتِ فيه .. تعالى معى .
رابعة : [فى خوف] .. إلى أين ؟ .
عمار : إلى حيث الذهب .
رابعة : الذهب . ! .
عمار : والحرير والديباج . هيا يا رابعة .

رابعة : [فى حيرة] . .. ياربى .

عمار : [وهو ينطلق بها] . بهذا الصوت الساحر .. وبهذا الجمال النادر .. سأصنع منك شيئا يملأ ليالى الأُبُلَّة .

هيًّا يا رابعة . ها ها ها .

أَوحَالٌ

وعرف عمار كيف يجعل من هذه الشاردة اليتيمة قَيْنَةً تتحاكى بها ليالى الأُبُلَّة .

وتسامع الناس بهذه الشادية فتواكبوا على حانة عمار . وأقبلت عليه الدنيا . وأصبحت عازفة الناى الشادية حديثًا تسرى به الركبان .

وازدحمت الحانة بعاشق اللهو والطرب .

وجلس القوم فى انتظار الجارية المغنية بينما يصل إلى أسماعهم صوت نايها المحزون .

(رُوّاد الحانة يضحكون ويصخبون) .

حمزة : كأسك يا أبا حرام .

هشام : [وهو يرفع كأسه] اشرب .

حمزة : على صحتك .

[ويعلو صوت الناى] .

حمزة : [مشيرًا إلى صوت الناى] .. أتسمع ياأبا حرام .

أبو حرام : ذلك هو الناى .

هشام : إنها هى . هى والله .. ولأنْ ترى خير من أن تسمع .

أبو حرام : إن أنغامها تلمس قلبى ياهشام .

هشام : المهم المغنى وليس الغناء [يشير إلى جمالها] .

أبو حرام : [معترضًا] .. بل الغناء .

هشام : [فى إصرار] .. بل المغنى .

أبو حرام : بل الغناء .

هشام : بل المغنى .

أبو حرام : [يلزمه الحجة] .. أنت تطلب الصهباء . أم تطلب الوعاء ؟ .

حمزة : [يضحك] .

هشام : [يحتكم إليه] .. الغناء أم المغنى ياأخا تميم ؟ .

حمزة : [وفى صوته لون الضحك] .. إذا وُجد الغناء وُجد المغنى .

حرام : [محتدًّا] .. وقد يوجد المغنى ولا يوجد الغناء .

حمزة : [يضحك] .

عمار : [مقبلًا يحمل أوانى الشراب] .. ياسادة . ياسادة .

حمزة : أين أنت ياعمار .

و حرام : وأين قَيْنَتُكَ التى يتواصفها الشعراء .

عمار : رابعة .

هشام : أين رابعة ياعمار .

عمارَ : آ . صبرًا ياسادة . إنها تتهيأ لمجلسكم .

هشام : [فى ضيق] .. ولكنها تعزف نايها ياعمار .

عمار : [مرتبكًا] .. آ . معذرةً ياسادة .

[ثم ينادى] .. يارابعة .. رابعة .

[يسكت صوت الناى] .

عمار : أقدمى رابعة فقد مَلَّ الشَّرْبُ الانتظار .

رابعة : [مقبلة عليهم تقول فى لطف ودلال] .. ولكن الانتظار تشويق .

حمزة : [مأخوذًا بجمالها] .. رابعة .

أبو حرام : ياتبارك الرحمن .

رابعة : [وهى تتضاحك] عموا مساءً ياسادة .

هشام : نعمت مساءً يارابعة .

أبو حرام : [معترضًا عليه] .. إنها ليست رابعة .. إنها رائعة .

رابعة : [تضحك] .

هشام : [يشير إلى مقعد] .. تفضلى .

أبو حرام : لا . لا والله .. إن مكانك فى الصدر يا رابعة .

هشام : [ينظر أمامها] .. بل مكانها القلب يا أبا حرام .

أبو حرام : [يفحمه قائلًا] .. أردت صدر المجلس يا لُكَع . ها ها .

رابعة : [تضحك معه] .

حمزة : ياعمار .

عمار : [الذى كان يشاركهم فى الضحك] سيدى .

أبو حرام : هات أجود أنبذة الأبلة .

حمزة : وتَخَيَّرْ وَاذْبَحْ .

هشام : وخذْ جيادَنا إلى علائقها فما أظن أننا مغادرو هذه الحانة .

رابعة : [تضحك] .

حمزة : [وهو يقدم لها الكأس] .. كأسك يارابعة .

هشام : [وهو يرفع كأسه] .. اشرب على وجهها .

أبو حرام : بل نشربْ على صوتها .. .
حمزة : [متضاحكًا] .. اشربْ على خدها .
عمار : [يتدخل قائلًا وهو يضحك ضحكة باهتة] .. اشربْ على كلها . هاها .
هشام : [يزجزه فى ترفع وكبرياء] .. أُسكتْ أنت يارجل .
عمار : [متراجعًا] سكتُّ . هه .
رابعة : [تضحك] .
هشام : [يقترح حلًّا] .. نسأل رابعة .
أبو حرام : جميل .. جميل .

[ثم يلتفت إلى رابعة قائلا] .. أيَّ نَخْبٍ تقترحين يارابعة .

رابعة : تسألوننى أنا .؟ .
أصوات : نعم . نعم .
رابعة : وتقبلون حكمى .؟ .
الجميع : نعم . نعم .
رابعة : إذن فلنشرب على الناى .
أبو حرام : [ضاحكًا] نشرب على الناى .
هشام : [فى طرب] .. أىّ نخب جميل .

حمزة : [وهو يرفع كأسه] فلنشرب على الناى . [ثم يستدرك بسرعة] .. ولكن أتُسْمِعيننا يارابعة .؟ .

رابعة : [فى لطف ودلال] .. كلا .

أبو حرام : [بلهجة الاستنكار] .. كلا .؟! .

رابعة : [فى دلال] ..آ .

أبو حرام : كيف يارابعة .

رابعة : [فى دلال] .. هذا شىء . وهذا شىء .

هشام : [يحاول إغراءها] .. وإذا أجزلنا لك العطاء .

رابعة : [فى إباء يشوبه دلال] .. أنا ياسيدى لا أبيع الغناء .

أبو حرام : [يقبل عليها قائلًا] .. وبالرجاء ؟ .

رابعة : إذا كنتم تحسنون الاستماع .

حمزة : أجل نُحسنُ الاستماع .. سكوتًا ياقوم .

أبو حرام : إيه رابعة . إنما نسمعك القلوب والأرواح .

رابعة : [تشير إلى العازفين . فيبدأ العزف .. وتبدأ هى الغناء]

ياصُحْبة الراحِ أَهْلُ الراحِ هل حانُوا[1]؟

---

(١) الموسيقى واللحن لرياض السنباطى . والغناء لأم كلثوم .

وهـل تَغَنَّتْ عـلى أيَّـامِهـا الحـانُ
صَبَـا النَّدامى ومـا فى الحانِ أَلْحـانُ

الجميع : آ .

أبو حرام : والحرباه .

رابعة : فى كأسٍ عمرى بقايا مَنْ يُشاربنى
ومَنْ يُطارحـنى والعيشُ ريحـان .

الجميع : آ .

هشام : ما سمعت كاليوم لحنًا أشجى .

أبو حرام : ولا نغمًا أطرب .. هيه رابعة .

رابعة : ثُمالةٌ من دموع الشَّجْو ألوانٍ
إبريقها راحَ يبكى وهو فرحانُ
ثُمالة آهِ لو فاضَتْ .. وآهِ إذا
غَاضَتْ ..وَوَاها لها والقلبُ لَهْفَان
عَهْدِى بها وكئوسُ الصفو مُتْرَعةٌ
بهنَّ طافَ على السَّكْرَى سُكَيْرانُ
لا يشرب الراحَ إلَّا أَنه ثَمِلٌ
نشوانُ والكاسُ فى كَفَّيْهِ نشوانُ
تُرى قعودُ الليالى والهوى معنا
ياغُرْبَةَ الكاسِ ما للكاسِ نُدْمانُ .

هشام : [صارخًا من شدةالطرب] .. آ .

أبو حرام : [يقبـل عليه مستنكـرًا] .. ما هـذا .. يا هذا .؟ .

هشام : [فى غاية الطرب] .. ألست ياأبا حرام .

أبو حرام : أسمُع ماذا يامُنْكَرَ الصوت .

هشام : أنا منكر الصوت يا .. يا .. يا .

حمزة : [يكمل له الكلام] .. ياأخى اسكت .

رابعة : [تضحك والجميع يضحكون] .

أبو حرام : [يتوعده] .. والله .. والله .

حمزة : [يقاطعه] كفى ياأبا حرام .. عَوْدٌ إلى الغناء . [ثم يقبل على رابعة قائلا] نعم . نعم ياروح روحى .

أبو حرام : مِنَ الأوّل .

هشام : ثمالةٌ .

رابعة : [تغنى] .. ثمالةٌ من دموع الشَّجْو ألوانُ .

هشام : [فى أثناء غنائها] .. آه .

أبو حرام : [يسكته] .. اسكت .

هشام : اسكت أنت .

حمزة : اسكت أنت وهو .

هشام : [صائحًا] .. وأنت أيضًا .

حمزة : وأنا .

الجميع : [يضحكون] .

رابعة : [تقطع غناءها وتنهض وقد ضايقتها مقاطعتهم] .

أبو حرام : الله ! رابعة .

حمزة : إلى أين يارابعة .

رابعة : [فى سخرية] يظهر أن السادة يُجيدون الاستماعَ أكثر من اللازم .. عِمُوا مساءً ياسادة .

هشام : [وهو يمسك يدها فى عنف] .. بل انتظرى رابعة .

رابعة : [متألمة] .. أَىْ يدى .

أبو حرام : [فى غضب] .. دَعْها ياهشام .

هشام : وفيم ضربنا أكباد الإبل .. اجلسى .

رابعة : [متألمة] .. أَىْ يَدِى . يدى .

هشام : [مع سورة الخمر] .. أُحِبُّ الشاردَ من الغزلان .

رابعة : دَعْنِى . دعنى أيها المخمور .. كفى كفى .. .

أبو حرام : [وقد أخذته سورةالخمر] .. أقولُ لكَ دَعْها ياهشام .

هشام : [يتحداه] .. وإذا لم أَدَعْها .

أبو حرام : [غاضبًا] .. بل ستفعلُ وأنت راغم .

هشام : [فى غضب] .. أكذا تكلمنى ياأبا حرام [ويترك يد رابعة وهو يقول لها] اذهبى أنت

أبو حرام : [وهو يتقدم إليه] .. ياعريض القفا .

هشام : ياطويل الأذنين .

أبو حرام : [وهو يستل سيفه] .. مكانَكَ أيها المخمور

هشام : [صائحاً] سيوفكُم ياآلَ هشام .

أبو حرام : سيوفَكُمْ ياآل ظالم .

عمار : [مقبلا يجرى وهو يصيح فى وسط الضجة] ياسادة . ياسادة . اغمدوا سيوفكم .

حمزة : ابتعد أنت يارجل .

عمار : بالله لا تخربوا بيتى .. اغمدوا سيوفكم اغمدوا سيوفكم .

يقظة

وانطلقت رابعة إلى حجرتها وأسرعت
إليها خادمها عبدة وقد ملأها الرعب مما
كان . والخوف مما سيكون .

عبدة : [داخلة تلهث] .. ماذا فعلت ياسيدتى .. لقد
انقلبت الحانة رأسًا على عقب .

رابعة : [وهى تقاوم انفعالاتها] .. عبدة .

عبدة : لن يغفر لك سيدى مافعلت اليوم .

رابعة : ولن أغفر لنفسى ما أفعل .. لقد مللت هذه
الحياة ياعبدة . [ثائرة] .. أولئك السكارى .
ورائحة الخمر التي تفوح من أفواههم ..
والفجور الذى يطل من أعينهم .
لا ياعبدة . لا .. لا .
لن أكون شاة عند عمار .

عبدة : ولكن سيدى لن .. .

رابعة : [تقاطعها] .. لقد ضاقت نفسى بسيدك الـ .

[ويفتح الباب ويدخل عمار ثائرًا] .

عبدة : عمار .

عمار : [فى غاية الغضب] .. وبعد يارابعة .

رابعة : ماذا تريد ياعمار .

عمار : أكذا علمتك منادمة القوم ياغانية .

رابعة : [ثائرة] .. لا ياعمار .. إنى أختنق .. أنا لا أطيق هذه الحياة ياعمار .

عمار : [يمنّ عليها ويذكرها] .. وتطيقين التشرد فى الصحراء .؟! .

رابعة : [وصوتها مختنق] ليتك تركتنى فى الصحراء ألاقى مصيرًا غير هذا المصير . .

عمار : [فى شىء من السخرية] .. ولا يرضيك ما صرت إليه يارابعة ؟ .

رابعة : أفٍّ لك ياعمار .. وأفٍّ لهؤلاء السكارى .. الخداع الذى أعيش فيه .

كلا . أنا لا أطيق أن أتودّد إلى من لا أودّ . .

عمار : [فى سخرية] .. كأنك تتألهين يابنة الليل .

رابعة : [باكية] .. الليل . والظلام .

عمار : لا أدرى – والله – ماذا أصاب رابعة .

رابعة : أصابنى أن المخمور قد يفيق ياعمار .

عمار : [فى سخرية] .. وأفقتِ يارابعة .

رابعة : أجل ياعمار .. وسأغنى عندما أريد . وأمسك عن الغناء عندما أريد ..

ومن الآن . إذا غنيت فلا شراب .

عمار : أهى ثورة يارابعة .

رابعة : [ثائرة] .. أجل . على نفسى . وعليك . وعلى ظروفى وما انتهيت إليه ياعمار .

عمار : [فى غاية الغيظ] .. وَهِمْتِ رابعة . أنت هنا ملكى وصنع يدى .

رابعة : [منفعلة] .. بل أنا ملك نفسى . وصنع ربى .. ولن أرضى بهذا السجن أبدًا .

عمار : لن تفرى من هذا القفص الذهبى .

رابعة : [فى إصرار] .. بل سأحطمه إذا اضطررت .

عمار : [ثائرًا] .. بل أنا الذى سأحطمه على رأسك يافاجرة .

رابعة : [صارخة] .. عمار .

عمار : [وهو يخرج غاضبًا].. سترين .. سترين يارابعة .

[ويصفق الباب وراءه بعنف]

مراحل

كان « ابن زياد » فاتكًا تداريه مكانته في قومه . وكانت له ثلة يجمعهم اللهو والشراب .

كانوا وجوهًا سمعوا برايعة . وما انتهت إليه حانة عمار .

لا يستطيعون لمكانتهم أن يذهبوا إليها .
ولا يستطيعون لمجانتهم أن يمتنعوا عنها .

[ونحن الآن فى مجلس ابن زياد مع رفاقه وندمانه]

الجميع : [يضحكون] .

ابن زياد : [وفى صوته لون الضحك] .. أعرف هذا ياورد .. لقد سمعت بها من أول يوم .

ورد : ولكن ليس من يرى كمن يسمع ياابن زياد .

ابن زياد : أعرف هذا أيضًا ياورد .

ورد : إذن فما يمنعك أن ننتقل إلى حانة عمار .؟ .

ابن زياد : ولماذا لا تنتقل حانة عمار إلينا ؟ .

الجميع : [يتضاحكون] .

علقمة : ماذا تقول ياابن زياد .

ابن زياد : أقول ما سمعت ياعلقمة .

ورد : [وفى صوته لون الضحك] تنتقل حانة عمار إلينا .؟! .

ابن زياد : نعم . إذ لا يصح أن ننتقل نحن إليها .

ورد : ولكنها رابعة .

ابن زياد : [فى كبرياء] .. وأنا ابن زياد ياورد .

علقمة : [متضاحكًا] .. بَرِئتُ من الذِّمة إن كنتُ قد فهمت شيئًا .

ابن زياد : ستفهمون كل شىء .

ورد : متى ياابن زياد .؟ .

ابن زياد : [ضاحكًا] .. عندما ترون كل شىء .

الجميع : [يضحكون] .

علقمة : [وفى صوته لون الضحك] .. أنتِ اليوم مُغْرِب ياابن زياد .. مُرْ لنا بالقِداح .

ابن زياد : أتقامروننى ياقوم ؟

علقمة : ألست تريد ياابن زياد .؟ .

ابن زياد : بلى . وأنا قميرك ياعلقمة . [ثم ينادى] .. يامبروك .. مبروك .

مبروك : [داخلاً] .. مولاى .

ابن زياد : هات القداح يامبروك .

[ثم يقبل على علقمة] .. دونك الحلبة ياعلقمة .

علقمة : [متضاحكًا] على أى شىء تقامرنى يا ابن زياد .؟ .

ابن زياد : على حانة عمار .

علقمة : [صائحًا] .. على حانة عمار .! هاها .

الجميع : [يضحكون] . .

على الطريق

في حانة عمار. ورسل ابن زياد
يقتربون منها. وعمار على بابها.

مبروك : [وهو يقترب من الحانة] .. هذه حانة عما
يا مالك.

مالك : [وهو يشدُّ زمام جواده] .. وهذه علاماتها
ضجيج وصخب.

مبروك : وهذا عمار واقف على بابها يستقبل رُوّادها.

الخادم : [يتقدم إليهما قائلا] .. سيدى.

مبروك : [وهو يترجل عن جواده] .. خذ جيادنا
يافتى.

عمار : [مقبلا عليهما] .. يامرحبًا. يامرحبًا.

مبروك : كيف حالك اليوم ياعمار.

عمار : [دائم الشكوى] .. حال لا تسر . ولله الحمد على أى حال .

مالك : [متضاحكًا] .. الناس فى الحانة يكادون يطيرون من الطرب وأنت وحدك على بابها حزين .! .

عمار : [يتصنع الحزن] .. ذلك شأنى معها ياسيدى .

مبروك : كيف ياعمار .؟ .

عمار : وماذا تريد من رجل كثرتْ حُرَفَاؤه . وقلَّ غَنَاؤه .

مبروك : [متضاحكا يقول بلهجة التعجيب] .. إذا كثر الحرفاء تقلُّ الأرباح .

مالك : [وفى صوته لون الضحك] .. منطقٌ عمار .

عمار : [وهو يتصنع الحزن] .. هيه . الشكوى لغير الله مذلّه .

[ويفتح لهما باب الحانة] .. تفضلا . تفضلا .

أبو حرام : [يندفع خارجًا من الحانة وهو غاضب] .

حمزة : [خارج وراءه يصيح به] .. انتظرْ انتظرْ أبا حرام .

عمار : ماذا جرى ؟ .

أبو حرام : لا والله . لن أغشى هذه الحانة بعد اليوم .

عمار : [يستوقفه] .. انتظر ياسيدى .
أبو حرام : دعنى ياعمار .
عمار : ماذا جرى ؟ .
أبو حرام : [فى غاية الغضب] .. أُرسل إليها فترفض أن تنزل إلىّ .! .
عمار : [يحاول أن يهدئ من ثائرته] .. هَوِّنْ عليك ياسيدى .
أبو حرام : وتأبى أن تشرب معى .! أنا .
عمار : مصيبتى فيها أنها لا تشرب . ولا تغنى على الشراب .
أبو حرام : [ساخرا] .. نعم . منذُ متى كان ذلك ياعمار ؟ .
عمار : منذ شهور .. أتذكر يوم معركة الحانة ياسيدى .
أبو حرام : ولكنها كانت تفعل .
عمار : كان ذلك فى أول عهدها بهذه الحانة .. أما الآن . وقد جعلت منها شيئًا آخر . فقد أصبحتْ شيئًا آخر .
أبو حرام : بل أنت الذى أصبحتَ شيئًا آخر .

[ويتركه وهو يقول] .. حرامٌ عليَّ حانتُك بعد اليوم ياعمار .

عمار : [يلاحقه قائلا] .. انتظر أبا حرام .. سيدى . سيدى .

[ثم يقول لنفسه].. تعسًا لك يارابعة .

مبروك : [وفى صوته لون الضحك] يظهر أن وَرْقَاءَك أصبحت صقرًا ياعمار .

عمار : أرأيت ياسيدى . أسمعت ياسيدى .

مالك : [فى سخرية خفيفة] .. مسكين ياعمار .

عمار : كان نحسًا ذلك اليوم الذى لقيتُ فيه رابعة .

مبروك : [داخلًا فى الموضوع] .. خلاص . نُريحك منها ياعمار .

عمار : ليتك تفعل ياسيدى .. إننى ضقت -والله- بأحوالها ..

هذا الحزن الذى لا أدرى له سببًا

ودموعها التى لا أجد لها تفسيرًا .

وامتناعها عن الشراب .

إنها تضحك وقلبها يبكى . ولا أدرى لماذا كل هذا .

مبروك : خلاص . نشتريها .

عمار : [وهو يظن أنهم غير جادين وأن المسألة مجرد كلام] .. أبوس رجلك .

مالك : وتبيعها ياعمار ؟ .

عمار : بتراب الفلوس .

مبروك : فكم أملت فيها يارجل .

عمار : [وهو يظن أنهم غير جادين] خذوها بتراب الفلوس .

أريحونى منها .. لقد – والله – ضقت بها .

مالك : [يهمس لمبروك وقد صدق عمارا] يظهر أن مهمتنا أيسر مما كنا نتصور .

عمار : أنا فى خدمتكما .. تفضلا .

مبروك : [يخرج الصرة ويرمى بها إليه] .. خذ . خذ ياعمار .

عمار : [وقد وجد أن الأمر جد] .. أه ؟ .

مبروك : ماذا ؟ .

عمار : ماذا أنت ياسيدى ؟! .

مالك : هذا ثمن رابعة .

عمار : [فى جو المفاجأة] رابعة .

مبروك : إنه ليس تراب الفلوس .

مالك : إنه ذهب عين وازن ياعمار .

عمار : كأنكم تشترونها حقيقة ؟ .
مبروك : [وفى صوته لون الضحك] .. وكنت تظن أننا نشتريها مجازاً .؟ .
عمار : [مرتبكًا] .. ولكنى . أنا . أنا لا أبيعها ياسيدى .
مالك : ألست تشكو منها .
عمار : [وهو يضحك ضحكة باهتة] .. لقد كنتُ أهزل ياسيدى .
أتصدقون عمارًا .
أنا كذوب . هاهاها .
مالك : ولكنك ستبيعها .
مبروك : بل باعها بالفعل وقبض ثمنها .
عمار : لا - لا -إننى أبيعُ أولادى ولا أبيعها .
مبروك : ولكنك بعتها ياعمار .
عمار : لن ترغمنى على ذلك .
[ويحاول أن يردّ إليه الصرة] .. خُذْ صرتك هذه ياسيدى .
مالك : أنت واهم ياعمار . إنه لا يشتريها لنفسه .
عمار : ولو .
مالك : أتعرف لمن يشتريها ؟ .

عمار : أيًّا كان .. لن أبيعها ..
أبيع رابعة ! كيف ياسيدى ؟! .
مالك : أنت لا تعرف شيئًا ياعمار .. إنه يشتريها لمولاه .
عمار : ولو .
مالك : أتعرف من مولاه ؟ .
عمار : [بلهجة الاستخفاف] .. ومن يكون مولاه .
مالك : إنه ابن زياد .
عمار : [منهارًا] .. أه .. مَنْ .. إبـ .. ابن زياد .
[ثم يصيح وهو فى قمة الانفعال] .. راحت رابعة . وضعت ياعمار .

مبروك : [متضاحكًا] .. ومع ذلك .. فسيعوضك سيدى عن ورقائك الذهبية كثيرًا ياعمار .
هيا بنا يامالك .
مالك : أمامنا ياعمار .
[وفى الحانة يرتفع الصخب وتعلو ضجة رواد الحانة] .
الجميع : [يتصايحون] :أين عمار . ياعمار
النبيذ ياغلام .

الخادم : [يعلو صوته فى وسط الضجة] ياسادة . ياسادة ..
مَنْ كان أمامه كأس فَلْيَنْتَهِ منها .. ومَنْ كان أمامه شراب فَلْيرفعه إنها رابعة .
[وتنقطع الضجة ويبدأ عزف الجوقة الموسيقية] .

عمار : [يهمس فى حزن] .. انظر ياسيدى .. هكذا أدب الغناء صمت . ولا شراب .

الكورس : حانةُ الأقدار
عربدتْ فيها .. لياليها .
ودار النورْ .
والهوى صاحى
هذه الأزهارْ
كيف تسقيها .. وساقيها
بها مَخْمُورْ
كيف ياصاحِ .

رابعة : [تغنى] .. سألت عن الحب أهلَ الهوى[1] .
سُقَاةَ الدموعِ ندامى الجوى .

---

(١) الموسيقى واللحن : محمد الموجى .. والغناء : لأم كلثوم

فقـالـوا حَنـانكِ مـن شَجْوِهِ
ومـنْ جِـدِّهِ بـكِ أو لهْوِهِ
ومِـنْ كَـدَرِ الـليـل أوصَـفْـوِهِ
سَـلِى الـطيْرَ إن شئتِ عن شَـدْوِهِ
فـفـى شـدوِهِ لَمَسَـاتُ الهَـوى
وبَـرْحِ الحَـنِـينِ وشَـرْحُ الجَـوى

* * *

ورحتُ إلى الـطير أشكـو الهـوى
وأسـألُـهُ سِـرَّ ذاك الجـوى
فـقـال حَنـانَـكِ مِـنْ جَمْـرِهِ
ومِـنْ صَحْـوِ سـاقـيـه أو سكـرِهِ
ومـن نَهْيِـه فـيـك أو أمْـرِهِ
سَـلِى الليـلَ إنْ شئتِ عـن سِـرِهِ
ففى الـليـل يُبْعَث أهْـلُ الهـوَى
وفى الـليـل يَكْـمُنُ سِـرُّ الجـوى

* * *

ولمـا طـوانى الـدُّجَـى والجـوَى
لَـقِيـتُ الهَـوى وعَـرَفْـتُ الهـوى

فــفــى حـانــةِ الــلـيــل خَمَّــارُهُ
وتــلــك الــنُّــجَــيْــمــاتُ سُــمَّــارُهُ
وتحــت خِــيــام الــدُّجَــى نــارُهُ
وهَمْسُ الــنَّــسَــائِــم أسْــرَارُهُ
وفى كــل شــىء يــلــوحُ الهــوى
ولــكــنْ لمــن ذاقَ طــعــمَ الهــوى

أمل

وكان صباح

فقد أرق عمار ولم ينم ليلته . وتردد فى الذهاب إلى رابعة ليفضى إليها بما كان . وتقع عينه على عبدة وهى مقبلة من ناحية حجرة رابعة .

عمار : [يستوقفها] .. عبدة .

عبدة : سيدى . عم صباحًا ياسيدى .

عمار : أين مولاتك ياعبدة .

عبدة : إنها فى حجرتها ياسيدى .

عمار : ألم تصحُ من نومها بعد . لقد انتصف النهار أو يكاد .

عبدة : بل قامت منذ ساعة . وخلت إلى أحزانها . وذلك شأنها فى هذه الأيام .

عمار : [بلهجة اليائس] .. خلاص . انتهت . ستريح وتستريح .

عبدة : [وهى تهم بالرجوع] .. هل تريد شيئًا ياسيدى .

عمار : انتظرى أنت . أنا ذاهب إليها بنفسى

[ويتجه إلى حجرة رابعة ويطرق بابها . ويفتح الباب ويدخل .]

[ويتجه إليها حزينًا] .. رابعة . رابعة .

رابعة : ... .. .

عمار : [فى ألم] . . ألا تردين علىّ يارابعة .

رابعة : [وهى تقاوم انفعالها] .. ماذا تريد ياعمار ؟ .

عمار : [فى ألم] أريد أن أقول إننى مضطر إلى بيعك يارابعة .

رابعة : وأى جديد فى هذا . إنك تبيعنى كل ليلة ياعمار .

عمار : [منهارًا] .. ولكنها النهاية يارابعة .

رابعة : [بصوت مختنق] حقًا .؟ متى ياعمار ؟ متى أخرج من هذا السجن البغيض ؟ .

عمار : [فى غاية الألم] وتسمينه سجنًا .؟ .

رابعة : وأىّ سجن ياعمار .

عمار : [فى أسف] إننى أبيعك مكرهًا يارابعة .
رابعة : ومتى ملكتني حتى تبيعنى .
عمار : [بصوت مختنق] .. إننى لا أملك نفسى يااينتى .
رابعة : الآن صرت ابنتك ؟ .
عمار : ألم أنتشلك من الفقر والجوع .؟ .
رابعة : [فى مرارة] .. لتقدمنى طعامًا لكل نهم أكول .
عمار : بل جعلت منك وردة تتعطر بأريجها نسمات الأُبلّة .
رابعة : [ثائرة] .. ألا فاعلم ياعمار أن الوردة لها مكان آخر غير هذا التراب الذى مرغتنى فيه .
عمار : [حزينًا] .. على أى حال . لقد خرج الأمر من يدى .. أنا مغلوب على أمرى يارابعة .
إنه مولى من آل زياد سمع بك فأرسل فى شرائك .
ولا قبل لى بردّه ولست أدرى ما .. .
رابعة : [تقاطعه] .. لأن يكون لى مولى واحد خير من أن أكون مولاة كل عربيد مخمور .
عمار : أنت قاسية فى حكمك على يارابعة .
رابعة : أكنت تحسب أنى راضية بما أنا فيه ياعمار .
عمار : ولكنى كنت أكرمك .
رابعة : كما يكرم الجزّار الشاة .

عمار : إنك لا تفهمين شيئًا يارابعة .

رابعة : ليتنى كنت كما تقول .. ليتنى كنت لا أفهم ياعمار .

إنه قضاء جرى وأيام أرجو ألا تعود .

عمار : ولكنك ستذكرين هذه الأيام .

رابعة : [فى ألم ومرارة] .. نعم سأذكرها كثيرًا .

عمار : وتندمين عليها .

رابعة : [من قلبها] كلّ الندم .

عمار : إنك تُحوِّرين الكلام فما لهذا أردت .

رابعة : ولكنى أريد .

عمار : لك ما تريدين .. ولكن اذكرى وأنت فى بيت ابن زياد . أننى أنا الذى رفعتك إليه .. فلولاى ما غنيت . ولولا غناؤك ما اشتهرت .. ولولا شهرتك ما ..

[ثم يقطع كلمته وقد رآهاتقوم وتتركه] .. الله .! رابعة . رابعة .

رابعة : [تخرج وتصفق الباب وراءها بعنف] .

ورجاء

واستقبلت رابعة الحياة فى بيت سيدها الجديد .

مبروك : [وهو يقودها] .. مِنْ هنا .
[ويفتح بابًا ويقول لها] .. هذه هى حجرتك يارابعة .. ألست ترينها جميلة .

رابعة : أجمل منها يامبروك أنني تركت حانة عمار . وتركت الليل والهوى .

مبروك : وستكونين سعيدة فى بيت مولاك الجديد .

رابعة : كلَّ السعادة .
[ثم تقول وقد رأته ينصرف] .. إلى أين يامبروك .

مبروك : انتظرى رابعة . لن أغيب كثيرًا ..
سأحضر لك ما أعَدَّهُ لك مولاى وهو شىء كبير .
[ويخرج ويغلق الباب وراءه]

رابعة : [وقد خلت بنفسها] .. بعدًا لك ياحانة عمار .
مرحبًا بالحياة النظيفة فى بيت سيدى .
اليوم لا خمر ولا سكارى .
لا خمر ولا سكارى .
[ثم بصوت يتهدج] . .. إلهى كما قَدَّرت لى أن أخرج من ذُلّ المعصية . فَيَسِّرْ لى أن أدخل فى عِزّ الطاعة . ياتواب .
ياتواب .
ياتواب .

فجيعة

واجتمع أصحاب ابن زياد فى قصره .
وقد جمعهم الشراب والقمار والطرب .
ووجدت السيدة رابعة أنها لم تبتعد كثيرًا
عن جوّ حانة عمار .

ابن زياد : [صائحًا] .. ياغلام . الكاس والطاس .
همام : [متضاحكًا] .. والله لو أنك جئتنا برابعة التى هى رابعة ما تطاولت هكذا ياابن زياد .
ابن زياد : [يفاجئهم] .. وإذا كانت .
علقمة : [فى دهشة] .. رابعة .
ابن زياد : [ضحكة خفيفة] .
ورد : [فى إعجاب] .. واشتريتها ياابن زياد .؟ .
ابن زياد : كان لابد من ذلك ياورد .

لا يجملُ بالمشيخة من آل زياد أن يذهبوا إلى حانة عمار .

علقمة : إذن سنسمع ياابن زياد .

ابن زياد : ونشربُ ياعلقمة .

همام : [فى إعجاب] .. يالك ياابن زياد .

ورد : أجل ما كان لنا أن ننتقل إلى حانة عمار .

ابن زياد : بل تنتقل حانة عمار إلينا .

علقمة : [متضاحكًا] .. ومثلك مَنْ يفعلها ياابن زياد .

ابن زياد : [ينادى] .. يامبروك . مبروك .

مبروك : [يتقدم قائلا] مولاى .

ابن زياد : رابعة يامبروك .

ورد : [يتضاحك] .

ابن زياد : [فى غاية النشوة] .. إنها اليوم هنا .. [ويرفع كأسه قائلًا] .. كأسك ياورد .

ورد : كأسك ياابن زياد .

مبروك : [داخلًا يتقدم رابعة] .. رابعة يامولاى .

ابن زياد : تعالى رابعة . أقدمى .

رابعة : [داخلة] .. سيدى الـ .

[ويقطع كلمتها وتشهق فى فزع وقد فوجئت بمجلس الشراب] هيه . ويْ .

ابن زياد : [وأصحابه يشاركونه فى الضحك من حركة خوفها] .. اجلسى .. اجلسى يارابعة .

رابعة : [بصوت يتهدج] .. ولكنى . لا أجد مكانى ياسيدى .

الجميع : [يضحكون فى طرب وسرور] .

ابن زياد : أتسمع ياورد .

ورد : اجلسى رابعة .

رابعة : [وقد فجعت فى جميع آمالها] .. سيدى .

ابن زياد : [الذى فهم أنها تتحرك من منادمتهم أمامه] .. لا عليكِ رابعة .. أولئك صحبى وللكاس بيننا حرمةٌ وذمام .

ورد : [وهو يقدم لها الكأس] .. كأسك يارابعة .

رابعة : [بصوت فيه لون البكاء] .. وهل بقى فى الكأس شراب .

ابن زياد : خذيها يارابعة .

رابعة : [متمنعة] .. سيدى .

ابن زياد : [آمراً] .. خذيها من يده .

رابعة : [فى غاية الحزن] .. وخمرٌ ياسيدى .. لقد كنت فى حانة عمار أغنى ولا شراب .

همام : [فى سخرية] .. ما هذا ياابن زياد .

زرد : دعوها ياقوم . بالله لاتكرهوها على ما لا تريد .

علقمة : إذن فهو الغناء .

ابن زياد : [غاضبًا] .. بل الغناء والشراب .. رابعة كما نريد . ولسنا كما تريد رابعة .

رابعة : [حزينة] .. ليتنى كنت أستطيع ياسيدى .

ابن زياد : [فى غضبه] .. ومن يستطيع غيرك ياابنة الليل والهوى .

رابعة : [فى أسف وحزن] .. كنت يامولاى .

همام : [مقهقهًا] .. كانت هاهاها .

ابن زياد : [يسألها] .. وماذا جرى ؟ .

رابعة : جرى أننى تلمست فى بيتك أمنًا لروحى .

علقمة : وهل أنت خائفة ؟ .

رابعة : كل الخوف .

ابن زياد : مِمَّ رابعة ؟ .

رابعة : من نفسى يامولاى .

همام : [فى ضيق] .. حديث لن ينتهى .

ابن زياد : أى رابعة . لقد أطلتِ ، وماأظن أنك مفسدة علينا ليلتنا [ثم بلهجة الأمر] .. الكأس أولاً .

رابعة : [بصوت يتهدج] .. هيهات ياسيدى هيهات .

ابن زياد : [فى دهشة] .. ماذا ؟ .

علقمة : [ضاحكًا] امتناع هذا أم تمنع ؟ .

ابن زياد : [منفعلاً] .. رابعة – أقول لك اشربى .. أقول لك تمنى .. هل سمعت ؟ .

رابعة : [بصوت فيه لون البكاء].. كان ذلك ونحن على ضفاف الأبلة .

ابن زياد : [فى غيظ مكتوم] .. واليوم ؟ .

رابعة : اليوم نحن على ضفاف الأيـ .

همام : [فى سخرية] .. كذا أيتها التاسكة الحَصان .

الجميع : [يتضاحكون] .

رابعة : [باكية] .. سيدى .

ابن زياد : [ثائرًا] .. هَلُوكٌ تتنزّه عن الشرب والغناء .

ورد : [متدخلا] ياقوم . ياقوم .

ابن زياد : ألهذا دفعت خمسمائة دينار .

رابعة : [بصوت يرتعش] .. اغفرلى ياسيدى .. أنت لا تعرف قلوب الغوانى .. نحنُ نحنّ إلى الحياة الشريفة حتى ونحن نتمرّغ فى الأوحال .
لقد حسبت أننى صالحت ربى حين طوانى بيتك وتركت حانة عمار .

بن زياد : بل تريدين أن ترجعى إلى السكارى هناك .

رابعة : [فى مرارة] .. وهل بعدت عن السكارى هنا .

ابن زياد : [يقاطعها غاضبًا وهو يصفعها] .. صَهْ .
رابعة : [ويدها على خدها] .. و .. وتصفعنى ياسيدى .
ورد : [متألمًا لها] .. ما ضرَّ لو شاركتنا يارابعة .
رابعة : [وهى تبكى] .. ياأسفًا على ما فات .
همام : [فى ضيق] .. أهذه المناحة دعوتنا ياابن زياد .
ابن زياد : أيتها الدُّمية اللعوب .
رابعة : إن شرابى اليوم دموع وغنائى نحيب .
ابن زياد : أهكذا تحكمين على نفسك .
رابعة : بل حكمت على نفسى .
ابن زياد : [بلهجة الوعيد] .. إذن فقد اخترت جزاءك
[ثم ينادى] .. يامبروك .. مبروك .
ورد : أناتك ياابن زياد .
مبروك : [داخلاً] .. مولاى .
ابن زياد : أين سوطك يامبروك .
مبروك : فى خدمة مولاى .
ابن زياد : أريدك أن تروِّض هذه القطة .
ورد : رفقًا بالقوارير ياابن زياد .
ابن زياد : [صائحاً] .. عليك بها يامبروك .
مبروك : [وهو يسحبها] .. أمرك ياسيدى . تعالَىْ .
رابعة : [تبكى وهى خارجة مع مبروك] .
ابن زياد : [يشيعها قائلا] سأعلمك طاعة السادة ياهلوك .

فى بحار الندم

وفى محبسها انطوت رابعة على نفسها تبكى
وتناجى ربها فى قمة رياضتها الروحية .

رابعة : [وهى تبكى] .. إلهى وسيدى
أنا فى طريقى إليك . أخوض بحار الندم . فهل
أصل ياسيدى .
وإذا وصلت فهل تقبلنى
واغوثاه
كم من شهوة ذهبتْ لذتُها .. وبقيتْ تبعتها .
[ثم تبكى وتغنى] :

علـى عيـنى بكـتْ عيـنى
عـلى رُوحـى جنـتْ رُوحـى
هـواك وبُـعْـدُ مـا بـيـنى
وبـيـنـكَ سِـرُّ تَـبْـرِيحـى

عـــلى عـيــبنى
عـــلى روحـــى
فيــاغـوثـاهُ يـاغـوثـاه
ومن طُولِ النَّوى أوَّاهْ
وآهٍ آهْ

* * *

صحـــا من شَجْــوِهِ كــأسِى
وقــد نـام الخَـلِيُّـونـا
فـكيـف أَفـرُّ مـن نـفـسـى
إذا هـامَ المــحــبــونـا
عـــلى نفسى جنتْ نفسى
فـــيـاويــلاهُ يــاويــلاه
ومن طـول النَّوى أوّاهْ
وآهٍ آهْ

* * *

حيــائـى مـنــك يُبْـعــدنِى
وداعـى الـشـوق يَــدْعُـونى

وَوَجْهُ الصَّفْحِ يُخْجِلُنى
وَيَقْتُلنى وَيُحْيِينى
وأيامى تُقاضينى
على ما كان ياأسفاهْ
ومن طُولِ النوى أوَّاه
وآه آه

* * *

خَلَوْتُ إليك ياربِّ
وقلتُ عساكَ تقبلُنِى
فما بالى أرى ذنبى
وأيامى تُطارِدُنى
مَدَدْتُ يدى فَخُذْ بِيَدِى
إليكَ ومنكَ ياربَّاهْ
ومن طول النَّوى أوَّاهْ
وآهٍ . آهْ

[ثم تنخرط فى بكاء شديد]
[وفى أثناء بكائها يفتح الباب ويدخل مبروك وفى يده السوط]

مبروك : [فى غلظة] .. هيه .
رابعة : [من خلال دموعها] .. مبروك .
مبروك : [فى غلظة] .. ألا تزالين تبكين يارابعة .
رابعة : وهل أملكُ غير الدموع يامبروك .
مبروك : [بلهجة الوعيد] .. ألا تُطِيعينَ سيدك يارابعة .
رابعة : [فى مرارة] .. ظننتُ أننى انتهيتُ من حانة عمار .
فإذا بيتُ سيدى حانة أخرى .
مبروك : [فى غضب] .. أقول . هل تُطيعين سيدك
يارابعة .
رابعة : [بصوت مختنق] .. أَشْرَبُ وأَغَنّى .؟! .
مبروك : وما يمنعك أن تفعلى .
رابعة : [فى إصرار] .. أَمّا الشرابُ فقد علمتَ ألاّ سبيل
إليه .. وأما الغِناءُ . فلن أغنى لمخلوق بعد اليوم .
مبروك : وسيدك ؟ .
رابعة : إن لى سيدًا واحدًا ولن أغنى لسواه .
مبروك : [ثائرًا] .. أنت عنيدة . وأنا أشدُّ منك عنادًا .
وسيدى أشدُّ منى ومنك .. وسوف أَنْصَبُّ عليكِ
بالسُّوط هكذا [وهو يشقها بسوطه] .
رابعة : [فى ألم مكتوم] .. آه .
مبروك : [وهو يشقها بالسوط] .. كلَّ يوم .. هه .

رابعة : [تحاول أن تكتم آلامها] .. آه .

مبروك : هكذا .. هكذا .. هكذا .

رابعة : [فى صراخ مكتوم] .. آه ..آ .

وحدث ذات ليلة

وكانت رابعة فى محبسها تخوض بحار التجربة وتمارس رياضتها الروحية ، وهى تتواجد وتبكى وتغنى ، ووصل صوتها إلى سمع مبروك . فنظر من خصاص الباب فإذا قنديل يتحرك فوق رأسها ويتوهج . وهو غير معلق بشىء .

رابعة : [باكية] .. ياحبيبى .

سجا الليل . ونامت العيون

وسكنت الوحوش فى الفلاة . وهجعت الطيور فى الأشجار .. وهدأت الأسماك فى البحار . وأنت وحدك لا تنام . فكيف أنام ياحبيبى .

حبيبى :

يقولون لى غنى

لن أغنى لسواك

يعذبوننى

لا أحس غير هواك

[ويتهدج صوتها وهى تغنى]

* * *

غريبٌ على باب الرجاءِ طَريحُ
يناديك موصولَ الجوى وينوح
يهُون عذابُ الجسم . والروحُ سالمٌ
فكيف وروحُ المستهامِ جَروحُ
وأهواكَ لكنى أخافُ . وأَسْتَحِى
إذا قلت قلبى فى هواك جريحُ
طريقى إليك الوجْدُ والسهدُ والضّنا
ودمعٌ أدارى فى الهوى ويَبُوح
وليس الذى يشكو الصبابةَ عاشقًا
وما كلُّ باكٍ فى الغرامِ قَرِيحُ

* * *

يقولون لى : غَنِّ وبالقلبِ لوعة
أُغنّى بها فى خلوتى وأنوحُ

ولى فى طـريق الشـوقِ والـليـلُ هـائمٌ
مـعـالمُ تَخْـفَـى تـارةً وتـلوحُ
ولى فى مقـامِ الـوَجْـدِ حـالٌ ولَـوْعَـةٌ
دمـوعـى غَبُـوقٌ عـنـدهـا وصَبُـوحُ
وأنـت وُجـودى فى شـهـودى وغـيـبـتى
وسـرُّك نُـورُ الـنـورِ أو هـو روحُ
ومـا رَحَـلَتْ إلا إلـيـكَ مـواجـدى
وداعـى الهـوى بـالـواهـين يـصـيـحُ
غـريبٌ عـلى بـابِ الـرجـاءِ طَـريـحُ

[وفجأة ينفتح الباب ويدخل مبروك باكيًا]

مبروك : [وهو داخل يقول بصوت يتهدج] .. رابعة .

رابعة : [تشهق .. وقد فوجئت به داخلاً فى هذه الساعة من الليل] .

مبروك : رابعة .

رابعة : [بصوت مختنق] .. مبروك .

مبروك : لا . لا تخافى يارابعة ..
لن أعذبك بعد اليوم .
ماذا كنت تقولين يرحمك الله .

رابعة : [بصوت يتهدج] .. أسمعت حديثى إلى سيدى .

مبروك : سمعت يارابعة .. ورأيت أيضا .

رابعة : واحرَّ قلباه .

مبروك : قومى رابعة .

رابعة : إلى أين يامبروك .

مبروك : قومى أساعدك على الفرار من عذاب مولاك .

رابعة : [وهى تبكى] .. وكيف أفِرُّ من عذاب نفسى يامبروك .

مبروك : لا . لا تبكى رابعة .

[ويرمى بالسوط وهو يقول] .. هذا هو السَّوط . لن أمسَّكِ بسوءٍ بعد اليوم . وليذهبْ سيدى إلى الجحيم .

ابن زياد : [الذى سمع هو الآخر ورأى يدخل قائلا] .. ولكنه ذهب إلى الجنة .

مبروك : [وقد فوجئَ به] سـ .. سيـ .. سيدى .

ابن زياد : لا بأسَ عليكَ يامبروك .. لقد سمعت كما سمعت .

مبروك : و .. ورأيت القنديل ياسيدى .

ابن زياد : انهضْ يامبروك . إنى أعفو عنك .

[ويقبل على رابعة قائلًا] .. أما أنتِ يارابعة . فلست أدْرِى كيف أُكَفِّر عن إساءتى إليك .. تعالَىْ ياابنتى ..

خُذْ بيدِها يامبروك .. .

طريق السالكين

وأنكر أصحاب ابن زياد وندمانه ما كان من أمره . فقد رأوه غير ما كان بالأمس ، وقد جفَّ مجلس الشراب ، وانطوى بساطه . فأقبلوا عليه لائمين ساخرين :

الجميع : [يضحكون وقد رأوه منصرفًا عن طريقهم] .

ابن زياد : [يراجعهم وهم يقاطعونه] .. لا . لا . أقسم لكم .

همام : [وفى صوته لون الضحك] .. اسمع ياابن زياد .. إنك هنا فى خَمَّارةِ الهوى لا تدرى بما يقال .

ابن زياد : أريد أن .

ورد : [يقاطعه ضاحكًا] .. ومتى كان للمحبين إرادة .

ابن زياد : صدقونى أننى لم ... .

علقمة : [يقاطعه] وما يمنعك أن نرى .

ابن زياد : وهو كذلك .. سترون بأعينكم .

[ثم يصفق وهو ينادى] .. يامبروك .. مبروك

مبروك : [مقبلا عليه] .. سيدى .

ابن زياد : رابعة يامبروك .

مبروك : سيدتى رابعة .

همام : [ضاحكًا] .. سيدته .!.

علقمة : [وهو يضحك معهم] .. لعلك قد جعلت منها سيدة بيتك ياابن زياد .

الجميع : [يضحكون] .

ابن زياد : ياقوم . ياقوم .

أُشهد الله أنى ما تأدَّبتُ كما أدَّبَتْنِي هذه السيدة [ثم يتدفق فى حديثه] .. قمتُ ليلة أَتَحَسَّسُ أمرها فَسمعتها فى جوف الليل تدعو دعاءً انفطر له قلبى .. ثم سمعتها تغني غناءً كأنه يتنزل من السماء ونظرتُ من خَصاصِ الباب فما راعني إلا قنديل يضيء ويتحرك فوق رأسها وهو غير مُعَلَّق بشيء

ورد : [بلهجة التعجب] .. سبحان الله .!.

علقمة : [بلهجة الشك] .. أو كذا خيل إليك يا ابن زياد .

ابن زياد : بل كذا سمعت . وكذا رأيت . وإذا كَذَبَتْنى أذنى فلن تَكْذِبَنى عينى أبدا .

(ويفتح الباب ويدخل مبروك وهو يقود رابعة)

ابن زياد : رابعة .

رابعة : [تقبل عليه قائلة] لبيك يامولاه .

ابن زياد : تعالى يا ابنتى ..

علقمة : [فى سخرية] .. وتذهب فى تدليلها إلى هذا الحد .

همام : فكيف شُرْبُكَ معها .

رابعة : ومَنْ لى بأدب الشرابْ . وشهودُهُ غِيابْ . وحلاوتُهُ عذابٌ . وبساطُ النَّدامى ترابْ .

ورد : ترتيلٌ هذا أم غناء

رابعة : [مستمرة] .. وقد شربَ الشاربون فغابوا عن الوجود .. وفَنُوا فى حقيقة الموجود .

ابن زياد : [فى غاية التأثر] .. أَىْ رابعة . أيتها الأختُ الطِّيِّبَة . لقد ندمت على سوء معاملتى لك طوال هذه الشهور .

رابعة : ذلك بلاءٌ شَغَلَنا عنه الصبرُ عليه .

ابن زياد : سؤالاً واحدًا يارابعة .

رابعة : سل ماشئت ياسيدى .

ابن زياد : ماذا كنتِ تقولين يارابعة .

رابعة : يا إلهى .

ابن زياد : غناء سمعتُه فخيل إلىَّ أنى أرتفعُ إلى السماء .

رابعة : ذلك حديثٌ بينى وبين سيدى . وليس للعبد أن يتحدث بحديث سادته . فكيف بالسيد الأكبر .

ابن زياد : [يتمثل بشعرها الذى سمعها تغنيه] .. غريب على باب الرجاء طريح .

رابعة : [تصرخ باكية] .. واغوثاه .

ابن زياد : [فى غاية التأثر] انهضى يا ابنتى . إنى أهبك نَفْسَك .. أنت حرة لوجه الله .. فإن شئت بقيت فى بيتى لالتخدمينا نحن . ولكن لنخدمك أنت .. وإن شئت رحلت .

رابعة : [من خلال دموعها] .. بل أُفَضّل الثانية .

ابن زياد : ترحلين عنا .؟!

رابعة : نعم

ابن زياد : ولكن إلى أين يا ابنتى .

رابعة : إليه . إليه هو .. وليس إلى سواه . [ثم تنهض خارجة وهى تقول] .. سيدى .

سيدى خذ بيدى .
أنا فى طريقى إليك ..
أنا فى طريقى إليك .

دروس

ومرت الأيام وتعاقبت السنون وكبر الصغير . وشيَّخ الكبير . وصارت رابعة حديث أهل الله فى البصرة ..

عمار : [وقد صار شيخًا ناسكًا]

وللهِ منى جانبٌ لا أضيعُهُ
وَلِلَّهْوِ منى والخلاعَةِ جانبُ

تلك هى البصرة منذ أنشأها عتبة بن غزوان .. لهوٌ بجانبه جِدّ . وعبثٌ إلى جواره زهد .

حسان : [ضاحكًا] .. وأنت تشربُ من الوِرْدين ياعمار .

عمار : [بلهجة الاستنكار] .. وأنا فى هذه السنّ يا ابن أخى ؟

حسان : [غير مقتنع] .. إم .

عمار : كان ذلك قبل أن أصل إلى رابعة .

خالد : ووصلت ياعمار ؟

عمار : إنها صلة قديمة ترجع إلى أول عهدها بالطريق . منذ خرجت من حانتى .. ثم منذ خرجت من بيت ابن زياد وقطعت آخر صلاتها بدنيا الناس .

خالد : ولكنها تقابلهم .

عمار : قلت إنها قطعت صلاتها بدنيا الناس . ولم أقل إنها قطعت صلاتها بالناس .

حسان : فلماذا ترفض هداياهم ؟

عمار : بل رفضت ماهو أكثر .. إنها رفضت محمد بن سليمان الهاشمى .

خالد : هذا عجيب !

عمار : وأى عجب يا ابن أخى .

حسان : ترفض الزواج من محمد بن سليمان الهاشمى .!!

عمار : [يزيده دهشة] .. وأنت تعرف غلة ملكه .؟

حسان : يقال إنها ثمانية آلاف درهم .

عمار : [فى طلعة] .. كل صباح .

خالد : ومع هذا ترفض الزواج منه .

عمار : إنك تنظر إليها بعينك التى تنظر بها إلى الناس .. إنها طراز آخر يابنى .

خالد : وحاجتها من الدنيا ؟

عمار : قليلة . إنها لاتتزوَّد إلا إلى الله .

خالد : ولكن ألا تأكل . ألا تشرب .. كيف تعيش ياسيدى . ومن أين ؟

عمار : إنها تأكل السهد وتشرب الدموع .

خالد : [بلهجة التعجب] تأكل السهد وتشرب الدموع !

عمار : هذا مقام لاتفهمه أنت يابنى .. إنى والله أشعر فى حضرتها بريح الجنة .

خالد : [فى إعجاب] .. وغشيت مجلسها ياسيدى ؟

عمار : [وفى صوته لون الضحك] .. مجلسها .. [ثم يقبل عليه قائلا] .. وتسميه مجلسًا يابنى .. صومعة ليس بها غير إبريق . ومنامةٌ هى محرابها ، ومشجب قصبٍ علّقت عليه أكفانَها .. وعليه نايُها القديم . ذلك هو مجلسها .. ومع ذلك فهو قِبْلَةُ القلوب . وندوة أهل الله .

خالد : ياإلهى .. وددتُ لو أخذتنى معك إليها ذات يوم

عمار : أسأل فى ذلك .

خالد : ويحتاج الأمر إلى سؤال .؟

عمار : [فى شىء من غضب] مَهْ يا ابن أخى .. تريد أن تسلك الطريق من نهايته .. الطريق مراتب يابنى .

صالح : [مقبلا عليهم] .. السلام عليكم .

حسان : [يهمس لهم] .. هذا صالح بن عبد الجليل .

الجميع : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

صالح : [وقد لاحظ غضب عمار] .. ماذا بكم ؟

عمار : لاشىء . كنا نتذاكر أخبار رابعة .

صالح : حديث رابعة يملأ البصرة ويملأ كل مكان .. ولكن إذا أردتم أخبارها ثقة فعليكم بابن دينار .

عمار : ابن دينار .

صالح : إنه يُدوِّن أخبار رابعة .. يُمليها على تلميذه أبى الحسن فى جامع البصرة .

خالد : [ينهض قائلا] .. السلام عليكم .

حسان : إلى أين ياخالد .

خالد : إلى جامع البصرة .

المحبة

وفى جامع البصرة كان الناس يتحلّقون حول ابن دينار وهو يروى لهم أخبار رابعة ويمليها على تلميذه أبي الحسن .

ابن دينار : وتعاقبت الأيام .
أبو الحسن : [وهو يكتب وراءه] .. الـ .. أيام .
ابن دينار : ومرت السنون والأعوام .
أبو الحسن : والـ . أعوام .
ابن دينار : وخلعت ثوب الشباب . وخاضت بحار الندم . وسلكت طريق الواصلين . حتى صارت ماهى عليه الآن يافتى .
أبو الحسن : ماهى .. عليه .. الآن .
ابن دينار : اكتب يافتى .

ودخل عليها لص ذات ليلة وهى ساجدة .. فلم يتبينها اللصُّ فى الظلام . ولما لم يجد شيئًا يسرقه هَمَّ بالخروج .

وفى هذه اللحظة انتهت رابعة من صلاتها ورفعت صوتها بالسلام

* * *

بعة : [وهى تختم صلاتها] .. السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله .

اللص : [فى غاية الرعب وقد فوجئ بها] .. إه .. بـ بسم الله الرحمن الرحيم .

رابعة : [فى لطف وسماحة] .. لا . لاتَخَفْ يا أخى .

اللص : و .. ومن أنت ؟

ابعة : السلام عليك أولا .

للص : أين كنتِ بحق الله .

رابعة : [فى عتاب رقيق] .. ألا تردّ السلامَ يا أخى ؟

للص : [فى ذهول] تنادينى بأخيك . وتُلقين إلىَّ بالسلام . وقد دخلتُ بيتك سارقًا .!!

رابعة : ولكنك لم تسرق شيئا .

اللص : لأننى لم أجد مايُسرق .

رابعة : يخجلنى أن تقصدنى فلا تجد فى بيتى شيئًا .

اللص : [مأخوذًا] .. أنتِ .. أنتِ .

رابعة : أختك يا أخى .

اللص : [وهو يلهث] .. أنت .. أنت .

رابعة : [تقاطعه فى لطف] قل لى أولا : لماذا تمدُّ يدك إلى عبد مثلك ؟

اللص : إنها الحاجة .

رابعة : ولماذا لم تقصد بها مولاك .

اللص : [فى سخرية وألم] .. مولاى !

رابعة : هل وقفت على بابه ؟

اللص : بل هربت منه .

رابعة : وكيف تهرب منه وهو معك يامسكين .

اللص : [وقد أدرك ماتعنيه رابعة] .. أنتِ .. عمن تتكلمين ياسيدتى .؟

رابعة : أتكلم عنه .. هو .. السيد الأكبر الذى لايُغْلَق بابه .. ولايضيق رحابه .

اللص : [يبكى] .

رابعة : قم يامسكين وتوضأ من هذا الإبريق ، واتّجِهْ إلى الغنى الذى لاغنىّ سواه .

اللص : أفعل إن شاء الله .. ولكن . ألاسراج نستضىء به .؟

رابعة : وهل نحن فى ظلام .

اللص : إننى لا أراك ياسيدتى .

رابعة : لأنك تراه .

[ثم بصوت يتهدج] .. وحتى لانشغل العينَ بشيء سواه .

اللص : [يهمس] .. لا إله إلا الله .

رابعة : إلهى . وسيدى . وحبيبى :

هذا عبد قد أتى بابى ولم يجد شيئا .. وقد دَلَّلْتُه على بابك .. ووقفتُه برحابك .. وجعلتُه يلوذُ بجنابك . فلا تَحْرِمْه من فضلك وثوابك ياغنى .. ياغنى .. ياغنى .

* * *

ابن دينار : [يكمل قصتها مع اللص] .. واستغرقت رابعة فى صلاتها .. واستغرق اللص فى صلاته .. وانشطر الليل وهما غارقان فى صلاتهما ودعائهما .

فلما كان الفجر أفاقت رابعة من استغراقها .

فوجدت اللص ساجدًا وهو يبكى ويقول :

إذا مـا قـال لى ربى

أمـا استحيْتَ تعصينى

فـما قـولى لـه لمـا
يـعُـاتبـنى ويُـقْـصيـنى

رابعة : [تقبل على اللص قائلة فى عطف] .. هَوِّنْ عليك ياأخى .

اللص : [فى رعب وقد فوجئ بصوتها وهو مستغرق] . أهْ . مَنْ ؟ من ؟

رابعة : [تعاتبه فى رفق] .. أهكذا تنسى أختك سريعًا

اللص : أين . أين أنا ؟

رابعة : أنت حيث أرادك الله أن تكون .

اللص : [وقد تذكر كل شىء] .. آ . لاتؤاخذينى . أنت صاحبة الدار . ولكن هل قضينا الليلة معًا ؟

رابعة : بل قضيناها معه .

اللص : وا حَرَّ قلباه .

رابعة : كيف كانت ليلتك يا أخى ؟

اللص : [وصوته يتهدج] .. وقفتُ على بابه بِذُلِّى وفقرى .. فقبل عذرى .. وجَبر كسرى [ويبكى] .

رابعة : ولهذا تبكى .؟

اللص : إننى أصلى بدموعى ..

لقد تحرَّرَتْ روحى ..
لقد وجدتُ نفسى أخيرًا .
[ثم ينهض صائحًا] .. كلا . أنالست عبدًا .. أنا حر طليق .. لقد عرفت طريقى .
[ثم يخرج وهو يصيح] .. أنا فى طريقى إليه ..
أنا فى طريقى إليه ..

رابعة : [وهى تتجه إلى السماء] .. إلٰهى . هذا عبد وقف ببابك ساعةً فقبلتَه . وأنا مذ عرفتك بين يديك .. أتراك قبلتنى [وتبكى] .

* * *

ابن دينار : [يكمل قصتها مع اللص] . وخرج اللص هائمًا على وجهه .

أبو الحسن : [يضع القلم ويقبل على شيخه قائلا] .. ياعجبًا ياسيدى .

ابن دينار : إنها رابعة يابنى ..
إنك لم تدركها فى صدر شبابها . لقد كانت شيئًا يدير الرءوس .

أبو الحسن : ياعجبًا للخطيئة تُورِثُ الْـــ .
[ثم يقطع كلمته ويقول متحرزًا] .. أستغفرُ الله على أىّ حال ،

سفيان : [مقبلا عليهم] . السلام عليكم .

أبو الحسن : [يهمس لشيخه ابن دينار] .. هذا شيخنا سفيان .

ابن دينار : وعليكم السلام ورحمة الله .. من أين ياسفيان .

سفيان : [فى ألم] .. من عندها يا ابن دينار .

ابن دينار : وكيف حالها اليوم ؟

سفيان : كما كانت بالأمس . شيخوخةٌ تعانيها . وساعات تقضيها .

ابن دينار : لاحول ولا قوة إلا بالله .

[ثم يقبل على تلميذه قائلاً] .. النهاية . اكتب يافتى .

سفيان : ماذا تكتبون .؟

ابن زياد : وهل نكتبُ إلا أخبارَها .

سفيان : أخبارها ..؟!

وهل تحتاج أخبار رابعة إلى كتابة يا ابن دينار ؟

ابن دينار : إنما نكتبها للزمان يا أخى .

سفيان : إذا أردتم مزيدًا من أخبار رابعة فعليكم بخادمها عبدة .

ابن دينار : خادمها عبدة .

لقد أذكرتنى ياسفيان ..

[ثم لتلميذه] .. اكتبْ .. اكتبْ يا أبا الحسن .

[ثم بلهجة الإملاء] .. حدثنى جعفر بن سليمان .. قال : حدثنى العباس بن الوليد .. قال : قالت خادمها عبدة .

* * *

عبدة : كنت أقوم على خدمة سيدتى رابعة منذ أعتقت .. ومازلت فى خدمتها إلى اليوم . فبينا أنا نائمة ذات ليلة خُيل إلىَّ أنى رأيت نورًا ملأ مابين السماء والأرض .. فقمتُ من نومى فزعةً فسمعتها تبكى فى كبد الليل . حتى خُيل إلى أن كل شىء يبكى معها . ثم سمعتها تقول :

رابعة : إلهى أنارت النجوم .
ونامت العيون ..
وغَلَّقَت الملوكُ أبوابها .
وخلا كلٌّ حبيب بحبيبه
وهذا مقامى بين يديك .
وعزتك يارب ماعبدتُك لجنتك . بل لمحبتك . وليس من أجلها قطعت عمرى فى الوصول إليك .. إنه الحب .

الحب .. والشوق .
وكيف حبيك وشوقى إليك .

[ثم تبكى وتغنى]

عرفتُ الهوى مُذْ عرفتُ هواكا[1]
وأغلقتُ قلبى عَمَّنْ عداكا
وقمتُ أناجيك يا مَنْ ترى
خفايا القلوب ولسنا نراكا

* * *

(أحبُّكَ حبين : حُبَّ الهوى[2]
وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى
فشُغْلِى بذكرك عَمَّنْ سِواكا
وأما الذى أنتَ أهلٌ له
فكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى

---

(١) موسيقى وألحان رياض السنباطى . وغناء : أم كلثوم .
(٢) الأبيات التى بين الأقواس من شعر السيدة رابعة .

ولكنْ لك الحمد فى ذا وذاكا)

* * *

أحبُّك حبين : حبَّ الهوى
وحبًّا لأنك أهل لذاكا
وأشتاقُ شوقَيْن : شوقَ النَّوى
وشوقًا لِقُربِ الخُطَى مِنْ حِماكا
فأما الذى هو شَوْقُ النَّوى
فَمَسْرَى الدموع لِطول نواكا
وأما اشتياقى لِقُرْبِ الحِمى
فنار حياة خَبَتْ فى ضياكا
ولستُ على الشَّجْو أشكوى الهوى
رَضِيتُ بما شئتَ لِى فى هواكا .

نهاية وبداية

وفى الكوخ الذى أصبح ندوة أهل الله .
وعلى المنامة التى هى محراب رقدت رابعة – أو مابقى منها – تودع آخر ساعاتها من هذه الحياة الدنيا . وتستقبل أول ساعاتها من الآخرة .

خلقٌ كثير من العلماء والأمراء والسابلة وقوف على بابها ينتظرون قضاء الله .

* * *

عمار : [وقد صار شيخًا أرعشت صوته الأيام] .. لاحول ولا قوة إلا بالله .

ابن زياد : [بصوت مختنق] .. ألا نستطيع أن نلقى عليها نظرة ياسفيان .

سفيان : أخشى ألا يكون ذلك مستطاعًا يا ابن زياد .

ابن زياد : [وفى صوته لون البكاء] .. ولكنى .. كنت ..

أريد أن .. تسامحنى على مافرط منى ياسفيان .

سفيان : غفر الله لك يا ابن زياد .. ألا تزال تذكر هذه الأيام .؟

ابن زياد : وأندم عليها ياسفيان .

سفيان : [وقد رأى عبدة مقبلة] .. هذه عبدة .

ابن زياد : [مقبلا عليها] . عبدة .

عمار : تعالى عبدة .. كيف حالها الآن .

عبدة : [تبكى] ..

ابن زياد : [فى غاية الضيق والألم] .. ألا تجيبين سؤاله بدلاً من هذا البكاء ياعبدة .

سفيان : [فى حزن عميق] .. بل أجابت بهذه الدموع يا ابن زياد . انطلقى عبدة .. انطلقى فلعلها فى حاجة إليك الآن .

عمار : لاحول ولا قوة إلا بالله ..

* * *

عبدة : [داخلة عليها تقول بصوت مختنق] .. سيدتى .

رابعة : [بصوت يرتعش من الشيخوخة والمرض] .. عجوز سُحلتْ مريرتُها .. وقد أوفتْ على الثمانين . ياحبيبى .

لقد أنفقتها ثمانين عامًا وأنا أسعى إليك .. ومازلت أسعى ياحبيبى .. فمتى أصل ياحبيبى .

[وفجأة ينبعث فى الجوّ صوت الناى ليعيد لرابعة أيامها الأولىٰ .. ويصل صوته إلى رابعة وحدها يسمعه أحد سواها] .

رابعة : [فى دهشة وبصوت متقطع] .. ياإلهى . هذا ه الناى .. الناى .

عبدة : سيدتى . إن خلقًا كثيرًا من العلماء والأمرا والسابلة وقوف على بابك يبكون .

رابعة : [بصوت ضعيف] .. دعى الخلق للخالق .

[ثم فى دهشة تشير إلى صوت الناى الذى تسمعه هى] .. ولكن . اسمعى . عبدة .

عبدة : [التى لاتسمع شيئا] .. أسمع ماذا ياسيدتى

رابعة : [فى دهشة] .. ألا تسمعين ياعبدة ؟

عبدة : أسمع ماذا ؟

رابعة : [تشير إلى صوت الناى] .. هذا .

عبدة : أى شىء تعنين ياسيدتى

رابعة : ألست تسمعين الناى ياعبدة .

عبدة : أنا لا أسمع شيئًا .

[ثم تشهق وهى تكاد تصعق من الدهش

هيه . يا إلهى .

ابعة : عبدة .

عبدة : [فى دهشتها تصيح] .. إن وجهك تعود إليه نضرة الشباب !

[والناى مستمر تسمعه رابعة وحدها]

رابعة : ذلك هو الناى .. وتلك علاماتها .. عبدة .

عبدة : [وصوتها مختنق] .. سيدتى .

عة : أدخلى سفيان يحضر هذه الساعة .

[ثم تنحرط فى مناجاة عميقة وقد خرجت عبدة] ..

ياحبيبى ..

هأنذى صاعدة إليك .

ولكنى خائفة .

ليس من نارك . ولكن من هجرك ياحبيبى

[الناي مستمر]

سفيان : [داخلاً] .. سلام أهل الله .

رابعة : سفيان .. تعال يرحمك الله .. أخبرنى .. ألا تسمع صوت الناى .

سفيان : [لايسمع شيئا فهى وحدها التى تسمعه].. أى ناى ياأم الخير ؟

رابعة : [مشيرة إلى الصوت المستمر] .. هذا .. ألا تسمع ياسفيان ؟

سفيان : وَيْكِ رابعة . أنا لا أسمع شيئًا .

رابعة : [بصوت مختنق بالبكاء] .. حتى أنت يا أخى .

سفيان : لا عليك يا أختاه . إنك اليوم تسمعين مالا نسمع .. وترين مالانرى

رابعة : [والناى مستمر] .

عندما تغمض عيناى .

عندما ترتمى يداى

عندما أنطلق من سجن هذا الجسد

عندما أتحرّر من ترابيتى ..

أطير إليك ياحبيبى على أنغام هذا الناى

وأُزَفّ إليك على ألحانه .

يا أنت

يا أنا

يا هو

ياحبيب .. ياحبيبى [وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة]

عبدة : [تنفجر صارخة وهى ترتمى عليها باكية] .. سيدتى . سيدتى .

سفيان : [فى خشوع] .. كل نفس ذائقة الموت .

عبدة : [تبكى] .

سفيان : إنا لله وإنا إليه راجعون .

[وينبعث صوت الدفوف]

عبدة : [تشهق من الدهشة وتصيح] .. هيه . سفيان .

سفيان : ماذا .؟

عبدة : ياربى .. إنها هى .. هى .. هى والله .

سفيان : هى مَنْ ياعبدة

عبدة : مولاتى .

سفيان : رابعة ؟

عبدة : ألا تسمعُ ياسفيان .. ألا تراها مثلى .

سفيان : إن مولاتك جثة هامدة أمامك ياعبدة .

عبدة : لا . لا . إنى أراها الآن فى ثوب الصِّبا . إن وجهها يضىء .. إنها تبتسم .

سفيان : [فى غاية الألم] عبدة .

عبدة : إنهم يزفونها فى السماء .

عروس فى ثوب العرس . وراءها حوريات من السماء . بأيديهن المزاهر والدفوف .

[ثم تنادى بأعلى صوتها] سيدتى ... سيدتى .

[ترتفع دقات الدفوف فتطغى على صياحها]

* * *

الحوريات : أوْقدوا الشموسْ .. أُنْقُروا الدُّفوفْ[1]
موكبُ العروسْ .. فى السما يطوف
والمنى .. قطوف
انقروا الدفوف

* * *

رابعة : الرِّضا والنُّورْ .. والصبايا الحُورْ
والهوى يدور
آنَ للغريبْ .. أن يرى حماه
يومُهُ القريبْ .. شاطىء الحياه
والمُنى قطوف
فى السما تَطوفْ
انقروا الدفوف

* * *

الحوريات : أوْقدوا الشموس

* * *

رابعة : ياحبيبَ الرُّوح .. تائهٌ مجروحْ
كلُّه .. جروحْ

---

(١) الموسيقى واللحن : محمد الموجى .. والغناء : أم كلثوم .

لائذٌ بالبابْ .. شوقُهُ دعاهْ
والرضا رِحابْ .. يسمل العُفَاهْ
والمنى قطوف
فى السما تطوف
انقروا الدفوف

الحوريات : أوقدوا الشموس .

* * *

رابعة : طافَ بالسلامْ .. طائفُ السلامْ
يُوقِظُ النيام
عهدُهُ الوثيق .. واحةُ النجاهْ
أَوَّلُ الطريقْ .. هو مُنْتَهَاهْ ..
والمُنى قطوف
فى السما تطوف
انقروا الدفوف

* * *

الحوريات : أوقدوا الشموس .. انقروا الدفوف
موكب العروس .. فى السما يطوف
والمنى قطوف
فى السما تطوف
انقروا الدفوف

فهرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٤٢٦٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٩١-٨	ISBN

١ / ٨٥ / ١١٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هـ
٥٠

